

أبي
العلاء
المعري

دراسات



المهرجان الالفبي

لأبي العلاء المعري

دار صادر - بيروت

المجلة
غزواته لطلوالة

2010-02-05
www.alukah.net

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري

يشتمل على وصف المهرجان الذي اقامه المجمع العلمي العربي
لذكرى مرور الف سنة على مولد ابي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والخطب



دار صادر
بيروت

المجلة
غزواته لطلوالة

المقدمة

لو لم يوجد ابو العلاء المعري ، اولو وجد ومات صغيراً ، لما قام مقامه احد ، ولبقي مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً الى الآن ، والى ما لا يمكن تحديده فيما سيأتي من الزمان . والأدباء من هذا النوع قليل في كل امة ، ينفس الدهر بهم على البشر ، ولا يوجد بواحد منهم الا نادراً في مئات السنين .

اجتمع في ابي العلاء من الخصائص ما يعز اجتماعه في اعظم الرجال : نبوغ فطري ، وذكاء نادر ، وشعور رقيق ، وعقل راجح ، وخلق كريم ، وترفع عن باطل الحياة الدنيا فوهب نفسه بما فيها من هذه المزايا للعلم والادب ، ففاز منها بأعظم نصيب .

وكانت الثقافة الاسلامية لعصره قد استبحرت وتشعبت فنونها تدويناً وتأليفاً ووضعاً وترجمة واقتباساً ، كما كانت القرائح الأدبية قد جادت بروائع الشعر والنثر . فاطلع على كل ذلك اطلع تدبر ، واستوعبه واحاط به ، فكان تام الآلة كامل العدة لا ينقصه شيء من ثقافة عصره .

انصرف الرجل عن زخرف الحياة الدنيا الى العلم والادب والتفكير ، فنظم ونثر وآلف ودرّس ، مستقل الرأي ، حر التفكير ، يجهر بما

يعتقد ، ورائده الصدق ، وغايته الحقيقة ، ووسيلته الى ذلك ادبه المتميز
بالإتقان والإبداع و بروز الشخصية .

قد يكون في شعراء العرب من هو أشعر من أبي العلاء ، وقد
يكون في كتابهم من هو أكتب منه ، ولكن ليس فيهم من رمى
من وراء أدبه إلى غاية أنبل من غاية أبي العلاء الذي لم يكن أدبه
أدب المستجدين ، ولا أدب الغواة المستهترين الذين يهيمون بالفن للفن ،
بل كان أدب من يعتبر نفسه صاحب رسالة يدعو إليها ، ويناضل
عنها ، و يقيم الدليل عليها ، بمختلف الوسائل والأساليب ، شعراً و نثراً .
أدب أبي العلاء أدب إنساني سام شامل ، تخطى حدود الأجناس
والأديان والعصور ، فاشترك في اكباره جميع الأجيال ؛ وقد يفهم
منه ابن هذا العصر ما لم يفهمه القدماء ، وستفهم منه الأجيال الآتية ،
مالم نفهمه نحن في هذا العصر ؛ فكلمها تحرر العقل ، وسمت المدارك ،
وتهذبت النفس ، ازداد الإعجاب بأدب أبي العلاء .

ليس في ديوان الأدب العربي ، منشوره ومنظومه ، - على عظمتها
وجلالته قدره - ما يجزي عن أدب ابي العلاء في نبل المقصد ، وتعدد
المناحي ، وقوة الشخصية ، وظهور أثر العلم ، واخضاع الشعر للعقل ،
أوالعقل للشعر ، حتى تجارياً منسجمين ، وتبارياً مؤتلفين . ولعل الافاضة
في التعريف بزياه في هذا المكان ، من الزيادات التي يستغنى عنها ، بعد
أن جمع هذا السفر بين دفتيه بحثاً ودراسات قيمة ، لم تدع مقالاً لقائل .

* * *

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٣ مرَّ على مولد أبي العلاء الف سنة ،
 فرأى المجمع العلمي العربي في دمشق أن يجي من هذه الحادثة
 ذكرى تكون وسيلة للاستقصاء في دراسة أبي العلاء ، والتنقيب
 عن آثاره . فعزم على إقامة مهرجان أدبي عام يفتتح في دمشق في
 اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤) ودعا
 إليه اقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ، وبعض الأقطار الشرقية
 والغربية من يمكن ان تبلغهم الدعوة في هذه الحرب الضروس . ولم يكف
 يعلن عزمه على ذلك ، حتى تجاوزت بهذا الخبر أقطار العالم ، وبالغت
 مصر في تأييد المجمع وموازرتة في هذا العمل ، حتى نزلت له عن
 هذا المشروع بعد أن كانت عازمة عليه .

ولما أظلمَّ الوقت المعين ، وصلت الوفود إلى دمشق فاستقبلهم أعضاء
 المجمع ، واحتفت بهم دمشق حكومتها وشعبها أبلغ احتفاء ، وكانوا
 في مجالس اجتماعهم وندوات سمرهم يثلون المدينة الفاضلة بما بثوه في
 الجو حولهم من أدب العربي وأخلاقه .

وافتنح المهرجان في دمشق تحت رعاية صاحب الفخامة رئيس
 الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي ، واستمر أسبوعاً أقيمت
 حفلاته الخطابية في دمشق ومعرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت
 البلاد أعظم حادث أدبي في تاريخ الأدب العربي ، وكان شغل الناس
 وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الإذاعات اللاسلكية .

حتى اذا انقضى ذلك الأسبوع البهيج وعادت الوفود إلى بلادهم ، ظلَّ نبأ المهرجان حديث النوادي الأدبية في جميع الأقطار العربية ، وظلت الصحف والمجلات تتناول أخباره ، وتتناقل ما قيل فيه ، وتُنشر ما كتب عنه ، مدة لا تقل عن سبعة أشهر . وما نعرف حادثاً في هذه السنين مهما عظم شأنه ، لهج به الناس طول هذه المدة وعُنوا به هذه العناية .

أما ما أُلقي فيه وكتب لأجله من الدراسات والبحوث والتقائيد والخطب ، فمن خيرة ما جادت به قرائح أقطاب العلم والأدب في هذا العصر ، وهو في جملة أجمع وأمتع كتاب بحث عن أبي العلاء في كل نواحيه وأشاد بذكره ، وهو في الوقت نفسه صورة للأدب العربي المعاصر في نظمه ونثره وأساليبه بحثه وبيانه . وكل ذلك مجموع في هذا السفر .

ولئن كان في عقد هذا المهرجان وطبع هذا السفر محمداً ، فالفضل في ذلك لفخامة رئيس الجمهورية السورية ، فهو الذي استحسن الاقتراح ، وأمر بتحقيقه ، ورعاه بعنايته .

خليل مردم بك

الحفلة الاولى

في دمشق

لم يكبد المجمع العلمي العربي يعزم على اقامة المهرجان الاثني لآبي السلاء المعري ، حتى ابتداء الاستعداد له في كل مكان . فهد المجمع إلى لجنته الادارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الاول ١٩٤٤ ، وأن تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماء ومعرة النعمان وحلب والاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العاملين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلة تلتقى في الحفلات الخطابية . ودعت وزارة المعارف السورية ووزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها ، وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، وممثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر . فإي كثيرون منهم دعوة المجمع .

ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع . والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد . وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والاستاذ عبد الحميد العبادي ، والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ أحمد الشايب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدياء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الاستاذ طه الراوي ، والاستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير .

وحضر من فلسطين الاستاذ اسعاف النشاشيبي . ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والاستاذ أنيس النصولي ، والاستاذ أنيس الخوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والاستاذ رثيف خوري . ومن شرق الاردن الاستاذان أديب وهبه ومحمد الشريقي . ومن ايران الاستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الاستاذان الفريد غليوم ، وهنري لاووست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للاذاعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الاوساط العالمية في العاصمة والمدن السورية ، ممن سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

ولقد زارت الوفود في اليوم الاول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والتقى الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة بأسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الأثني ، فتدعو اليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ، ولكن أعظم شاعر انساني انتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله ، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » . فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكرها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي وتوجيهنا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق (أوريان بالاس) أطلق عليها اسم « المائدة العلاءية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الاولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية ، دعا اليها رئيس المجمع العالمي الاستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ،

واساتذتها . واعد في بهو الجامعة للوفود واعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل الخطب وإذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهو بين الاعلام السورية وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار ابي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين . وكانت صدور اعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ؛ وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعويين بأنغامها .

ولما حان موعد الحفلة أقبل نخامة رئيس الجمهورية بمحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدئت الحفلة بالنشيد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي :

- ١ - كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية
 - ٢ - كلمة وزير المعارف
 - ٣ - كلمة رئيس المجمع العلمي العربي
 - ٤ - كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية
 - ٥ - قصيدة الاستاذ مهدي الجواهري ممثل وزارة المعارف العراقية
 - ٦ - كلمة الاستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول
- وكان الناس يستمعون الى الخطباء والشعراء بصمت عميق دلّ على تذوقهم للأدب وميلهم إلى رجاله . وفيما يلي نص الخطب والقصائد التي أقيمت في الحفلة الاولى .

صميل صليبا



كلمة مضمرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

السيد شكري القوتلي

أيها السادة :

لقد أتيح لي في الشهر الفائت أن أفتتح المؤتمر الاول للمحامين العرب ، وقد شعرت يومئذ باغتياب عظيم لمقد مثل هذه المؤتمرات العامة التي ينظم فيها عقد الجماعات المختارة من الاقطار العربية ، فتتذاكر شؤونها ، وتتداول أمورها ، وتحمل إلى ربوعها الدانية والقاصية ما شهدته من منافع لها وما حملته من ذكرياتها وآمالها .

ويسرني الآن أن أفتتح هذا الحفل الكريم ، وأرحب فيه بفريق جليل من أعلام الأمة العربية ، وقادة فكرها ، وحملة أعلامها ، وأقطاب بيانها ، وكبار شعرائها ، ورجال من غير هذه الأمة أولعوا بأدبها ، ودرسوا تاريخها ، وكشفوا القناع عن آثارها ومفاخرها ، فانضم بعضهم إلى بعض لاحياء ذكرى عبقرية من العبقريات العربية مضى عليها الف سنة ، ولكنها عاشت أجيالاً طوالاً ، وستبقى أجيالاً طوالاً . هذه العبقرية هي عبقرية شاعر حكيم لغوي أخلى ذرعه للفكر ، وحبس نفسه للعلم ، فكان يجد ويدب في استجلاء أسرار الانسان ، وإدراك كنه المجتمع ، ويستنبط من حوادث الدهر الفلسفة والسياسة والأخلاق ، حتى طارت نفسه في فضاء بعيد من سلطان العقل المطلق من قيود الالفه والتقليد ، وردد شعره فلسفة جديدة أنكرها فريق وأجلها فريق . ولكن مهما قيل فيها فلا شك في أن صاحبها أحب الحقيقة ، وجعلها شعاره ودثاره .

لقد كان يدعوا إلى الزهد وينكر حب المال وحب الشهوات واستيلاء المطامع ، ويتبرم بالدنيا تبرم الكاره لها المبعض لشرورها ، ويمجب لاستئثار

كلمة وزير المعارف

منذ عشرة قرون خلت شهدت معرة النعمان مولد ابنها البار أبي العلاء
فما كانت لتعلم أو لتعلم أن هذا المولود سيكون له شأن كبير في عالم الشعر
والحكمة وفي دنيا الأدب وان قصائده سيرتها كل لسان ينطق بلغة القرآن
ولم يخطر لها على بال أن ضريحه سيصبح في مستقبل الأيام مزاراً لأعظم
الأدباء وكبار الكتاب والبلغاء وفحول الفصحاء والشعراء يؤمنونه ليضعوا على
مرقده أكاليل من أزهار الشعر وفنون الأدب جادت بها عقولهم وطبائعهم
وصاغتها قرائمهم الفيضة .

سادتي : ودعت دمشق عيداً لتستقبل عيداً جديداً نثرت عليه روعتها
الف عام . دمشق التي عرفت أمجاد بني أمية الأعظمين فاستمعت ربوعها
الى شعرهم الميامين . دمشق التي رددت جنباتها أصداء مجالس الخلفاء وحفلت
معانيها بحلقات الأدباء ستزحف بمن اجتمع من أعظم رجالات الأدب والعلم
من كل قطر عربي الى مرقد أبي العلاء لتؤدي فروض التكريم والاجلال لروح
هذا الفيلسوف الكبير اعترافاً بجميل الصنع وبيض الأيادي .
ان تكريم العطاء في حياتهم والاحتفال بذكراهم واقامة مهرجانات لهم
بعد مماتهم سنة حسنة سنها السلف من أهل العقول الراجحة .

ان دمشق لترحب بجمهرة رجالات الأدب من الطراز الأول وتفخر
لمرور هذه النجوم في سماءها ومن رأى في هذا اليوم البهيج بردى ونهيرات
النيريين تصفق بالرحيق ومن رأى حور دمر والقوطين تتمايل بالقدر الرشيق
عرف أي تحية اكبار واعجاب ترسلها دمشق الى هؤلاء الضيوف الاختيار
وعرف أي عاطفة زهو وغبطة وخيلاء يبعثها هذا الحدث العظيم .

شرفكم ياسادتي لتشاطرونا الاحتفال بهذه الذكرى فأهلاً ومرحباً بالزوار
الاكرام والضيوف الاعظم الوافدين من وادي النيل العزيز وأرض الكنانة

والقادمين من بلاد الرافدين وعاصمة الرشيد أهلاً بأعلام المشرق والمغرب ثم أهلاً فشكراً لكم وللقائمين على هذا المهرجان التاريخي في ظل حضرة صاحب الفخامة الرئيس الأول وفي عهده الميمون تخفق له الأفتدة وترنو إليه العيون .

سادتي الأكارم : هاهي ذي الف عام تنقضي على رسالة شيخ المعرة وهي عامرة في نفوس الناطقين بالضاد باقية لتضيء سبل الأدب والحكمة خالدة على وجه الدهر . فهي خير ذخيرة لرواد الأدب تنير قرائهم وتلهب شعورهم وتصل عقولهم غذاها أبو الملاء من روحه وقلبه ونور بصيرته ستحملون يا سادتي هذا المشعل العظيم الذي خلفه المعري — ومن أحرى منكم بهذا الشرف — من عاصمة بني أمية إلى مرقد ابن الوليد ومن مدينة أبي الفداء الى مرقد المعري فحاضرة سيف الدولة ثم الى الشاطيء السوري . وستشخص اليكم العروبة بأبصارها وتصيخ إلى كلكم بأسماعها .

سادتي : ما كان المعري يحفل بالتكريم في حياته ولكنه واجب في أعناقنا تؤديه نحو الأجداد ودرس يفيد منه الأحفاد نحتفل بذكراه اليوم فالذكرى تنفع المؤمنين وأي نفع عميم توحيه ذكرى الشيخ الحكيم .

ان ذكرى المعري توحى الينا أموراً كثيرة من سياسية واجتماعية وثقافية وترشدنا إلى تقائص عديدة نحن بحاجة ماسة الى المبادرة لاستكمالها . أما السياسة فلها أربابها يعالجونها بقدر ما تسمح لهم الظروف وحسب مقتضيه المصلحة . وأما الناحية الثقافية فمن أجدرها منها منكم فمعالجتها موكولة اليكم وفي ذمتكم وإيجاد الحلول الموقفة لها من خصائصكم . تنتظر الأمة منكم تبيين المناهج لوحدة الثقافة في الأقطار العربية ووضع المصطلحات العلمية والفنية وإيجاد معاجم لها على اختلاف أنواعها ورسم خطة رشيدة للأدب يمكن معها لجيلنا الحاضر أن يشق طريقه على نور هديها وغير ذلك .

كان الأدب ولا يزال القائد الأعلى المطاع في معارك الحرية ووثبات الشعوب .

فيا أمراء البيان وأئمة لغة القرآن عليكم المول في سد هذه الثغرات

واليك المرجع في تدارك هذه الحاجات فالشباب متعطش إلى ما تركم الحميدة
ومتشوق إلى نتائج مواهبكم الحميدة .

سادتي : لم يكن للمعري في حياته شغف في السياسة ولم يلتفت إليها بل
كان منصرفاً بمجموعه إلى الأدب والشعر والفلسفة ولكن الأحداث
والوقائع التي كانت تجري حوله لم يغب عنه أثرها ولم يكن مرتاحاً إلى
نتائجها وعواقبها . كان يشعر بتفكك في عرى الوحدة العربية وبضعف في
سلطان الخلافة والملك . فمن ذلك الضعف والتفكك نشأت دويلات عديدة
كانت إلباً على بعضها . هذا ما أثار نفس أبي العلاء الحساسة وألهب
شعوره فأرسل صيخته ندوي في الآفاق مردداً هذه الأبيات :

ولو أني حيت الخلد فرداً لما أحيت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

هذه دروس ومواعظ القاها المعري على الناس وخلدها للأجيال القادمة
فاستحق منها كل اجلال وتكريم واستحقت ذكراه التخليد والتأييد .
إن عيدنا الأكبر يا سادة : هو اليوم الذي تتحقق فيه أمنية هذا الشيخ
الحكيم ألا وهي الوحدة العربية الشاملة . فيرحمك الله يا أبا العلاء رحمة واسعة
ويجعل مقرك الجنان وسلام الله على روحك الالية وسلام عليكم أجمعين .

نصوهي البخاري



كلمة رئيس المجمع العلمي العربي

سادتي ، سيداتي :

الاحتفاء بأبي العلاء ، والاشادة بذكراه ، دعوة إلى الأدب في أبل غاياته ، وأعف مقاسده ، وإلى الأخلاق الكريمة ، والانسانية في مثلها العليا . فلقد كان أبو العلاء داعية رشد وسلام ، دعا إلى عالم يستملي نظمه من عقل الحكيم ، وقلب الشاعر ، وورع الزاهد ، وتقوى العابد ، ونزاهة المخلص ، يظهله الاخاء والسلام ، وينكر التظالم والخصام .

لقد مثل أبو العلاء الأدب العربي أشرف تمثيل في حياته وسيرته وآثاره ، وكانت ذكراه بعد الف سنة من مولده مظهراً من أشرف مظاهر الأدب العربي ، اشتركت بها الدول العربية وسعى اليها وسام فيها الصفوة من أعلام العلم والأدب في الأقطار العربية ، وشاركهم في هذا العمل نجبة من كبار المستشرقين . فسيخطب الخطباء ، وينشد الشعراء ، ويتلو الباحثون العلماء في حفلات هذا المهرجان بدمشق والمرة وحلب واللاذقية ما لا يدع مقالاً لقائل ولا مجالاً لجائل في أبي العلاء وما اليه ، فضلاً عن البحوث والفصول والقصائد التي بعث بها من لم يقيسر لهم الحضور ، فلهم جميعهم جزيل الشكر ، من سعى بنفسه وتبحم مشاق السفر ، ومن بعث بالبحوث الممتعة .

لم يكد المجمع العلمي يقترح على الحكومة عقد هذا المهرجان حتى ربح به فضامة رئيس الجمهورية وشمله برعايته وعطفه وافتتحه بنفسه ، وشاء أن تسام بشرف الحفاوة به جميع البلاد الشامية ، لما في ذلك من تكريم الفضيلة والأدب ، وشد عرى التعارف بين مفكري العرب ، فأضاف إلى مآثره العديدة هذه المآثرة الجليلة .

كانت تبشير اجتماع كلمة العرب وجمع شملهم تلك الاسواق الأدبية التي

كانوا يمقدونها قبيل الاسلام ، يتبارى فيها الشعراء والخطباء . وهذا المهرجان بما سطع فيه من مصابيح العلم والأدب في الأقطار العربية ، مجتمعين في صعيد واحد ، لغاية واحدة ، رمز لاجتماع الكلمة وجمع الشمل . « والتاريخ يمد نفسه » كما يقولون ، « وما أشبه الليلة بالبارحة » كما نقول .

وانه لمن يمن هذا المهرجان وسعد طالمه أن يتفق عقده في دمشق وعقد مؤتمر الوحدة العربية في الاسكندرية في يوم واحد ، وقد بدت تبشير السلام تكشف دياجير الحرب ، وتطلعت النفوس الى عالم كعالم أبي العلاء مبني على الحق والرافة والمواخاة الانسانية .

قال كارلايل في كتاب الابطال : (لو خيرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند ، لقلنا سواء أحكنا الهند أم لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير . فسيجيء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً) .

وهذا يوم نرى فيه أدب أبي العلاء من شعر وثر ، وسيلة لاجتماع مفكري العرب ما بين المغرب الأقصى واليمن ، ورمزاً لتوحيد كلمتهم وانتظام عقدهم ، وآية لجمع الشمل ووصل الجبل ان شاء الله .

محمد كرد علي

الفصول والغايات

سيدي صاحب الفخامة الرئيس

سيداتي وسادتي

لو استشير ابو العلاء في هذا المهرجان الذي تقيمه الآن احتفالاً بعيده الالني لما حفل بالعيد ولا أقر المهرجان فقد كان ازهد الناس في هذه المظاهر وأشدم انصرافاً عنها ونفوراً منها . ولكنه من غير شك كان يرضى بعض الرضى عن هذا الحفل الذي يقام لاحياء الأدب في ظل الدولة التي كان يتمناها ويدعو اليها ولكنه لا يظفر بها ولا ينتظر أن يكون الظفر بها قريباً . في ظل الدولة التي لا يظلم زعمائها الرعية ولا يستجيزون كيدها ولا يمدون مصالحها وهم اجراؤها .

أظن ان هذه الصفة من صفات المهرجان هي التي كانت ترضى ابا العلاء وتملاً قلبه الحزين البائس غبطة وسروراً . فقد كان أبو العلاء ابد الناس عن الاثرة وأقربهم الى الايثار وأشدم نقداً للناس وأعظمهم رحمة للناس ايضاً . ورحمته للناس وشوقه الى أن يراهم ناعمين في ظل العدل والامن والسلم هي التي كانت ترضيه عن هذا المهرجان الذي تقيمه سورية في ظل حكومتكم العادلة الكريمة الطامحة الى المجد الموقفة من الخير الى ما تريد سورية وإلى ما يريد العرب لهذا الوطن الكريم .

والواقع أن من حق سورية أن تقيم هذا المهرجان وان تحتفل بذكرى ابي العلاء وتحيي عيده الالني . فأبو العلاء نايبة الادب العربي غير مدافع وهو فذ في هذا الادب لم يسبقه مثله ولم يلحقه مثله ، وانما كان منحة فريدة اتيح له أن يمتاز بشمره وعلمه وفنه وفلسفته وسيرته من جميع الذين سبقوه أو جاؤا بعده من الابداء .

هو نابغة الأدب العربي غير مدافع وهو في الوقت نفسه سوري خالص تستطيع سورية أن تفاخر به لا ينازعها فيه قطر من أقطار البلاد العربية ولا يخاصها فيه مصر من أمصار البلاد العربية .

فقد كان لسورية قبل أبي العلاء حظ عظيم من المجد الادبي وفضل عظيم على الادب العربي . وكان لها شعراء يمتازون في تاريخنا الادبي المجيد ولكنهم لم يخلصوا لها كما خلس لها أبو العلاء . فلسورية أبو تمام والبحري بل يمكن أن يضاف اليها المتني ايضا . ولكن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد نازعت فيهم أقطار أخرى فابو تمام قد ذهب إلى مصر وإلى العراق والبحري قد ذهب إلى العراق والمتني قد جاء من العراق وعاد اليه وكلهم تأثر بهذه البيئات البعيدة من سورية وأثر فيها بحيث استطاعت هذه البيئات ان تضيفه الى نفسها وان تفاخر به .

أما ابو العلاء فهو الشاعر السوري الخالص ولد في سورية ونشأ فيها وتوفي فيها ولم يغب عنها الا وقتا قصيراً ذهب فيه الى العراق ولكن دون ان يكون محتاجاً الى هذه الرحلة لتكوين شخصيته او إتمام نضجه أو تحقيق شهرته . وأبو العلاء يحدثنا وهو صادق اذا تحدث بأنه لم يحتج الى استاذ ولا معلم منذ بلغ العشرين ونحن نعلم انه رحل إلى العراق حين قارب الاربعين وان شهرته كانت قد سبقته الى بغداد قبل أن يصل اليها بزمن طويل .

فمن حق سورية اذن أن تستأثر بابي العلاء وأن تفخر بأنها قد منحت الادب العربي نابغة الفذ . ولكن سورية كشاعرها الفيلسوف تكرة الاثرة أشد الكره وتحب الايثار اعظم الحب وهي من أجل ذلك لا تفاخر ولا تكأثر وانما تدعو الاقطار العربية وغير الاقطار العربية لمشاركتها في أحياء عيد أبي العلاء لا لأنه مجد سورية بل لانه مجد العروبة ومجد الانسانية كلها .

وقد أقبلت وفود هذه البلاد العربية تكرم أبا العلاء في سورية وتكرم سورية في أبي العلاء وإني يا صاحب الفخامة لمعظم الحظ من السعادة والغبطة حين أحمل اليكم وإلى سورية وإلى اخواننا الذين يشاركون في هذا المهرجان تحية مصر صادقة خالصة يملؤها الوفاء والاخاء . وحين أعلن ان مصر قد

قدرت من سورية هذه العاطفة الكريمة وهذا الوفاء النبيل للمجد العربي وهذا الحرص الكريم على احياء هذا المجد باقامة هذا المهرجان . وقد رأت مصر أن تشارك سورية في احياء هذا المجد العربي القديم مشاركة متواضعة فقررت حكومتها ان تنشر آثار ابي العلاء أو بعبارة ادق كل ما يمكن الحصول عليه من آثار أبي العلاء نشرها علمياً صحيحاً وبدأت في ذلك بالفعل وحرصت على أن يأتي وفدنا الى هذا المهرجان ومعه باكورة هذا العمل الذي لن يتم في عام أو أعوام قليلة ولكنه سيحتاج الى الجهد المتصل والوقت الطويل . . . ويسر مصر ان تقدم الى المهرجان أول جهدها في هذا الموضوع وهو هذا المجلد الذي يشتمل على ما أمكن جمعه مما كتب القداماء حول أبي العلاء .

فقد رأت مصر ان يكون هذا المجلد مقدمة صالحة لآثار ابي العلاء يستطيع العلماء ان يمتدوا عليه إذا أرادوا أن يدرسوا حياة شيخ المعرة ويعرفوا آثار القداماء فيه . ثم رأت مصر ان تكون مشاركتها في احياء ذكرى ابي العلاء متصلة بشخصه وبلده وقد علمت ان سورية قد جددت قبر الشيخ وأقامت الى جانبه مكتبة فقررت أن تشارك في هذه المكتبة وكلفني وزير المعارف ان أعلن ان الحكومة المصرية تبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السوروية بعض ما تحتاج اليه هذه المكتبة من الكتب .

والآن أريد أن أحدثكم عن كتاب الفصول والغايات وآسف أشد الاسف لأن الوقت لن يسمح لي بأن أحدثكم عنه فيما أحب من تفصيل بل فيما يستحق من تفصيل . فكتاب الفصول والغايات من أعظم آثار ابي العلاء خطراً في تاريخ الادب العربي ولعله أن يكون اعظم هذه الآثار خطراً في تاريخ الحياة اللائية نفسها . وأول ما أحققه من ذلك هو أن كتاب الفصول والغايات ، يؤرخ لنا فلسفة أبي العلاء تأريخاً دقيقاً وليس هذا بالشيء القليل . فابو العلاء يثبتنا بأنه قد كان ينتظر الخير ويرقبه دون أن يظفر به حتى اذا بلغ الثلاثين ولم يبلغ ما كان يريد وجه حياته وجهة جديدة (١)

وإذن فلم يطلب أبو الملاء فلسفته في بفسداد ولم يجدها فيها وإنما ارتحل بها الى بفسداد وعاد بها الى المعرة لم يضيف اليها إلا هذه السيرة العملية الشديدة التي ألزمته داره . فاما ما عدا ذلك من فلسفته النظرية والعملية فأكبر الظن انه قد دفع اليها شيئاً فشيئاً ثم ألزمتها منذ بلغ الثلاثين اي قبل رحلته الى بفسداد ببضع سنين .

وهذه الفلسفة الملائية نفسها معروضة في كتاب الفصول والغايات عرضاً واضحاً اشد الوضوح غامضاً اشد الغموض ان صح هذا التعبير فأبو الملاء كما تعرفون رجل اتعب نفسه واتعب معاصريه واتعب الناس بعمده وسيظل يتعبهم الى آخر الدهر لأنه على صرامته وصراحته واستقامته في حياته العملية لا يسلك الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه وإنما يلتوي بها اشد الالتواء يصرح حيناً ويؤمى أحياناً وهو معلم بطبعه وهو شديد على نفسه وعلى الناس وكل هذا يجعل عباراته غامضة ملتوية ويشغلنا بالفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه وبفنه عن دخيلة نفسه ومع هذا كله فان فلسفته معروضة في الفصول والغايات عرضاً حسناً للذين يستطيعون ان يصابروه ويحتملوا صحبته الحلوة المرة اليسيرة الشاقة . وليست هذه الفلسفة الا فلسفة ابيقور قد لام بينها وبين بيئته الاسلامية ملاءمة رائمة حقا حتى خدع عنها كثيرا من الناس فظنوها اسلامية خالصة ورأوا فيها مذهباً موروثاً من مذاهب الزهد والنسك .

وأكبر الظن ان فلسفة ابيقور قد وصلت الى ابي الملاء من طريق الطب اليوناني ومن طريق طب جالينوس بنوع خاص فقد كان ابو الملاء معجباً اشد الاعجاب بجالينوس قرأ طبعه مترجماً الى اللغة العربية ومفصلاً في كتب الطب العربي وهذه الفلسفة الملائية الابيقورية تقوم قبل كل شيء على انكار الملة الغائية التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالأشياء لم تخلق بهذه الغايات التي نرى انها خلقت لها . وكان من الممكن ان تخلق على غير صورها المعروفة ، وكان من الممكن أن ينظر الانسان بقدميه ويشم بمنكبيه

ويكي باصابعه . واذن فالعالم لم يخلق لنا والطبيعة لم تسخر لحاجتنا واذن فلا ينبغي ان نستحل منها كل ما نستحل ولا أن نستأثر بخيراتنا لانفسنا ولأن نؤلم الحيوان لذتنا ولا أن نظامه لمنفعتنا . فليس حقنا في الحياة بأكثر من حقه وليس لنا عليه هذا السلطان الذي نتحلله لانفسنا .

انما هذا كله غرور جاءنا من هذه الاثرة التي خيلت الينا ان العالم خلق من اجلنا وسخر لمنفعتنا هذا هو الاصل الاول من أصول الفلسفة الملائية التي نجدها في كتاب الفصول والغايات . والاصل الثاني هو أن من حقنا ان نستمتع بالذات الى أقصى حد ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل اليه لأنه لا يصح ولا يستقيم الا اذا خلا من الالم والظلم والعدوان . وليس الى هذا سبيل . واذن فالانصراف عن هذا الاستمتاع هو الخير كل الخير وهو الحق على الرجل الذي يعرف ما يأتي وما يدع . والاصل الثالث ان هذا العالم لم يخلق نفسه ولم يخلق عبثاً وانما خلقه إله ليس في وجوده شك وخلقته لحكمة ليس فيها شك ولكن عقولنا لا تعرفها ولا تستطيع ان تعرفها لأنها لم تمنح وسائل هذه المعرفة كما ان اجسامنا لم تمنح السلم الذي يوصلها الى الثريا .

هذه هي الاصول الاساسية لفلسفة ابي العلاء وهي كلها معروضة عرضاً دقيقاً في الفصول والغايات ولكن الوصول اليها شيءٌ دونه أهوال . أهوال تأتي من اللغة ومن الاسلوب ومن حرص ابي العلاء على ان يكون معلماً وبراعته في هذا التعليم . فليس الفصول والغايات كتاب فلسفة فحسب ولكنه كتاب لغة قبل كل شيء أو كتاب تعليم للغة . هو مذهب من مذاهب الأمالي والمقامات التي يقصد بها اصحابها الى استعمال الالفاظ في معانيها اللغوية المختلفة بحيث يكون استظهار الطلاب لها يسيراً . ثم هو بمد هذا كله أو قبل هذا كله ان شئت كتاب وعظ وارشاد وتمجيد لله وإشادة بقدرته وحكمته فليس فيه فصل الا وفيه كل هذه المعاني وليس فيه فصل الا وهو يقصد به الى كل هذه الاغراض والكتاب على هذا كله كتاب ادب بالمعنى الرفيع لهذه الكلمة . فيه فن رائع لا يجده عند غير ابي العلاء من الكتاب ، فيه تصوير للطبيعة على نحو ما صورها شعراء

الطبيعة من الجاهليين والاسلاميين ، وفيه تصوير للسماء على نحو ما صورها شعراء القدماء من جهة وأصحاب النجوم والفلك من جهة أخرى . وفيه تصوير للضمير ودخيلة النفس وما يثور في القاب من عاطفة وما يضطرب فيه من أماني وما يؤذيه من حرمان وما يحظر للعقل من خاطر وما يؤلمه من اليأس حين يعجز عن الوصول الى الحق وما يرضيه من هذه المتعة التي يجدها حينما يظفر ببعض الحق . كل هذا في كتاب الفصول والغايات ، وفيه أكثر من هذا ، فيه التزام ما لا يلزم فتأليف الكتاب على حروف المعجم لم تدع اليه ضرورة وانما هو شيء فرضه أبو العلاء على نفسه لينستقصي ما يستطيع استقصاءه من الفاظ اللغة وليأخذ نفسه بهذه اللذة المؤلمة والمشقة الحلوة التي يجدها الانسان حين يكلف نفسه ما لا يطيق الناس ثم يرى انه ينهض بهذا التكليف في قوة وأيد وقهر للمصاعب واقتحام للعقاب .

وقولوا مثل ذلك فيما يلتزمه في السجع والغايات من القيود المخرجة ، بل فيما يلتزمه حين يلائم بين الكلمات في أثناء الفصل الواحد من القيود التي لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك عن شيتين أما أولهما فقد تساءل عنه القدماء واختلفوا فيه اختلافاً مصدره الحب والبغض وهو هل أراد أبو العلاء في كتاب الفصول والغايات إلى معارضة القرآن ! فأما أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تمهل فقد كان أبو العلاء أذكي قلباً وأرجح عقلاً وأنفذ بصيرة وأشد تواضعاً وأحسن علماً بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد اليها . ولكنه كان كغيره من أدباء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية فليس من شك في أنه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات . يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا لا يجحد فيه ولا نمجد فيه نحن جرحاً ولا جناحاً .

أما السؤال الثاني فلا أعلم أنه خطر لأحد من القدماء وهو مع ذلك سؤال له خطره في تاريخ أبي العلاء . فأبي الكتابين سبق صاحبه الى الوجود ، وكان أصلاً له ومؤثراً فيه . الفصول والغايات ام اللزوميات . اما انا فأكاد

اقطع بأن الفصول والغايات هو الذي سبق إلى الوجود، وهو الذي أنشأ اللزوميات انشاءً وما بين أيدينا من كتاب الفصول والغايات كله يدل على ذلك دلالة قاطعة. فأبو العلاء يلتزم ما لا يلزم على نحو من الانحاء في الكتاب كله وفي قوافيه بنوع خاص. واكبر الظن أن أبا العلاء قد حاول التزام ما لا يلزم في كل شيء من حياته وفي إنتاجه الأدبي حتى أصبح هذا الفن له ملكة كأنه طبع عليها فكان يؤدي في هذا الفن ما يريد أن يؤديه من المعاني شعراً أو نثراً ولكنه بدأ بالتزام هذا الفن في النثر رغبة في التلميم وتيسيراً على الطلاب. أترون أن أبا العلاء على كثرة ما اختلف الناس فيه قد كان فياسوف الرأي والحياة وكان مع هذا كله أديباً عالماً شاعراً كاتباً طرق من فنون الأدب والعلم العربي الاسلامي ما لم يتح لأديب غيره أن يطرقه فجنى بذلك على نفسه وجنى على الناس. جنى على نفسه حين حير الناس في أمره فزعم له بعضهم الفلسفة ونفى عنه الشعر وزعم له بعضهم الشعر ونفى عنه الفلسفة ويوشك قوم من الناس أن ينفوا عنه الشعر والفلسفة جميعاً وجنى على الناس بهذه الحيرة التي اضطرم اليها وورطهم فيها فاختلفوا وما يزالون يختلفون وسيظلون يختلفون في أمره. أشاعر هو أم فيلسوف! أكاتب هو أم عالم أم معلم! والواقع أنه قد جمع هذه الخصال كلها وجمعها على أحسن شكل وأجمل انسجام وأروع فأخذ من الشعر خلاصته ومن الفلسفة الانسانية صفوتها ومن علوم اللغة وآدابها ما لم يجتمع لأحد غيره من العلماء والأدباء وجنى على نفسه وجنى على الناس، ولكن أي نابغة لم يجن على نفسه ولم يجن على الناس. أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى بنبوغته ليسعد الناس أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى على الناس ويكلفهم من أمره وأمرهم شططاً ليعبوا ويمجدوا ويظفروا وينتجوا ويستمتعوا. وهل تظنون أننا كنا نستطيع أن نجتمع لهذا المهرجان لو لم يشق أبو العلاء على نفسه وعلى الناس.

طه حسين



الفيلسوف الحر

قف بالمرّة وامسح خدها التراب
واستوح من طيب الدنيا بحكمته
وسائل الحفرة المرموق جانبها
يا برج مفخرة الأجداد لا تهني
فكل نجم تمضي في قرارته
والملمهم الحار الجبار هل وصلت
وهل تبدلت روحاً غير لاغبة
وهل تخبرت ان لم يأل منطلق
أم أنت لاحقاً تدري ولا مقة
وهل تصحح في عقبك مقترح
نور لنا ، اننا في أي مدج

* * *

أبا العلاء ، وحتى اليوم ما برحت
يستزل الفكر من عايا منازل
وزمرة الأدب الكبّبي بزمرته
تصيد الجاه والألقاب ناسية
من قبل الف لو انا نبتني عظة
صناجة الشعر تهدي المترف الطربا
رأس ليمسح من ذي نعمة ذنبا
تفرقت في ضلالات الهوى عصبا
بأن في فكرة قدسية لقبنا
وعظتنا أن نصون العلم والأدبا

* * *

على الحصير وكوز الماء يرفده
أقام بالضجة الدنيا وأقمدها
ودهنه ورفوف تحمل الكتبنا
شيخ أطل عليها مشفقاً حدبا

- ٢٦ -

بكي لأوجاع ماضيها وحاضرها
وللكآبة ألوان وأفجمها
تناول الرث من طبع ومصطلح
وألهم الناس كي يرضوا مغنبتهم
وان يمدوا به في كل مطرح
لثورة الفكر تاريخ يحدثنا
ان الذي ألهب الأفلاك مقوله
لم ينس ان تشمل الأنعام رحمته
حنا على كل منصوب فضمه

* * *

سل المقادير هل لازت سادرة
وهل تعمدت ان أعطيت سائبة
هذا الضياء الذي يهدي لمكنه
فان فخرت بما عوضت من هبة

* * *

تلمس الحسن لم يمدد بمبصرة
ولا تناول من ألوانها صوراً
لكن بأوسع من آفاقها أمداً
بعاطف يتبى كل معتلج
وحاضن فزع الأطياف أنزلها
أهوى على كوة في وجهه قدر
وقال للعاطفات العاصفات به
الآن يشرب ما عتقت لاطفحاً
الآن قولي اذا استوحشت خافقة
هذا البصير يرينا بين مندرس
زيمية الليل تروي كيف قلدها

أم أنت خجلى لما أرهقته نصبا
هذا الذي من عظيم مثله سلبا
لصاً ويرشد أسمى تنفت العطبا
فقد جنيت بما حملته العصبا

ولا امترى درة منها ولا حلبا
يصد مبتعد منهن مقتربا
رحباً ، وأرهف منها جانباً وشبا
خفاقه ويزككه إذا انتسبا
شعافه وحبها معقلاً أشبا
فُسد بالظلمة الثقبين فاحتجبا
الآن فالتمسي من حكمه هربا
يمحشى على خاطر منه ولا حببا
هذا البصير يرينا آية عجبا
رث العالم ، هذا المرتع الخصببا
في عرسها غرر الأشعار لا الشببا

لعل بين العمى في ليل غربته
وساهر البرق والسمار يوقظهم
والفجر لو لم يلد بالصبح يشربه
والصبح ما زال مصفراً لقرنه

* * *

يا عاريا من نتاج الحب تكرمة
نموا عليك ، وأنت النور ، فلسفة
وحلوك ، وأنت النار ، لاهبة
لاموجة الصدر بالهدين تدفمه
ولا تدغدغ منه لذة حاملاً
حاشاك ، انك اذكى في الهوى نفساً
لا اكذبك ان الحب متهم
كم شيع الأدب المفجوع محتضراً
صرعى نشاوى بأن الخرد لعبتهم
ارتهم خير مافي السحر من بدء
عاني لظي الحب بشار وعصبته
وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا
هل كنت تخلد اذ ذابوا واذ غبروا
تأبى انحلالاً رسالات مقدسة

* * *

يا حافر النبع مزهواً بقوته
وشاجب الموت من هذا باسمه
ومحرج الموسر الطاغى بنعمته
والتاج اذ تحدى رأس حامله
وهؤلاء الدعاة الماكفون على
وناصراً في مجالي ضعفه القربا
ومستمدداً لهذا ظله الرجا
ان يشرك المسر الخاوي بمانها
بأي حق واجماع به اعتصبا
أوهامهم ، صنم يهدونه القربا

أبو المراء الممرى

شاعر أم فيلسوف ؟

- ١ -

بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة . فكلاهما يمتد على الحقيقة . ويحاول ادراك الاشياء ادراكاً حراً صحيحاً عميقاً . ثم يعرضه بأسلوبه الخاص . فإذا كان الفيلسوف يجعل همه درس الاشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الامور ومعالجتها فإن هم الشاعر أيضاً أن يظفر بهذا الدرس نفسه ثم يؤدي ثمرته فكراً صائباً وشعوراً صادقاً .

- ٢ -

هذا هو الاصل العام الذي يجمع بين الشاعر والفيلسوف . ومنه يظهر أن موضوعهما واحد : الله ، والانسان ، والطبيعة . وإذا كان هناك ما يميز بينها فذلك يكون في الطريقة . طريقة التناول والاداء . فالفيلسوف يؤدي الحقيقة عارية خالصة . والشاعر يؤديها مغمورة في الشعور .

والفيلسوف يتناول الاشياء مؤثراً باحثاً مقررراً والشاعر يتناولها متأثراً ناقداً مصوراً . كل منها يعالج الشعور الانساني . إلا ان الفيلسوف يدرسه مستقلاً عن عقله كأنه مادة حسية خاضعة للتحليل الكيمياوي ولكن الشاعر يعالجه ممزوجاً بعقله ويضيفه على فكره ليذنيه فيه . فالشعور عند الاول سيء خارجي بخلافه عند الثاني .

كذلك الخيال فإن كان فروضاً علمية فهو اداة الفيلسوف وإن كان 'مصوراً' مبداً كان لغة الشعور وميزة الشاعر ،

بقيت لغة الرجلين . فاللغة عامة رموز مبهمه قاصرة لا ضبط لمدلولاتها إلا في الأعلام وأسماء الأماكن . أما المدلولات المعنوية فلا تستطيع اللغة ضبطها ضبطاً دقيقاً بهذه الألفاظ . ومع ذلك فلغة الفيلسوف أدق دلالة وأضيق تحديداً وأكثر اصطلاحاً لاعتمادها على معانيها الوضعية أو القاموسية ، ولكن لغة الشاعر دونها في هذه الأوصاف لأنها تؤدي معاني ثانوية لازمة يحملها عليها الشاعر بما يتصوره في الأشياء ، لذلك كان من حق الشعراء أن يجوروا في مدلولات الألفاظ تحويراً واسعاً لتستوعب المعاني الفنية التي تدور في نفوسهم . ومن هنا كان الخطر الكامن في تفسير الشعر بهذه اللغة العادية التي ترد في المعاجم .

كل من لغتي الشاعر والفيلسوف أدنى إلى القصد والابحاز إلا أن إيجاز الشاعر من باب الرمز والاكتفاء وإيجاز الفيلسوف من باب المطابقة والتحديد الدقيق . لغة الفيلسوف مقيدة لأنها وسيلة ولغة الشاعر أكثر حرية إذ هي عناية لا بد أن يتوافر لها قسط من الجمال الموسيقي الذي يلائم ما تؤديه من شعور صادق وحقيقة ناصعة . وأخيراً لاغنى للشعر عن الفلسفة ليكون قيم المعاني خالداً بجانب جماله الفني الأصيل وعلى الشاعر أن يكون فيلسوفاً أولاً ليقم فيه على أساس من الصواب والعمق ، فإذما دخلت الفلسفة مجال الشعر وخضعت لصياغته الفنية صارت سهلة مستساغة . وامتزاجها معاً هو المثال الكامل في الآداب . وهنا نذكر ما قاله ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فإن وقع فيه شيء منها فيقدر . ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا مثكاً واستراحة . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له لا ما سواه » . (١)

وهذا النص يوحي إلينا بأمور :

منها أن مقياس الشعر الأول هو الانفعال وأما الثقافة أو الافادة فليست من باب الشعر على حد تعبير ابن رشيق .

(١) المدة ٤ ج ١ ص ٨٣ مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧

ومنها أن الفلسفة لذلك أدب آخر غير أدب الشعر لقيامها على النفعية العقلية . وخير لها الا تتصل بالشعر إلا لماماً ما دامت غير مؤثرة ولا مطربة . ومنها ان النقاد السابقين فهموا الشعر على انه ضرب من التصوير غايته التأثير واتخذوا البحتري مثال ذلك بخلاف الحكيمين ابي تمام والمتنبي . ولعل الجاحظ من شيوخ هذا الرأي .

وعندنا أن هذا الرأي يذكر للشعر صفة أساسية هي أظهر صفاته ولكنها ليست وحدها أهم ما فيه فان جانب الفكرة خطير في الشعر لا يستقيم له تأثير بدونه . . . والواقع أن الشعر ضرب من التفكير والتصوير والتعبير . فإن أراد ابن رشيق بالفلسفة هذه الحكمة العارية والتقرير العلمي فله عذره ولأدري إذا كان قد وضع نصب عينيه هو هذه الصور الثلاث في الشعر العربي

- (١) صورة البحتري بجمال تصويره وحسن تعبيره .
- (٢) وصورة المتنبي بحكمته الشائمة وعبارته القوية .
- (٣) وصورة المعري بفلسفته الخالصة وأسلوبه التقريري .

- ٣ -

وإذا رجعنا الى تاريخ الشعر العربي لم نجده يخلو من النظرات الفلسفية في كل خطواته لأن التفكير الشعري هو تفكير فلسفي أيضاً . ولكننا نقصد الآن إلى الاشارة الحافظة إلى بعض المعالم الواضحة التي عالج فيها الشعر العربي رأياً واضحاً أو مذهباً مستويماً من جانب الفلسفة .

(١) ومن أقدم ما عرفنا من ذلك ما قال طرفة بن العبد في معلقته إذ تناول بأسلوبه الشعري مذهب في الالحاد والشك في الآخرة والسخرية بالمتحرجين حوله . والحرص على اللذة متهاكماً عليها . ولقد كان طرفة في عرضه هذا مثال الشاعر الذي جمع بين وضوح المذهب وقوة العقيدة وصدق الشعور ، وكان لذلك صدهاء في أسلوبه الموسيقي الرائع . وكان امتزاج الفلسفة بالشعر عنده مثالا كاملاً عرفناه فيما بعد عند أبي نواس من المستهترين .

ومن المناسب ان نذكر هنا زهير بن أبي سلمى حين دعا إلى السلم أيام الجاهلية الحمراء ثم طائفة الصماليك من الشعراء الذين ناروا على اثره الاغنياء في الجاهلية وصوروا زعتهم هذه بشعر قوي جميل .

(٢) وفي القرن الثالث الهجري لما أخذ الشعر في سبيل الحضارة ظهر أبو تمام وأخذ يفلسف الشعر وإن لم يكن هو فيلسوفاً وبذلك صار رأس أصحاب المعاني في الشعر .

ظفر أبو تمام بثقافة ممتازة من فلسفة ولغة ودين ونحو وأدب وتاريخ وعقائد وقد ظهرت معالم ذلك في شعره .

ثم وهب ذكاء نادراً ، وحساً دقيقاً ، وإخلاصاً لفن الشعر عميقاً يتكى فيه على نفسه ويذيب له مخه في سبيل تنميته وتجويده وتوليد معانيه ليكون فناً جميلاً نافعاً يجمع بين جمال التصوير وعمق التفكير .

لذلك شاعت في نظمه معان غريبة وحكم منثورة في ثنايا قصيده فعد بذلك أحد الحكميين وصاحب مذهب التجديد لما عد البحترى شاعر المحافظة أو عمود الشعر .

ولكن أبا تمام أصيب بعد ذلك بالغلو في البديع فاعتمد على الجناس والطباق ، والاستعارة فوق الغريب من اللفظ والطريف من المعاني فأفسد بتكلفه هذا قسماً من شعره غير قليل ، ولعل هذا التكلف كان خطوة أولى للزوميات أبي العلاء وإن اختلف التكلف بينهما ففرده عند أبي تمام الترقيش الفني وعند أبي العلاء الرصف اللغوي .

وبذلك اجتمع في شعر أبي تمام خواص كونت شخصيته الفنية من معان جديدة ، وصور بديمة . وألفاظ غريبة ونقل للشعر من فن للتصور إلى فن للتصوير والتفكير . والذي يعيننا هنا أنه كان خطوة جريئة في استحالة الشعر العربي — أو الاسلامي — لما زواج بين الفكرة الفلسفية وبين الصياغة الفنية ولقي عناء ذلك لاأخذه المسألة بقوة صارمة ، فهذا شيء . . . وشيء آخر هو أن حكيمته قليلة منثورة في قصائمه وأن الفلسفة عاشت عنده على هامش الشعر لم تغمره ، وان ذكاه كان العامل المباشر في معانيه التي

سماها الناس فلسفة ، وأنه لم يحفظ للشعر مكاتته فتكسب به ، وإن حفظ له صنعته الدقيقة كما قال : —

خذها مثقفة القوافي ، رهبا لسوانح النماء غير كنود
 حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
 كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود
 كشقيقة البرد المنعم وشبه في أرض مهرة أو بلاد تزيد
 (٣) وجاء القرن الرابع ومعه المتنبي تلميذ أبي تمام فظفر كذلك بثقافة
 عريضة لغوية ، ودينية وصوفية وفلسفية فوق ما أفاد من تجارب وألم
 من حكم أرسطو .

وقد تمثل هذه الثقافة في ديوانه وصارت الحكمة أو المعاني الفلسفية
 جزءاً من كيان فنه الشعري تحيا داخله وتقومه وبذلك نجد الفلسفة عنده
 أدخل في الشعر منها عند أبي تمام كما نجدها محافظة على قواها إلى درجة
 ملحوظة . فالتناسخ والحلول والمجوسية والمانوية وغيرها صريحة عنده يوردها
 مرتبطة بمعاني الشعر على أنها أقيسة فنية أو براهين منطقية .

وكذلك الشأن في حكمته التي اكتسبها من تجاربه أو اقتبسها من المعلم
 الأول ، فانها ترد في ثنايا قصيده ذات اعتبارين : مستقلة أو كأنها مستقلة في
 صياغتها الفلسفية فهذا وجه ، ثم هي خاضعة لتيار القصيدة العام ولجوها ، وهذا
 من شأنه أن يكسبها إلفاً ويخفف من طبيعتها الأصلية .

وأسلوب المتنبي لم يسلم هو أيضاً من الغريب البدوي ، والاصطلاح العلمي ،
 والشذوذ في العبارة حتى غاظ النحاة وأعنت اللغويين ، وصار له نحو خاص . . . ،
 ذلك لانحراف عبارته عن الصياغة المألوفة حتى قال أنصاره إن صناعته كوفية . . .
 ولعل أبا الطيب كان يتعمد ذلك جرأة منه وتحدياً للنحويين .

وناحية هامة نشير إليها دون تفصيل أيضاً هي أن المتنبي كان أستاذ
 أبي العلاء الأول المحبوب سواء في ناحيته الفنية والفكرية أي أنه كان
 أستاذه في الشعر والحكمة جميعاً ، فكان أبو الطيب مثال المعري في نظم

الشعر أيام صباه وشبابه . وإن كثيراً من المعاني التي احتفل بها أبو العلاء موجودة عند أبي الطيب .

إلا أن أبا العلاء كثيراً ما كان يأخذ المعنى وينحرف به عن طريق استاذه لما كان بين المزاجين من فروق . . فالمرعي مثالي والمنتبي واقعي .

وخلاصة ما نذكره هنا عن المنتبي أنه لم يكن فيلسوفاً وإن تفلسف في شعره ، وقد وردت حكمته في مواطنها المناسبة دون أن تنظم فصولاً ومقطوعات ، وأن ذلك مع قوة صياغته جعلها مقبولة وكسا من عريها الفلسفي الأصيل .

المنتبي ضاعف ما سبقه إليه أبو تمام واجتمع في شعره أشياء كانت مقدمة التحول النهائي الحاسم الذي نهض به أبو العلاء في هذا المضمار .

— ٤ —

فماذا فعل المرعي؟ وبم امتاز؟

(١) حظي أبو العلاء بثقافة هي خلاصة الثقافة الإسلامية في القرن الخامس ، فكانت لغوية نادرة ، ودينية إسلامية ومسيحية ويهودية ومجوسية وأدبية وفلسفية وتاريخية ، فيها التنجيم والتصوف ، وفيها من كل شيء ، فكانت يونانية وفارسية وهندية مما فاض به شعره وثره .

(٢) بدأ حياته الشاعرة بتقليد المنتبي أستاذه المفضل فأخذ يحذو حذوه منذ صباه وفي شبابه أيضاً ، وبدت علامات هذا التقليد باستعمال الغريب وفي الأخذ بالبديع ، وفي المبالغة وتناول المصطلحات العلمية والفلسفية والدينية . أنشأ أكثر سقط الزند في شبابه وبلغ في بعض قصائده درجة الشاعر المثالي وبخاصة في مراثيته الدالية المشهورة في أبي حمزة الفقيه لأنه زواج فيها بين الشعر والفلسفة مزوجة خالصة دون أن تشوبها شائبة تفسدها من غريب أو بديع أو التزام مالا يلزم فكانت هذه القصيدة من بين شعره

تاجاً على رأسه متألق الجواهر استوت بها عنده صنعة الشعر الأصيل ،
فيها جمال الأسلوب الذي استهوى النقاد من البحري وجملوه من أجله
الشاعر الفذ ، ثم تمتاز بمد ذلك بهذه المعاني الرائعة الدقيقة العميقة ،
وبهذا الشعور السامي والافق الواسع . وعندني أن أبا العلاء كان بهذه
القصيدة يرثي الدنيا جميعاً ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت ، يبكي
عدوان الآخرة على الأولى ويمجّب لسلطان الموت وسطوته .

ولو أن أبا العلاء اطرد شعره كله أو أكثره على نسق هذه القصيدة
ما قرن به شاعر عربي آخر . وإذا ، كان يكون أبو العلاء سيد شعراء
العربية غير مدافع وأولام جميعاً بالمكانة الأولى في هذا الفن الرفيع .

(٣) ولكن أبا العلاء حين اكتملت له شخصية الشاعر الكامل أخريات
شبابه ، وانتهى عهد التقليد الفني نجده يتحول عن هذه السبيل تحولاً يكاد يكون
عقوباً لهذه الموهبة الرائعة كما يتحول عن حياته الاجتماعية ويمتز لها رهين
المهسين أو الثلاث ويصبح في حياته الحسية والأدبية إنساناً آخر .

خضعت حياته الحسية لأوضاع فلسفية صارمة من الحرمان والزهد في
الطعام واللباس وبفض الزواج والنسل ولزوم البيت وتحامي الناس إلا أن
يكونوا طلاب علم ، أو زواراً معجبين يلمون به لحظات ، أو يكاتبونه
بجادلين . . . حياة أساسها التشاؤم والسخط واحتقار الحياة وإذلالها .

وأما حياته الأدبية فكانت عكس ذلك تماماً ، حرية في التفكير لا حد
لها ، وغنى نفسي عزيز صان به نفسه وأدبه ، وتأمل عميق قد يفضي به إلى
الحيرة والشك حين يمجز العقل أمام المعضلات ، وهو شك يمس الدين
والعقل والحس والخير ، وكانت مناقشاته للديانات تنطوي على سخرية بها
وبالأوضاع الاجتماعية وبهذا النفاق الانساني العام .

(٤) وفي هذه السجون الثلاثة نظم أبو العلاء « اللزوميات » في تمجيد
الله وتبئيه الناس وقد برأها من الكذب وتوخي فيها الصدق كما قال في

مقدمتها . ومع ذلك فقد ألم فيها بمسائل شتى من الفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية ثم العملية فوق ما فيها من عظات .

وتأليف هذه اللزوميات — من ناحية الشكل فقط — خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف الهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفاً ونصباً وجرّاً ثم سكوناً .

وقد تكلف أبو العلاء في لزومياته أشياء أخرى منها اللغوي فلم نجد ديواناً جمع من غريب اللغة ما جمعت اللزوميات ، ومنها العروضي بالترام حرف أو أكثر قبل القافية فهذه قسوة أدبية وسجن للمعاني والآراء .

ثم استخدم الجناس بين آخر الأبيات وحشوها في مواضع شتى ، وبذلك فاق جميع من سبقوه من أهل هذه الصنعة النظمية والنثرية أيضاً .

(٥) والأمر الخطير أن هذا التعميد اللفظي لم يكن في صالح الفلسفة ولا الشعر ، إذا جاز لنا أن نعد اللزوميات ديوان شعر — ولعله لا يجوز — فقد كان أخرى بأبي العلاء الفيلسوف أو المتفلسف أن يؤدي آراءه أو مذهبه في عبارات مشورة واضحة قائمة على التقرير العملي المنظم ليستطيع الشرح والتدليل ثم ليسهل على الناس الأخذ عنه بدلاً من هذا الاغراب اللغوي والتعميد اللفظي الشاذ .

ولكن أبا العلاء شاعر منذ حين فهل أبت عليه طبيعته ان يترك فنه الأول ؟ وإذا صح ذلك وكان لا بد من وصله بالفلسفة . . فما معنى هذا الترصيف اللغوي والبديعي ؟ ! هذا التعميد إنما يعجب به الكلفون بحل المعميات اللغوية والذين يمطفون على أبي العلاء ولكنه إعجاب إلى حين يجد الجد وتطلب المعاني لدرسها ونقدها فاذا بهم يضيقون به ويمدون حائلاً صفيقاً بينهم وبين ما ينبغي وأبسط قوانين البلاغة ألا يحول اللفظ دون المعنى وان يوفر جهد القارئ لدرس الافكار وإدراك الصور لا غير ، فاللغة في

باب الفلسفة وسيلة خالصة وهي في الشعر جزء من الغاية على شرط ان تكون غاية من ناحية الوضوح والجمال لا من ناحية الاغراب والتعقيد .

وإذا كان قد سلم لأثني العلاء في لزومياته قطع تحققت فيها المزاوجة بين الماني الفلسفية والصياغة الفنية فإنها قليلة في هذا الديوان الضخم ، بحيث لا تضفي على صاحبه صفة الشاعر ، إذ غلب عليها التقرير والسردي ، والتكرار والوعظ حتى عاد ديوان نظم . . . وإيته ديوان نظم فاسفي خلا من هذه الكلف الكثيرة .

(٦) والذي فات أبا العلاء ، فلم يُعْن به ، أن الفلسفة بقيت في ديوانه هذا عارية في الخالب لم يلبسها ثوباً فنياً من أسلوب الشعر كما حاول هوفي بعض سقط الزند وكما حاول من سبقه إلى حد كبير . . . إذاً ، لبقيت للأسلوب روعته وقوته وزهد عنه الابتذال . والغريب ، أو الطبعي ، أن هذه الكلف نجدها في اللزوميات ولا سيما التكرار المنظومة كما نجدها في اللزوميات المنشورة — أعني الفصول والغايات — وفي اللزوميات المنظومة والمنشورة معاً (ملحق السبيل) فالأفكار معادة فيها جميعاً .

وقد أربى أبو العلاء على سابقه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها نظرف النحويين والفقهاء . لم أنس أن هناك نوعاً من الشعور يحسه قارئ اللزوميات دائماً ولكنه شعور مصدره العطف على المرعي ، وجانب الحياة الحزين الذي سيطر عليه ففتى به آثاره ، وهذه الماني الحكيمية السليمة . ولكن متى كان الحزن واليأس والفشل غاية الأديب ؟ ومتى كانت الفلسفة سلبية دائماً هدامة ؟

— ٥ —

أمامنا الآن — في باب النظم الملائمي — سقط الزند الذي يمد ديوان شعر أبي العلاء ثم اللزوميات ديوان فلسفته ، فأيهما يمد نصح الأصيل ؟ وبمباراة أخرى هل أبو العلاء شاعر او فيلسوف ؟

يذكره فريق من المستشرقين شاعراً فيلسوفاً وان اختلفوا بعد ذلك في تقدير مكاتته ولاسيما في الناحية الفلسفية .

يرى نيكلسون Nicholson أنه شاعر فيلسوف سجل في آثاره ميول التشاؤم والحيرة لعصر الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية .

وفون همر Von Hammer يمدّه شاعراً كأبي تمام والبحري والمتنبي ويميزه بالفلسفة . وأما فون كريمير Von Kremer الذي عني بدرس اللزوميات فإنه يمدّ أبا العلاء من أعظم الأخلاقيين « فلاسفة الأخلاق Moralists » وإن رأى فيه مرجليوث رجلاً شاكاً حيراناً . آراؤه سلبية . وليست أخلاقياته شيئاً بجانب ما أصيب به من شك وبأس ثم يعود نيكلسون Nicholson فيلاحظ ان آثاره خالية من المنهج الفلسفي وإن أفكاره شتتت غير منسقة . احتواها نظم معقد . لا تخلو من تناقض (١)

أما طه حسين فيرى أنه قد كان فيلسوفاً حقاً (٢) وقد أوضح هذا الجانب وبين آراء المعري في كثير من المسائل الفلسفية بناء على ما استخرجه من اللزوميات وهي مسائل تدخل في أبواب الفلسفة الطبيعية أو العلم الأدنى والفلسفة الرياضية أو العلم الاوسط والفلسفة الالهية أو العلم الاعلى ثم الفلسفة العملية . وبين مصادر هذه الفلسفة وردها الى الحياة والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية ثم إلى الكتب الدينية على اختلافها . . . وهكذا دخل أبو العلاء مجال الدراسات الفلسفية على أنه فيلسوف نظم فلسفته في اللزوميات ونثرها في الفصول والغايات وفي بعض الرسائل ومع ذلك فهناك ما أخذ على أبي العلاء الفيلسوف :

(١) أول ذلك أن أبا العلاء لم يتتكر شيئاً في الفلسفة يمد رأيه أو مذهبه أثر به في مجراها العام فإن فلسفته إما مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها وإما تأملات في الحياة مردها مألقي من تجارب وأحداث انتهت به إلى مثل

(١) رابع . Nicholson · Literary History of the Arabs pp - 313 - 320

(٢) ذكرى أبي العلاء . ص ٣٣٠ ط ١٩١٥ م

ما اتهمت اليه عند الناس فكانت أفكاراً عامة . . ومهما يكن له من تسجيل لها وخضوع في حياته لسلطانها . . فهذه أقل درجات الفيلسوف .

(٢) ثاني ذلك حيرة أبي العلاء وتردده بين الآراء دون أن يقطع برأي في بعض المسائل أو في رءوسها لذلك دعي عند بعض الأقدمين والمحدثين شاكا ، يؤمن بالعقل وينكره . ويقول بالجبر ثم بالاختيار ، ويتمنى الموت ويفزع منه ، وينتظر البعث ويسخر به . . ولا يرد على ذلك اصطناعه التقييد والتعمية على الناس ، فهذا ليس شأن الفيلسوف على أن التردد إنما ينتاب الإنسان أول الامر ولا يلازمه . . والاصار لا أدريا .

(٣) ثالث ذلك طريقة الاداء وهذه لم تكن فلسفية بحال فقد رأينا أنه نظم فلسفة أو أختار النظم ليقيد بها آراءه والاصل أن تثر الفلسفة إذ كان الثر لغتها الطبيعية ولا يقال إنه ثرها في الفصول والغايات فإن هذا الكتاب أيضاً ليس إلا لزوميات ثرية أصابه من ضروب الإغراب والتعميد والصنعة ما أصاب زميله . ومهما يمتد أنصار المرعي لهذه الكلف وذاك الغموض فإنها يقللان من قراء المرعي وتلاميذه .

وهناك أمر آخر يتصل بطريقة الاداء هو تشتت الافكار وانتشارها هنا وهناك بحيث لا تجتمع الافكار المترابطة في باب . هي آراء قد تتفق وقد تتخالف مع ذلك مما يشبه للناس ان آراء المرعي خطرات طارئة . بصرف النظر عن قيمتها الذاتية .

هذه الاعتراضات معناها ان الناس يتقنون من أبي العلاء انحرافه عن السبيل الطبيعية وتمقيده حياته وأدبه وخضوعه لنوع من الانتكاس في عزلته . ولكن هذا في الحقيقة أسف غير نافع . وخير لنا أن ننظر الى ابي العلاء كما وجد وان نتفح به في حدود ماهي له دون أن نرجو منه مثالا لم تحققه الأيام . ونتيجة ماسبق ان ابا العلاء متفلسف . وأن إطلاق لفظ الفيلسوف عليه يجب أن يفهم على وضع خاص هو انه درس الفلسفة واصطنعها في حياته لا انه ابتكر في الفلسفة أو أخضعها لسلطانها .

- ٦ -

وفي الجانب الشعري يرى كثير انه شاعر ممتاز وربما عده بعضهم خير شعراء العربية مؤيدين دعواهم ببراهين :

منها انه الشاعر العربي الفذ الذي استطاع أن ينظم الشعر الفلسفي أو يزوج بين الشعر والفلسفة مزاجاً نادرة . في قسم من شعره حفظت للشعر قيمته وللفلسفة شيوعها وسلطانها ذلك في شبابه وأما شيخوخته فقد أثمرت لنا اللزوميات . وفيها مقطوعات هي مثل في معانيها وعبارتها على الرغم مما قيدت به من لوازم .

ومنها صدق شعره الذي يصور حياته العقلية وال عاطفية تصويراً صحيحاً لاريا فيه . وصار الدارس غير محتاج إلى مصدر آخر يصحح به هذا المصدر الأصيل لفهم أبي العلاء ومنها انه نزه شعره عن الاتجار به في سوق المديح فحفظ لفنه مكاته . وهذه المسألة وان كانت شكلية ولكن لها قيمتها في فن الشعر أيضاً متى حفظت له حرته وصدق شعوره وفتح بابه للفلسفة ليكون فناً نافعاً جميلاً .

ومع ذلك فهناك من ينكر على أبي العلاء شاعريته :

يقول ابن خلدون في معرض التعريف بالشعر ووجوب جريه على أساليب العرب المعروفة للشعر : « كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب . (١) »

ويقول : « ولا يكون الشعر سهلاً الا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كانت شيوخنا رحمهم الله يعميون شعر أبي بكر بن خفاجه شاعر شرقي الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعميون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق (٢) »

(١) المقدمة ص ٦٥٠ ط التقدم (٢) نفس المصدر ص ٦٥٦

وقبل ذلك قال ابن رشيق إن الفلسفة باب آخر غير الشعر لأنه يقوم على التصوير والتأثير ومرد هذا كله ، هنا ، ان المعري في اللزوميات ناظم لاشاعر لخروجه على الأساليب العربية لفن الشعر وإقحامه الفلسفة والحكمة فيه بدرجة جاوزت المألوف بل بدرجة أحواله نظماً ليس من الشعر في شيء .

ومعنى الأساليب العربية عند ابن خلدون هو الطبيعة التي جرى عليها الشعر العربي منذ نشأته إلى عهد أبي تمام ثم المتنبى والمعري . وهي طبيعة غلب عليها جمال التصوير وحسن التعبير المفضيان بالشعر إلى أن يهز النفوس ويحرك الطباع ومثال ذلك عند هؤلاء النقاد هو البحترى وأما المتنبى والمعري فقد خرجا على هذه الاساليب بما أكثرا من الحكمة في الشعر أولا . ثم بما ادخلها عارية أوتكاد محافظة على قوالها المعمية التقريرية ثانيا فعاد بها قولها نظماً ليس من الشعر في شيء .

هذا المقياس كما قلنا ليس بخاطيء إلا من ناحية ضيقة وقصوره عن الشمول ولا سيما حين مثوله بالبحترى تاركين سلسلة أبي تمام وصاحبه . فالشعر مقبول لحسن تصويره وجمال تعبيره كما هو الشأن عند البحترى . ولكنه مقبول أيضاً لسلامة تفكيره وقوة أسلوبه كما هو الشأن عند الآخرين . . فهذا وجه . وأما ناحية التأثير التي جعلوها مقياساً لجودة الشعر فلا شك أنها تتوافر في شعر أبي تمام والمتنبى وقسم من شعر أبي الملاء .

المسألة ، إذاً ، مسألة هذه الفلسفة الملائية واحتلالها ميدان الشعر فأما إلى حد اتصالها بالشعر فهذا شيء طبيعي بل هو الاصل وإنما الكلام بمد ذلك في مسألة الكم والكيف . أي إلى أي مدى يتسع لها هذا الفن الرفيع ؟ وكيف يستينفها أو كيف يعرضها على القراء ؟

لا شك أن كثرتها تؤثر في جمال الشعر وقوة تأثيره وخير أن يأخذ منها هذا الفن باعتدال ، لا يقل حتى يمود الشعر صوراً وعبارات فقط كما قال الاقدمون ولا يكثر حتى يمود الشعر نظماً ثقيلًا مملولاً . . على أن المسألة في الحقيقة مسألة الكيف وهي طريقة العرض فان كانت الفلسفة عارية خالصة

تقريرية كانت النتيجة ذلك النظم الذي يضيق به الناس جميعاً ويتجاوز دائرة الشعر، وإن كانت معروضة في صياغة فنية ، بحيث تذوب الآراء في أساليب الفن فانها تكسبه قوة ولا تفقده الجمال .

ولا شك أن الأقدمين كانوا على صواب حين وجهوا تقديم الى اللزوميات أو الى كثرتها على أساس المقياس الشعري فوجدوا فيها رسماً فلسفياً وقيوداً لغوية عروضية بديعية يمتقها الشعر ويمجها الذوق . . ولكنهم لم يضعوها على مقياس النظم الفلسفي ، ولعلمهم - لو فعلوا - كانوا يرون فيها رأياً آخر أدنى إلى الانصاف وأقرب الى مزاج أبي العلاء وما أحاط به من مؤثرات . وعلى كل فهذا رأي القدماء في شعر أبي العلاء ، وهذا ما نراه نحن بحيال ما رأوا ، فهل هذا كل ما يؤخذ على أبي العلاء في لزومياته ؟

هناك ما أخذ أخرى متصلة بأبي العلاء الشاعر . فاذا أخذنا اللزوميات جملة لاحظنا هذا التكرار الكثير الذي يصرف القارئ ويخيل إليه ان المرعي ضيق المادة الفكرية ، وقد يكون من دواعي هذا التكرار اضطرار أبي العلاء أن يملأ فصول ديوانه التي أدارها على حروف المهجاء وحركاتها الأربع . ولكن متى كان التعقيد مبرراً للتكرار ؟ ومتى كان عيب - يبيع عيباً ؟ وهناك التشاؤم الذي يطبع هذا الديوان طابعاً أسود ويشوه الحياة أمام الناس : أيلصح أن يكون مادة لديوان كامل ، أم أن وظيفة الشعر تهذيب النفوس وحملها على الرضا واحتمال الحياة وإشاعة البهجة والسرور ، أم أن شيئاً من البكاء لازم لتصفية النفوس وتحقيق الاتزان في الحياة وبخاصة اذا كان ذلك عن طريق هذا الفن الرفيع ؟ مهما نقل من ذلك أو نبرره بأن وظيفة الشعر هي التعبير لا غير ، فإن أبا العلاء ساخط حزين نخشى أن يبعث اليأس في النفوس ، ويسلط عليها الأمل الضائع، والألم المقيم . وقد ذكرنا هذا التعقيد اللغوي والعروضي والبديعي . وما قد يجوز على المعنى فيقصر أو يتر في سبيل هذه اللوازم ، وإنما نلاحظ مع ذلك أن معاني أبي العلاء المتناثرة التي حشدها في لزومياته أحالت قصائده مجموعات من الأبيات المتناثرة أيضاً ، بحيث لا نجمها، في الغالب ، إلا وحدة البحر والقافية . وبحيث أثر ذلك على وحدة القصيدة وتنسيقها العام .

هذه المآخذ تؤثر حتماً في مكانة المعري الشاعر . وتجعلنا نسأل أنفسنا : هل تكفي بعض قصائد في سقط الزند لتضع أبا العلاء في صف الشعراء الممتازين ؟ هل نستطيع أن نعد النزوميات ديوان شعر وبها يكون أبو العلاء من رجال هذا الفن الرفيع ؟ وهناك مستشرق آخر هو الاستاذ - دي بور De Boer - تناول أبا العلاء الشاعر الفيلسوف فقال : « غلا البعض في رفع شأن أبي العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٨ م) فعدوه شاعراً فيلسوفاً وجعلوه في مكانة لا يستحقها . نعم لأبي العلاء في بعض الاحيان آراء معقولة وعواطف خليقة بكل احترام ولكنها ليست فلسفة . وليس القالب الذي صيغت فيه ، بما فيه من تكلف وبما يثقل عليه من ابتذال ، والذي يسمو إلى منزلة الشعر ، ولو أن أبا العلاء عاش في ظروف خير من التي عاش فيها [كان ضريراً ولم يكن غنياً] لكان من المحتمل أن يقدر على الاجادة في شيء من النقد الاولي الذي يقوم على نقد الألفاظ ، وهو ، بدلاً من أن يدعو إلى محبة الحياة ، دعا إلى الزهد في ملذاتها ، وكان متبرماً بالأحوال السياسية بوجه عام ، وبآراء العامة في الدين ، وبمزاعم الخاصة في العلم . غير انه لم يستطع أن يأتي في ذلك بمجديد . ويكاد ابو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الاشياء بعضها ببعض . لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب ، فليس له منه نصيب . وتعاليم ابي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء كما قال هو في بعض رسائله وان لم يقصد أن يقول ذلك عن نفسه (١) »

لاشك ان دي بور وقف عند النزوميات وأخذها جملة على أنها ديوان شعر ، ثم كان مثالياً في نقد أبي العلاء الفيلسوف الشاعر .

- V -

والآن نجد أبا العلاء حيران بين الشعر والفلسفة ، فأين نضعه ؟ قد يكون من السهل أن نجتمع له بين الوصفين . فنعده فيلسوفاً لهذه الآراء التي أشرنا إليها ، ونعده شاعراً لقصائد في سقط الزند ومقطوعات من النزوميات.

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٧٧ من الترجمة العربية .

وقد يكون من الجائز أن ننفي عنه الوصفين ، لقلّة روايته الشعرية مع كثرة آثاره
النظمية فلا يكون من الشعراء المدودين ، وإن تقف عند تردده وعدم ابتداعه ،
فلا نمدّه من الفلاسفة الأوّلين .

ولكننا نعود فنسأل : لم يقرأ المعري ؟ أسلوبه الفني الرائع أم لأفكاره
وتأملاته ؟

لاشك أن الناس يقرأون أبا الملاء في الاصل والاكثر لجانبه الفكري ،
وحكمه الخالدة وشكوكه الرائعة . فهذا هو السبب الأساسي لإقبال الناس عليه
وصبرهم على لزومياته .

وتنتيجة ذلك :

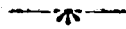
أنا إذا قسنا أبا الملاء بمقياس مثالي كان أبو الملاء متفلسفاً .

وأما إذا حكنا عليه بمقياس مقتصد فإنه يكون فيلسوفاً .

أحمد السائب

أول شوال سنة ١٣٦٣ هـ

القاهرة في }
١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ م



الحفلة الثانية

في دمشق

لما انتهت الحفلة الخطابية الاولى عاد أعضاء المهرجان إلى فندق (اوريان بالاس)، حيث اقام المجمع العلمي لهم مأدبة عشاء دعا اليها أعضاء الحكومة والوزراء السابقين وعلماء دمشق وأدباءها ووجهاءها .

وفي اليوم الثاني أعد المجمع برنامجاً لزيارة الأماكن الاثرية في دمشق؛ فبكر أعضاؤه إلى الفندق ، وصحبوا الوفود الى متحف دمشق ، والجامع الأموي ، ودار المجمع العلمي العربي ، ودار الكتب الظاهرية ، وقبر صلاح الدين الأيوبي ، وجامع الشيخ محيي الدين بن العربي ، والبيمارستان القيمري . ولما انتهت الزيارة عاد أعضاء المهرجان الى فندق (اوريان بالاس) لحضور وليمة الغداء التي أقامها وزير المعارف تكريماً لهم .

وما ان حان موعد الحفلة الخطابية الثانية في الساعة الخامسة بعد الظهر حتى توافد المدعوون إلى الجامعة السورية . وكان اقبال الناس على هذه الحفلة لا يقل عن اقبالهم على الحفلة الاولى. وكانت الخطب تذاع من محطة دمشق ، وتنقل بمكبرات الصوت الى الاماكن البعيدة . أما برنامج الحفلة الثانية فقد كان على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ أحمد أمين : سلطان العقل في نظر المعري

ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ومجمع فؤاد الأول

٢ - الأستاذ محمد اسعاف المنشاشيدي : التفاؤل والأثرية عند المعري

عضو المجمع العلمي العربي

- ٣ - الاستاذ محمد البزم :
عضو المجمع العلمي العربي
ابو العلاء « قصيدة »
- ٤ - الأستاذ الفريد غليوم :
من جامعة اكسفورد
المعري في نظر المستشرقين
- ٥ - الاستاذ عارف النكدي :
عضو المجمع العلمي العربي
وقد تخلل هذه الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق قطعة
من شعر أبي العلاء . وهي :
- يا ساهر البرق أيقظ راقدا السمر
وان بخلت عن الأحياء كلهم
ويا أسيرة حجلها أرى سفها
ماسرت الا وظيف منك يصحبنى
لو حطر حلي فوق النجم رافمه
يود أن ظلام الليل دام له
ولما انتهت الحفلة الخطائية دعي أعضاء المهرجان الى حفلة عشاء أقامها
المجمع العلمي في حديقة المتحف حضرها الوزراء ورؤساء المآهد العلمية
ورؤساء المحاكم وكبار الأساتذة والموظفين .
وفيا يلي نص الخطب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

سلطان العقل عند أبي العلاء

يرى الفارسي لتراث أبي العلاء — وخاصة اللزوميات — اشادة بالعقل واعترافاً بقوة سلطانه فهو أعز ما وهب للانسان .

والعقل أنفس ما حبيتَ وان يُضَعَّ يوماً يَضَعُ، ففوى الشراب وما حلب وهو الهادي الوحيد لمعرفة الخير والشر والحق والباطل فلا حاجة الى انتظار امام معصوم يرشد الناس الى ما يعمل وما يترك فالعقل كفيل ببيان ذلك كله .

يرتجي الناسُ أن يقوم امام ناطق في الكتبية الخرساء
كذب الظنُّ لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
ولكن الناس في كل زمان ما قدروا العقل قدره ولا وفوه حقه ولا عرفوا
كيف يتفعمون به .

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف
يخبّر العقل أن القوم ما كرموا ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلاً وما جوا في ضلاتهم ولا يفوزون — ان جوزوا — بما اقترفوا
بالعقل والتفكير الصحيح تنقشع الغيوم وتنجاب الظلاء وتهون الصعاب
وتتكشف الحقائق .

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صمبا

خذوا في سبيل العقل تهذبوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المللك فانه تمتع كل من حجى بسراج

فكروا في الأمور يكشف لكم بهض الذي تجهلون بالتفكير
والدنيا مملوءة بالتجارب ولكن التجارب طير اختبأ في عشه انما يستطيع
أن يصيده من منح العقل والعمر

ان التجارب طير تألف الحمرا يصيدها من أفاد اللب والعمرا
والعقل هو المرآة الصادقة ترى فيها الحقائق ، لا كلام الناس والاخوان
أرى اللب مرآة اللبيب ومن يمكن مرآيته الاخوان يُصدق ويُكذب
وانما يقيد العقل ويمنعه عن ادراك الحق والعمل به ماركب فيه من
طبع وشهوات فالعقل مغلولاً بالشهوات كالشمس يحجبها الغمام .

تجارب الطبع الذي مزجت به مهجُ الأثام ، وعقلهم ، فيغله
ويظلم ينظر ، مسا سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

واللب حارب فينا طبعاً يكابد حربه

* * *

والعقل أحسن هاد لفعل الخير وترك الشر وخير الخير ما أتاه صاحبه
لأنه جميل لارغبة في مشوبة ولا خوفاً من عقوبة
عليك العقل وافعل ما رآه جميلاً فهو مُشْتارُ الشوار
ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنها في توار

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وأخيراً فالعقل نبي صادق من اتبعه رشد ومن صد عنه غوى
أيها الثران مُخصّصت بعقل فاسأله فكل عقل نبي
وهكذا وهكذا ملئت اللزوميات بهذه المعاني وكررت على أشكال مختلفة
نكتفي منها بهذا المثل لندل به على قيمة العقل في نظره وسلطانه والاعتداد
به ولننظر بعد كيف استخدمه

لقد حمل على نضج عقل أبي الملاء ذكاؤه الفطري واطلاعه على الفلسفة
اليونانية وصداها في الفلسفة الاسلامية وطول تفكيره وتأمله الذي اعانه
عليه وحدته وعزلته وتجرده من شواغل الدنيا ما استطاع .

وفي الفلسفة اليونانية لون زاه من ألوان العقلية والمقلية الذين يرون
للعقل الحق المطلق في الحكم على الاشياء والبرهنة على صحتها أو بطلانها ولا
يؤمنون بشيء ، ولا عقيدة ولا تقاليد ولا مواضع الا اذا قام البرهان العقلي

م (٤)

على صحتها ومالم يقم البرهان العقلي عليه لا يسلّمون به مهما كانت السلطة التي تحجي به — وبذلك أخضع هؤلاء اليونانيون كل شيء للعقل وسلطانه ، فكما خلقوا العلوم الرياضية بمقولهم كذلك خلقوا الفضائل والرذائل بمقولهم وقرروا النظم الاجتماعية وأشكال الحكم السياسية بمقولهم من غير ان تملها عليهم أية سلطة خارجية فالعالم عندهم عالم عقلي والانسان ضال مالم يكتشف قوانين نفسه وقوانين الطبيعة حوله بفعله ويسر على القوانين التي توائم بين نفسه والعالم الخارجي كما يرشد اليه عقله .

قرأ أبو العلاء هذا وتأثر به تأثراً عميقاً يدل عليه ما أشرنا اليه قبل من تمجيد للعقل وسلطانه ولكنه من ناحية أخرى نشأ في الاوساط الدينية وقرأ تعاليمها وتعمق مبادئها وهي تقضي بأن وراء العالم المادي المنظور عالمًا روحانيًا غير منظور ، وإن كان السلطان في عالم المادة للقانون الطبيعي يدركه العقل فالسلطان في عالم الروح حق وان كانت آلة العالم المنظور وادراك قوانينه هو العقل فألة العالم الروحي وادراك قوانينه هو الوحي وفي هذا العالم الروحي الله لا العقل هو مصدر التشريع وهو المرشد الى الفضائل والرذائل وهو واضع الشعائر الدينية وهو الذي ربطها الثواب والعقاب وعلى الانسان ان يطيع أوامر الدين ولو لم يمتد الى بعضها العقل لأن قوة العقل في الانسان محدودة ووراء قوة العقل قوة الوحي

هاتان الصورتان - الصغيرتان جداً - اذا انعكستا في النفس سببتا الحيرة والاضطراب والقلق وقما يسلّم من قلقهما الا من ألد جداً فلم يخضع الاحكام العقل أو آمن جداً فأسلم عقله لأيمانه وهناك أصناف من المذاهب الدينية والفلسفية أرادت التوفيق بين هاتين الصورتين بأشكال مختلفة مما ليس مقصدنا الآن .

فلننظر الى ابي العلاء المعري كيف وقف من هاتين الصورتين ، كيف كان موقفه من سلطان العقل وسلطان الدين

لقد أعلى شأن العقل كما رأينا وأراد ان يستخدمه على طول الطريق فبدأ ينقد به العادات والتقاليد ونظام الحياة الاجتماعية في عصره فكان في ذلك موفقاً كل التوفيق .

لقد نقد الملوك والأمراء لأنهم بوضعهم العقلي خدام الأمة .

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
 فما بال هؤلاء الخدام يمدون عليها ويظالمونها
 مل المقام فكم أعاشر امة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 وهم يصدرون من الاوامر ما لا يتفق والعقل والمدل ثم ينفذون ما يأمرون
 بقوتهم وسلطانهم لا باقتناعهم فاذا نفذ أمرهم قيل ما اسوسهم
 يسوسون الامور بغير عقل فينفذ امرهم ويقال ساسه
 فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسه
 وهؤلاء المسلطون على الناس لاعقل لهم ولاعدل عندهم شياطين في ثياب
 ولاة لا يهتمهم جوع الناس اذا ملئت بطونهم وخمرت رؤوسهم
 ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
 من ليس يحفل بخص الناس كلهم ان بات يشرب خمرأ وهو مبطان
 وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو اشد
 قسوة لا يرحمون دمة مظلوم ولاصرخة مستغيث
 يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
 ومن حوله قوم كأن وجوههم صفا لم يلين بالغيوث الهوامع
 والقضاة لاعقل ولاعدل
 وأي امريء في الناس ألني قاضياً فلم يمض أحكاما كحكم سدوم
 وفقهاء صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام
 كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فراش ما هفت حلوم
 وقالوا فقيهه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم
 ووعاظ يقولون ما لا يفعلون ويأتون ما ينكرون
 رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
 يحرم فيكم الصبياء صبحاء ويشريها على عمه مساء
 وشعراء ليسوا الا لصوصاً يمدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ويمدون على
 الاغنياء بمديحتهم لسلب أموالهم

وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والشباب
 اضربان تود من الأعداي وأسرق للمقال من الزباب (١)
 وقوم تسودم الخرافة فيلجثون الى المنجمين والعرافين والمعزّمين وما لهؤلاء
 بذلك من علم ولكن شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلات والمغفلين
 متكهن ومنجم ومعزّم وجميع ذاك تحيل لمعاش

لقد بكرت في خفها وازارها لتسأل بالأمر الضرير المنجبا
 وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
 ويوم جهال الهلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
 ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بيمين أو أرمّ وجمجا

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهدكم هو عائش من دهره
 فأجبتها مائة ليأخذ درهماً وأتى الحمام وليدها في شهره
 وبعد أن تقدم طبقات من الملوك الى القضاة الى الوعاظ الى التجار الى
 النساء تقدم جملة ، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون الا للفناء
 وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كما يمدّمو سقياً لما تحصل شيء في الفرايل
 أو قيل للنار خصي من جنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرايل

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يمدّب
 ما فيهم بر ولا ناسك الا الى نفع له يجذب
 أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب
 وسبب فسادم أنهم منحوا العقل فلم يصنعوا اليه ولم يلتفتوا له وتجاهبهم
 عقل يرشد وطبع يُنوي فجروا وراء طبعهم وبصقوا على عقلهم
 فأوسع بني حواء هجرأ فانهم يسرون في نهج من الفدر لاحب

وان غير الاثم الوجوه فما ترى لدى الحشر الا كل أسود شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرم الى النقي طبع أخذه أخذ صاحب

واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضح الجناح اصابه تعذيب

الى الله اشكو مهجة لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجى مثل مهجور المنازل دائر وجهل كمسكون الديار مشيد

العقل ان يضعف يمكن مع هذه الذنوب كعاشق مومس تغويه
أو يقو فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تهويه
فطبعك سلطان لعقلك غالب تداوله أهواؤه بالتشخص
سقيت شراباً لم تهناً بيرده فعنيت من بعد الصدى بالتفحص
وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه وكان في ذلك
موقفاً كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك
عيوب المجتمع في جملة وتفصيله ويماجظواهرها ويعمق في النفس الانسانية
في دقة وتحليل ومظهر توفيقه أيضاً أنه لم يتناقض في هذا الباب ولم يضطرب
ولم يجمع وجرى على وتيرة واحدة في صراحة ووضوح وانسجام

وسبب نجاحه في هذا أمران - الاول - ان الامور الاجتماعية والاخلاقية
التي نقدها هي في صميم اختصاص العقل فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب
بالمسببات والامور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها تظلم
الملوك والحكومات فتسوء حال الأمة وتمدل فيصلح حالها وللوعاظ
غاية هي ارشاد الناس من طريق اعطائهم المثل بانفسهم والدعوة الى الخير
بالسنتهم فاذا لم تتحقق هذه الامور فالوعاظ شر وهكذا فكل ما نقده أبو العلاء
من هذا القبيل داخل في دائرة العقل والتجارب ، والاخلاق العقلية التي قررتها
الفلسفة اليونانية هي بسببها تقريباً الاخلاق الدينية لانها أيضاً نتيجة تجارب
لصالح المجتمع وقد تقدمت مظاهر المجتمع والاخلاق من قبل أبي العلاء كما فعل

ابن المقفع مثلاً ولكن مهارته كانت في ابرازها ابرازاً فنياً رائعاً — والسبب الثاني في نجاحه في هذا الباب أن ناقد هذه الامور متمتع بكثير من الحرية فلا لوم على أحد اذا نقد المجتمع ونقد الاخلاق بل ان الناس يصفقون للناقد ويعلمون شأنه لأنه يدعوهم إلى الكمال المحب إليهم من أعماق نفوسهم لذلك صرح بكل ما يريد في هذا الباب وهو آمن مطمئن فنصح .

بعد هذا انتقل خطوة أخرى في النقد أدق وهي تحكيم عقله في المسائل الدينية الشرعية الفرعية مثل اليد كيف تودى بخمسة دینار وتقطع في ربع دینار. تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نموذ بمولانا من النار يدٌ بخمس مئین عسجد وُديت مابالها قطعت في ربع دینار ومثل ان الاسلام جاء لمحو الأوثان والانصاب فكيف عظمت بعض شعائر الحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله ونحو ذلك .

ما الركن في قول ناس لست أذكركم الا بقية أوثان وأنصاب إلى نحو ذلك وهذا النوع قد عرض له أناس من أول عهد الاسلام أرادوا أن يحكموا العقل في التمايم الاسلامية فصدوا كالتي سألت عائشة مابال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت لها عائشة أحرورية أنت ؟ وكالذي روى أن ربيعة الرأي سأل سميد بن المسيب عن عقل أصابع المرأة ماعقل الاصبع الواحدة قال عشرة من الابل قال فاصبعان قال عشرون قال فثلاث قال ثلاثون قال فأربع قال عشرون قال ربيعة فعندما عظم جرحها نقص عقلها ؟ فقال له سميد أعراقي أنت ؟ انما هي السنة .

ومن أجل هذا روي عن علي " أنه قال لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما فجاء أبو العلاء ينقد على هذا النحو فلم يُرتمح لقوله ورد عليه الشعراء المتدينون فيما قال . ثم خطوة أخرى أجراً وهي عرض الحديث والاخبار الدينية على عقله وصرخته بأن كثيراً منها لا يرتضيها العقل سواء في ذلك ما أتى به اليهود أو النصراني أو المسلمون .

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأناً ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل وأترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي

هل صح قول من الحاكي فنقبله ام كل ذلك أباطيل وأسماير
أما العقول فألت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار

ضلت يهود وانما توراتها كذب من العلماء والاحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا فنموا باسناد إلى الجبار
وإذا غلبت مناظلاً عن دينه ألقى مقاله إلى الاخبار

مسيحية من قبلها موسوية حكمت لك أخباراً بعيداً ثبوتها
وفارس قد شبت لها النار وادعت لنيرانها ألا يجوز خبوتها
فما هذه الأيام الا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

تفوه دهركم عجباً فأصغوا إلى ما ظل يُخبِر ، ياسهود
إذا افتركر الذين لهم عقول رأوا نبأ يُحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف تُقضى به المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصرى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الايام خلفا ولا حالت عن الزمن العهود

دين وكفر وأبناء تُقضى وفر قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

إذا رجع الحصيف الى حجاج تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يفسك جهل في صراها
والناس لا يحكون عقلهم في دينهم وانما هي تقاليد يتبعونها وعادات يجرون عليها.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقبوه
وظفلُ الفارسي له وُلاة بأفعال التمجس دربوه

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائمه وأن تفكر فيه معشر الحدوا
وأهل كل جدال يمسون به اذا رأوا نور حق ظاهر مجدوا

وقد سبقه المعتزلة إلى تحكيم العقل في الأحاديث وأنكروا منها ما لا يتفق
والعقل وخاصة «النظام» فقد كان ينكر الحديث في صراحة اذا كان عقله
لا يقره، لا يكتفي في الحكم على الحديث بالوضع اذا ضعف اسناده ولكن أم
من ذلك اذا لم يصبر أمام العقل ولكن أبا العلاء جرؤ على ما لم يجرؤ عليه
النظام وأمثاله وأراد أن يعرض الاخبار الدينية كلها أحاديث أو غيرها على
محك العقل وختم هذه المرحلة بقوله الشديد الجريء

تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحى أتاه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجى الى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها
اذا رجع الحكيم الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها
وقد كذب الذي يفتد بعقل لتصحيح الشروع وقد أمرضنه

وقد قوبلت أقواله في هذا الباب ببعض السخط ولكنه سار فيه أيضاً بخطى
ثابتة غير مضطربة وانما قلت ببعض السخط لأنه صاغها صياغة عامة يحتمل
كثير منها التأويل في جانبه

بعد ذلك نأتى الى المرحلة الثالثة في تقده العقلي، وهي أخطر المراحل
واشدها وأوعرها وهي التي تعرض فيها لصميم الدين هل الله موجود أو لا
وهل هناك وحى أو لا وهل هناك حياة اخرى أو لا وهل الانسان في هذا العالم
مجبور أو مختار — ما الحق في ذلك كله وأين أجده وكيف أجده؟

هنا كانت تترامى له الصورتان السابقتان المتعارضتان صورة الفلسفة

اليونانية ومن نحا منحها وهي التي تصوّر أن العقل وحده أداة المعرفة وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها والمعارف التي تصلنا عن طريقه هي وحدها الحق ولا حق غيرها والصورة الدينية التي تصور أن الحق يأتي من الله على لسان أنبيائه وأن مرد الحق إلى الوحي لا إلى الفلسفة وأن مركز الحق في القلب لا في الرأس — لم يستطع أبو العلاء التوفيق بين الصورتين ولا أن يكون صورة واحدة مؤلفة منهما ولا أن يضع لهذه دائرة اختصاص ولتلك دائرة انما تركها كما هي يعتركان وكل ما فعل أنه كان ينظر أحياناً إلى هذه الصورة فتعجبه ويستلهمها فتلهمه وينظر أحياناً إلى الأخرى فتعجبه ويستلهمها فتلهمه ، ان نظر إلى الأولى ألهمته الحاداً وان نظر إلى الأخرى ألهمته إيماناً ينظر إلى الأولى فيتوقد ذهنه فلا يرى إلا أسباباً ومسببات ومنطقاً ونتائج ومقدمات لاتسلم إلا إيماناً فينكر وينظر إلى الأخرى فيخفق قلبه ويرهف شعوره فيتربح من نشوة الايمان وهو في كلتا الحالتين صادق معبر عن نفسه أصدق تعبير وهذا الموقف ليس بعيداً عن حال كثير من المثقفين في كل عصر فكم منهم يبحار ويصدق ، ويلحد ويؤمن كالنفس تشدو لها أنعاماً حزينة فتحزن وأنعاماً سارة ففسر ، « إن الانسان يطغى أن رآه استغنى » وإذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا هو وأكثر مؤرخي أبي العلاء يخطئون لأنهم يتصورون في أبي العلاء وحدة الزمان والمكان والفكرة بل يتصورون نفسه الانسانية حجراً لاتعتره حالات فمن اعتقد ايمانه تأول له آيات الكفر ومن اعتقد كفره لم يأبه بآيات الايمان والحق أن من أ كفره صادق ومن جعله .ؤمناً صادق كلاهما يصور حالة من حالات نفسه وما أكثر حالات التغير في النفس اليقظة المتوثبة ، ثم هو في حال إيمانه صريح لايحتاج إلى كناية أو مجاز فهو يتفق وآراء الجمهور وفي حال الحاده مضطر إلى الكناية والمجاز خشية من السوء ومع هذا فقد تستغويه الفكرة فلا يعبأ بالناس ولا يعبأ بموته أو حياته .

لاتقيد لفظي عليّ فإني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وليس على الحقائق كل لفظي ولكن فيه أصناف المجاز

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وعند ذلك فاقمد كاذباً وقم

لاتخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وان تفعل فأنت مفرر
لنعد إلى موقف أبي العلاء من هذه المسائل الاساسية في الدين في
ضوء هذا الرأي هل الله موجود؟ اللزوميات مليئة بالاجابة بنعم .

إذا كنتَ من فرطِ السفاهِ معطلا فياجحد اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلا وأزعم أن الأمر في يد واحد
فأني رأيت الملحدين تمودهم ندامتهم عند الأوكف اللواحد

تعالى الله كم ملك مهيب تبدل بعد قصرٍ ضيق لحد
أقر بأن لي رباً قديراً ولا ألقى بدائمه بمجحد

للملك المذكرات عبيدٌ وكذلك المؤنثات اماء
فاللهلال المنيفُ والبدر والفرقُ قدُ والصبح والثرى والماء
والثريا والشمسُ والنار والنشرةُ والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ماعا بك في قول ذلك الحكماء
خني يا أخي أستغفر الله فلم يبق في الا الذماء

ليفعل الدهر ما يهيم به ان ظنوني بخالقي حسنه
لاتياسُ النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيره فياجهد انسان يقول لي الملك
الح الح

وأحياناً أخرى تجد له ما يجمع به في الانكار كقوله :
أما الاله فامر لست مدركه فاحذر لجلك فوق الارض إسقاطا

متى عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وقد عرضه

هل الكون قديم أزلي كما قال أرسطو أو هو مخلوق فان كما يقول
الدين ؟ أحياناً هذا وأحياناً ذلك فمن ناحية يقول :

وليس اعتقادي خلودَ النجوم ولا مذهبي قدمَ العالم
ومن ناحية أخرى يقول :

إذا صح ما قال الحكيم فما خلا زماني مني منذ كان ولا يخلو
أفرقَ طوراً ثم أجمع تارة ومثلي في حالاته السدر والنخل

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم
هل الانسان في هذا العالم مجبر أو مختار ؟
أما أكثر شعره فالقول بالجبر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

جيلة بالفساد واشجة ان لامها المرء لام جابلها

وأحياناً يميل إلى الاختيار ومسئولية الانسان

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها والالوم يلحقني وأهل نحاسي
عنب وخمر في الأناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسي
وأحياناً يرى التوسط بين الجبر والاختيار

لا تمس مجبراً ولا قدريا واجتهد في توسط بين بينا
هل هناك بعث وحياة أخرى ؟

أحياناً نعم وأحياناً لا

فنعم كقوله

وما انا يائس من عفو ربي على ما كان من عمد وسهو

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لإلهي خائف راجي

أصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر او كسرى

واني لأرجو منه يوم تجاوز
فيأمر بي ذات العين الى اليسرى

خلق الناس للبقاء فضلت
أمة يحسبونهم للنفاد
انما يتقلون من دار اعما
ل الى دار شقوة او رشاد

قال المنجم والطبيب كلاهما
ان صح قولكما فلست بخاسر
لا تحشر الأجساد قلت اليكما
او صح قولي فالخسار عليكما

ضحكنا وكان الضحك مناسفاة
تخطئنا الأيام حتى كأننا
و«لا» كقوله
وحق لسكان البسيطة ان يكوا
زجاج ولكن لا يماذ لنا سبك

خذ المرأة واستخبر نجوما
تدل على الحمام بلا ارياب
تمر بمطعم الأري المشور
ولكن لا تدل على النشور

مالي بما بعد الردى نخبره
الليل والاصباح والقيظ وال
كم رام سبر الامر من قبلنا
قد ادمت الآنف هذى البره
إيراد والمزل والمقبره
فنادت القدرة لن تسبره

دفنناهم في الارض دفن تيقن
واخيراً هل هناك وحى وانبياء او لا
الجواب ايضاً نعم ولا
فنعم في مثل قوله

ام الكتاب اذا قومت محكمها
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة
وجدتها لاداء الفرض تكفيكما
وآية لو اطعت الله تشفيكما

افلة الاسلام ينكر منكر
و«لا» في مثل قوله
وقضاء ربك صاغها واتى بها

افيقوا افيقوا ياغواة فانما
ارادوا بها جمع الحطام فأدر كوا
دياناتكم مكر من القدماء
وبادوا وماتت سنة اللؤماء

قالت معاشر لم يبعث المهكم
وانما جملوا للقوم ماكلة
الى البرية عيساها ولا موسى
وصيروا لجميع الناس ناموسا
ولو قدرت لماقت الذين طفقوا
حتى يمود حليف النبي مرموسا

ان الشرائع القت بيننا احناً
وهل ايحت نساء القوم عن عرض
واودعتنا افانين العداوات
للغرب الا باحكام النبوات

هفت الحنيفة والنصارى ما هتدت
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا
ويهود حارت والمجوس مضلله
دين وآخر دين لاعقل له
وهكذا وهكذا

لقد فكر ابو الملاء طويلا بمد هذه المرحلة الطويلة واستعرض ما فكر وما قال فماذا رأى؟ رأى تناقضاً في الفكر، وفي القول، يسلمه التفكير يوماً الى الشيء انه ابيض فيعلمه ثم يسلمه يوماً آخر الى انه اسود فيعلمه فاذا هو آخر الامر يعلنه انه اسود وابيض معاً ومحال ذلك، أيها الحق اهو اسود ام ابيض، لا بد ان يكون اسود فقط او ابيض فقط أما اسود وابيض معاً فضلال، وما هذا العقل الذي يسلمني الى الشيء وقيضه؟ عند ذلك صرخ من اعماق نفسه بأنه حائر لم يوفق، ضال لم يهتد وان ليس في الناس من يستطيع هدايته فكلمهم اما عاقل لادين له او دين لاعقل له وهو يريد ان يكون ديناً عاقلاً، والمطمئنون الذين استطاعوا ان ينجوا من الحيرة مقلدون لم يؤمنوا عن فكر وعقل فهؤلاء ضالون لتقليدهم وهؤلاء ضالون لحيرتهم فلا امل في هؤلاء ولا هؤلاء ان تجد عندهم هادياً والعقل وما ادراك ما العقل؟ اسلمت له قيادي فلم يسلم لي قياده، وآمنت به كل الأيمان وفضلته على كل الاديان وجعلته نبياً من الأنبياء ونوراً يلمع في الظلماء فلم يؤد رسالته ولم ينقع غلته فلا كفر به كما كفرت بغيره ولا أنكر سلطانه كما انكرت كل سلطة ولا كسر قيادتي التي غنيت عليها في مدحه ولا أضع اناشيد اخرى في ذمه فهذا هو الجزء الوفاق لمن وفيت له فلم يف لي واكبرت شأنه فأصغر شأنني وركنت اليه فحيرني جربت النقل فلم اطمئن اليه وجربت العقل فلم اطمئن اليه فلا أرفع علم الشك واعلن ان لا يقين .

سألت عقلي فلم يجبر وقلت له سل الرجال فما أفتوا ولا عرفوا
قالوا فمانوا فلما ان حدودهم الى القياس أبانوا المعجز واعترفوا

أرواحنا معنا وليس لنا بها علم فكيف اذا حوتها الاقبر

سألتعوني فأعيتني اجابكم من ادعى انه دار فقد كذبا

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي ان اظن وأحدسا

وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاج على التظني

نفارق الميش لم نظفر بمعرفة أي المعاني باهل الارض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار يجيء بها نقل ولا كوكب في الارض مرصود

انما نحن في ضلال وتعليق فان كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الروم م انتساب الفتى الى امهاته
جهلوا من ابوه الا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهاموا في حندس تتصادم
لقد تركت الدنيا للدين والنقل للعقل ولذة المادة للذة الروح فلا افدت هذا
ولا ذاك واخيراً

رحلت فلادنيا ولادين نلته وما اوبتي الا السفاهة والخرق

عقدة ابي العلاء اتت من عظمته وضعفه نبع من قوته - قد منح
عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيء يصل اليه ليعرف كنهه وشموراً
قويا رحباً بالانسان راثماً لبؤسه رحباً بالحيوان ممذبا نفسه في سبيل الرحمة به ،
ومثل هذا الشموور القوي يريد ان يؤمن ومثل هذا العقل يريد ان يواصل هذا
البحث حتى يصل الى الحقيقة ، ولكن - وهنا موضع العقدة - انه يريد ان يؤمن

بعقله كما آمن بشعوره والعقل ليس اداة صالحة لادراك الغيب - ادراك الله والحياة الاخرى والوحي والملائكة وما الى ذلك انما خلق ليكون اداة للحياة الدنيا ووسيلة لحفظها وبقائها ورفقها وهو عاجز كل العجز ان يرسم بريشته عالم الغيب المجهول الذي لا يخضع لقانون سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة وزمان ومكان وحيز وحدود .

لقد شغلت الفلسفة القديمة بالبحث وراء المادة فدارت حول نفسها ولم تصل الى نتيجة حتى جاءت الفلسفة الحديثة وعلى رأسها « كانت » فتحول بعض فلاسفتها من البحث فيما وراء المادة الى البحث في العقل نفسه ومقدرته على المعرفة وحدود ما يمكن ان يعرف وما لا يمكن ان يعرف ، ان العقل انما يستمد معلوماته من الحواس وكل البحوث في سائر العلوم حتى ادق العمليات الرياضية والهندسية منشؤها الحواس أعمل فيها العقل بالمقارنات وما الى ذلك والحواس لاتدرك من العالم الا بقدر فاذا انخفض الصوت عن قدر معين أو ارتفع عن قدر معين لم تسمع وهكذا العين والشم واللمس فكم في العالم من اشياء لم تدركها عقولنا لانها لم تدركها حواسنا - والعقل لا يستطيع أن يسير الا مستنداً على حواسه ولا يمكن أن يدرك من العالم الا مظهره هل يستطيع أن يدرك ما الضوء وما الكهرباء وما الجاذبية انما يدرك آثارها ومظاهرها هل يستطيع أن يدرك مركز نفسه وحقبة شعوره كلا انما يدرك آثار ذلك في الحياة الخارجية - من أين أتينا أين كانت حياتنا قبل أن نحيا ماذا تكون حياتنا بعد ان نموت ما حقيقة علاقتنا بالعالم الخارجي حولنا كل هذه الأسئلة ومئات نحوها لانعرفها ولا يستطيع العقل أن يعرفها ولم يتقدم العقل في ادراكها كما تقدم في العلم بقوانين المادة - كم في العالم من حجر مغلقة لم نعط مفاتيحها .

انما نشمر بالله وبالحياة الأخرى وبالمملكة الروحانية من غير أن نعقلها وتطمئن نفوسنا اذا آمنت وتقلق وتضطرب اذا ألحدت ، « لقد ارتفع برجسون » (الفيلسوف المعاصر) الى أوج الشهرة في أعوام قلائل لأنه دافع عن الاثبات الإنسانية وآمالها فكم اغتبط الناس واطمأنوا اذ رأوا فيلسوفاً يصون لهم ما يرجون من خلود وما يمتقدون في إله وقال وليم جيمس « لقد بحثت في نفسي ولم أعلم ماهي وما شبهها وأين تسكن وكيف تتغير وكيف تكون مجبورة وكيف تكون

مختارة ، وتغير نظرياتي في ذلك من وقت الى وقت ولكن مع هذا أو من بنفسي وأؤمن أنها مركز لكل ما أعرف عن العالم حولي « كذلك الشأن في ادراك المبدأ والمنتهى والله والخلود ، انها عقيدة وإيمان لا قضايا منطق .

اعتبر الاديان كلها ، مبعثها ومظهرها ، تجدها تختلف باختلاف الامم ورقبها وطبيعتها وتتغلب عليها صفة من الصفات تكاد تكون كالمحور : كاللضحية ومعنى الابوة والرحمة والغفران واطاعة الاوامر والفن والجمال وانكار الذات والاحسان الى الجميع والشفقة على الحيوان والشجاعة والجهاد في سبيل نشر الدعوة ولكن كل هذه الصفات على اختلافها من قبيل العواطف والمشاعر ولم نر ديناً أتى بفلسفة عقلية - لماذا هذا وقع في الحب وهام بمن يجب ولماذا هذا جمدت عواطفه ولم يجب ؟ لا ادري ولست تستطيع أن تقنع المحب بالحجج العقلية حتى يسلو ولا ان تقنع من جمدت عواطفه حتى يجب - ان عقله قد يقيم البرهان على خطأ الحب وقد يمنعه من الزواج ولكن لا يستطيع ان يمنعه من الحب وهكذا الشأن في كل المشاعر وهكذا الشأن في الدين الذي في القلب لا في العقل - اذا بحث الدين بالعقل المجرد لم تكن النتيجة ديناً ولا فلسفة وانما شيء تافه اسمه « علم الكلام »

وقد اراد ابو العلاء ان يضم الى ايمانه بقلبه ايمانه بعقله فلم يستطع ، وكانت العقدة . ولو نام شعوره وانتبه عقله لألحد مستريحاً ولو نام عقله وانتبه شعوره لآمن مستريحاً ولو صحا عقله وشعوره ورسم لكل حدوده وعرف لكل دائرة اختصاصه لاستراح أيضاً ولكنه اراد ان يصل الى الفاكهة المحرمة على العقل فلم يفلح وقلق واضطرب كما يقلق ويضطرب - كل من خرج على قوانين الطبيعة وحاول الخروج على طبائع الاشياء لأن الدين يفذي حاجة من حاجات النفس لاغنى لها عنه الا اذا مرضت هذا هو السبب في انه تقد المجتمع فنجح وتقذ الاخلاق فنجح وتقذ الاخبار فنجح وتقذ الدين في صميمه فلم ينجح يعجبني وصف بعضهم لهيجل وصفا ينطبق على أبي العلاء انطباعاً تاماً اذ قال « انه رجل كفر عقله وآمن قلبه » كما يصدق عليه ايضاً قول جوته عن « فاوست » « انه عقل طغى على القلب فاشق صاحبه » وايا ما كان فهذه الشخصية الفذة الشخصية المؤمنة الكافرة لشخصية الفلسفة الحائرة اخرجت كل ذلك وكل ما كان يتناوبها من نبضات قلب وخطرات عقل في صور فنية رائعة امتعت الناس وان اشقت صاحبها فرحمه الله ورحمه الله .

احمد امين

ابو العلاء المعري

المتشائمون

التفاؤل واللاؤربة في كلام الشيخ

١

كان النبي محمد، وكان هذا القرآن، هذا الكتاب المعجز، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون، وكان أولئك الائمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون، وكانت تلك المؤلفات الفائقات للحققات، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون. وكان هذا العبقرى أبو العلاء المعري (أحمد بن عبد الله ابن سليمان) رب هذا المهرجان. كانت الحضارة العربية وكانت هذه المدينة الغربية ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون. فمحمد والقرآن هما شأنها هذا المجد، وهما القائدان، وهما الهاديان، وهما الشمسان الباهرتان ذواتا الضياء السرمدي في العالمين [كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكروني أذكركم واشكروا لي، ولا تكفرون]. [سورة البقرة آ ١٥١]

* * *

« دمشق عروس الشام المومقة، وواسطة عقدها المرموقة »
في دمشق هذه التي قلت فيها — يا أبا العلاء — قولك هذا في رسالتك الى (أبي منصور محمد) قدمه ج العرييون لك اليوم هذا المهرجان بعد الف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك. وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب، وتقارع تلك المهجيات الشرقية

— ٦٥ —

م (٥)

٣ • المهرجان الألفى

والوحشيات الغربية ثم لم تبد بل لم تهين ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسان كتابها ، وعرفت قدرها في الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومساها اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تكون فكانت ، أن هذه الأمة لقوية وعزيزة وسائدة وخالدة في الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « أن مع اليوم غداً يامسعدة (١) » لا تردد كثيراً في هذا الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة نلاقي بها سود الخطوب وجرها
فطوراً نداري من سبيمة ليها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها
فالحال اليوم - ياأبا العلاء - متهدن ، والدهرمهدن ، وفي الدار من قبيلك صالحون
وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا في الاخلاص (٢) » ، كما يقول أبو منصور
الثعالبي ورئيس القوم (٣) ملائ من الفضائل الاسلامية ومن العربية والوطنية ،
وهو كما أحببت وكما أردت وكما قلت :

إذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم .

لا يتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً .
وقد آتى بكثير الخير وأكثره ، ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

كونت العربية في اللغات تكوين الألباس (٤) والاراديوم في المدنيات .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء]
ولله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظي انساناً على انسان (٥)
[ورفضنا بعضهم فوق بعض درجات]

(١) من امثالهم

(٢) في كتابه (المبهج) ورواه في كتابه (الايجاز والابحار) .

(٣) صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

(٤) هو الألباس والمهزلة واللام فيه اصليتان ، ولم يصب المجد في قوله : « ولا تقل الماس فانه

من لحن العامة » وقد وجدت (الألباس) في الفائق ج ١ ص ٣٣٦ وفي النهاية لابن الاثير .

(٥) أحظيت فلاناً على فلان من المظوة والتفضيل (المخصص) .

والشيخ يقول في (الفصول والغايات) : « وربك خص بالفضيلة من اختار »
 واذ قال العبقري ابن جني : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة
 اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقّة ما يملك على جانب الفكر
 حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدین
 وهذا شيخ المرابطين العلامة الكبير (نلينو) الذي حذق لغات متقدمين ومتأخرين
 من الغربيين والشرقيين يعالن في خطبة غير متمسح في الكلام ولا مصاد بأن
 « العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويمجز اللسان عن وصف محاسنها »
 « لغة العرب » أفصح اللغات وبلاغتها آتم البلاغات (١) « ولو تمثلت لغة عادة
 لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت (٢) .

فنتت هذه العربية (أبا الملاء) فتوناً وسحرته فنونها ، فأقبل رجلاً
 مسحوراً . شغف بكتابتها (قرآنها) ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أي كلف ،
 وهام بالفاظها هيامه بأقوالها .

« ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . . . ما حذني على
 مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . . جاء كالشمس الأئحة . . . لو فهمه الهضب
 الراكد لتصدع (٣) [وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية
 منه أو بعض الآية ليعترض في أفصح كلام يقدر عليه الخلقون فيكون فيه كالشهاب
 المتلائي في جنح غسق [فتبارك الله احسن الخالقين] (٤) » .
 « أجدني ركيكاً في الدين وكاكة أشعار المولدين (٥) »

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو الخضرمين أو الاسلاميين
 استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبي الملاء . وللکلام العربي القديم سلطان قاهر

(١) الزعفري .

(٢) الشنفرى الأزدي في مفضليته (اسبكرت) طاك وامتدت ، والمعنى - كما يقول الانباري

شارح المفضليات - : دقت في حسنها ، وجلت في خلقها .

(٣) الكتاب يقول : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . . .

(٤) أبو الملاء في (رسالة القرآن) .

(٥) أبو الملاء في (الفصول والغايات) .

إذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه (١) ، فلا يتقبل الا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبي جهرتا الشيخ وبهرتاه ما كان تخم حبيبا في (رسالة الفران) ذلك التفخيم مشيراً الى مقصده له فأثقت ثم قال : « إني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من الحمار (٢) وما كان افتتن بأبي الطيب تلك الفتنة . وسبك حبيب - وان كان محدثاً - عجيب . ولغته قد ضارعت أو قاربت في القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (النيث المسجم في شرح لامية المعجم) جماعة من «الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بدم من نالها» فلما جاء الى الشيخ قال : «أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة» .
يقول الأمام الشافعي في (رسالته في أصول الفقه) :

«لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي» . ولو أحاط انسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وان لم يحط به كله فقد أحاط - كما يخال - بجمله وتليذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن المديم في كتابه (الأنصاف والتحري) : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري » .

* * *

عبقرية عربية ثرت فهرت ، ونظمت فمجبت ، وفكرت فخبرت ، وأبدعت وتفننت إذ قالت وألفت فأدهشت . وعلمها في كل فن من فنون اللغة في وقتها علم إحاطة (٣) علم الحفي (٤) المحيط لا العالم التنقة (٥) . وإذا لم نر (الايك والنصون)

(١) سحره عن النبي : صرفة عنه .

(٢) الحمار جمع الحمار : الصدفة .

(٣) علمه علم احاطة اذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شيء .

(٤) الحفي : الذي يتعلم الشيء باستقصاء .

(٥) التنقة : الذي يفتن من العلم شيئاً ولا يستصيه . وكان أبو عبيدة يقول في الاصمى

ذاك رجل تنقة .

— وهو نحو من مئة جزء — وغير الايك والفصون ، ومؤلفات الشيخ كثير (١) فقد رأينا المطبوعات المعروفة ، واستدلنا بما حضر على ماغاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح في رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وباللغة والعروض من الخليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول : « ... لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، ان نعمتها فقد عبتنا ، وإن وصفتها فما أنصفتها . وأطربتي (يشهد الله) لإطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدر من خزائنه وكتبه حوله يقلب طرفه في هذا ، ويرجع الى هذا ... لكان عجبياً صعباً شديداً . ووالله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه اذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الكبار رجعوا الى أصولهم كالمقابلين . يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والمعجب العجيب والنادر الغريب حفظه لاسماء الرجال (٢) ، والمنثور كحفظ غيره من الاذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ؛ ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

واني لأقول : انه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية ثرية ، وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ وإذا كانت الاجادة لاتتفق في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران البقريان أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الادب والسير من ثرهما إلا رسالة قصيرة للاول سطرها البديهي في (هبة الأيام) ورسالة أقصر منها للثاني أوردها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) وأما البحري المسكين فكان لا يستطيع أن يخط في النثر سطرأ ، واذا خاطب احداً في شأنه وجه اليه شعراً . قال الشيخ في احدي رسائله : « روي ان البحري كان لا يقدر على كتب رقمة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور . »

وأية محلوفة بالقرآن وإعجازه لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الاثير وغير ابن الاثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومنااته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته » مشوا في عرض (العروض)

(١) قالوا : انها مئتا مجلد .

(٢) رسالة ابي العلاء الى ابي القاسم بن سبيكة بعزيه بأخيه - تؤيد قول ابن القارح .

المتشعبة ومناحي (النحو) المتفرقة المتصعبة كما مشى الشيخ ، وتقبوا مثلما تقب واستظهروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بمض ما استظهر — لأجبلوا اجبالاً^(١) أو غث كلامهم وجاؤا في القريض قرازيم^(٢) . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطر على كل فن ، ولم يسيطر عاها فن ، ولم ينزل نظيمها وثيرها من عليائها في وقت ، ولم تبدل لها دياحة أو بهجة

* * *

إذا قال أبو الطيب :

مابه قتل اعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب
فقطّ وشطّ وبدت (فاعلن) في العروض (فاعلاتن) في حين أن المتنبي
— كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام . يغير الكلمة
بعد أن تروى عنه . ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن^(٣) » . واذا
قال (الوليد) البحري :

وكأن الأيام أوتر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير^(٤)
فكسر وجاء نقص من الزيادة . واذا قال حبيب بن أوس :
بالقائم الثامن المستخلف اتطأدت قواعد الملك ممتداً لها الطول^(٥)

(١) أجبل الشاعر : أقعم .

(٢) القرازم . الشاعر الدون ، وهو يقرزم شعره يجمي به رديئاً .

(٣) رسالة أبي العلاء الى ابي الحسين أحمد بن عثمان النسكي البصري .

(٤) مراجع (الموشح) للمرزباني ، وذكر الشيخ في رسالة الى النسكي أن البحري كسر في قوله :

ولماذا تقيم النفس منه شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاء

(قلت) : رواية البيت في ديوانه المطبوع في بيروت هي :

ولماذا تقيم النفس .: شيئاً يجعل الله الفردوس منه بواء

(٥) تراجع (المثل السائر) : النوع الأول معرفة علم الرئية من النحو والتصريف .

(قلت) في الديوان المطبوع في بيروت : (اعتدت) مكان (اتطأدت) واليقين ان فاسحاً

قديمياً أراد اصلاح الكلمة ولو اطلم حبيب على ما جاء به هذا الوراق أو التاسع ليج

وضيح ، وأتر خطأً على هذا الاصلاح وأين كلمة من كلمة ؟ . . .

فتهور (١) البيت في اللغة بـ (اتطادت) ولم يتطد .
 اذا جازف في اللغة المجازفون وطفف المطففون « ويل للمطففين » فعند الشيخ
 الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلاني (٢) الحكيم .
 « موازين صدق ، كلها غير عائل (٣) » .
 ثم أبو العلاء مترسلاً ومسجماً فبذ النائرین في وقته والذين من بعده
 كلهم أجمعين ، وشعر فتبدي في سماء القريض شمساً علائمة لاتأفل ما كان القرآن ،
 وكان هذا اللسان المبين .
 ولقد أصاب الشيخ وأطاب (٤) حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه
 الكلمات الغريبات ، فجمع ناديات شارادات لم تر كثيراً منهن في معجم من المعجمات .
 وان عربيات قديمات نشأت في (الجزيرة) مع أخوات لمن - لحريات أن يظهرن
 وأن يعرفن . وقد برع أبو العلاء اذ نص تلك الغرائب في حلل عدنيات (٥) من
 العبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظة غريبة جملة أو
 بيتاً خير من توحيد (٦) . ولكل لغوي في التصنيف نمط . واذا احسن المعري
 فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهري وابن دريد .

* * *

لم يكن الشيخ من العبقرين الملهمين بل كان من العبقرين الدارين المدركين ،
 تعلم واستعلم فلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملمم حال ، وللدارس حال ،
 ولذاك وحي ، ولهذا مقال ، والوحي لا يحصل ، ولا يؤازره مؤازر .
 وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه في دنياه أو مرجاه (٧) الأسمى

(١) تهور : اتهدم

(٢) الصيدلاني والصيدلاني : نسوبان الى الصيدل والصيدن وهما أصول الاشياء وجواهرها
 والتون للمبالغة (الفائق)

(٣) عائل : عائل

(٤) أطاب : جاء بقبو طيب

(٥) عليه عدنيات أي ثياب كريمة ، وأصلها النسبة الى عدن ، تقول : مرت جوار مدنيات

عليهن رباط عدنيات (الاساس)

(٦) وحد الشيء : صار على حدته

(٧) استعمل اللفظة أبو الطيب المنهني وقال سمعتها من العرب

أو مثله الأعلى أن ينبغ فيها وفي علومها فنبح ، وبلغ حيث بلغ . فهو به (١) هو هذه اللغة ، وفنون زمانه التي شاء عرفانها هن للمهوي تبع .

وإذا تمادى الشيخ في إعجاباه بالعرب الأقدمين ، وتطربه سجع محدثين مسجعين فقلد فقد افتن في تقليده واجتهد ، فعد في الشعراء والكتابين من المبدعين . وتذرع أبو العلاء بالله وتحميده وتعاجيدته فنظم (اللزوميات) وصاغ أوحاك (الفصول والغايات) والمقاصد لغوية لألمانية (٢) ، لادينية ، وان اشتملت على أشياء منوعات مهولات (٣) ملونات قد بدت مثل (صندوق العجب) . وما كان يغرب حين يغرب - حتى يعمي مقالة ولكن ايعلمن قدرة وبراعة . وكيف يكفر معني قصده وقد أصحبه شرح الغريب من ألفاظه .

ومؤلفات الشيخ العبقريه هن بنات القصد والتكلف وبنات الاثرية .
« . . . وقد تكلفت في هذا التأليف - يعني اللزوميات - ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية أن يحجب رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يئزم من ياء أو ثاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي أثرته ، ويحقق قوله في (لاميته) ويقصد ويتكلف ما كانت امثال (اللزوميات ، والفصول والغايات ، والأيك والقصون) مما عرفناه وحرمانا إياه جهل الجاهلين . وضلال الصليبيين وتترية التتر وحوادث الأيام ، وما كانت العربية ازدادت ثروة بآهرات عبقریات تباغت بها ، وباهت غيرها من اللغات ، وإذا هجّن في العلم والأدب تكلف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون فتكلف العباقرة القادرين يجلب عن كل تعيب او تهجين .

* * *

حرث ابو العلاء القرآن حرثاً (٤) عجيباً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ،

(١) هو به : محبوبه ، ممشوقه .

(٢) هذه نسبة الى اسم الله عز وجل إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب واقتضاب صيغة ، ونظيرها الرجولية في النسبة الى الرجل والقياس الهية ورجليه (الفائز) .

(٣) ورد المهول في شعر تميم رواه المخصص وفي أمثال العرب .

(٤) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن . وفي [الاساس] : وحرثت القرآن

أطلت دراسته وتدرسه .

واستهداه فهداه وذهن او ادرك من الهية (الكتاب) وسماويته ومن عربيته الناصمة الصافية ذات الاعجاز ، وبلاغته الخارقة العادة ما دركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي او كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكبدودة . ومصنف الشيخ (تضمين الآي) « وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره (١) » بين أنه بلغ في علم (الكتاب) المبالغ - كما يقول الزمخشري - ولا يضمن مثل ذلك التضمين الفائق البديع الا من خرجه (القرآن) هذا التخرّيج العظيم البليغ . [ومن يهد الله فهو المهتدي] .

بصر الكتاب الالهي الحمدي (أحمد بن عبد الله بن سليمان) بعجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كوثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام العلابي ونور .

نوّر القرآن قولاً فعلاً وسما صاحبه في القائلين . انما القرآن هدي الناطقين ، انما القرآن نور العالمين . غث قول لم يهذه (الكتاب) .

والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب العجيب المبين ؛ إنه يراه نابئة الأوربيين الأديب البقري العظيم (جان ولفنغ غوت) قد أعطى فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً ، عظيماً ، سامياً ، متعالياً ، رائعاً مهيباً قد خرق العادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم - كما قال - حيث بلغ . ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام . فان وجدت لمحمد خطيراً (٢) ألفيت للقرآن نظيراً .

[قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] .

دعكم الى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشبه الدجى من طالعات وآفل

(١) مقتبسة من البديع الهمذاني ولشبل الدولة في الزمخشري :

زمخشري فاضل أنجبه زمخشريه

كالبهر إن لم أره فقد أناني خبره

(٢) خطير الشيء مثله [المضمّن] وفي اللسان : فلاز ليس له خطير أي ليس له نظير ،

وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون الا للشيء السري .

وألزمكم ما ليس. يمجز حمله
 وحث على تطهير جسم وملبس
 وعاقب في قذف النساء الفوافل
 وحرم خمرًا خلّت ألباب شربها
 من الطيش ألباب التمام الجوافل
 فصلى عليه الله ما ذر شارق
 وما فت مسكاً ذكره في المحافل (١)

* * *

ابو العلاء « هو جوهرة جاءت الى الدنيا وذهبت (٢) » .

٢

لما شاء الله أن يثب قبيل من نامية (٣) الله تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ،
 وليست الطفرة على ذي القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات [ولقد خلقنا
 الانسان في أحسن تقويم] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل
 بتلك اللهجات اليبينات ، وكرّم الله اناسي كثيرًا على سائر المخلوقات بالذي دعته
 اللغات (العقل) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الانسان على غيره العظيم .
 [ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ،
 وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً] .

« الباب أهل الألباب ، ولكل حيوان حس ولكن الله فضل الناطقين (٤) » .
 لما كان الذي سمته الافرنجية (Evolution) وصرنا الى أفق الانسانية الذي
 ذكره ابن خلدون ووضحه وفصله النشويون تفصيلاً [وقد خلقكم أطواراً]
 ونجم في الأدمغة ذلك (الفكر) المضيء ، وهو خير مافي الدنيا بل هو كل مافي

[١] ابو العلاء .

[٢] قال الصفدي في [نكت الهميان في نكت العبيان] : « حكى لي عن الشيخ بحال الدين

ابن الزملاكاني انه قال في حقه هو جوهرة النخ » .

[٣] خلقه لأنهم ينون .

[٤] في (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس
 والحمار فأما أنفس ناضجة غير كاملة ، وهي ضئيفة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم
 يشم فيها نور النفس الشريفة ، ولم يثبت فيها شمع العقل الكريم فوجب من هذا الوجه أن
 تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وطلانها لأن الحكمة انتهت الى ذلك الحد في كونها حشواً
 لهذا العالم وزينة ونباهة ومبالغ الى غايات وأغراض .

الدنيا — كما يقول العلامة بوانكريه — ومحل العقل (الدماغ) كما ذهب الى ذلك أبو حنيفة وأرنست هيكل لا القاب كما ظن الشافعي . واستنبط الحجي معاني للأشياء كانت خافية قبل ذلك (الارتقاء) وهشت النفوس وبشت بما ترى العيون ، وأقبل (الادراك) وآتى (الفهم) فأدرك المحسوس أو المحس ، وفهم المنظور ، والحس البحت والنظر الصرف كما يشعر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلاشيء ، كونهما مثل العدم ، إن الهناء والسعادة في البصيرة لا البصر .

لما ارتقيننا وعقلنا وعلمنا وبنينا وحضرنا وغرسنا وتولونا :

[هوَ أنشأكم من الأرض واستمركم فيها] .

[هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً] .

وقال الشيخ أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر — طوفه بالكعبة — حول قاف (١) ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجرة من تهامة (٢) فيوقد بها ناره في بيرين (٣) وقاصية الرمال (٤) » فحقتنا قوله ، وطار في الجو أو في السمهي (٥) مثل الطيور الطائرون ، وسمعنا في دمشق سرار القوم بله الطنطنة (٦) في برلين وفي لندن وفي باريس وواشنطن وبله العططة (٧) في ميادين القتال. وأورى (مركوني) ما أورى وهو في سفينته في بحر الروم فأضاءت (سدني) في أقصى الأرض [ويخلق مالا تعلمون] .

- (١) قاف : جبل يحيط بالأرض . . . وقاف في سلم الذي هو جبل في المدينة : يترب .
 (٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالي الحجاز .
 (٣) بيرين : من أصقاع البحرين ، وبيرين قرية من قرى حلب .
 (٤) رويت هذه الشذرة في إحدى مقالاتي في [الرسالة] ٢٥٠ س، ٦ في ١٧ صفر ١٣٥٧ ،
 وهوان المقالة [المختصرات وكتاب الفصول والغايات] .
 (٥) السمهي : الهواء ، الجو .
 (٦) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به .
 (٧) العططة : تنابع الأصوات في الحرب وغيرها .

لما قطعنا ماقطننا ، وبلغنا مابلغنا ، ومشينا اليقدمية (١) وحمدنا وشكرنا
 و [الحمد لله رب العالمين] طلعت علينا أجواق تدم الوجود ، وتهجو الحياة ،
 وتطري العدم ، وتلعن الدنيا ، وتكنيها بأم دفر وأم درن ، وتصفها بأنها دار
 قلعة (٢) ، منزل قلعة (٣) ، وتسمى خيراتها حطاماً . وجاء فوج أنكر كونها .
 ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف
 لها وجوداً » « وقيل لآخر : مامثل الدنيا ؟ قال : هي أول من أن يكون لها مثل »
 وتمادى محمد بن واسع في استحقارها بل جاز المدى « قيل له : فلان زاهد ، قال :
 وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها » وأقبل الحجاج بن يوسف متقرئاً
 متحنئاً (٤) فقال في احدى الخطب : « والله ما أحب أن ماضى من الدنيا بعامتي
 هذه . ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو أن هذا الكها كه - وكان
 الحجاج قصيراً أصفر كها كها (٥) - ابدى الى العربية تلك اليد ، وتقرب الى
 (الكتاب) ذاك التقرب الكريم المشتهر ، وولع بالقرآن ولماً كبيراً حتى قال عمر
 ابن عبد العزيز : « ما حسدت الحجاج على شيء حسدي اياه على حبه القرآن وإعطائه
 اهله » لولا كل ذلك لسخطنا واطلنا القول فيه . وبدا (الوليد) متحذلقاً متفلسفاً
 في هذه المقطوعة التي اخرجته من بغداد :

اخي ، متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
 ارى علل الأشياء شتى ولا ارى التجمع الا علة للتفرق
 ارى الدهر غولاً للنفوس وإنما بقي الله في بعض المواطنين من بقي
 فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ؟ وعرج على الباقي وسائله لم بقي ؟
 ولم ار كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينه تطلق

[١] اليقدمية : التقدم بالهمة والأفعال . وفي [الفائق] في حديث ابن عباس ان ابن أبي
 العاص منى اليقدمية وأن ابن الزبير منى القهري . أي المشية اليقدمية التي يقدم بها الناس أي
 يتقدمهم وروي بالناء غلطاً .

[٢] قلعة : ابتلاع ، تحول وارتحال .

[٣] منزل قلعة : المنزل الذي لا تملكه والقلعة من المال مالا يدوم .

[٤] [القهري] المنسك [المتحنئ] المتعبد .

[٥] [الكها كه] هو الذي اذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس ضاحك من الكها كه [الفائق]

تراها عياناً (وهي صنعة واحد) فتحسبها صنعي لطيف وأخرق (١)
ومن قوله له :

ان الزمان زمان سو وجميع هذا الناس بو .

وأطل علينا أحمد بن الحسين الكندي مجهوراً هذا الكلام (٢) :
إذا كان الشباب السكر والشيب هما فالحياة هي الحمام

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل خلوة الحسنة إلا أذى البعل
وما تسع الأزمان علمي بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملي
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشاق فيه إلى النسل

يقول ابن الأثير في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) :
« كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٩٦) ورأيت الناس مكبين على شعر
أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدباؤها عن سبب ذلك ،
فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إنني فاوضت عبد الرحمن بن علي اليبساني
في هذا فقال لي : (ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق
فيما قال ، فهل نطق المتنبي بتلك الأبيات عن خواطر الاناسين أم لغائها
عن سوانح الشياطين ، انهم الشعراء يفتلتون (٣)] ألم تر انهم في كل واد
يهيمون [و د الشعر للخلد (٤) مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا
حقيقة له ، ويقول الخاطر ما لو طولب به لا تكره (٥) . » وإذ ارجع

(١) في أمالي المرضى : قيل : ان السبب في خروج البحري من بخداد هذه
الأيام ، فان بعض أصدائه شتم عليه بأنه تنوي حيث قال (صنعي لطيف وأخرق)
وكانت العامة حينئذ غالبية على البلدة ، فضاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الفوت :
قم يا بني حتى نطفي هذه النائرة بخرجة نلم بها شمتنا ونعود ، فخرج ولم يمد .

(٢) جهود الكلام : فغنه .

(٣) الفلحة الكلام يقم من غير إحكام وقد افنته وفي الأساس : افنتك الكلام :

ارتجىل . وكل شيء فلكه فلحة قد افنتك .

(٤) (الخلد) القلب ، النفس .

(٥) أبو العلاء في مقدمة (سقط الزند) .

إلى الحقائق فنطق اللسان لاينبيء عن اعتقاد الانسان (١) .
 ودهمنا ابن الشبل البغدادي هتاتاً (٢) جدافاً (٣) يردد هذا الشعر:

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
 بالذي نفتندي نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
 قبج الله لذة لأذانا نالها الامهات والآباء
 نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فإيجادنا علينا بلاء
 آيت شعري وللبلى كل ذا الخلق بماذا تميز الأتبياء
 موت ذا العالم المفضل بالنطق وذا السارح البهيم سواء
 لاغوي لفقده تبسم الأرزق ولا للتقي تبكي السماء
 انما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخريين انتهاء

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
 مدارك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار
 وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدرسها البوار
 ودنيا كلما وضعت جنيناً غذاه من نوائبها ظؤار
 هي المشواء ماخبطت هشيم هي المجاء ماجرحت جبار
 نعاقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
 ومنتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا انتظار
 ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أخرج الوجود
 فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار؟
 وكانت أنعماً لو أن كوناً نخير قبله أو نستشار
 لقد استأسد ابن الشبل على الحق وبالغ في المفظة والمسلطة (٤) ، ولقد

- (١) أبو العلاء في (رسالة القرآن) في أثناء حديث عن المثني .
- (٢) هتات (مهذار كثير الكلام .
- (٣) جدف بيمه الله : كفرها واستقلها . وفي حديث : لا تجدوا بيم الله .
- (٤) (المفظة) تخليط الخبر (والمسلطة) الكلام على غير نظام .

عجينا اذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنَّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريرات (أعني الاناسية) في الكون أو في العدم ، ويقول لها : « أنت على المتخير ، أنت بالمختار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تلالى (١) . [وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون] .

« ذرية الانس ، لا تُزهوا فانكم ذرا تمدون أو غملاً تضاهونها (٢) » ان الاناسي لم يتمثلوا بشراً أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لا يعلم عددها إلا الله . ومثل ابن السبل انما نشأ ذرية لاتكاد ترى بالمجهر [ثم أنشأناه خلقاً آخر] درجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لا يحس في وقت ولا يسمع وما عقل ان عقل — إلا بالأمس ، ففي أي طور وفي أي حين يجير أو يستشار ؟ . [ان الانسان ليطنى أن رآه استغنى] او رآه قد احتسى من بحر علم الله حسوة . !

ان قوماً لم يريدوا ان يكونوا ، وما احبوا ان يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردل صبغ بأشبع صبغ « غرارة ضاراة ، جائلة زائلة ، نافذة بأئدة ، أكلة غوالة (٣) » كما يقول قطري ، ان كان قال هذا . وهجوا قطين الأرض ، أهل الدنيا شر هجاء .

(١) تلالى : قول : لا ، لا .

(٢) أبو العلاء .

(٣) من خطبة أوردها الجاحظ في (البيان والتهيين) وابن عبد ربه في (العقد) وروى بعضها ابن قتيبة في (عيون الأخبار) وعراها هؤلاء الى قطري بن الفجاءة . ورواها الرضي في مجموعة (النهج) وقال شارحه ابن أبي الحديد : « قد رأيتها في كتاب (الموثق) لأبي عبد الله المرزباني سروية لأمر المؤمنين (عليه السلام) وليس بيعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين ، فان الحوارج كانوا أصحابه وأنصاره . وقد لقي قطري أكرمهم » قلت : صانها عندي مجهول .

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها مافي البرية كلها لإنسان (١)
 أتني على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر (٢)
 زمان يمر وعيش يمر ودهر يكر بما لايسر
 وحال يذوب ، وهم ينوب ودنيا تناديك أن ليس حر (٣)
 واذا سمعوا المتغائلين الخلص يقولون : (ليس في الامكان أبدع مما كان)
 تمدوم صائحين : (ليس في الامكان أقبح مما كان) وما النجاة عندهم لمرئجي خلاصه
 مما يقاسي ويرى الا في الانتحار .

كفي بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٤)
 ولهم في قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم
 الذين سماهم المصطلح العربي بالمتشائمين واسمهم بالفرنجي (بسيمسم) إما أن يكونوا
 الهيين ومؤمنين ، وإما ان يكونوا دهرين طبيعيين .
 [وقالوا : ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما
 لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون] .

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال : انما أتم بقل (٥)

« ضل الذي قال : البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كتبها
 وأماننا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورقتها (٦) »

(١) ابن الهبارية .

(٢) البديهي من شعراء القيمة .

(٣) ابن سفة .

(٤) المثني .

(٥) و (٦) ابوالعلاء ، قال شارح (سقط الزند) : « هنا رد على الدهريين الذين يقولون :
 أن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث بأحداث محدث والناس كالكليات يبتنون ويعودون بالموت
 هشيماً ، وهذا كفر صريح وضلال بعيد بل الحق أن العالم محدث مخلوق أحدثه الواحد الحق بقدرته » .
 وفي « شرح التهج » لابن أبي الحديد :

« قال قاضي القضاة : انه أحد من القلاء لم يذهب الى نفي الصانع للعالم ، ولكن قوه أسن الوراقين
 اجتمعوا ووضوا بينهم مقالة لم يذهب أحد إليها وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا
 إله للعالم ولا صانع أصلاً ، وانما هو هكذا ما زال ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر . وأخذ ابن -

فان كانوا من الأولين فهل يحق الا الإيقان كل الإيقان بأن ليس -
ثمة الا الحكمة التامة والاتقان .

[ماترى في خلق الرحمن من تفاوت] .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء] .

[الذي أحسن كل شيء خلقه] .

[صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟] .

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم [أغسبتم انما خلقناكم عبثا]
وان كانت برهمية وبوذية تريان الكون شرّاً ، فليست البرهمية والبوذية
على شيء . ولا يحتسب بمثلها . وان عدها (أرثر شوبنهاور) أكل الأديان
طراً من أجل هذا المعتقد .

نعم « ما الدنيا إلا مُعمرى ^(١) ولا خلود إلا في الأخرى ^(٢) » ، و« الدنيا
قطرة الآخرة » لكن هل علينا أن نغمد في القطرة نشق ونزق ،
ونخمش الوجوه ، ونلطم الخدود ، ونلدم الصدور حتى يجي الأجل ،
حتى يجي وقت النقلة و (الكتاب) يقول :

[ولا تنس نصيبك من الدنيا] .

ونطقُ (الكتاب) فصلُ الخطاب .

وان كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يسألون : هل علمتم
كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنها كانت داراً تستمر استعماراً
ولم تزل بقايا خبايا في الزوايا تضطرم . فافرقوا تأريخها واقروا تأريخكم ، وفتشوا
صحائف الأنساب .

— الراوندي هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب « التاج » . قلت : ذكر الشيخ ابن الراوندي
وتاجه هذا في (رسالة النفران) وبما قاله : وأما ابن الراوندي فلم يكن الى المصلحة يهدي ، وأما
تاجه فلا يصلح أن يكون نلاً وهل تاجه الا بما قالت الكاهنة : اف وتف ، وجورب
وخب

(١) العمرى ماتجمله للرجل طول عمره أو عمره . قال تلمب أن يدفع الرجل الى أخيه داراً
فيقول : هذه لك عمرك أو عمري ، أينا مات دفنت الدار الى أهله ، وكذلك كان فلم في الجاهلية
(الاسان) .

(٢) الزمخشري .

[هل أتى على الانسيان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً] .
وانظروا كيف عادت (١) (محلة) (٢) كيف عادت هذه (الغبراء) ،
وانظروا كيف عدتم بشراً ، وكيف سدتم أقرين وأبعدن . وان تأخر
من عترتكم متأخرون اذ تقدم متقدمون فتعلموا أن السابقين والمتوقفين
المتكئين لم يبرحوا في البدء ، لم يبرحوا في أول الطريق ، لم يبرحوا
في الطور الشنبزي كما قال توماس أديسون :

تشبه بعض بعض فما تزال الشائل قرديه (٣)
فأجدر بالدهريين الطبيعيين الذين ينشدون :

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها
فهي دار لا ترى من بعدها أحسن منها (٤)

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنيين : معنى هذي ، ومعنى تلك
بل يقولون : كل شيء معناه ومنتهاه فيه — أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من
المتشائمين في حين . ومقالهم هذا المقال .

* * *

ان الفتى بكونه سعيد ، بكونه حسبٌ قد سعد بما وجد — كما يقول
الانكليز — فذروا التشاؤم في الحياة يا أيها الناس ؛ وأهجموا أنفسكم
واجتذلوها لعلكم لا تحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول (٥) ،
ولا تشامموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر
الشيخ في رسالة الغفران :

تفادل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

- (١) العود بمعنى الصبرورة ، وهو كثير في كلام العرب كثيرة فاشية لانكاد تسمم
يستملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراه ، عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مال (الكشاف) .
- (٢) محلة : الأرض ، وكحلة السماء .
- (٣) أبو العلاء .
- (٤) رواها صاحب (فتح الطيب) ولم يسم فائلها .
- (٥) جمع الفأل .

وكان (صلى الله عليه وسلم) كما روت أحاديث — يتفاعل ولا يتطير .
 وكونوا لإثارين أثريين في هذا الوجود كما تقوا أنفسكم ، وكي تصونوا
 جنسكم ، وتسمدو وترتقوا . إن الاثريّة والايثارية هما الفضيلتان العظيمتان
 متحدتين لامفرقتين ، وأولى لأثري كافر بالايثارية ثم أولى ؛ وأولى لاياثري
 لم يؤمن بالاثريّة ثم أولى ! إن الأول شرير شيطان من الشريرين ،
 وإن الثاني — إما كان — لذو جنة في المجانين .

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء فقد أعلنت أقواله الحقيقة ، وهدت
 إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين ، وفندت مذهب المتشائمين ، وبينت
 للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسرون في هذا الوجود .
 ولو اطلعنا على أكثر مما اطلعنا عليه مما أملاه الشيخ لروينا من هذه
 المعاني كتباً كبيرات لاصفحات معدودات ولكن قد حال بيننا وبين المراد
 جهل الجاهلين وجرم التتر والصليبيين — كما ذكر ذلك من قبل — فاجتزأنا
 برواية ثقة من الأقل الباقي .

٣

الأمل :

لي أمل ، فرقانه محكم اقروءه غصاً كما أنزلنا

أجرى من الخليل آمال أصرفها لها بحقيّ تقرب وإخباب (١)

لافتنظن أيها الانسان ، فان بلغتك (٢) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك
 وأنت تبصر الأحلام ، لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يداً لجذب
 المضطجع باليد ، أو قدماً لوطي على الجسد . لا يزال الرزق مرتقاً على الهامة
 ترنيق (٣) الطير الظاء على الماء المطمع (٤) .

- (١) التقريب والحجب : ضربان من سير الفرس في الأصل .
- (٢) البلغة ما يبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .
- (٣) رفق الطائر خفق بجناحيه في الهواء ورفرف ولم يطر .
- (٤) المطمع الذي أطعمها في النزول عليه (أبو العلاء) .

سمّ الهلال إذا عاينته قرأً إن الأهله عن وشك لا تقار

وقد يحمل الانسان في عنفوانه وينبه من بعد النهي فيسود

أحسبت الخير ليس بمثمر؟ بلى . ان للخير ثمرة لذت في المطعم ،
وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في العظم ،
فما ظنك بشمرة هذه صفتها؟ .

هون عليك :

الأمر أيسر مما أنت مضمرة فاطرح أذاك وهون كل ماصبا

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ماصبا

العلم كالقفل ، ان ألقيته عسراً نخله ثم عاوده لينفتحا

دع ماضر وصعب ، إلى مانع وهان . واترك المضلة إلى المرشدة فان
طرقات الخير كثير .

لا طيرة

الأيام كلها لله ، وربما ساءتلك عروبة (١) ، وسرك الخميس . وإذا نزل
بك نازل في يوم فلا تمقته لذلك .

بركات الله ورحمته

يسث الله في نهار وليل بركات من رزقه مدروره (٢)
غشيت رحمة الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات .

(١) الجملة ، في «النهاية» : هو اسم قديم لها وكأنه ليس جرمي ، يقال : يوم عروبة
والعروبة والأفصح ألا يدخلها الألف واللام .

(٢) « مدرورة » كثيرة ، في الاساس : ومن الجاز : درت الدنيا على أهلها
إذا كثر خيرها .

فرح الملاء بالكلاء^(١) وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء اللبأ^(٢) وذهب الوبأ^(٣) ، فسبحان الله العظيم ! يا خصب ، ثب لتراق الكتب^(٤) على الكتب^(٥) وعلى الله رزق العالمين .

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة ربت جسوماً وفيها للعيون سنا
 طهت لك الشمس ما يفتي اخادعة عن أن يكون له في الأرض طاهونا
الاقدام، الجسارة :

واني رأيت الصعب يركب دائماً من الناس من لم يركب الغرض الصعبا
 والعيش جسر ، نال من هو جاسر أو كاد فيه وخاب من لم يجسر
 ويحمد الصابر الموفى على غرض لا عاجز بمرى التقصير معقود
 ينبني للمسبوق ألا^(٦) يؤثر بصبوح ولا غبوق^(٦) ، فليستحي المتأخر أن يفتخر
 الخفيف من رأي السخيف ، فاجر على معارئك في تقوى الله ؛ والخيل
 بفوارسها متمطرات^(٧) .

انما نحن في أحلام نائم لأحلام ذوي العزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع

(١) الكلاء : العشب ج أسكلاء .

(٢) اللبأ : اللبن ، أوله .

(٣) بالصر والمد .

(٤) الكتبة الطائفة من طعام او غيره ، القليل من اللبن .

(٥) الكتيب : التل من الرمل .

(٦) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف النبوق : شرب العشي « اللسان » .

(٧) الخيف : جهم خيفة ، (المطرة) العادة « متمطرات » جهم منطرة وهي المجتهدة في

الصدوق . والتفسير للشيخ .

الفراقد ، فاذا استيقظ رآها بالجدد (١) .

وكن في كل نائبة جريئاً تصب في الرأي ان خطي الهدان (٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان (٣)

اشجع فان أقدار الله لاتعجل الى الشجاع . صل على الظالم بالمنصل (٤) .
الذنيا ، الحياة :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا وأهو كما لهوا

أمور دنياك سطر خطه قدر وحبها في السجايا أول السطار

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

نفسى بها ونفوس القوم ملهجة ومحن نخبر أنا لانبايها (٥)

أمرتنى بسلو عن خوادعها فانظرهل أنت مع السالين ساليها؟

ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قاليها

فترو من هذي الحيا ة لكي تموت النفس ريا

* * *

الموت ، كرهه

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجري لذكر فراقها منهله !

ولم أرد المنية باختيارى ولكن أوشك الفتيان سحبي (٦)

(١) « الجدد » : الارض .

(٢) الهدان الضيف الجبان الذي لا يهتدي لأموره (شرح السقط) والهدان الاحق التقبل .

(٣) تنطس في كل شي اذا ادق فيه النظر (الاساس) .

(٤) المنصل - يضم الميم والصاد ، ويضم الميم وفتح الصاد - السيف . في التاج : قال ابن

سيده : لانعرف في الكلام اسماً على .فعل ومفعل الا هذا وقولهم منخل ومنخل .

(٥) ملهجة : مولنة .

(٦) الفتيان الابل والبار .

ولو خيرت لم أترك محلي فأسكن في مضيق بمدرحب !

فليت الفتي كالبدر جدد عمره يعود هلالاً كلما ففي الشهر !

أحسن بدنيا القوم لو ان الفتي لا يقتضى ، وأدعيه لا يحلم (١) !

تضاعف همي أن أتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الواقص (٢) !

فواهاً لأشباح لكم غير أنها تبدلُ من أوطانها برموس !

أبنانا اللب بلبيا الردي فالغوث من صحة ذاك النبأ !! !

موت البطولة

هناك ضرب من الموت لا يكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة في الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربي :

إذا المرء لم ينش الكريمة أوشكت جبال الهويثى بالفتى أن تقطعا (٣)
والجهاد من دين المسلم :

[كتبَ عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون] .

[وجاهدوا في الله حقَّ جهاده] .

[وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون] .

[انفروا خفافاً وثقالاً (٤) ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون] .

(١) يقتضي : يطالب كأن الحياة دين عنده فإذا جاء الأجل انتضاء يقتضي .

(٢) رقص البمبر يرقص رقصاً - محرك القاف - إذا أسرع في سيره . ولا يقال يرقص الا للامب والابل وما سوى ذلك فإنه يقال : يقفز وينقر . (اللسان) .

(٣) الكعبة العري في مفضلية .

(٤) خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركبناً ومثاقاً أو شباباً وشيوخاً أو صحاباً وسراصناً (الكشاف) القصد بالآية الحديث على التفرغ على كل حال تصعب أو تسهل (مفردات الراغب) .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ :
وما سلُّ المهند للتوقي كسل المشرفية للتشفي
فالموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

* * *

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يفتنى أهلها الطعن والضربا
فان قبيحاً بالسود ضجمة على فرشه يشكو إلى نفر الكربا

كل يحاذر حتفاً وليس يقدم شره
ويتقى الصارم المضرب أن يباشر غربه
والزرع فوق فراش أشدّ من ألف ضربه

لقد ركزوا الأرماع غير حميدة فبعداً نخليل في الوغي لم تطارد !
وما يجمع الأشتات إلا مهذب من القوم يحمي بارداً فوق بارد (١)

لضربة فارس في يوم حربٍ تطير الروح منك مع الفراش (٢)
أخف عليك من سقم طويلٍ وموت بعد ذاك على الفراش

ألا تنهض للحرب وتدعو للوغي شوسك (٣) ؟
وقد علمتُ وغيري عن مشاهدة أن الملا الف قوم في الوغي ليس (٤)

وجدتك اعطيت الشجاعة حقها غداة لقيت الموب غير هيوب

من السعادة أن يموت القوم كراماً .

(١) (البارد) السيف ، البوارد السيف القوائل (الاسان) بجمي السيف فوق الدرع
أو السيف فوق السيف .

(٢) فراش الرأس : عظام رفاق تلي التحف .

(٣) الأ شوس : الجري على القتال الشديد (الاسان) .

(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذي لا يبالي هولاً ولا يروعه شيء (الاساس) .

للحديد الملا على سائر الجوهـر ذلّ العدى وعزّ الضيوف

فوارس خيلكم تعطي منهاها إذا دمي نواجذها الشكيم (١)
وفي بيض السيوف يياض عيش بذلك - فاعلموا - نطق الحكيم

* * *

القوة :

يخضع الطبي الأخصع (٢) ، وينتصر الليث المهتصر .

* * *

المال ، تشميره :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
أو ماترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال

ماليسر كالمدم في الاحكام بل شحظت حال المياسير عن حال المحاويج

أنفق لترزق فالثراء الظفر ، ان يُترك يشن ويمود حين يُقلم

يفني لمن يرث أن يحترث ، وإلا في التراث .

جل من سخره لقضاء الحاج

أعتمد على ذي وجهين ، ما عرف قط بالمين . لو كان رجلاً لكان ناصح
الجيب . . . سبح ربه مذ خلق ، اذا انطلق به فهو منطلق . ومتى بُعث في المآرب
قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُجسس ولا دنب له ، سجن فهو طول الدهر
مستريح ، لا تلج عليه الشمس ولا الريح . لا يأكل ولا يشرب . . . له منزل

(١) الشكبة في اللجام الحديدية المترضة في فم الفرس التي فيها الفاس . وفأس اللجام الحديدية

القائمة في الحنك .

(٢) الأخصم الذي في عنقه خضوع خفة (أبوالملاء) . رجل اخضع : راض بالذل (الاساس)

مادخله لهم . . . اذا غاب الحافظ عنه فله الختم ، وليس ذلك من القضاء الحتم . . .
 خص بالمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكليل ، والاسورة
 والخلخال ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل ، ماشاب ولا هرم ، ولا
 درم (١) للكبر ولا دريم (٢) ملكه قوم فدفنوه ، فتطاوت في الأرض سنوه ،
 ثم ظهر ما نسي اسمه ، ولا تغير جسمه . . . به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في
 الشرق والغرب . . . تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله
 أنطق بعظمته كل جماد . . . جل من سخره لقضاء الحاج .

* * *

العمل :

تروم رزقاً بأن سموك متكللاً وأدين الناس من يسمى ويحترف

لاتقومن في المساجد ترجو بها الزلف
 معملا بسط راحتك الى نائل يلف
 ورم الرزق في البلاد فان رمته ازدلف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته وفي صوانك ماإعداده خرف

أملك من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كراماً (٣) ،
 وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالمضد (٤) متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب .

لايصبرن فقير تحت فاقته ان السباريت جابتها السباريت (٥)

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو .

(٢) درم من الدرهم وهو سقوط الاسنان ، ومن ذلك قيل : كعب ادرم ، والمني ان نقشه ام
 يزل وخشونه ام تملاس (أبو الالاء) .

(٣) الكرم : الحبل ج كرور .

(٤) المضد : ماعضد من الشجر ، وعضده قطعه بالمضد وهو كل ماعضد به الشجر (الاسان) .

(٥) (السباريت) القلوات [جابتها] قطعتها [السباريت] المساكين والمحتاجون ، هم

سبروت وسبريت . وفي نقائض [جرير والأخطل] لأبي تمام : صلك الرجل وسبرت اذا افتقر .

وفي [التاج] سبرت الرجل قم وتمسكن .

من في اللجة يغبط السائر على المحجة، والمسافر يغبط المقيم، والغنيمة مع الظاعنين.

العمل - وان قل - يُستكثر اذا اتصل ودام .

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود .

يُبلغ أمل بعمل ، وأهل التقصير بلا عون ولا نصير .

أجد عملك وجدّ فيه .

طدّ بناءك على أس .

* * *

الثمر ، النبات :

فاذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجراً بغير ثمار

اذا رملة لم تحيي بالنبات فقد جهلت إن سقتها السواني (١)

* * *

النسل ، الزواج

والنسل أفضل ما فعلت بها فاذا سميت له فمن عقل

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة من الناس فاختر قومها ومجارها

اذا خطب الحسناء كهل وناشي فان الصبا فيها شفيح مشفع

ولا يزهدنها عدمه ، إن مُدّه لأبرك من صاع الكبير وأنفع

وما لأخي الستين قدرة سائر اليها ولكن عجزه ليس يُدفع

ويخفض في كل المواطن ذمه وان كان يُدني في المحل ويرفع

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب اليه فقد حلت البهلة (٢)

(١) السانية : الساقية ، عن بالسواني السحب .

(٢) البهلة - بالفتح ويضم - اللعنة ، ومنه حديث أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئاً

فلم يطمع كتاب الله فطيه بهة آفة .

هو الشيخ لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله (١)
 فلا يتزوج أخو الأربعين الا مجربة كهله
 رأى الشيب في عارضيه المسن فتم القرين له الشهله (٢)
 اذا كانت لك امرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كما يا
 فان كانت أقل بهاء وجهه فأجدر أن تكون أقل عابا
 وحسن الشمس في الايام باق وان مجت من الكبر اللعابا
 ومن جمع الضرات يطلب لذة فقد بات بالأضرار غير سديد

* * *

معاملة الصغار

ورفقاً بالأصغر كي يقولوا غدونا بالجمل معاملينا
 فأطفال الاكابر إن يوقوا يروا يوماً رجلاً كاملينا
 لا تزدن صغاراً في ملاعبهم فجاز أن يروا سادات أقوام
 وأكرموا الطفل عن نكريقاله فان يعش يدع كهلاً بعد أعوام

* * *

... وبالوالدين احسانا

العيش ماض فأكرم والديك به والام أولى باكرام وإحسان
 وحسبها الحمل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالاكل انسان

(١) وللشيخ :

واحدة كفتك فلا تجاوز الى اخرى نجى بمولات
 ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المنتهات
 فان الفقر عيب إن أضيف ابه السن جاء بمولات
 (٢) الشهلة : الصف العائقة ، المجوز وذلك اسم لها خاصة ، وامرأة شهلة كهلة ، ولا يقال :
 رجل شهل كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل .
 وللشيخ :

اذا خطب الزهراء شيخ له غنى وناشيه عدم آثرت من تفاق

تحمل عن أريك الثقل يوماً فان الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تفوز بما حواه

* * *

حفظ الصحة

دار نفسك وان بلغت سن الهرم كما يدارى الوليد .
إفراط الشبع آفة على كل حيوان .

سنة خير لك من درة زهراء تعشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة لم يطع الناهين والآميرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خشباً عتت عن أمم الكاسرين

تجزأ ولا تجعل لحنفك علة بأكثار طعم ، ان ذلك لوم (١)

لا تزلن وكن رثيال مأسدة ان الرشاد ينافي البادن الربلا (٢)

* * *

الشبية

إذا ما حبت نار الشبية ساءني ولو نص لي بين النجوم خباء

ان الشبية نار ان أردت بها امرأ فبادره ، ان الدهر مطفئها

* * *

السفر

لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يماني التجويل .

* * *

(١) تجزأ بالي: قطع بالي، واكتفى به، اكتف بجزء من أكله .

(٢) الرثالة: كثرة الاعم وهو ريل وريل .

أدب السلوك

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فان فضضته ولم يأذن من أمنك عليه فقد أوضعت (١) في سبيل الخائنين .

لا يبصر القوم في مغناك غسل يد على الطعام الى أن يرفع السور (٢)
ولا يكن ذلك الا بعد كفهم أكفهم ، ويسيرُ الفعل ميسور
فان تقرب خدام الفتى حرصاً والضيف يأكل رأي منه مخسور (٣)

* * *

لكل زمان ما يشاكله

أعدو لكل زمان ما يشاكله ان البراقع يُستبتن بالشيم (٤)
فان ضربت بسيف الهند في ومد فسيف افرنجة الخبوء للشيم (٥)

* * *

المرء شبه زمانه

وإن الفتى فيما أرى بزمانه لأشبهه منه شيمة بأبيه (٦)

* * *

الناس

والناس بالناس من حضر وبادية بمض لبعض - وان لم يشعروا - خدم (٧)

• مشيت (١)

(٢) سور بمعنى عرس ووليمة (شفا • النليل) و(في النهاية) في حديث جابر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاماً يدعو الناس اليه ، واللفظة فارسية .

(٣) المرض : الأثنان تسلبه الثياب والأيدي على أثر الطعام .

(٤) الشيطان خيطان في البرقع تشده المرأة بهما في قفاها .

(٥) (ومد) حر (الخبوء) المد المدخر الشيم (البرد) .

(٦) في (امالي التالي) : هشام بن عروة : الناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم وروى ابن هندو في كتابه (الكلم الروحية في الحكم اليونانية) لافلاطون : لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

(٧) قالوا : الحضر ، معركة نهل سكنت ضرورة ؟

ان خالفوك ولم يجبر خلافهم شراً فلا بأس ، ان الناس أخيف (١)
 قال الخليفة العظيم عمر : « أعقل الناس أذرم للناس »
 ومن عرف الناس وتاريخهم ووراثتهم القريبة والبعيدة (L'atvisme)
 ومنشأ ما يسمى (رذائل) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :
 يلقاك بالماء النмир الفتي وفي ضمير النفس نار تقد
 يعطيك لفظاً ليناً مسه ومثل حد السيف ما يعتقد
 وهذان البيتان ان دل ظاهرهما على معاييب في الناس ففيها ما يني بارتقاء لهم
 عجيب ، فقد أمسى هذا الفتي الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل
 ثعلب ظفر به أو يربوع ومن أجل مستنقع يردده أو مطيطة (٢) - قد أمسى هذا
 الفتي وارث الفراز يلقاك أحسن لقاء ويخاطبك خطاباً جميلاً وفي الضمير والمعتقد
 ما أبان الشيخ . فاذا طال تكلفه ما يتكلفه ، واستمر اعتياده ما يعتاده « وعادة المرء
 تدعى طبعه الثاني » كما يقول شيخنا حكى بمد أدهار باطنه ظاهره ، اشبه جوانيه
 برانيه ، وحسبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء وان كان في ضمير النفس نار تقد ،
 وساء ما يعتقد .

... كذلك سخرنها لكم :

قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (طريق المهجرتين و باب السعادتين) :
 « ... ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أبواب المقالات طاش عقله ،
 ولم يتسع لحكمة إيلامٍ وذبحه صنف كتاباً سماه (النوح على البهائم) فأقام عليها
 المآثم ، وناح وياح بالزندقة الصراح » .
 وقال العلامة الفيومي في المصباح :

ويجرمون - يعني البراهمة - لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلي فيقولون :
 حيوان بري من الذئب والمدوان فايلامه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور
 الحكمة ، وهو أنه استسخر للأنسان تشريفاً له عليه ، واكراماً له كما استسخر
 النبات للحيوان تشريفاً للحيوان عليه . وأيضاً فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع

(١) من الهجاز : هؤلاء أخيف أي مختلفون .

(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين الذي يمتطأ أي يتمدد لختورته [الفائق] .

كثرة تناسله أدى الى امتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع ، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلاً للمصلحة وهي تقوية بدن الإنسان ، ودفعه لهذه المفسدة العظيمة . واذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والعبث .

وشيخنا الميري يقول داعياً الى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأنعفاء من سميح بالرسل في أيام السفاء (١) ، ويلج الغمار باذل
السهار (٢) ، وتغني الضيفان على الجأئد بمنى الجفان . لا يئني عليك فصيل بالأصيل .
ومن اخضرت شربته (٣) بالواد أكات مرهده بالتمر الجلاد (٤) . ومن ركب
العامة (٥) في طلب الصيد كانت بطون عماله قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه
موارد الوحش كثر في منزله الوشيق (٦) .

وقال (الوليد) : النبع ليس بمثمر وأخطأ، سرب الوحش من ثمر النبع (٧)

- (١) [الأنعفاء] جمع عنق وهو الجحش [السفاء] قلة اللبن ، يقال : ناقة سفي وهي ضد الصفي ، والمعنى أن من سقى فرسه اللبن في أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها [أبو العلاء] .
العفو : الجحش سمي به لأنه يفتي عن الركوب والأعمال [الفائق]
(٢) [النهار] جمع غمرة وهي الشدة [السهار] اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه ساراً وثق بجريه فوج غمار الحرب [أبو العلاء] .
(٣) اخضرت شربته أي صار عليها طحلب من كثرة الماء وادمان السقي (أبو العلاء) الشربة مثل الحويض يمحرواح النخلة والشجرة ، بلاء ماء بسع ريباً فتتروى منه ، والجهم شرب وشربات (التاج) .
(٤) أكات المربد أي صار فيه ثمر يوصف بالكنته ، والعرب تصف الثمرة بالكنته ، والجلاد جمع جلدة وهي الثمرة الشديدة التي لا تتوسف أي تنتشر (أبو العلاء) .
(٥) العامة ضرب من السفن (أبو العلاء) وفي الأساس: وركبوا العام أي الارماث الواحدة لانها تنوم في الماء وفيه : وركبوا الرمث في البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .
(٦) الوشيق اللحم المتدد طولاً ، والقطعة وشيقة (أبو العلاء) .
(٧) (في شرح سقط الزند) :

« أراد الوليد بن عبيد البحرني وذلك أنه قال في شعره :

وعيرني خلال الدم آونة والنبع هريان ، ماني هوده ثمر

يني بالنبع الشجر الذي يصل منه القسي ، قال البحرني : (ان النبع لا ثمر له) وقد أخطأ في قوله فان قطع الوحش التي تصاد من الظباء والحمر والبقر الوحشية - من ثمار النبع ، وذلك أن القسي انما تبرى من النبع ، ويرمى الى الوحش عنها ، وتصاد بها ، فالوحشي اذن من ثمر النبع . . . »
و (هريان) معروف ، وقد ترك البحرني صرفه ضرورة .

حلة ابلك وعشارها (١) أروت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها (٢)
 لن تبكيك بكارها اذا السنة كثر قطارها ، وذبح في الروضة فارها (٣) ، واعتم
 بالروضة بهارها (٤) . سأم ابلك شرارها .

* * *

الاثريّة ، الايثارية .

ان ترد أن تخص حراً من الناس بخير يخص نفسك قبله .

اذا لم يكن لي بالشقيقة منزل فلا ظهرت عزاؤها والشقائق (٥)

اذا كان اكرامي صديقي واجباً فاكرام نفسي - لاحمالة - أوجب

ومن أطال خلاجاً في مودته فحجره لك خير من تلافيه (٦)

اذا ولي صديقك فول عنه ، فانما يُنزل بالوادي ذي الشجر والروض العميم (٧)
 ويقدم بزند العقار (٨) مادام واري النار ، فاذا خبت ناره بطل اختياره ، واذا
 السقام لم يمسك الماء فهو زيادة في مشقة المسافر .

(١) « الجة » المسان - السكار - من الأبل يكون واحداً وجمعاً ويقم على الذكر والأنثى
 « اللسان » حضراً - أنثى - على حملها عشرة أشهر والجمع عشار ومثله تقساو - تقاس - ولا ناك لها « المصباح »

(٢) وذارها جمع وذرة وهي القطعة من اللحم « أبو العلاء » .

(٣) ذبح الفار لاسك وهو هنا استشارة للروض « أبو العلاء » .

(٤) اهتم التبت اذا طال وكثر [أبو العلاء] . [البهار] : نبت طيب الريح : الرار .

(٥) [التقيقه] الفرجة بين الرمال [النزاه] المطر الشديد الوابل [الشقائق] سعائب تهبجت

بالامطار الندقة ، والشقائق هو هذا الزهر الاحمر المعروف .

(٦) [خلاجاً] نزاهاً - جناباً .

(٧) كل ما اجتمع وكثر عيم والجمع عيم ، والعميم الطويل من الرجال والنبات [اللسان] .

(٨) العقار شجر يتخذ منه الزناد ، المرخ والعقار شجرتان فيها نار ليس في غيرها من الشجر

[اللسان] وفي أمثالهم : (في كل شجر نار واستجد المرخ والعقار) وقد رواه اليهاني وشرحه .

(٧) ٢

لاتاو (١) لمفسد تاو (٢) ، فان الذيب جدير بالتعذيب .

آخ في الله الاخوان ، ولا تقل لميرك : إخ في دار الهوان (٣) .

ادفع الشر اذا جاء بشر وتواضع انما أنت بشر

بأي لسان ذامني متجاهل علي ، وخفق الريح في ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

اذا ماقلت شرأ أو نظيماً تتبع سارقو الألفاظ لفظي

كأنني اذا طلعت الزمان وأهله رجعت وعندي للأنام طوائل (٤)
وقد سارذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوءها متكامل
واني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الاوائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تقول الفوائل
فلوبان عضدي ما تأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الا نامل

وكم من طالب امدي سيلقي دون مكاني السبع الشدادا
ويطمئن في علاي وإن شسي ليأنف أن يكون له بجاداً
ويظهر لي مودته مقالاً وينبغي ضميراً واعتقادا
لي الشرف الذي يطلأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا
وأحسب ان قلبي لو عصاني فعاود ما وجدت له افتقادا

تماطوا مكاني وقد قتهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما ينبع الكاب ضوء القمر

* * *

(١) أوى له : رق ورث له ، وأشفق عليه ، بأوى مأوية ومأواة .

(٢) تاو : هالك ، توي كرضي يتوى وطى تقول : توى كسى .

(٣) إخ - بسكون الخاء وفتحها - صوت اناخة الجبل ، ولا فعل له .

(٤) طلت : قمت (الطوائل) ج طائفة : الترات الذحول .

واقفل بغيرك ماتهواه يفعله وأسمع الناس ماتختار تسمعه (١)
 ولو أي حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا
 فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا
 فياوطني ، ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم لسا كنتك البال
 وما سرني أي أصبت معاشرا بظلم واني في النعم مخلد
 فانفع اخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هاباب
 كيف لايشرك المضيقين في النممة قوم عليهم النعماء
 أنجد أخاك على خير يهم به فاللؤمنون لدى الخيرات أنجاد
 نجد بمرق ولو بالزر محتسباً ان القناطير تحوى بالقراريط

(١) هذا البيت يشمل الاثرية والايثارية معاً . ولحكاه الافريق قبل التاريخ الميلادي بخمس
 مئة سنة وفي الانجيل والحكيم الصين مايشبه قول الشيخ . وروى البخاري في جامعه : « لا يؤمن
 أحدكم حتى يجب لأخيه ما يحب لنفسه » والحديث «كريم - كما ترى - هو أنزي ايثاري .
 ولأبي التاهية .

ولا خير فيمن ظل يبغي لنفسه من الخير مالا يبغني لأخيه
 وروى البعزي في حماسه لعبد الله بن معاوية الجعفري .

ارض للناس مارضيت من الناس س والا قد ظلمت وجرتا
 وروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لأبي سليمان الخطابي :
 ارض للناس جميعاً مثل ما ارضى لنفسك
 انما الناس جميعاً كلهم أبناء جنسك
 فلهم نفس كنفسك ولهم حسن كحسك

وفي (كامل) المبرد هذا القول : «خير الناس للناس خيرم لنفسه» قال أبو العباس : وذلك أنه
 اذا كان كذلك اتقى على نفسه من السرقة لئلا يقطع ومن القتل لئلا يقاد ، فسلم الناس منه باتقائه
 على نفسه .

فدار خصمك ان حق أنار له ولا تنازع بتمويه واجلاب

اذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

لا يترك قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق يمنك فعداً تنطلق .

انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل ليبيك ،
واذا الجأعدوك الدهر إليك فانس حقوقك الغبرات (١) ، أطمع سائلك أطيب طعاميك ،
وأكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفيك .

الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرح بما لا يجب
عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

لتكن سماؤك نرة (٢) ، وثرى (٣) أرضك قريباً ، فنعم الشيء الثراء لمن
كسا العاري وأطعم السغبان .

ذرت (٤) البركة في طعام أكل منه الضعيف ، ونزعت البركة من طعام
خص به الغني دون الفقير ، والله مطعم المطمئنين . وزر حرام يوقع الحققة
في قميص انتسج من حل ، وقطرة الدم تقع في المزايدة (٥) فلا يحل منه الطهور .

أرّ نارك لطارقك (٦) ، ولا تؤرها لاحراق الجار ، والله جار (٧) من

(١) الغبرات ، القديمات ، ومنه غير الجرح اذا انتقض لفساد فيه قديم (أبو العلاء) .

(٢) عين نرة غزوة الماء ، وكذلك السحابة ومطر ثرواسم القطر (اللسان)

(٣) الثري : التراب الندي ، والثري الندي (اللسان) وفي الاساس : وبلغت ثرى فلان اذا أدركت

ما تطلب منه .

(٤) ذرت نفرت ، بذرت .

(٥) المزايدة طرف من جلد يحمل فيه الماء .

(٦) أرى ناره تأريية : أشعلها ورفضها .

(٧) جاره : مجيره .

لا جاره له من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من برّة (١) في يدك ، فاتق الله ،
وكن من الأبرار الطاهرين .

قد نفسك إلى الواجب ولو بجزير ، وكدم معاديك بأن تجتنب أفعال
الكائدين ، ودل السائل لتكون نم الدليل ، ودم على ما قربك من الأبرار
الطيبين ، ودن من فعل خيراً معك فانك مدين .

بابغة الأنام ، وولاية أمور الأنام ، مرتع الجور وخيم ، وغبه ليس
بجميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام .
كلنا عبيد لله .

من بخل بطعام ، فقد بخل بقليل الانعام .

بمدت رائحة قنار ، تظهر تارة بمدتار (٢) . ثم لا ينال خيرها الفقير .

النفاق يلبسك ثوب الاشفاق ، والافتقار يذهب الاحقاد ، والاشتر
يهلك البشر ، لا كتبتنا الله مع الأشترين .

مارياً قطر (٣) ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر (٤) يثني به
بر على مبر (٥) .

* * *

تلك طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة ، وفيها
الاثارية — كما أن فيها الاثارية — وكان شيخنا د يلمب بالشرنج والترد
ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، كما روى الصفدي في (نكت الهميان)
وكان خفيف الروح يدعب ويفاكه ، ومن فكاخته في احدى رسائله إلى

(١) الرة حلقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب .

(٢) في (الصحاح) : ورجا قالوه بحذف الهاء قال الرازي : بالويل تارا والتبور تارا .

(٣) القطر — بضم الطاء وسكونها — العود الذي يتجر به ، وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ،

والعود في المفاطر : الجاسر .

(٤) مكتوب .

(٥) أبر الأمور : طلب بها البر والاحسان إلى الناس والتعرب إلى لغتهم إلى .

أبي الحسين أحمد بن عثمان النكفي البصري وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته —
هذه النبذة :

«... وأهل البصرة (١) (سلمهم الله) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس
قد مرت به هذه الحكاية وهي انه وجد على حجر مكتوب :
ما من غريب وان أبدى تجلده إلا سيدكر عند العلة الوطناء
فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم
فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم ؟ والدليل على ما قلت أنه — ادام الله عزه —
لم يثبت (٢) اسمي ، جعلني محمداً واسمي أحمد... وله أن يقول انه تشبث بالكنية
فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه
ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه...
وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان وانما وصفتهم بقوة القلوب
والأكباد لأن العرب تصف نفوسها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة
ابن مسلمة الحنفي :

يبكي علينا ولا يبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الابل
فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؟ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية
فقصرها ، فان الله وانا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ليس هو من ضعف
الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الردي
لمن سمي وذكر... وانما تفوتت من ذلك لأنني قصير الهمة قصير اليد
مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأنني محبوس
فيه . فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ،
لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الريح لصرت
أقصر من سائلة الذباب (٣) ، قد كدت أمصح في الارض كما تمصح الظلال (٤) . .
وقد مدحني بما ليس في ، ولكنه في ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ،

(١) البصرة : مثناة والفتح والسكون اللفظة العالية والنسبة اليها بكر الباء وفتحها .

(٢) أثبت النبي : عرفه حق المعرفة . وفي الأساس : أثبت النبي معرفة اذا قتله عدواً .

(٣) السائلة : جانب النقي .

(٤) مصح الظل : ذهب .

وزعم صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة أن الكذب ليس ببيع في صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط . . . ، وما (رسالة الفران) المبقرية إلا كتاب أماليح وأفأ كيه وأها كيم (١) . وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد « والثناء على الرجل أحسن الملبوسات (٢) » « وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأبقى بنفس مذخور (٣) » وقد أعلن ذلك ابن القارح في رسالته المشهورة إلى أبي الملاء :
 « . . . ويعلم الله الكريم (تقدست أسماؤه) أني لو حننت إليه (أدام الله تأييده) حنين الواله إلى بكرها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو الغزالة إلى خشفها — لكان ذلك مما تغيره الياالي والأيام والمصور والأعوام ولكنه حنين الظآن إلى الماء ، والخالئف إلى الأمن ، والسليم (٤) إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد ، فاني رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطقسات (٥) إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها . . . »

* * *

وإذا أقام أبو الملاء في عرينه مضرباً فيه (٦) ، فقد كان مطالاً على الدنيا — وان خيل أنه تخلى منها — وما كان أخا زهد (٧) فيها ، لافكر له في شيء . وكانت شؤون أمته تمنيه أعما عناية ، والمتشائم لانهمه حالة ، ولا يبالي بأمر بالة . كتب إلى أبي الحسين بن سنان ، وقد أوذم على نفسه الحج (٨) ، والمدو يزأر في الثغور :

(١) جمع أهكومة والأهكومة كالأنعجوبة من التعجب .

(٢) أبو الملاء في « الفصول والفتايات » .

(٣) أبو الملاء في رسالته إلى بعض أولياء السلطان يشتم في صديق له كان عاملاً يعرف بالحمين ابن عبيدة . والمنفس كالنفيس ، نفس نقاسة وأنفس ناقاساً .

(٤) السليم : اللديغ ، وانما - مي اللديغ سليماً لأنهم تطبروا من اللديغ فقبلوا اللديغ كما قالوا للعبتي أبو البيضاء . وكما قالوا للفلاة . فإذة تعاموا بالنفوز وهي مهلكة (اللسان) .

(٥) العناصر الأربعة في مذهب القدماء . وهي الماء والنار والأرض والهواء . . .

(٦) أضرِبَ في بيت : لم يبرح .

(٧) كل من نسب إلى شيء فهو أخوه كقولهم أخوه سفر وأخوه عزمات وأخوه قفار وأخوه واخو ،

لذة (المخصم) .

(٨) أوذم على نفسه حجاً أوجبه وعم به أبو صبيد : وأوذم على نفسه سفرأ أوجب (المخصم)

«... وسفر مولاى إلى الحج في هذه السنة حرام بسل... وهل سمع في أخبار الصحابة (رحمهم الله) أو التابعين أن رجلاً خرج من مصافة (١) المدو يريد بيت الله الحرام... وهو (أدام الله تمكينه) أمين من أمناء المسلمين، يرفه الشوكة (٢)، ويستجيد الأئمة (٣)، ويحصن ماوهى من سور... البيت العتيق منذ عصر آدم يزار ويحج، ماخيف عليه انتقال ولا تحول، ولا غيره عن المهد منير... أما يعلم أن لأهل البلد أنساً برؤية شخصه واستماع قوله. وما يبنني أن يكون كما قيل في المثل: (لج فحج) ولو قال وليد لوليد في ليل داج وهو عمادت حجاج: من يؤجر في مقامه في الديار أضعاف أجره في حج واعتار؟ فقال الوليد الآخر: (محمد بن سعيد) لوقع سهمه غير بعيد. وحماية الذمار (٤) أولى من حج واعتار...»

ولما صبأ الفتى طارق (خلده الله في جهنم) .
وفارق دين الوالدين بزائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق (٥)
أرسلها (نزومية) صاعقة مجلجلة أحرقت ذاك المضلل. وهذه النزومية
— وهي واحد وعشرون بيتاً (٦) — توضح فرط عنايته بأمنته واستمسكه
بنحلته، وتنبئ بأنه كان يداخل القوم في أحوالهم وان كان جليس نفسه (٧).

* * *

اقرأ كلامي إذا ضم الثرى جسدي (٨) فإنه لك ممن قاله — خلف (٩)

محمد اسعاف الفسائبي

- (١) صافه فهو مصاف إذا رتب صفوفه في مقابل صفوف المدو، والمصاف — بالفتح وتثنية الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف (الاسان) .
(٢) الشوكة: السلاح . رفف السيف وأرهنه: رقق حده، شحذه .
(٣) الأئمة: الدرع المحكمة الملتزمة .
(٤) الذمار كل ما يلزمك حمايته والذود عنه . في الأساس: هو حامى الذمار إذا حمى ما لو لم يحمه لهم وعنف من حماه وحرهه كقولهم حامى الحقيقة .
(٥) أبو العلاء .
(٦) ذكر الشيخ طارقاً هذا في لزومية أخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البالغ .
(٧) فلان جليس قسه إذا كان من أهل العزلة .
(٨) أبو العلاء .
(٩) شاء صاحب هذه الكلمة ان يتلو في الحفلة قسماً منها لأن الوقت لا يتسع لتلاوتها كلها .

أبو العلاء

١ - مهرجانه

أجل هو يوم الشعر تطنى عبارته
مشي مهرجان الدهر فيه مباحراً
وقام جلال الحق يسعى وأقبلت
وودت دهاقين القرون لوانها
ولولا حياء الليل نصت مواكباً
فوى ربه من سدره الخلد سدة
شهاب تحاماه الرجوم وساطع
وسيف جلاه الدهر دهرأ فلم يجد
أذاب اختيال الدهر في كبريائه

وتعلاً أسمع الخلود منابره
فخفت له الأفلاك نشوى تباهره
وفود انتهى من كل صوب تسايه
ميامنه في جيشه ومياسره
عذارى الدجى في حشده وحرأره
يلوذ بها ناهي الزمان وآمره
من الفجر مغمور به من يتاكره
له دولة تسطو به وتشاوره
فدانت له أسراره ومجاهره

٢ - ذكاؤه وقوة طبعه

هو الشاعر الأعلى فمن ذاك بكاره
وماذا يقول اليوم فيه مفوه
ولو نُشرت آي النوايغ جملة
له يقظات توقظ الوقد في الصفا
وجذوة طبع ترك البحر مارجاً
وطبع علا السبع الطباق فأسلست
يطأطى من تيه الكواكب وادعاً

وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره (١)
وقد أثقلت ظهر الزمان مفاخره
لأثرت عليها آيه وماأثره
وتبعث ميت الروض يهتر ناضره
وبصر فيها الليل أين مخاطره (٢)
له رهبة أو رغبة لا تماكره
فتمنو له طوع الهوى لا تعاسره (٣)

(١) في المروي أن شعر أبي العلاء بلغ مائة ألف بيت وإن كان المدون منه دون ذلك بكثير.
(٢) المارج : الشمة الساطع ذات الالهب الشديد او النار بلا دخان . ومخاطره : مسالكة وطرقه .
(٣) أكثر أبو العلاء ، من ذكر النجوم ومظاهر الفلك والشمس والقمر وألوان الطبيعة
ووصف الكواكب ومصيرها ، فرادى وجماعات ، أكثراً أبر به على كل شاعر . —

تفيه بذكره الليالي وتنتشي حنادسها ما طربَّ الحفل ذاكره (١)
فلا تدعوا في الوسع طوقاً فكلنا رعيته في حفله وعساكره

٣ - ثورته على الملوك

تأنق في إكليل مجدك ضافره فرفت على هام العصور ضفاؤه
ولو ملكت زهر النجوم قيادها لأهوت إليه النيرات تصاهره
تهاداك أعناق القرون ، فتارة نهوضاً وأخرى يدرك الجد عاثره
وما كنت الا الشمس إن غال عارض سناها ففن وشك يبدد غامره
ترفت عن صوغ المحال وأكبرت لها تك ميناً فانتك جرأره
وأسمتهم سجع الحمام فرددوا زئير الضواري العاديات هزأره (٢)
فأصليتهم نار القوافي ورعتهم بكل حديد الطرف قب خواصره (٣)

— قال : سبحان من برأ النجوم كأنها در ظفا من فوق بحر مانج
وقال : وفي كل شهر تصرع الدهرجة فتقد فيه بالهلال التمام
وقال : زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
(١) قال : ينافس يومي في أمسي تشرفاً ونحمد أسعاري طلي الأصال
(٢) قال أبو العلاء وقد استشفع به أهل المرة إلى صالح حين زوله بجيشه عليها فشفعه بهم
ورحل عنها بعد أن وهبهم له :

ولما مضى العمر إلا الأقل وآن لرؤحي فراق الجسد
بثت شقيماً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسم منه زئير الأسد
(٣) القب : جمع أقب وهو الضامر من الخيل وموئته قبا ، والمعنى أن كل بيت من شعر أبي
العلاء يصير بعبوب الملوك يكشفها للناس سريع إلى هناك فضاغهم برعة الحيول الضامرة . فن ذلك قوله :
وأرى ملوكاً لا تسوس رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس
وقوله :

ساس الأنام شياطين مسالطة في كل مصر من الوالين شيطان

وقوله :

رئس الناس بالدهاء فاي ينفك صر ينقاد طوع دهاة

إذا زار مختال الملوك تضاءلت عليه ثياب الملك وارتاع طائرُه (١)
 وممت به أجناده وتنكرت بشاشتها أبهاؤه ومقاصره
 فما في بني حواء غيرك شاعر يهاب وتخشى وهو عفت بوادره

٤ - هو والناس

ولو كنت ذا زينغ لأن الذي الحجا فيعلم أن الزينغ يحموه قادره (٢)
 ولكنه ظلم الورى ليس للورى عن الظلم مرتاد تقيهم محاجره
 هم الناس ما أعطوا أخوا الحق ذرة من الحق الا مصلتات حناجره
 فكم ضاع فجر في ظلام نفوسهم وغاب أصيل مشرقات زعافره
 وكم ضل في دهمهم رائد الضحى وأخطأ نجماً قصده ومسايره
 ولولا الحقود المستكنات لارتووا سراب الفلاحت لهيباً هو اجره
 فما أبعد القطب المدى في سموه عن الأرض لولا الشرمنهم يحاذره

٥ - بيازه وغفرانه

طلعت على الدنيا ظلاماً فسقه بيانك حتى أسلمته دياجره
 ضربت على الجذآن جزية قاهر فجاءت بأخبار السماء تواتره
 وأفضت اليك الحالكات بنبيها مكشفة أحنائه وضمايره
 فهللت جلباب الحقائق فأنبرى أخوها ياديهما الهوى وتجاهره
 كأن البيان الحر قبلك ما ضفت على أحد ، حتى أتيت ، مآزره
 ولو كان وحي بعد وحي محمد لما كان إلا وحيك السح هامره
 جلوت به الاخرى نعمياً وجاحماً وصورته حتى كأنك عامره (٣)
 وخلدت من «غفرانك» الفذلولورى مناهل وحي مفعم من يناظره

(١) وقال :

مل المقام فكم أعاثر أمة أمرت بنير صلاحها امراؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(٢) قدر الله النبي كقدره تقديراً أي قضاء .

(٣) في رسالة الغفران .

٦ - أنفته وشموخه

لكل عظيم جنده ومعاشره
ونحن بني الآداب جندك لم يكن
جلالك في كل القلوب موطن
وتاجك معقود على الدهر خالد
وما زال ركب الدهر حيران تأهباً
تجاوزت طوق الحاسدين فأقلعوا
وأثقلت للأحرار عرشاً على السهوى
وأنهضت للأخلاق مجدداً وعزة
تركت المنى للساهرين مع المنى
وأعرضت عن دنيا الأنام مجلقاً
فما صحت في أعقاب ماض ولاهفا

تمز به طوراً وأنا تصافره
لذي صولجان مثله إذ نكأثره
مكين إلى أن يبعث الخلق ناشره
يزان به تاج الدجى ويؤاصره
ييحرك لا تلقي ملاذاً مواخره
وأنى لجتاز الخضم قناطره
تعاورته في كل عصر أخايره
يحن لها من محور الزهر دائره
وصعدت اللهم البعيد تساهره
إلى الملاء الأعلى يناجيك كابره
بليك للأوطار سؤل تداوره

٧ - اشفاقه على الانسان والحيوان

وسمت الورى نوراً وطرفك موصد
فلو جمحت خيل الصباح جذبتها
وطفت على الدنيا تواسي حريها

على النور فياض الجوانب ناره
أعنتها كي ينقذ الكون باكره
وتأسو جراح البؤس تدمى معاقره (١)

(١) قال: أسأت ببيدك في صنفه
وسوف يجازيك رب السماء
وقال: إذا كسر البعد الأنا-ضد.
وقال: وابك على طائر رماه فتى
أو صادفته حباله نصبت
بكر يبنى المعائر مجتهداً
كأنه في الحياة ما فرح
وقال: يا ضارب الدود البطي وظهره
ارفق به فشهدت أنك ظالم

وحملت هريك عالم يطنق
فشم لا يحسكاه وانتطق
أذاة له إن الأنا-ضد إلى كسر
لاه فأوهى بضم الكفا
نقل فيها كأنما كفا
قص عند القروق اونتها
نصن فتى عليه أو حفا
لاوزر يجمه كوزد الضارب
في ظالمين أباعد ما طوب

ألمتَ لديدان الثرى في حشا الثرى
 ولم تنس عيراً يقرع الضيم ظهره
 يملها وقد الظما وتجاوره (١)
 وأشفتك للبرغوث يعقر طامره (٢)
 جيلته في فرسه مايساوره (٣)
 يمزعه ناب الطوى وأظافره (٤)
 وساحت ذئب القفر بالشاة ساغباً

٨ - خلوده

صحا الدهر الا بعض مس يخامرہ
 فليس على الفبراء أو في سمائها
 لذكراك وارناد المحجة سادره
 كمجدك مجد لاتين مفاقره

(١) قال في الفصول والنايات : لتكن أفضالك لوجه الله ما استطعت وعزير ذلك على سكان الأرض ، ولكن توجد من وراء اجتهاد . وإذا ففتنتك الشدائد إلى المفازة وميك خيط من الأبق - أي القتب - وممسك ماء وفضرت لك اليبدا فم جفر - بشر - فأصبت منه بينك ، فاصنع حوضاً ولو قيد فتر فألني فيه من تريم ذلك الجفر فما أصابه من وحش أو إنس أو ذي جناح فلك من الله الثواب وإن كنت على أوطاس - عجلة - فاسق الأرض لينتفع به ولو بنات العمق - الدود - ولا ترض جزاء على الحسنة بثلاث .

(٢) العير : الحمار . قال في اللزوم :

لقد رايني مندى الفقير بجعله
 يعمله مالا يطيق فلون وفي
 وقال : تسريح كفي برغوثة ظفرت به
 كلاهما يتوق والحياة له
 على العير ضرباً ساء ما يتخذ
 أحال على ذي فترة يتجدد
 أبر من درهم تحليه مما جأ
 حبيبة وپروم العيش مما جأ

(٣) قال في اللزوم :

وما ذنب الفراغم حين صيفت
 لقد جيلت على فرس وخرس
 وصير قونها مما تدمي
 كما جبل الوقود على التمي

(٤) قال في عذر الذئب ، وذؤالة علم له :

ولولا حاجة في الذئب تدمو
 وما لذؤالة المسكين صبر
 وقال : ولوعلمتم بما في الذئب من سب
 وقال : كم قال طاهيك من صفراء فاردة
 ولصيد الوحش ما اقتصر الغزال
 فيعرفه عن الحمل الهزال
 إذن لسأختم بالشاة لذئب
 وذات لوبين صارت قوت مكسال
 على أزل فتيد القوت عسال
 وأنت شارب لذالطعم سسال
 وقد ضننت بشاة وهي مرضمة
 بخلت أن يتغذى طفله دما

ودنياك دنيا لا يحيط بكنها
صليب قناتة النفس ما أضمرت وني
عدوت مدى الاملاك ذكر أو سودداً
فما ألف نعمان وكسرى وقصر
وأني لظي في ساطع الشمس ساطع
وقد عز ابليساً على الفخر آدم
كعزت المرباه اذ قام أحمد
فلا زال مجد الاحمدين مرفراً

بيات وكون لاتناهي عباقره
لذي لجب مهوى المنايا بواتره
وجزت فما يسطيع مجدك كافره
يضاهيك مها عز في الارض ناصره
له لهب مها تعالت مساعره
بمجدك واستعلى على الجن فاخره
بني الارض واجتاحت دناها ضوامره
على الضاد نهاضاً بها لا تدابره

٩ - شعره لله والخير والحق والاخلاق

مضى بالقرىض الناس في كل مهيع
سموت به عن كل سؤل سوى العلي
فله والاخلاق والبؤس بعضه
لا وشك أن تنسى به الاسد بطشها
ورد على المحروب ما بز غاصب
وأبت خطي الاقدار يقظي رفيقة
وقوم من زيغ الزمان فلم تدُر

وسخرته للحق يسطع باهره
يساقطها بث الجوى وتشاطره
وللخير والآلام والنبل سائره
ويسمى الى الموتور بالثأر واتره (١)
وأصبح عاتي الطير عفماً مناسره
وراجع عتياه القضاء بصائره
بشراً على أهل الزمان دوائره

١٠ - الدنيا وحقائق الكون في شعره

قرىضك تيسار الحياة أية
ويبت يحج العقل في كل ساعة
طوبت به الدنيا فضائق ولم يضق

يموج به منها على الدهر زاخره
اليه نبيل نُسكته ومشاعره
فيمت شطر الغيب تجل سرائره (٢)

(١) قال :

أيكون رضع للسرور فينتهم

(٢) قال :

ان لم يكن في سماء فوقنا بشر
وقال: يجوز أن تطفأ الشمس التي وعدت
فإن خبت في طوال الدهر حرمتها

فاو ويقع بالنبات الضنينم

فليس في الأرض أو ماتحتها ملك
من عهد عاد واذكى نارها الملك
فلا محالة من أن يقضى الفلك

- فلم يترك برأ ولا قاع لجة ولو كان مابعد النجوم مسافر
 فما اضطربت في خاطر سائحية ولا قذفت كف القرائح معجياً
 وما في حشا الاحقاب منحى يروده
 ولا ساجماً في الجو ينقض كاسره (١)
 لسار لما أعيت عليه مسافره
 من الفكر الا في قريضك ساحره (٢)
 من العلم الا في لزومك سافره (٣)
 خيال ولم تهتك لديك ستائره (٤)

(١) قال في سقط الزند :

بخرق يطيل المنجح فيه سجوده
 ولو نشدت نشأ هناك بناته
 وتكنم فيه العاصفات نفوسها

(٢) قال في بقا المادة وأن لافناء في السكون :

جسد سوى إن تفرق اجزاؤه
 ولرب أجساد جديرات الثرى
 وقال : مضى الأنام فلو لا علم حالهم
 في الملك لم يخرجوا عن ولا انتقلوا
 لم ينأ عن فكك عليه مدار
 بالصون طادت في طلاء جدار
 لقلت قول زهير أية سلكوا
 منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا؟! (٣)

(٣) قال في أن الاجسام ليس في طوقها الخروج من الفك :

ولو طار جبريل بقية همره
 وقال في وحدة مادة العالم :

وبعض ذا العالم من بعضه
 وقال في ان السكون والظلمة سابقان الحركة والنور في الوجود :

سكون خلت أقدم من حراك
 والنور في حكم الخواطر محدث
 والأولي هو الزمان المظلم

(٤) لم يمرض الباحثون عن ناحية في عظيم إعراسهم عن الخيال في شعر أبي العلاء ونثره ،
 ولا اتقادت الطبيعة لخيال شاعر في قديم ولا حديث ، هربي أو غير هربي اتقيادها لخيال أبي العلاء
 الجبار وإن من البلاء أن يذهل الباحثون في شأنه عن هذه الناحية فيه على كثرتها واستفاضتها في
 شعره بل نثره . قال في سقط الزند :

وكم بين ريف الشام والكرخ منهلأ
 كأن الصبا فيه تراب كأنها
 يمر به راد الضعى متسكراً
 نهاراً كان البدر قاسى هجيره
 موارد ممزوجة بسامه
 يثور إليها من خلال إكامة
 مخافة ان ينتاله بقتامه
 فداد بلون شاحب من سامه —

فان نهلت منه العقول وأنهلت
فما في سوى العراء شعر على الثرى
وأخصب ماضي الشعر منه وحاضره
أوائله طوع لمن أواخره

١١ - شعره دهقان العقول وعلم اقوة

وشعرك دهقان العقول وأنسها
يشير بها كبراً ويمت نخوة
تذوب به الشكوى وينبني به الكرى
جبانك من صافي اللظى حاكها على
سراويل أعيت كف داوود فأنبرى
صواعق تنتاب الطفاة وتنتوي
وما قتت جياشة مزبثرة
يماقرها خمر النهي وتماقره
عن الهون وثاباً بها لاثواره
ويصحو الهوى من بعد ما اشتد جائره
بريق الدراري أحوذني تياسره
لها هبرزي لاتبجاري خواطره
الى سدة الجبار جبراً تناوره
على الظالم المزهو سطواً تناقره (١)

١٢ - سقط الزند

وسقطك مياس الماطف حالياً
ترق حواشي الليل منه وتفتني
تجلجل في سمع الزمان أساوره
برود الدجى شفافة لاتساره (٢)

وتني دجاء طيفها عن لاما
عن المرء مام الردى باخترامه
فلما رأها شاب قبل احتلامه

بلاد يضل النجم فيها سيبه
حادث منشي الموت لولا انجياها
رجا الليل فيها ان يدوم شباهه

وفي القزوم :

سخام في احشائه وحفود

ودل هجير في زمانك انه

(١) قال :

واصحاب الامور جياة خرج
حرام التهب او إحلال فرج
فينفذ احرم ويقال ساه
ومن زمن رياسته خسائه

فتأان ملوكهم عرف وترف
وم زعيمم انهاب مال
وقال : يسوسون الامور بنير لب
فأف للعياء واف مني

(٢) قال :

سرافة من شبه حدقا زرقاً
باياماضها زنجية فصدت عرقا

وليل طلى قاراً بقار وأسكه
إذا نشأت فيه الغمامة خلفها
وقال يصف البرق :

حسبت الليل زنجياً بريهاً —

إذا ما احتاج احمر مستطيراً

أغار على الأفلاك لم ينس شارقاً
 تمنقه العنقاء شوقاً وتقي
 إذا مرّ طيار العنان تلفتت
 مشى بالقرون القهقري فتسابت
 وناسم عصر الجاهلية فأنبرت
 كأن ربي نجد غذته ولاحه
 إذا قنع الشيب الجديدين وارتدى م
 ولا آفلا لم تنتظمه مفاوره (١)
 معارجه أنى ترامت مطافره
 بحجوم وعزى عائر البرق زاجره
 خطاها الى حيث استقرت مصادره
 يجاذبها اطواقها وتمخاصره
 هجير الصحارى ما أنجات ظهأره
 السها هرماً بحت شائناً مهاصره

١٣ - العروبة

ملاّت خياشيم العروبة نكرة
 وسعرت في احشائها الوجد للذي
 على أنها العرباء ما كان ضارعاً
 اذا هز من عطفه زهواً تلفتت
 وانسل سيفاً في على العرب أسرعت
 لممرك ما للعرباء الا بقية*
 وذروة صرح من اباء ونهلة*
 تنوخية يزهي بها من تخامره
 يرد لها عرباءها لا تناظره
 أخوها ولا لانت لغمز مكاسره
 اليه طلى الاقدار طوعاً توأمره
 اليه المنايا باسمات تباصره
 من المجد طاح الذوائب غابره
 من الغز لا يستطيعه من يكابره

- وقال: فكأنني ماقلت والليل طفل
 بليقي هذه عروس من الزنـج عليها فلانند من جمان
 وقال: ومنهل زرد الجوزاء غمرته
 وإذا السها كان شطر المغرب اعترضا
 وردته ونجوم الليل وانية
 تشكو إلى الصبح أن لم تعلم الغنصا
 (١) قال:

وسيل كرجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الخفتان
 مسبقد كأنه الفارس المـلم يبدو معارض الفرسان
 قدماه وراه وهو في المجد كساع ليست له قدمان
 يبرع الملح في احرار كما تسرع في الملح ملة الغضبان
 فرجة دماً سيوف الأهادي نيكك رحمة له الشريان

م (٨)

١٤ - وفاة الشام للعروبة

ليهنك أن الشام يقضى مساعره
حفي بما يرضي العروبة ناهض
منيع النرى الالتي على من يؤاصره
يكفكف من طفو الطغاة فان عتوا
يمير نفوس العرب في كل مريض
وكانت له في دولة الشعر دولة
تلاقت على عربائها فهي "ززع"
وهب به من عبد شمس وهاشم
شرى مائج باليعربية لم تلذ
قضى حقها طلق الخطى جاهلية
ولم ينس للانجيل حقاً ورجبت

وفي بهمد الضاد رياً أواصره (١)
بأجادهها باديه عفواً وحاضره
ويأسوه في لأوائه ويؤازره
نزا فاستقلت بالطغاة مقابره
اباء ويمروري المهالك حاسره
حمي سرحاني الشرق والغرب شاعره (٢)
الى عزها امصاره وعشائره
وغسان ارض واقداث مشاعره
بغير حماها منذ كانت معاشره
وعزت بآي الذكر منها مناثره
بتوراتها عطفاً عليه حظائره

١٥ ترفعه عن اللحن

أنفت لذات الضاد لحناً وركبة
فجنته والمرء ماشاء هاجره (٣)

(١) قال :

إذا الشرى البانية استنارت
فلشام الوفاء وإن سواه
(٢) المراد الشعراء الثلاثة : أبو تمام والبحتري والمتنبي الشامي بلمتة وثقافته وأدبه وحياته
إلا مولده في الكوفة فكل واحد من هؤلاء كان شاعر صره :

(٣) قال :

كلك باللحن أهل اللحن أونهم
إذ كان عيبي عند التوم إمرابي

وقال :

أين امرؤ التيس والمذارى
استببط الرب في المواي
إذ مال من تحت النيط
بسدك واشترب النيط

وقال :

نشابه النجر فالرومي منطقه
فد الأتركة فازكوا الاءراب إن الصاحة اليوم لمن
كنطق العرب والطناني مرطان

فجئت حوك البحري واحمد وهجت حيباً لآقيه معانده (١)
فلو نهضت قحطان غضبي لفصحها لكنت فتاها الاحوذى تظاهره

١٦ - ثورته على النحاة

تلاعب بالنحو النحاة فصرفت تلاعب بالنحو النحاة فصرفت
تواصوا بالآل تستباح سرائره تواصوا بالآل تستباح سرائره
أقاموا له منهم شداداً تحوطه أقاموا له منهم شداداً تحوطه
عنت لهم الدنيا ملوكاً وسوقه عنت لهم الدنيا ملوكاً وسوقه
وسيقت الى داراتهم مطشنة وسيقت الى داراتهم مطشنة
وأصبح نحو العرب في حوز عصبه وأصبح نحو العرب في حوز عصبه
فكشفت من احوالهم كل فاضح فكشفت من احوالهم كل فاضح
وسلطت أفجاج البداة عليهم وسلطت أفجاج البداة عليهم
وفقت أقبال الملائك بالذي وفقت أقبال الملائك بالذي
وبصرتهم بالقول تقدأ وحكمة وبصرتهم بالقول تقدأ وحكمة
وأوسمت سكان النعيم مادباً وأوسمت سكان النعيم مادباً
هززت جنوب النائمين فابصرت هززت جنوب النائمين فابصرت

(٢) وأحلت كلاً حيث تبدو مناحره
لدى موقف ينسى به الوزر وازره
(٣) أنات حيازيم النحاة محابره
وفلسفة حتى استمرت مرائره
(٤) يحقق شعر العرب فيها أكابره
عقول وكانت في دجى عز حاسره

١٧ - أنا والنحاة بعده

وأسهرت من جفني عشرين حجة وأسهرت من جفني عشرين حجة
وأظفرتني منهم بما لا تسرني وأظفرتني منهم بما لا تسرني

(١) إشارة الى [ذكرى حيب] و [عبث الوليد] و [معجز أحمد] ثلاثة كتب
للمعري في النقد على دواوين الشعراء الثلاثة المذكورين أي تمام والبحري والمنفي .
(٢) أكثر هذا — غير ما في اللزوميات وما يمكن أن يكون في كتابه [الحقيير النافع] —
في رسالتي الفران والملائكة فما قاله في اللزوم :

أرى ابن أبي اسحق أسحقه الردى وأدرك عمر الدهر نفس أبي عمر
تباها بأمر صبروه مكاسباً فساد عليهم بالحسيس من الأمر
بكسوة برد أو باعطاء بلذنة من البيش لاجم الطاء ولا غمر
ولم يصنوا شيئاً ولكن تنازهوا أباطيل تصحى مثل هامة الجمر

(٣) في رسالة الملائكة .

(٤) في رسالة الفران .

فذلكت منه كل أصيد شامس .
وعقلته بعد الجنون كأنني
وأعطي يداً بعد الجراح فاذعنت
على أنه مازال من اجراءهم
سجية شرٍ بارحي يثيرها

١٨ - الختام

اليك امام القصارين تساوقت
فلو أبصرت عيناك حالي وقد بدا
أصادي من أسراب القوافي كتابياً
لايقنت أتي قد سربت وخلفت
وأن لشعري في الصفا متفجراً
وما صدقت رب القريض قريحة
على أنه والدهر لا تنقضي له
تناهت الادواء ذهني فلا تلم
وأخذن طبعاً كان مرتاد قابس
وما كان شيطاني بليداً ولا هوى
أبح ماوراء الغيب وهمي لعله
وحكم بناني بالشموس فرانداً
فما في قريض الارض أوفي لغاتها
وما أنا الا صوبُ مزنك هامراً
نعمت غليلي من خضمك حقبة
فان جئت سباقاً فشكر زججته
وعلمتني أن أصحاب اليأس راضياً
يمزق جلد الصبر صبري على الاسى
فواهاً لاحرار القريض وحسرة

تجاوز طوق المدعي وتصابره
سهيل وشاب الليل الا غدائره
يبادرنى أباؤها وأبادره
فحول عن الاوج الذي اناسمره
يهب له من راقد الترب ناخره
تجشمه شم الذرى وتغادره
عجائبه قد يكسر الشعر جابره
يراعي فقد ندت عليه ضراره
ونجمة مغوار تلطي مخامره
الى وطري تمنى عليه معابره
يعاود طبي وقده وبواكره
وبالفلك الدوار ترغو هوادره
معاذ لمن يوفيك ماهو ناذره
وروض توات بعد عد مواطره (١)
أتت بالربيع الفخم زهو حبايره
وقدم اعرفنا اكرم الروض شاكره
سميداً وبمض اليأس ينم ذاخره
كأن الاسى في مهجتي شب عاصره
على الشعر عفاً لا تصان مخادره

محمد البرزم

(١) الديد بكر العين الماء الجاري الذي له مادة لا تتقطع ومثله المدان غير أن العامة

تنطقه على وزن فدان .

المعري في نظر المستشرقين

أيها المحفل الكريم

ان المجمع العلمي العربي قد اكسبني شرفاً عظيماً بدعوته الكريمة لأخاطب هذا الجمع الراقي في دمشق او هذا المجمع العلمي الكبير لان هذه المدينة القديمة هي مجمع العلم العربي حقيقة كما كانت بأيام الشاعر الكبير الذي منحي ذكره اليوم . واذا لم يكن لي أمل في أن أزيد على علم العلماء أو أضيف الى معرفة العارفين فاني أرجو ان يكون باستطاعتي ان أجيء بما يساعد على فهم هذه الشخصية المقعدة .

أبو العلاء بنظر مستشرق

وكان يجوز أن أتناول هذا الموضوع من جهتين أولاً من وجهة نظر المستشرقين كرجليوث ونيكلسون وفون كريبم وآخرين من الدارسين والباحثين في الغرب . أو نانياً من وجهة نظري الخاص . أما المسلك الأول فالأدباء في الشرق منذ سنين كثيرة قد عرفوا دروس هؤلاء المستشرقين والاستاذ طه حسين تكلم فيها بكتابه المشهور . لذلك أستغني عن ذكرها هنا . اما المسلك الثاني فله فائدة واحدة وواحدة فقط وهي أن تكون هذه الكلمة محاولة مخلصه لتقدير عبقرية أبي العلاء وأهميته لهذا القرن ولا مناص للمستشرق حين يدرس كتب المعري من أن يتعرض للعناء والجهد لبعده عن اسلوب هذا الأديب الغريب وتعمقه الشديد : لأنه رمز الى كل فيون العلم من عادات الجاهلية وأخلاقها الى مجادلات الفلاسفة في عصره ويجب على الباحثين ان يكون لهم علم بالفقه والتوحيد والفرائض والنحو والعروض والتاريخ . فاني بعد ما جتهدت غاية الاجتهاد شعرت بقصور الذي أعتذر عنه : ومع ذلك فمن حسن الحظ ان كل شاعر كبير لم يكن يقصر شعره على امته وجيله فقط بل كان يكتب شعره لكل الناس بكل الأزمان . وإن يكن أبو العلاء شاعراً عربياً فهو شاعر عالمي ايضاً واسمه وصيته

مشهوران في الغرب لذلك رغمًا عن الصعوبات المشار إليها فباستطاعة الاستشرق ان يكونَ نظرةً عنه إن لم تكن شاملةً فهي عامة على الأقل وباستطاعته ان يقدرَ عبقريةً وحقه ومكاته بين الشعراء الذين كان شعرهم ورسالتهم الى كل العصور وكل الامم . والمستشرق لا يزعمه جحدُ ابي العلاء لصحة النبوات والديانات عامة لانه يعرف سوء حالة الحياة الدينية والخلقية في عصره . ومن يدرس شعرَ المعري لا يغني له عن الشعور بهومومه وأحزانه اذا كان يريدُ ان يستفيدَ من فكره العميق ، ويجب ان يتعمقَ هذا الشعورُ بالباحث حتى يصلَ الى شخصية الشاعر ونفسه : فيرى كمن لم يرضَ بدنياه ولم يجدُ عُذراً للتناسل ولا سلوى بديانات عصره . وليس على القاري شقياً كان ام مستشرقاً الذي ليس له عطف على عبقرى غارقٍ في بحر الظلمة والشك إلا ان يطوحَ باللزوميات فهي مُضرةٌ له لاناظمة . والعالمُ الذي يدرس هذا المبقرى بروح العطف يقوم قائلاً إنَّ هذا الرجل ليس من القرن الرابع للهجرة بل من الرابع عشر . يذكر ذلك العالمُ ان هذا الشاعر لم يرَ ولم يقرأ كتب ادباء زمانه مثل أبي علي بن سينا والبيروني وبديع الزمان الهمداني والثعالبي وابن حزم والباقلاني وآخرين . ولكن على هذا فما اكثر أدبه وما أعلمه فانه بكل حياته ما استغنى عن قاري ولا فاته حفظُ ماسمع ؛ بينما لنا نحن في هذا الزمان كتب ومكاتبٌ ودائراتُ معارف وقواميس . ولكن لا ينبغي أن اطيل الكلامَ بمعنى الشاعر لان زماننا كرم بكاتب (ويبقى الدهر ما كتبت يداه) تكلم من سجن أبي العلاء كلمات تستحق إعجابنا واحترامنا .

اما أبو العلاء فإنَّ احوالَ عصره قد نبضته الحياة . سفكُ الدماءِ سفبٌ رُعبٌ كانت حوله دائماً . قال الثفري ردي : «عمُّ الوباء والقحطُ بغداد والشام ومصر والدينا وكان الناس يأكلون الميتة (١) ولكن بمد سنين قليلة مات رجل وترك وصيةً على الف دينار غير المتاع والقماش والجوهر (٢) هذا مما كان سبباً لتشاؤم أبي العلاء ويمكن ان الزلازل التي هدمت ابنية الشام وقتلت سكانها آتت تشاؤمه وقال :

لم يقدرُ اللهُ تهديباً لماننا فلا ترومنُ للاقوام تهديسا
ولا تصدق بما البرهان يُبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٢١٩

(٢) = = ٢٤١٠٦

إنَّ عذب اللهُ قوماً باجترامهم فما يريد لأهل العدل تمديداً
تُظهرُ هذه الايات تمرداً على قدر الله او على الاقل تقدَّ تصرفه تعالى في
عالمه . فإن لم يقدر الله تهديداً للعباد فلماذا ارسل انبياءه ورسله (عليهم السلام)
وإن لم يعذب قوماً باجترامهم فينزم ان يقال هلكت عاد و عمود بأسباب طبيعية وقد
سلك المري مسلك من نفى ان سبب الألم هو الإثم والمعصية لان العادل يُعذب
مع الظالم بلا فرق . ويكون هنا مشكلة قديمة وجدت بأسفار البابليين اعني لماذا
يعذبُ العادلُ في الدنيا ولماذا أفلحَ الظالم . وتكون هذه المشكلة موضوع كتاب
أيوب باللغة العبرانية ويقول :

« انَّ الكاملَ والشريرَ هو يُفنيها ،

وكلاهما راما ان لم يولدا
وليت وليدأ مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء
وأيضاً
والحال ضاقت عن ضمها جسدي فكيف لي ان يضمه الشجب
ماوسع الموت يستريح به الجسد مُ المعنى وينحفتُ اللجبُ
وقال أيوب :

« لمَ لم أمت من الرّحم عندما خرجتُ من البطن لمَ لم اسلم الروح . لماذا
اعاقتي الركبُ ولمَ القديُّ حتى أرضعَ لاني قد كنت الآن مُضطجعاً ساكناً .
حينئذٍ نمتُ مستريحاً . »

إنَّ روحَ المري لم تكن روح مؤمنٍ بالنبوات : وروح النبي أيوب لم تكن
روح مؤمنٍ بان الألمَ تسجَ عن الخطيئة ضرورةً . وبلغ كلاهما غاية واحدة وهي
الله تعالى وتبارك . ولقد قال النبي أيوب بعد الرؤيا « بسمع الأذن قد سمعتُ عنك
والآن رأيتُك عيني . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد . »
وقال المري : أزول وليس في الخلاق شك .

ولاختصر فلان أسوأ القول الافراط إذ لا يمكنني بحديث قصير ان أذكر الا
مسائل قليلة من أدب المري وهذه المسائل تتضمن بكلمة واحدة كان المري
محدثاً . وكل عبقرى يولد قبل زمانه وما كان المري شاذاً . فيلوح انه كان شاعر
المستقبل باعتبارنا تلميحه العقلي والاخلاقي والسياسي والديني .

العقل

مدح العقل وكرمه بقوله :

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فسادُ عقلٍ صحيح هان ماصعباً
ويقول :

نهائي عقلي عن أمور كثيرة
وطبيي اليها بالفريزة جاذبي
ومما أدام الرزة تكذيب صادق
على خبرة منا وتصديق كاذب
وأيضاً :

ولا تطفئوا نور المليك فانه
ومع ذلك ما كان المعري مصلحاً فقد منعه من ذلك عماه فزاد تشاؤمه :
واللب حاول ان يهذب أهله
فاذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى
وضح الجناح أصابه تعذيب

الأخلاق

ان الأحوال الاجتماعية في عصره قد بفضت أبا العلاء في الدنيا ولكن لم تنفضه في الإنسان بل بالعكس زيد رفقته به . اما نفسه فقد كان ألمه ضروريا من طبيعته ورجا مكافأة في الآخرة .

أأخشي عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المذب
واما الناس عامة فله نظران متناقضان في أمرهم أو لا أنه أصلح لهم أن لم يولدوا وثانياً أن السعادة في الدنيا ممكنة لهم إن اصلحت أحوال الحياة وترتبت أخلاقهم على اصول العدل والल्प والحقيقة . فعذاب أبي العلاء الضروري بنفض اليه عذاب الناس الا ضروري وهجم على كل من أضر الناس على أي وجه من الوجوه . مثلاً هجم على المفتري والواشي والنمام والفتان الذين اثاروا عدواة بين الناس بألسنتهم المسمومة .

لسان الفتى يدعى سنناً وتارة
حساماً وكم من لفظه ضربت عنقا
وقال ايضاً :

يقول لك انم مصباحاً متودد
اليك وخير منه أغلب أصبح
فيظهر من البيت التالي أنه لو كان للمعري استطاعة لكان مصلحاً فمالاً
لا ناقداً محضاً .

لو كان لي امر يطاوع لم يمش
ظهر الطريق يد الحياة منجم

فوصفه لهذه النسور من خاصية سخريته مع بغضه للخدعة والكذب .
 سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
 فلجأها مائة ليأخذ درهماً وأتى الحمام وليدها في شهره
 وسخر من التجار في الاسواق الذين مضيقوا الفقراء واعتذروا عن
 غلاء بضائعهم وقال :

يا تاجر المصرا ما انصفت سائمةً كذبتها في حديث منك منسوق
 إن تشك قطع طريقك بالفلاة فكم قطعت من قبل طرق الناس في السوق

السياسة

وما من شك ان أبا العلاء كان ديمقراطياً عصبياً وبيان ذلك بما قال في الملوك
 واولي الامر وهو أن يجلسوا على كراسيهم ليهدي رعيتهم ويحق عليهم إصلاح
 الرعية فليسوا الا نوابها . وليس من المستحيل ان هذه الروح كانت احياء
 الديمقراطية القديمة العربية ولكن على كل حال تجسمت هذه الروح بصورة حادثة
 في قوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراءؤها
 واما البيت التالي فلو كان كتب باللغة الانكليزية لقال القاريء هذا من شعر
 شاعرنا ملتون وتاريخه القرن السابع عشر .
 وأرى ملوكاً لا تحوط رعيةً فعلام تؤخذ جزية ومكوس
 أو

اذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم لا قوم خادم
 وقد تكلم كثير من الكتاب في حقوق الملك على رعيته وحقوق الرعية على
 ملكها ولا أعرف من يشارك المري في هذه الجزأ . فمن الواضح انه إن يدفع
 القوم اجرةً للملكهم فيمقدورهم ان يجرموه منها ويخلعوه . وهذه ديمقراطية
 محضة ولكن أبا العلاء ما كان فوضوياً بمعنى انه كان عدو الحكومة ذاتها فذكر
 الناس أن اولي الامر كانوا نافعين رغماً عن معانيهم .

واخش الملوك ويأسرها بطاعتها فالملك للارض مثل الماطر الساني
 ان يظلموا فلهم نفع يعاش به وكم حموك رجل أو بفرسان
 فلمعري نظر سليم بالهيئة الاجتماعية وعلم الناس ان الهيئة الاجتماعية يجب

عليها أن تكون جسماً واحداً لأن الجسم مركب من أعضائه المختلفة وان بعضاً واجب لبعض وإن لم يشعر بتعلقه او ملازمته المتبادلة والمشاركة وتراه يقول :
والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً
وكل عضو لامر ما يمارسه لاشي للكف بل تمشي بك القدم

الدين

كان أبو العلاء محدثاً في فكره. وقادته وخدمته للحياة الدينية ما بتشديده على التسامح والتعقل فكراً وعلى الإخلاص عملاً. لذلك نظر الفرق بين الفرق والاختلافات بين الديانات نظرة عاقل وإنساني وفي رأيه ان الاختلافات بين المذاهب المختلفة والفرق كالأشاعرة والمعتزلة والجبرية والمرجئة تدل على وجوب تردد العاقل في قبول أخبارها ، فليست الاختلافات بين الديانات مهمة حذاء الأصول الأساسية وهي الاعتقاد بالله والعمل بالعدل والمعروف . ويظهر أحياناً انه شك في حقيقة الديانات كلها .

هفت الحنيفة والنصارى ما أهدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وقبل أن نذمه يجب علينا ذكر ما قال الامام الغزالي : الشكوك هي الموصلة الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يصبر ومن لم يصبر بقي في العمى والضلال . ومع ذلك ما بقي المعري في عمى وضلال فقال بنفسه .

ازول وليس في الخلاق شك فلا تبكوا على ولا تبكوا
خذوا سيري فمن لكم صلاح وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تصنوا الى اخبار قوم يصدق منها العقل الارك

ويظهر لي ان المعري كان بموضع كثيرين من المثقفين اليوم بأنه مدح دينه خاصة وفضله على الاديان عامة ومع ذلك اعتبر ان ليس في الدنيا دين بقي على مآثره نبيه . وكل الاديان نمت وتغيرت بتاثير الاخبار والعادات والنواميس وهي اثار الحروب والمداوة : واما الانبياء فهم اثنوا الناس بها . لذلك المعري هاجم أخبار الأولين من جهتين (اولاً) نفى صحتها تاريخياً وعقلياً (وثانياً) قال بانها اسباب الحروب بين الأمم يجب عليها احترام بعضها لدين البعض الاخر واما الاول فقال :

جاءت احاديثُ إن صحت فإنَّ لها
فشاور العقل و اترك غيره هدرأ
شأناً ولكنَّ فيها ضعفَ إسناد
فالعقل خيرٌ مشيرٌ ضمه النادي
وأيضاً .

هل صحَّ قولُ من الحاكي فتقبله
أما المقولُ قالت أنه كذبُ
ام كلُّ ذاك اباطيلٌ وأسماؤُ
والعقلُ غرسٌ له بالصدق إثمار
وأما الثاني فقال :

إن الشرائع ألفت بيننا إحناً
وأورثتنا أفانينَ العداواتِ
وايضاً

غدا اهلُ الشرائع في اختلافٍ
فقد كذبت على عيسى النصارى
تقضى به المضاجعُ والمهودُ
كأ كذبت على موسى اليهودُ
ولم يستحدثِ الأيامُ خلقاً
ولا حالت من الزمنِ العهود

وما كان نظر المعري في الدين الصحيح ؟ وما كان أمله للمستقبل ؟ وبكلمة
لقد كان رأيه الاعتقاد بالله تعالى هذا الاعتقاد الذي يُظهر بالإنصاف والعدل والمعروف
الدينُ إنصافك الاقوام كلهمُ وأي دينٍ لا يبي الحقَّ إن وجبا
وما هذا الامنى الامام الغزالي بقوله ومن ظن ان سعادةَ الآخرة مُتنال
بمجرد قوله لا اله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن ان الطبخ يحلو بقوله
طرحتُ السكرَ فيه دون أن يطرحه . فسخر المعري المتمسك بظاهر الدين
دون حقيقته وقال :

توهمت يامرور أنك دين
تسيرُ الى البيت الحرام تنسكاً
على عيين الله مالك دين
ويشكوك جارٌ بالسُّ وخذينُ
وأخيراً تسمعُ اشتياقه لهيئةِ اجتماعيةٍ سالحةٍ مطهرةٍ من الظلم والعداوة .
متى يقوم امامٌ يستفيدُ لنا
فتمرفَ العدلَ أجبالُ وغيطانُ
وأيضاً .

مرأةٌ عقلك إن رأيت بها سوى
أسنى فعالك ما أردتَ بفعله
مافي حجابك أرتة وهو قبيح
رشدأ وخيرُ كلامك التسبيحُ
فلتكن كلمةُ التسبيحِ آخرَ كلمةٍ أقولها والسلام .

الفرير غليوم

ابو العلاء المعري

وآرؤه في الإصلاح الاجتماعي

في الحق من الذهب ثلاث خلال ، حسنه ، وثقله ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير ، إلا ان الذهب كثير الراغب ، والحق قليل الراغبين .

لقد صدق شيخنا المعري - رحمه الله - فان الحق على حسنه ، ثقيل على النفوس ، قليل الراغبون فيه من الناس ، لذلك كان المصلحون قليلاً عديدهم ، لأنهم يدعون الى الحق فتثقل دعوتهم على النفوس ، وينصرف عنهم الناس ، ويكثر الطاعنون فيهم ، المفتأون عليهم . فيجبن عن قول الحق والدعوة الى الاصلاح ، الامن أوتي الايمان الصدق ، والمعقبة الحق . وهؤلاء قليل مام ، في كل قرن وعند كل جيل .

والزمن يدور دورته ، ويسير الناس قدما في قافلة الأيام ، لا يملكون لأنفسهم تفكيراً مستقلاً ، ولا وعياً صحيحاً ، وتغلب عليهم العادات الموروثة ، والتقاليد الجارية ، على ما فيها من ضرر وسوء ، وعوج وامت ؛ حتى يصبح الناس وكأنهم قطع الآلة الصماء ، لا يعون ولا يعقلون ينسخ الظلم بكل كفه على الصدور ، فتستكين له صابرة ، وتتحكم المادة في العقول ، فيؤمن بها الناس متعبدين ، ويفسد رجال الدين والإمارة والسياسة ، فيستسلم لهم الجمهور مذعنين ، ويكون للهوى الغلب على العقل ، فيتبع الناس أهواءهم ، ويتنكرون لمقولهم . وتسير هذه القافلة سيرها الخبيث الى الهوة السحيقة لا يقفها واقف ، ولا يعترضها معترض .

ومن ذا الذي يجروء في زمن الضعف والحمول ، وغلبة الهوى على العقل ، أن يقف في وجه الظالم المستبد ، أو السياسي المشعوز ، أو المتدين المتلبس ، أو المتمول المتلاعب ، فيقول له : لا ؟ !

انه ان فعل سحقه الظالم بظلمه ، وغلب عليه المشعوز بشعوزته ، ورماه المتلبس بالدين ، بالكفر والزندقة ، ومالك عليه صاحب المال قوته ، ففعل عزمه ، وشل عمله . وأشق ما يلقاه المصلح في اصلاحه ، ان الأمة التي تحتاج الى المصلحين ،

يقفون دونها وقفة المدافع الجبار ، يثيرون سبيلها ، ويرشدون عقولها ، ليسيروها في الطريق السوي ، تكون هي نفسها حرباً عليهم ، يعملون على حياتها ، فتمعمل على القضاء عليهم . تقبل على المضلّ ، فتستمع له ، وتعرض عن المرشدين وتصم أذنها عنه . غير أن المصلح المؤمن ، يمضي في اصلاحه ، ويستمر على دعوته ، لا يدفعه عما وطن عليه نفسه دافع ، ولا تقفه قوة من قوى الظلم والشموذة والمال . تسمو نفسه فوق ما في هذه الحياة من مغريات ، فيأنف أن يلتفت اليها . من هذه الطبقة المصلحة كان شيخنا المعري .

ومن الحق ، ان لاتعرض لمبادئ المعري الاصلاحية ، ولا لآرائه الفلسفية ، قبل أن نلقي نظرة عجيلى على العصر الذي عاش فيه .

عصر أبي العلاء :

أسس العرب ملكهم في الاسلام على العدل : العدل المطلق ، الذي لم تعرفه امة من الأمم عرفها التاريخ في غايه وفي حاضره . وكانت الولاية عملاً دينياً يراد به وجه الله وخدمة الأئمة ، لا الزعامة الدنيوية واختزان الدرهم والدينار . ثم جعلت هذه المبادئ الدينية الاخلاقية تضعف مع الايام ، وزاد في ضعفها ، انتقال الحكم الفعلي من العرب الى غيرهم من الشعوب والجماعات ، التي دخلت في الإسلام ولم يدخل الإسلام في قلبها فتعرف حقيقته وروحه ، معرفة العرب لها .

فلما كان القرن الرابع الهجري ، كان الأمر قد ساء من جملة نواحيه . وغلب على الخلفاء ، الملوك والأمراء والرؤساء ، فاستبدوا بالأمر دونهم ، واكثروا من الظلم والعدوان ، حتى كان منهم من يعمل السيف في الناس فيقتل الألوף الكثيرة ارضاء لتزعة الشر في نفسه . فاذا رفع له رافع المصحف وقال له : اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء الذين لادنب لهم ولا جنسية يستحقون بها منازل بهم . كان جزاءه : ان يؤخذ منه المصحف فيضرب به وجهه ، ثم يؤمر به فيذبح .

وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ، ان كان يحط السروج عن الدواب ، ويحملها على ظهور الناس ، يقادون بالارسان كما تقاد البهائم .

اما انتهاب هؤلاء الملوك والامراء والعمال والرؤساء للاموال ، وانهاهاها جماعاتهم وبطاناتهم ، فقد جروا عليها على ما يجري عليه الحاكم الغريب ، في البلد الغريب . أو المتحكم في قومه لادين له ولا وطن .

وكان من جراء الاسراف في الظلم ، والرغبة في كسب المال من أي وجه كان . واستبداد كل قائد أو أمير بالناحية التي هو فيها ، أن تجزأت المملكة فصارت دولاً بحد أن كانت دولة واحدة ، واتمى الامر بهذه الدويلات الهزيلة أن طمع فيها الاعداء ، فارتدوا إليها ، واستولوا على كثير من أجزائها ومدنها وأمصارها ، جاعلين من هذه الدول المنفصل بعضها عن بعض مستقراً لهم ، وممرآ منها إلى ماوراءها من البقاع . وهل تجزأ وطن من الاوطان أو تمزق قطر من الاقطار إلا ليكون للاستعمار ممرآ ، وللمستعمر ممرآ؟ .. ويصف المسعودي (ضعف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس ، وتقلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضي الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهِراً إلى هذا الوقت، فتداعت دعائمه، ووهى أسسه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة . . . والله المستعان على ما نحن فيه .)

الوجهة السياسية :

بيد هذه الفترة ، وفي مثل هذه الحال السيئة التي وصفها المسعودي ولد أبو الملاء المعري .

رأى الظلم يمجى بقومه فثار عليه وعلى الظالمين :
وما سرتني اني أصبت معاشراً بظلم واني في النعيم مخلد
ونمي على الظالم ظلمه ، وفضل عليه المظلوم :
خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتمي الذُّبُجَا
ورأى الأثرية وجب الاستملاء قد ملكا على الناس نفوسهم فراح يدعو
إلى المساواة الحق . يسوي بين الهاشمي — وم بيت النبوة ، والخليفة القائم منهم —
وبين الرجل من نسل البربر : الحق واحد ، والناس أمام الحق سواء :
لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر
ويؤكد هذه المساواة بان يكشف عن حقيقة الناس ، وانهم خدم بعضهم
لبعض ، وان الاعمال موزعة بينهم توزيعاً لا يستغني معه واحد منهم عن أخيه
وم أعضاء جسم واحد لا يشرف احد منهم احدا .

الناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وان لم يشعروا خدم
وكل عضو لأمر ما يمارسه لامشي للكف بل تمشي بك القدم
ولا يخرج الملك عنده ، عن أن يكون عملاً من جملة الاعمال الموزعة
التي يشير إليها ، ويجعل الملك خادماً للقوم وأجيراً ، لاسيداً وأميراً .
إذا ما تبينا الامور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
ويمود فيؤكد هذا مرة اخرى بقوله :

مُلهُ المقامُ فكُم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها امرؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
ولا يقف عند هذا ، بل يحاول أن يدخل اليأس في قلوب الملوك ،
ليخفف من هذا الصلف في نفوسهم ، ويضعف من هذا الصيد في رؤسهم :
وكم نزل القَيْل عن منبر فساد إلى عنصر في الثرى
واخرج من ملكه عاريا وخلف مملكة بالعرا
ويقول فيهم :

أفضل من أفضلهم صخرة لا يظلم الناس ولا يكذب
ويتحداهم بالدهر :

وارى الملوك ذوي المراتب غالبوا ايامهم فانظر بنفسك من غلب
ثم هو يهون ما هم فيه من ملك ، تهويناً يقيم دعأه على الآباء المحض فيقول :
لكون خلك في رمس اعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج الاقفاً لتنصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج
ويزيد على ذلك في تهوين شأنهم فيساوي بين الملك والحطاب :
ما عاقد الجبل يبغي بالضحي عضداً إلا كصاحب ملك عاقد التاج
ويذهب به القلو في حب المساواة ، حتى يقابل بين الملك واضعف الحشرات
« البرغوث ، ويجعلها سواء في حب الحياة ، وطلب العيش :

لا فرق بين الأُسك الجون اطلقه وجون كندة امسى يعقد التاج
كلاهما يتوق والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا
ويقرع الامم على تهديسهم الملوك ، وهم قد نكبوا الشعب بما نكبوه به من
ظلم وعدوان ، وابتزاز أموال وتمزيق سلطان .

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل واتبر
يدعون في جمعاتهم بسفاهة لا مريم فيكاد يسكي المنبر
ويقول :

ككذب يقال على المنابر دائماً أفلا يمد لما يقال المنبر
ويهيج الشعب عليهم ، بما يتزونه من أمواله في سبيل لهوم وشهواتهم :
فشان ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جباة خرج
وينادي بفضل الاخلاق وشرفها على الملك ، وانها خير منه وأبقى على الدهر .
أسران كنت محموداً على خلق ولا أسر باني الملك محمود .
ما يفعل الراس بالتيجان يمقدها وانما هو بعد الموت جلود
هذا إلى كثير من مثل هذه الآراء التي كشف فيها عن حقيقة أصحاب التيجان ،
وانهم من الشعب لا يختلفون عنه في شيء ، الا في هذا الحكم الذي يتولونه ، ومن
حقه عليهم أن يكونوا لشعوبهم خداماً مخلصين ، فيشرفوا بعملهم ، لا بملكهم .
وهذه الآراء ، قد سبق المعري فيها غيره من رجال القرون المتأخرة وفلاسفتها ،
الذين قاموا بالثورات على العروش العاتية ، فدكوها وأقاموا على انقاضها اسس
الحرية والاخاء والمساواة .

وأبو العلاء في كل ما يقرره من آرائه الفلسفية الإصلاحية ، يبني قوله فيه
على الحق والعقل والمنطق ، لا على النزعة الصاخبة ، والهوى الجامح .

الوجهة الدينية :

وإذا كان أبو العلاء ، يرى في الملوك الذين وصفهم ، هذا الشر المستطير
الذي اذل نفس الأمة ، ومزق وحدتها وسلبها مالها وثروتها ، فهو يرى ان
رجال الدين — الاقلهم — قد خرجوا عن الدين السوي المستقيم بما ابتدعوا
من آراء ، وبما احدثوا من مذاهب وطرق ، لاعهد للدين بها ، ولا يرجى
صلاح ولا خير معها ، بل هي فيها كل البلاء والشر .

انما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
عرض القوم متمعة لا يرقون لدمع السماء والخنساء
وهو يرجع أصل الخلافات الدينية ، والانقسامات المذهبية إلى التنافس في الدنيا
وإلى حب الرئاسة :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المنفى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بارز زخرفه يوهي العيون ولم تثبت له عمدة
وما يزالون في شام وفي يمن يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودنياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها القادر الصمد

ويحذر الناس من المتلبسين بالدين أن يقعوا في شبا كههم :
فلا يفرنك من قرائنا زمر يتلون في الظلم الفرقان والزمر
يقامرون بما أوتوه من حكم وصاحب الظلم مقمور إذا قرأ
بيدي التدين محتالاً ضمأره غير الجميل إذا ما جسمه ضمرا
يشدو مزامير داوود ويفضله في النسك نافخ مزمار له زمرا
وهو يحمل حملة منكرة على من يجعل من دينه تجارة يتكسب بها :

ولا تطيعن قوماً مادياتهم الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حمل التوراة قارئها كسبُ الفوائد لاحب التلاوات
ويدعو الناس الى الحرب بدينهم منهم :

فأهرب بدينك من اولئك انهم حربوك واحتربوا على الدنيا به
ويهاجم الذين يخادعون الناس ، يعظونهم مكرراً ورتاء، وينهونهم عما هم أقسم فاعلوه :

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتي ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء

ويرى في الدين وسيلة لا غاية ، يراه طريقاً الى تهذيب النفوس ، وتنقية الضمائر،
ويرى ان العبادة شيء لا يطلب لنفسه ، بل هو مالاخير فيه اذا لم يرافقه العمل الصالح :

(اذا صمت عن المآثم ، فعند ذلك صم عن الطعام) .

وعنده : (طهارة الخلد - اي القلب - ابلغ من طهارة الجسد) .

(احمج - كف - كلوم جرائمك ، فاذا برئت فاحجج)

ويرى الصوم ، في صون اللسان عن المحال ، وعن التعرض للناس بالأذى .

اذا القوم صاموا فعاثوا الطعام وقالوا المحال فقد افطروا

ويقول :

ان صمت عن مأكل العادي ومشربه
 وتارك الصلاة عنده خير ممن يرأني فيها :
 اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها
 فتاركها عمداً الى الله اقرب
 ورأيه في الدين يلخص بقوله :
 ما للدين صوم يذوب الصائمون له
 ولا صلاة ولا صوف على جسد
 وانما هو ترك الشر مطرحاً
 ونفضك الصدر من غل ومن حسد
 وان :

اخو الدين من عادي القبيح واصبحت
 له حجة من عفة وإزار
 وان :

الدين انصافك الأقوم كلمهم
 واي دين لأبي الحق ان وجبا
 هذا هو الاصلاح الديني الذي دعا اليه أبو العلاء المرعي ، بعد ان رأى كثيراً
 من رجاله قد فهموا الدين على غير حقيقته ، وجملوه شركاً يتصيدون به
 منافهم في هذه الحياة . رمى به الى تفهيم الجمهور روح الدين وسره ، وان الدين
 جوهر يقوم بما يدعوا اليه من خير وصلاح ، لا بما يتلبس به منتحلوه من حلة ووشاح .

الوجهة المالية :

ورأى المرعي ان الناس قد غالوا في حب المال ، حتى بلغوا من جهم له مبلغ
 العبادة . وليس من شك في ان حب المال هو العامل الأكبر الذي قامت عليه الرغبة
 في الزخامة والشهرة والتاجرة في الدين ، واصطناع المذاهب والطرق وخلق الرئاسات
 وتحطيم الدولة وتمزيقها ، لذلك أراد أن يكون المال وسيلة أيضاً لا غاية ؛ فدعا
 الناس الى الزهد فيه والتخفيف من تقديسه :

وأفضل من عيش النفي عيش فاقة
 ومن زي تملك رائق زي راهب
 وهو يقول لهم :

أغنى الأنام بقي في ذرى جبل
 وأقصر الناس في دقيام ملك
 يرضى القليل ويأبى العيش والتاجا
 يُضحي الى اللجب الجرار محتاجا
 وفي رأيه :

يكون أخو الدنيا ذليلاً موطناً
 وان قيل في الدهر الامير المؤيد

ويريد للناس أن يكون كسبهم حلالاً :

إذا فاتك الأثراء من غير وجهه فان قليل الخل أولى وأبرك
ويزهدي في المال فيقول :

إذا كان جسمي من تراب ماله إليه فما حظي بأني مرتب
ولا يرى العزة بالمال ، والذلة بالفقر . لذلك ينصح الفقير أن لا يهون لفقره ،
والغني أن لا يتجبر ليسره :

وإذا افتقرت فلا تهين وإذا غنيت فلا تجير

وفضيلة الرجل ، وقيمة آرائه ، أنه إذا دعا الناس الى أمر من أمور الإصلاح ،
بدأ بنفسه أولاً . فهو اذ يدعو الناس الى نبذ المال ، يعيش عيش الكفاف
(ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على
أخيه وأولاده واللائذين به وعلى الفقراء والفاصدين له من الغرباء) .

قدم عليه الخطيب التبريزي وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه صرة فيها
ذهب وقال له : أوثر من الشيخ أن يدفعها الى بعض من يراه ، ليشتري
بها خبزاً ولحماً ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لا تناوله مدة
مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ، ويتفرغ لي للاستفادة فلا يكون
لي شغل غير ما أنا بصدده .

فأخذ أبو العلاء الصرة منه ، ووضعها عنده ، وأجرى للخطيب ما تدعو اليه
حاجته مدة مقامه بمعرة النعمان ، والخطيب يظن أنه ذهبه الذي دفعه إلى الشيخ
فلما أراد الانصراف دفع اليه أبو العلاء صرته بعينها .

ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع ، وبذل له الوزير الفلاحي
خراج معرة النعمان وكتب له سجلاً بذلك ، فأبى أبو العلاء واستغنى من
ذلك كله .

قلت : يستمد أبو العلاء آراءه الفلسفية من العقل فيجمله المشير الهادي .

عليك العقل وافعل ما رأه جميلاً فهو مُستار الشوار
ويقول فيه :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطمته جلب الرحمة عند المسير والارساء
ويقول :

إذا الانسان فض انقل منه فما فضل الأئيس على الهال
ويريد الناس على أن يحكموا في أمورهم عقولهم :
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
ويقول لهم :

لا يدينون بالمقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه
وخلاصة ما يقال في آراء شيخنا المعري ، انه أراد للانسان أن يكون حرّاً
كل الحر ، لا عبداً ملك ، ولا مال ، حتى ولا الدين ؛ بل عبداً لله وحده :
« كلنا عبيد الله ، فما بال الرجل يقول : عبدي فلان ، والعبودية في عنقه
الزم له من طوق الحمامة ؟ »

نحن عبيد الله في أرضه وأعوز المستعبد الحر

الانسانية وعمل الخير :

وهو يدعو الى انسانية مخلصه ، وغيرية صادقة ، بعيدة عن الأثرة وحب الذات ،
قائمة على الأيثار ، وعمل الخير .
أسمه يقول :

« أطمع سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دمه
بالأكية بارفق كفيك » .
ولا يرى الكرم ولا الخير ، في هذه المآذب تقام للأغنياء بطراً وسمعة ، بل يراها
في اطعام الفقير .

« واعلم ان الفقراء بطعامك احق من الأغنياء »
ويقول :

« انظر بين يديك ، واجمل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل ليبيك ،
واذا الجأ عدوك الدهر إليك ، فانس حقودك العبرات »
ويحض الناس على عمل الخير جهدم :

فانفع أخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هباب
ويكرر ذلك فيقول :

بجد بعرف ولو بالنذر محتسباً ان القناطر تحوى بالقراريط
ويريد للانسان أن يفعل الجميل لأنه حسن في نفسه ، لا لأجل ما وراءه
من ثواب . وهذا أسمى ما يكون من فعل الخير .

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وان يخفي احسانه :

« الزكاة ، تذهب عن المال الشكاة . فاذا زكيت أموالك فاخفها كل الاخفاء . »
ويزيد على هذا فيريد للمحسن أن ينسى احسانه :

إذا ما فعلت الخير فانسَ فماله فانك ما تنساه احبي له ذكرا
وإذا كان يريد المحسن على أن ينسى احسانه ، فهو يريد المحسن إليه
أن لا يكون كفوراً ، فيذكر الخير لصاحبه :

عندي حللي اعظام لمتته وانني للذي اوليه محتقر

حضه على العمل :

ويحض الناس على السمي والاحتراف ، ولا يريد لهم الكسل والتوكل
باسم الدين :

تروم رزقاً بان سموك متكلاً وادين الناس من يسمي ويحترف

ترغيه في الفلاحة :

وينكر على الناس أن يترفوا عن الفلاحة والعمل في الأرض ،
فيؤنبهم بقوله :

اكرهت ان يدعى وليدك حارثاً يا حارث بن الحارث بن الحارث
تلك الصفات لكل من وطئ الحصا ماين موروث وآخر وارث

بل يرفع العامل في الملك ، على العامل في الملك (١) : (حارث الارض عند ربه
اوجه من الحارث الخراب (٢) .)

(١) الملك (بالضم) السلطان (وبالكسر) ما يملكه الانسان .

(٢) هو ملك من ملوك كسندة .

ويحترق الصناعة واهلها ، ان يجعلوا منها عدة للحرب :
(فما فضيلة الصانع ، اتخذ قميصاً للحرب ، كبارد الحَبَاب أو برد الحَبَاب. (١))
تواضعه وأدبه :

ويزين هذا الشيخ في دروس الإصلاح التي يلقيها ، هذا التواضع في النفس ، وفي العلم ، يكثر عليه الدليل في شعره وفي نثره . والتواضع الحق صفة من صفات المصلحين . فمنها قوله في ذلك :

« ان معاصبي لكثير ، فجاز مولاي بالاحسان رجلاً اعلمني بعيب في : اما غيرته ، واما سترته ، او عرفت مكانه فاضمرته . لقد من " علي " ذا كره منة الا ضبط على الرباب ، وقوله :

من لي ان لا اقيم في بلدي	اذكر فيه بغير ما يجب
يظن لي اليسر والديانة والعلم	وييني وبينها حجب
اقررت بالجهل وادعى فهمي	قوم فامرني وامرهم عجب
والحق اني وأنهم هدر	لست نجيباً ولا هم نجب

ويقول :

او كان كل بني حوآء يشبهني فبئس ما ولدت في الحضن حوآء
هذه لمحات موجزات عن آراء شيخنا المعري في الإصلاح الاجتماعي من نواحيه السياسية والدينية ، والاقتصادية ، لم يتسع الوقت المضروب ، للاكثر منها ولا التبسط فيها . وهي آراء لا تزال الى يومنا هذا ، على جدتها وطرافتها . ولا تزال نحن في أشد الحاجة اليها والى من يبعثها فينا ويحمل بها صادقاً مخلصاً . فيكبح من جراح المستبد ، ويأخذ على يده - فرداً كان هذا المستبد ام جماعة - ويحد من سلطان القوي على الضيف ، ومن تحككه فيه ، ويدفع الضالين المضلين من رجال الدين والسياسة عن ضلالهم وتضليلهم ، ويقف عباد المال من عبادة المال عند حد لا يتجاوزنه ، وينبه الشعوب الى حقوقها والى حرياتهما .

ان آراء المعري حق . والحق - على ما قال - كالذهب حسن ، وتقليل ، ولكنه خالد على الدهر .

عارف الشكري

(١) الحب ، طرائق الماء ، الحباب جلد الحية .

الخدمة الثالثة في معرة النعمان

على ضريح أبي العلاء

في اليوم الثالث من اسبوع المهرجان (يوم الاربعاء في ٢٧ ايلول ١٩٤٤) أخذ اعضاء المجمع اهبثهم للسفر الى معرة النعمان ، فبكروا الى فندق (اوربان بالاس) حيث اعد المجمع لهم عشر سيارات . فلما تم عددهم وانتظم أمرهم غادروا دمشق مع اعضاء المهرجان في الساعة العاشرة صباحاً . ومضت قافلة السيارات تصعد جبال (القلعون) ، وتقطع أوديتها ، وتتلوى في معاطفها ، حتى بلغت بلدة (النبك) ، فأحب الركب أن يستريح من عناء السفر ، فجلس المسافرون حول عين الماء في حديقة البلدية ، وشربوا القهوة في ظلال الاشجار . ثم انهم لما أخذوا قسطهم من الراحة غادروا (النبك) وانحدروا الى حمص ، فمروا بها — على نية العودة اليها — ، ووصلوا الى حماة في الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان السيد خالد الداغستاني محافظ مدينة حماة قد خرج لاستقبالهم ، فاجتمع بهم عند مدخل المدينة ، ودعاهم الى زيارة دار العلم والتربية ، فساروا اليها على الاقدام بين الجماهير المحتشدة في الشوارع ، واستمعوا هناك كلمة الترحيب التي القاها المحافظ باسم مدينة حماة . ثم عادوا الى فندق ابي الفداء حيث اعدت لهم مدينة حماة مأدبة غداء فاخرة القيت فيها كلمة باسم بلدية حماة ، وتكلم فيها الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ طه الراوي ، والاستاذ اديب وهي ، عن مدينة حماة ومهرجان ابي العلاء والجامعة العربية والصلات الروحية والمادية التي تجمع اقطار العالم العربي بعضها الى بعض .

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر اعضاء المهرجان في الاصيل مدينة حماة ، فوصلوا الى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند مدخل المدينة . ثم ساروا الى ضريح أبي العلاء مشياً على الإقدام والجماهير تصفق لهم وتحييهم . وبلغوا القبر في العشية يحيط بهم اهل المدينة

كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرفة النعمان مثله ، وترمقهم اعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم انهم جلسوا على المقاعد التي اعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة بعشر من القرآن الكريم اوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عندنا الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » . ثم التى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة آيات من قصيدة ابي العلاء الخالدة .

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

واشار فيها الى مذهب ابي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغائه الوحدة وحرصه عليها . قال : لقد وجد ابو العلاء ان خير ما يصنعه لنفسه في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكف يدأ سيرته في الاعتزال حتى اخذ الناس يسمعون اليه ويلتفون حوله . فشقي في حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ، فهل يرضيه ان يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الاحتفالات لا للمعري لو ترك الأمر لابى العلاء لما اراد شيئاً من هذا .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة ابي العلاء تلا السيد محمد الشريفي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وعنوانها « شاعر البشر » ، وكان شاعر العراق قد أرسلها الى المجمع ، وقد حال المرض بينه وبين حضور المهرجان لتلاوتها بنفسه . ثم التى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر ابي العلاء . ولما انتهت الحفلة الخطائية دعي اعضاء المهرجان الى مأدبة عشاء أعدها لهم السيد حكمة الحراكي فساروا في القمة الى بيته وشهدوا عنده من صنوف الكرم العربي ما يعجز القلم عن وصفه . ثم ان اعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك الى حلب في ليلة قراء ساكنة ، فوصلوها بعد منتصف الليل . وكان محافظ المدينة لا يزال واقفاً بانتظارهم ، امام فندق (بارون) ، مع لجنة الاستقبال . فاستقبلهم بحفاوة بالغة ، ثم أوى كل واحد منهم بعد فترة قصيرة من الزمان الى الغرفة المدة له في الفندق ، فتوسد الراحة بعد عناء السفر الطويل . وفيما يلي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وكلمة الدكتور مهدي البصير .

جميل صليبا

شاعر البشر

حيّ هل يا أخا مضرٍ ندّكر خير مدّكرٍ
 ندّكر شاعر البشرٍ خير من قال وافتكرٍ

حي هل ايها الملا نحى ذكرى ابي الملا
 شاعر شعره اجتلى صوراً كلها غرورٍ
 فكره يملأ القضا نفسه صعبة الرضا
 دونه كل من مضى دونه كل من غبرٍ

هو بالفكر مذ سما كان من نوره العمى
 طاول الأرض والسما شارف الشمس والقمرٍ
 حلّ في ذروة الادبٍ آتياً منه بالعجبٍ
 لا تقل شاعر العربٍ انه شاعر البشرٍ

جعل الشعر وحيه موقظاً فيه وعيه
 ما ورى فيه وريه قبله كل من شعرٍ

حكّم العقل واجتهد وتعالى عن الفند
 هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبر
 شعره شف عن دها ما له فيه منتهى
 ذو معان هي النهى وحروف هي الدرر

جعل الصدق ديدنا تاركاً هذه الدني
 ان تناعى او ادنى فهو للحق ينتصر

عيشه عيش زاهد نفسه نفس واجد

فكره	فكر	ناقد	مبهد	الفكر	والنظر
صير	الحق	ذوقه	بإذلاً	فيه	طوقه
شاعر	ليس	فوقه	شاعر	من	بني البشر
خط	سفرأ	به	ابتغى	غنية	الروح بالرغى
جامعاً	افصح	اللفى	حاوياً	اكبر	المرء
شاعر	الارض	والسما	هو	بالذكر	مد سما
ابصر	الحق	بالعمى	لم	يضره	عمى البصر
هو	بالشعر	ان شدا	يتجلى	لك	الهدى
مدركا	أبمد	المدى	بالماني	التي	ابتكر
جانب	الناس	واعزل	قائلا	انهم	همل
شرم	غير	محمل	خيرم	غير	منتظر
ما	بهم	غير	حاسد	دائب	في المكائد
مبتغى	كل	واحد	منهم	الجور	ان قدر
ليس	للموت	عنده	من	تفاريع	بده
ان	عرا الحي	ردة	فاقد	الحس	كالجبر
شعره	شعر	متقن	فيه	شك	لموقن
فيه	كفر	لمؤمن	فيه	ايمان	من كفر
نحن	اسرى	ذواتنا	خشية	من	بماتنا
كم	وكم	في	حياتنا	مبتدا	ما له خبر

معروف الرصافي

على قبر أبي العلاء

سيدي حكيم المعرفة بل حكيم العرب قاطبة .

ألا ليأذن لي السادة المحترمون الذين حملهم الإعجاب بك والاكبار لك على أن يحجوا إلى قبرك في هذا الموكب الحافل بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك ، أن أفرغ لمناجاتك ، وأتجرد لمخاطبتك ، وما أظن بأن الدقائق القليلة التي يسمح لي بها حجاج قبرك الكرام والتي أستطيع فيها أن أناجيك وأن أخطبك تكفي للاعراب عما توحيه إلي في هذه الساعة ذكراك الخالدة ويشيره هذا المشهد الرائع على قبرك في نفسي من شتى الخواطر والافكار وضروب الأحاسيس والانفعالات .

سيدي أبا العلاء

إن العراق الذي تجشمت اليه الأخطار وركبت له متون الأهوال وقضيت في ربوعه زمناً غير قليل وعاشرت علماء وأدباء وشعراء معاشره طويلة فمرفقهم وعرفوك وأحببتهم وأحبوك يرفع لك على لسان هذا العاجز خالص ولائه وصادق إعجابه راجياً جميل صفحك إن كان قد وقع له معك في اثناء زيارتك له ما لا يرضيك عنه أو ما لا يرضيه هو عن نفسه شاكراً كريماً إحساسك ورقيق شعورك نحوه في قولك مودعاً أبناء عاصمته :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما بينين عن اللذع
وكان مرادي أن أموت لديكم حميداً فما الفيت ذلك في الوسع

وقولك متشوقاً إلى أصدفائك الأوفياء فيه واليه :

سلام هو الاسلام زار بلادكم ففاض على السني والمتشيع
كشمس الضحى أولاه في النور عندكم وأخراه نار في فوادي واسلمي

يقوح إذا ما الريح هب نسيما شامية كالنبر المتضوع
نعم حبذا قيظ العراق وإن غدا يوجب ناراً في مقيل ومضجع
فكم حله من أصمغ القلب آيس يطول ابن أوس فضله وابن أصمعي
أحن لذكراه وأحفظ غيبه وانهض فعمل الناسك المتخشع
إنه لفخر للعراق يا سيدي الحكيم ما بعده فخر أن يترك هذا الانطباع
الحديد في نفسك وأن يحتمل هذه المكانة الرفيعة من قلبك وأن يظفر بهذا
النصيب من ثنائك وتقريرتك .

أيها الفيلسوف الكبير

إن الشرق العربي الذي أقتت نفسك مصباحاً له تنير أمامه السبيل
وأنت تحترق بجهد فضلك وأنكر فلسفتك واتهمك في دينك وطارذك في أيام
حياتك وبعد مماتك ما وجد إلى مطاردتك سييلاً، قد أدرك اليوم خطأه وتبين إسراره
على نفسه فاستعاض عن خطأه بصوابه وعن ضلالته بهداه وعن غيبه برشده
وهو اليوم يؤمن بمبادئك ويصدق بتعاليمك ويشعر من أعماق نفسه أنك
رسول أمين من رسل المحبة والحنان والرحمة . على أنه إن آمن بمبادئك وصدق
بتعاليمك فأتما يؤمن بما فيه خيره ويصدق بما فيه صلاحه وفلاحه . وقد
يدهشك يا سيدي الحكيم أنه لم يصحح رأيه فيك إلا بعد مرور الف سنة
وقد تقلقتك منه هذه الأناة في تصحيح الأخطاء فأطمئنتك بأن ثقافته قد
تقدمت وأن معارفه قد اتسعت وأنه سيقضي من الآن فصاعداً في تصحيح
الخطأ الواحد أقل من الف سنة .

أيها الفيلسوف الكبير

إن القرون العديدة التي مرت مند وفاتك لم تزد بمبادئك إلا سمواً
وتعاليمك لإقوة ورسوخاً، « فديكارت » لم يزد على أن كرر للعالم مادعوته
إليه مائة مرة من تقديس العقل وتمجيده وتمحيصه في كل صغيرة وكبيرة من
شؤون الدنيا والدين على السواء ، وكلمته الشهيرة (أنا أفكر ، إذن أنا
موجود) ليست إلا تكراراً غير مقصود لكثير من أمثال قولك :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وارحل عنهما إمامي سوى عقلي
« وروسو » لم يزد في دعوته إلى الإصلاح السياسي على أن أيد آراءك

وكرر أقوالك ودعا الناس إلى اعتناق تعاليمك ، إذ كل ما دعا إليه في هذا الباب أو جله هو أن يتمتع الناس جميعاً بحرية الفكر والقول والعمل وأن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وأن يكون الشعب مصدر السلطات جميعاً إليه يرجع الحكم فيما يدبرون من مشؤونه ويصرفون من أموره. لأمره يخضعون وبرأيه يهتدون ، وقد سبقته إلى تقرير هذا كله في لزوم ما لا يلزم . فما أعرف كلمة أبلغ في انكار التحكم في الحريات من قولك :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين اطلت همسي
ولا اعرف كلمة أبلغ في تقرير المساواة من قولك :

لا يفخرن الهاشمي على امريء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده إلا كقنبر

ولا أعرف كلمة أبلغ في تحديد علاقة الحاكمين بالمشكومين من بيتك الجاري على كل شفة ولسان ألا وهو :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وسبقك إلى ما جاء به ديكرت ورسو يعني أنك تمثل بعبقريتك التي لا حد لها مدوستين هما من اعظم المدارس الادبية في العالم ان لم نقل اعظمها ، هاتان المدرستان هما اللتان تدعيان « الاتباعية والابتداعية » وأخيراً أفضل تولستوي في تنازله عن املاكه ومشاركته العمال والفلاحين في حياتهم الخشنة الا ما فعلته في تنازلك عن مال الممرة عندما آل أمرها اليك وانفاقه على الفقراء وذوي الحاجة من أبنائها وانت تقول :

سولت لي نفسي أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
ويقول الفواة خولك الا كذبتم لغيري التخويل
ان جباك القدير كالنيل تبراً فليفضه المطاء والتنويل
لا تعول على أختزان فما للبسر الصفر أرميت عويل

أما رأيك في الناس فلا يمر عصر أو جيل — أستغفر الله — بل لا يمر يوم حتى يقوم البرهان ولو البرهان على انه صحيح كل الصحة مصيب كل الاصابة فليس من شك في أنهم اليوم كما كانوا على عهدك وكما كانوا منذ

وجدوا على ظهر هذه البسيطة أهل لما سدوت اليهم في سقط الزند ولزوم
 مالا يلزم من سهام نقدك الجارح خلقاء بما وصفتمهم به من حرص على المال وتهافت
 على الجاه وتكالب على المطامع والشهوات . لم يمصمهم علمهم من رذيلة ولم يطبمهم على
 فضيلة ، قد كبرت عقولهم وسفرت نفوسهم واتسعت مداركهم وضافت افئدتهم ،
 وحسنت مظاهرهم وساءت سرائرهم ، وقد جرفتهم مطامهم الأشعبية فزجت بهم
 في حرب قضت على جانب كبير من عمران مجتمهم وذهبت بحياة الملايين من رجالهم
 وسببت الشكل واليتم للملايين كثيرة من نساءهم واطفالهم وحرمت المجتمع مسلايين
 عديدة من الأيدي العاملة وانحنت جسم المدينة بجروح قد لايشفى منها الا بعد
 عشرات الأعوام . وقد كانوا على عهدك يكتبون بالنشابة سلاحاً وبالحرية اداة
 فتك وبطش ، اما اليوم فهم يرامون بالقذائف المحرقة في اعماق البحار ويتراشقون
 بها في جوف السحاب ، ماذا أقول لك ، بل أنهم يقصفون المدن الآمنة ويضربون
 النساء والشيوخ والأطفال بقنابل زنة الواحد منها اربعة اطنان حيناً وستة اطنان
 حيناً آخر ، اي أن قبلة واحدة من هذه القنابل لو سقطت على المعرة لاسمح الله
 لتركها أثراً بعد عين .

وما احدثك به عن الناس من بعدك احدثك به عن الحياة وهي على كل حال
 حياتهم وثمره جهادهم ، وتفكيرهم ونتاج أخلاقهم وعاداتهم واعمالهم واحوالهم فما
 عسى أن تكون بعد ذلك ومع كل ذلك ورغم كل ذلك يمكنني أن اروي لك خبراً
 مفرحاً جداً ، خبراً يملاء قلبك سروراً ونفسك حبوراً ، هذا الخبر ياسيدي
 الحكيم هو خبر اجتماع مندوبي الأمم العربية في الأسكندرية للتشاور في اعاده
 تنظيم الوحدة العربية ، وانه لمن بدائع الصدف ومحاسن الاتفاق ان تفتتح هذه
 المفاوضات في نفس الوقت الذي يحتفل فيه العرب بمرور الف سنة على ميلادك
 كأنهم بذلك يقيمون البراهين المختلفة على حيويتهم وفاعليتهم في وقت واحد . أجل
 ياسيدي الحكيم ان العرب الذين ساءك تواكلهم وتخاذلهم والمحالل ملكهم وسطوتهم
 فندبت سوء حفظهم في العراق والشام لملاقتك المباشرة بهذين القطرين بقولك :

ان العراق وان الشام مذ زمن صفران مافيهما للملك سلطان

قد شعروا اليوم بدم الحياة يجري في عروقهم مرة اخرى فاتفنصوا من مراد

الحوال ونهضوا من كبوتهم البعيدة المدى وراحوا يملون بكل ماوتو من قوة على لم شعئهم ورأب صدعهم واصلاح بلادهم وتنظيم شؤون مجتمهم وهم مقتنمون في قرارة نفوسهم بأن توحيد بلادهم بشكل من الأشكال هو الطريق الوحيد لتحقيق كل هذه الأغراض وبلوغ كل تلك الغايات لذلك يجتمع مندوبوم ورؤساء حكوماتهم اليوم في ارض الكنانة ليعملوا على تحقيق هذه الرغبة الشاملة التي مضت عليها الأعرام الكثيرة دون أن تخرج من حيز الأمانى والأحلام . هذا هو احسن خبر يمكنني ان اروي به لك عن هذه الدنيا الفانية ، فان سرك واطمأنت اليه ففسك وهذا مالا اشك فيه فسل ربك ان يشد ازر القائمين بالدعوة الى الوحدة العربية وان يثبت اقدامهم ويكمل جهودهم بالتوفيق الكامل والنجاح التام ، فان في ذلك فوائد لا تحصى ومنافع لا تحصر لعشرات الملايين ممن يتكلمون لغة اللزوميات ورسالة الغفران .

الا لتمش ذكراك ايها الفيلسوف الأٌكبر ، ولتمش الوحدة العربية .

مهدي البشير

الحفلة الرابعة

في حلب

في الساعة العاشرة من يوم الخميس في ٢٨ ايلول ١٩٤٥ زار أعضاء المهرجان قلعة حلب ، ومتحفها ، ومكتبتها الوطنية ، وغير ذلك من الأماكن . ثم زاروا دار الحكومة في الساعة الثانية عشرة ، فحيتهم موسيقى الدرك عند وصولهم ، واستقبلهم محافظ حلب السيد احسان الشريف استقبالاً رسمياً ، ثم عادوا بعد ذلك الى فندق (بارون) ، حيث تناولوا طعام الغداء على الانعام الموسيقية التي عزفتها فرقة دار الايتام . وكانت لجنة المهرجان قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطابية الرابعة في باحة مدرسة التجهيز . فلما دنا موعد الحفلة ، زار أعضاء المهرجان ضريح المغفور له الزعيم ابراهيم هنانو ، وانتقلوا منه الى مكان الحفلة . وكانت باحة مدرسة التجهيز مزينة بالاعلام السورية ، واعلام الدول العربية ، والانوار الكهربائية على أشكال هندسية مختلفة ، فلما دخلها أعضاء المهرجان استقبلهم المدعوون بالتصفيق ، فجلسوا على المقاعد الخاصة المعدة لهم حول منبر الخطابة ، وكانت اللجنة قد نصبت حوله مكبرات الصوت لإذاعة الخطب على الجماهير ، وعرضت امامه تمثالاً كبيراً لآبي الملاء صنعه احد الفنانين في حلب . وكانت باحة المدرسة غاصة بالمدعوين ، وكلهم من علية القوم ، جلسوا على صفوف دائرية متوازية تلتقي اقطارها في المحل الذي اقيم عليه المنبر . واحاطت الجماهير بمدرسة التجهيز من كل جانب لاستماع الخطب حتى زاد عدد الشهود على ثلاثة آلاف .

وبدئت الحفلة بالنشيد السوري في جو ملؤه الروعة والجلال ، فألقى محافظ حلب كلمة ترحيبية أشار فيها الى حق مدينة حلب في الاحتفال بذكرى أبي الملاء لقبها من معرة النعمان ، ولصلة صاحبها صالح بن مرداس بابي الملاء وما كان من شفاعة ابي الملاء عنده . قال : وان الشهباء عاصمة سيف الدولة التي كانت تظل المعرة بظل وارف ، وتكلؤها بعين رؤوم ، لتفخر اليوم بشاعرها الحكيم ، وفيلسوفها العميق ، كما انها ترحب باعلام الفكر الذين وطئت اقدامهم ارضها لمشاركتها في الاحتفال بذكرى شاعرها .

وتتابع الخطباء بعده على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني أبو الملاء شاعر انساني

- ٢ الأستاذ طه الراوي
ممثل وزارة المعارف العراقية
- ٣ - الأستاذ عمر ابوريشه
الفيلسوف (قصيدة)
- ٤ - الأستاذ سامي الكيالي
الاضطراب السياسي في عصر
أبي العلاء وأثره في ينشئه وشعره

وطلبت لجنة المهرجان في نهاية الحفلة الى الدكتور طه حسين أن يتكلم فألقى كلمة بليغة عن فن أبي العلاء أشار فيها الى قدرة أبي العلاء على استعارة المعاني والاصطلاحات من علماء الشعر والصرف والعروض والفقه والفلسفة ، وحذقه في قلب هذه الاصطلاحات المستعارة الى تشبيهات شعرية جيدة مع انها في نفسها ابد ما تكون من ظرف الشعراء . كقوله :

مالي غدوت ككاف رثوبة قيدت في الدهر لم يقدر لها اجراؤها

وقوله : اعللت علة قال وهي قديمة اعيا الاطبة كلهم ابراؤها

قال : لقد ظلم الناس ابا العلاء في حياته ، وظلمه الأدياء بعد موته ، فمن قائل انه فيلسوف لاشاعر ، ومن قائل انه شاعر لا فيلسوف ، ومن قائل انه لاشاعر ولا فيلسوف ، وعندني ان ابا العلاء يسمو على كل هذا لانه جمع من صفات العبقريه مالم يتح لغيره ان يجمعه فتعذر بذلك تحليل شعره وورده الى اصول معروفة وقوال موصوفة . وتحلل الحفلة قطعة موسيقية رمزية للاستاذ سامي الشوا استمع اليها الجمهور بصمت عميق . وكانت حفلة حلب من أجمل الحفلات التي تجل فيها الذوق والشعر والموسيقى في أجلى مظاهر السحر والجمال .

ولما انتهت الحفلة الخطابية ، دعي الأعضاء الى حفلة عشاء ، اقامتها لهم مدينة حلب في فندق (بارون) ، حضرها وجهاء حلب ، وعلماؤها ، وأدباؤها . ثم اجتمع الأعضاء بعد حفلة العشاء على سطح الفندق ، وشهدوا العرض الكشفي الذي اقامته فرق الكشف في حلب ، بموسيقاها الكشفية ، ومشاعلها النارية ، في نظام حسن وترتيب مهيب . واحتشدت الجماهير بعد ذلك امام الفندق ، فحالا العرض الكشفي مهرجان شعبي دل على مشاركة مدينة حلب كلها في مهرجان ابي العلاء ، وفرحها به وحبها للعلم والأدب ، وميلها الى تكريم رجاله وائناسهم .

جميل صليبا

وفيا يلي نص الخطب التي القيت في الحفلة الرابعة .

م (١٠)

أبو العلاء شاعر انساني

اصمحوا لي — قبل أن أدخل في الموضوع — أن أتوجه بالشكر الى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التي أولتني شرفاً عظيماً بندبي لتمثيلها في هذا المهرجان التاريخي . وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهر لا أرى أن الحال تسمح بتليتها ، ثم رأيت مجلس النقابة أن ينييني عنه ففاجأني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر . ولعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم . وفي هذه الساعة بناديهم بمصر وان كلتي تنلى عليهم الآن لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل .

والشكر أولاً وآخرآ . لحكومة سورية الشقيقة على ما الطفتني به وخصنتني من التسهيل والتذليل . وما نفعنتي لا مسئولة ولا مكلفة . ولو لا حسن صنيعها لكان الأرجح أن لا أدرك الاحتفال في حينه .

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود . مرجعه الى آفة لا بُرء لي منها على ما يظهر . فقد كنت كتبت قبل حضوري الى الاستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له أن عنوان موضوعي هو « أبو العلاء شاعر انساني » والواقع اني كنت الى ذلك الوقت حائرآ لا أهتدي . ولا أدري أية ناحية من أبي العلاء يحسن بي أن أتناولها . وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الادب قد وفدوا على دمشق ليقولوا في المرعي . ويقيني انهم لم يتركوا لي باباً أدخل منه أو كوة صفيحة أنفلت منها . وكان الوقت قد ضاق . والمراجعة الواجبة طويلة . والمشاكل لا هيبة ولا قليلة . والعنوان آخر ما أكتب . وهو على كل حال شيء لا أحسنه . ولقد أخرجت كتاباً لي في المطبعة سنة كاملة حتى وقفني الله فاهتديت الى اسم له . وأصارحك اني ماتسنى لي أن أكتب كلتي هذه الا قبل مقدمي بيوم

واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلتي مضللاً أو اسماً على غير مسمى ولهذا وجب التنبية وبراء الذمة - أما الموضوع الذي سأتلوه فلا أدري ماذا أدعوه وكل ما أدريه اني أحوم فيه وألوب حول أبي العلاء .

يرجع عهدي بأبي العلاء الى أيام الطلب والتحصيل - أي الى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد - ولعل الاصح أن أقول الى بداية أيام الطلب فما عرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها . وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها . وما فتئت أرجع اليه حيناً بعد حين . حتى تقضى من العمر فيه شطراه وأطيهها . وأطولها فيما أخشى . فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم . ولا يلتزم ربنا معنا ما يلتزم شمرأوثنا من الوزن والقافية . فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتووع وتتفاوت . ولولا ذلك لضقنا بانفسنا وسئمنا أن تجري حياتنا على استواء . وعسى أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية .

وأذكر أننا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي . وكنا ذات يوم نمر ب أبياتاً للمعري في الفخر - ما أقل ما كان يفخر - فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا - وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية . وكانت فيه صراحة تلبس بالفظاظة والجفوة - وقال : « اسمعوا . هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر . ولكنه من أردإ ما قال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به اليه . فانه شاعر جليل القدر . مني في حدائمه بذهاب بصره خيل بينه وبين السمي والتصرف وعكف على الدرس لا يشغله عنه شاغل وتوفر على ما كان في زمانه من علوم وآداب وفنون . حتى الرياضيات والموسيقى والفلك . فلم يكذب فوته شيء . ولزم بيته وسمى نفسه رهين الحبسين . محبس الدار التي لا يفارقها . والعمى الذي لا يفارقه . وراح يتفكر ويتدبر . ويملي ما يدور في خاطره ويضطرب به فؤاده . فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداة للرزق . وقد جرى غيره قليلاً في البداية ثم كف وأقصر . وستحتاجون وأنتم تقرأونه الى المعجم فان الشيخ كان يتكلف الإغراب . على أن المعجم لاغنى عنه لقاريء الأدب العربي وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق »

فكان أن اقتنيت سقط الزند والذروميات وعكفت عليها . وما أظن به الا أنه قوى في نفسي ميلي في أيام الشباب الى التشاؤم . وأعداني بخواطره السود .

ولكنه علمني أن أنظر بعيني . وأفكر بعقلي . وصدني عن التقليد والمحاكاة . وحبب الي الخير والرحمة والانصاف . وبنض الي الظلم والبغي وأن كان لم يهديني . وله العذر فما كان اهتدي حتى يهتدي سواه .

ولم يتغير رأيي فيه بعد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدنيا . واطلاعا على الأدب . فما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء . وان كان لايمجني بأسه من الخير والصلاح . وعزوفه عن الدنيا . ونكوصه عن الضرب في زحمة الحياة . ولكفي أفهم دواعي ذلك وأعذره . ولا شك في أن الزهد والاعتزال يتأنيان الطباع حتى في الحيوان . ولكنه لم يكن زاهداً وانما كان يتزهد . ويشيح بوجهه عامداً . ويروض نفسه على الحرمان . أو كما يقول الميحي في « روض نفسه وقنمها على الكفاف فعاد شماسها انقياداً . وألقت اليه مقادا . » ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا» وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق اليه مقاداً ولم يعد شماسها انقياداً . كما سنرى .

وقد عرف عنه أنه في صباه كان يلهو ويمث . ويلعب الشطرنج والترد . وهو

القائل بعد أن تقضى الشباب :

ألم ترني حميت بنات صدري	فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن الي أنيس	اذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد	واخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صماب آمالي فكانت	خيولاً في مراتها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا	لان خيارها عني خنسنه
ولم أر في جلاس الناس خيراً	فمن لي بالنوافر ان كنسنه

فهو كما ترون بخطي* أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهده . ويقول إنه راض صماب آماله فظلت كالفرس الشموس الذي يمنع الراكب ظهره . وما أعرض عن اللذات الا لأن خيارها تفوته . وهو يشتهي أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التي تدخل كئناسها . وكان واسع المطامع فقاته أن يكون بحيث يجب فنفر وآثر العزلة .

وقد صاح مرة :

أيأتي نبي يجعل الحجر طليقة فتحمل ثقلاً من همومي وأحزائي ؟

ثم آثر الاحتشام والتجمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال :
 وهيات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني
 وهو كثير التحديث لنفسه بالخر . يأسف مرة على حرمانها فيقول :
 تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تهباني كيف اطمأنت بي الحال
 وتارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالاً لما شر بها . فيقول :
 لو كانت الخمر حلالاً ما سمحت بها لنفسي الدهر . لا سراً ولا علناً
 فليغفر الله . كم تطفى ما ربنا وربنا قد أحل الطيبات لنا
 وهو في رسالة الغفران يصف مجالس الخمر والمنادمة عليها ويقول انما لذة
 الشرب فيما يعرض لهم من السكر . ولو لا ذلك لكان غيرها أعذب .
 وهو القائل أيضاً :

ولولا أنها باللب تودي لكنت أخوا الندامة والنديم
 وقال في ذمها والتحذير منها :
 البابلية باب كل بلية فتوفين هجوم ذلك الباب
 جرت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الأحباب
 أم الحجاب . وان أميت لهيها بمزاجها وافت كأم حباب
 هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تهضم الأرباب
 وتوهم الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر برود شباب
 واذا تأملت الحوادث الفيت صهب الدنان أعادى الألباب
 وقال أيضاً في هذا المعنى :

هي الراح . أهلا لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح
 فلا تمجنك عروس المدام ولا يطرنبك مفن صدح
 ومن يفتقد له ساعة فقدبات فيها بمخطب فدح
 قبيح بمن عدت بمض البحار تفريقه نفسه في قنح
 وقال في الدنيا التي عالج الانصراف عنها

أها الدنيا لحاك ال
 ما تسلي خلدي عن
 له من ربة دل
 ك وان ظن اللسلي

وقال أيضاً :

طالب صبري فقيل أكنم شبعاً
ن وإنني لمنطو طيانـ
أي جائع متعمد للجوع .
وقال يصف مجاهدته نفسه

مهجتي ضد يحاربني
أنامني كيف احترس ؟
وقال :

حبستك أقدار ذوتك عن المنى
ففضى أصحاب وأنت ناو جالس
وقال :

وما يترك الانسان ديناه راضياً
بمز ولكن مستضاماً على قسر
وقال :

والعز في الثروة . والعيش في الـ
حجرة . والحرفة في المهبرة
وقال :

تنازعي الى الشهوات نفسي
فلا أنا منجح أبداً . ولا هي
وقال :

أربد ليان العيش في دار شقوة
وتأبى الليالي غير بجمل وبيان
ويعجبي شيطان . خفض وصحة
ولكن ريب الدهر غير شيباني
وما جبل الريان عندي بطائل
ولا أنا من حود الحسان بريان

وفي رسالة الغفران . مجمل ابن الفارح يلتقي باثنين من الحور من الضرب
الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . فيقبل على كل واحدة
منها يتشرف رضاها فيهبجه ذلك الى ما به ويصيح « ان امرأ القيس لمسكين .
مسكين . تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام و صوب النمام
وريح الخزامى و صوب القطر
يعمل به برد أنيابها
إذا غرد الطائر المستحجر

ولا يزال المعري في هذه الرسالة بلتفت لي مواضع مينة في جسد المرأة ولا
يخلو هذا من دلالة .

وفي « الفصول والغايات » تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات .
« يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض . أودعت المال فرددته سالماً . والخليل

فأكلته راغماً . ليتك أكلت المال ورددت الخليل . انما أنا كرجل يلي بالصدى
(العطش) لا يجد ورداً ولا مورداً . فهو ظآن أبدأ ،
أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يردّه فيطفيء ظمأه .

وان الله خلقني لأمر حاولت سواه فأفئيت المبهم بغير انفراج . وفضام ابن
المامين أيسر من فضام ابن الأعوام . وأعياء تأديب الهرم على الأبداء . وقد
صرفت نفسي في الشبية فألفيتها صاحبة جماح . فالآن وقد اسمالت الظلال
(قصرت) ان تركتها أسفت . وان زجرتها فلا انزجار . كأن كلامي سفير
الريح (ماتكنسه من الورق) مالها اليه التفات . وقد سئمت الحياة . وأخاف
أن أنقل فأقدم على ما حزن وساء . وأنا أغفلت الحزم . ملت عن الجدد ومشيت في
الخباز . وقد خلصت من الجبالة فكيف عدت . وعلى علم وضعت القدم في النار .
أحلف يانفس . ولك الحلف . لقد ضيقت آخرتك ودينك . ما فوق رجل امن الله
وحشي الناس . اسمى للنفس فيما تكره كأنني لها غاش . أنا وهي شيء لا يناز . نتراد
الملامة كأننا اثنان . تلك محارة في حور . ان جنت علي . أو جنيت كيف يقع
انقصاص ؟ أفئيت الشبية سوى سواد قد آن له أن يبدل بيباض . . الخ
ولا داعي للاكثر من الشواهد . فان أبا العلاء انسان . وليس بانسان من
لا يشتهي الحياة الرضية . والمتعة المرضية . والسلامة من اليأس والمضراء . وأن أبا
العلاء لانسان عريق في الأنسانية . يحب الحياة كما يحبها جميعاً . ويفزعه المصير
الذي لامهدي عنه ولا مهرب منه . تأمل قوله :

وكلكم بيدي لدياه بفضه على أنه يخفي بها كمد الصب

وقوله :

تبني الثراء فتمطاه وتحرمه وكل قلب على حب النقي جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح ابديةه للملأت السهل والجبلا

وقوله :

اشربت جبك لا ينفيه عن حسدي سوى ثرى لدماء الانس شراب

وقوله :

وصدقت هذا العيش في حبي له واغترني بخداعه وكذابه

وقوله :

شقيناً بدنياًنا على طول ودنا فدونك مارسها حياتك راشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضم عشقها

وقوله في « الفصول والغايات » ايها الدنيا البالية . ما احسن ما حلكتك الحالية .
ابن امك الخالية . ان نوبك لمتوالية . والنفس عنك غير سالية .
« كسيت الحدائة فأبليتها . واعطيت الصحة فعمليتها . ماخولت من الجرائم ولا
خليتها . قلنتي دنياي فما قليتها . اكلتائها فما اكلتيتها (راقبتها فما اصبت شيئاً)
« اسب نفسي وتسبتي . واريد الخير لا ينجيني . احب الدنيا كأنها تجبني .
والحرص يوضعني ويخبني . والمريزة عن الرشد تذبني »
« ويحي كل الومح . أحب الدنيا وآتها ليست في » . وقد يئست من بلوغها
والياس مريح . فالام التشوف الى الضلال »

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على ما فاته فيها وحرمه .
كان جزعه من الموت . واستهواله له . وطول تفكيره فيه وفيما يليه . وحيرته بين
الجبر والاختيار ، وشكه في كل شيء الا أن الموت حق ومصير محتوم :

إذا ما تباشر أهل الغلام به فالتباشر معنى هلك
ألم تريا أن سلك الزمان أفنى السليك وأفنى السلك؟

يمر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي
كأنني بالأولى حفروا لجاري وقد أخذوا المحافروا تحوالي

سيسأل ناس ما قریش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم
أرى الوقت يفني أنفسا بفنائه فيمحو . فما يبق الحديث ولا الرسم

تبكى على الميت الحديث لأنه حديث وينسى ميتك المتقادم
لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحس . وما رأى . لما قدم

إذا الحي ألبس أكفانه فقد فنى اللبس والابس
ويبلى الهيا فلا ضاحك إذا سر دهر . ولا عابس
ويحبس في جدث ضيق وليس بمطلقه الحابس

فما هو في سلف سائر ولا هو في حنّس قابس
 يجاور قوما أجادوا العظاات وما فيهم أحد نابس
 أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
 ومدّ وقتي مثل القصر . غايته وفي التراب تساوي الدر والبرد

في الواتر والموتور . وعند الله علم الذاهبين

ولا آخر لقوله - شعراً وثراً - في الموت والفناء . حتى الكواكب لا منجاة
 لها من هذا المصير .

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقّدت من عهد عاد وأذكي نارها الملك
 فان خبت في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك
 زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردي على ميعاد
 ولنار المريح من حدّثان الدهر مطف . وان علت في اتقاد
 والثريا رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الافراد
 وقد زعموا الا فلّاك يدركها البلى فان كان حقاً . فالنجاسة كالاطهر

وما مصير من يفكر على هذا النحو؟ مصيره ولا ريب الى اليأس . والى أن
 يستوي عنده الجهل والعلم . والهدى والضلال . وإلى حيرة مضنية لا يخرج منها .
 ولهذا تراه لا ينفك ينفى ويثبت . ويقول بالرأي وتقيضه .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
 ومن يظفر بأمر يبتغيه فأقضية المهيمن وفقته
 ما باختيارى ميلادي ولا هرمي ولا حياتي . فهل لي بعد تخيير؟
 تتخيرين الأمر كي تحظي به هيات ليس على الزمان تخيير
 لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل اذا قضى ملك الافلاك أنضاني
 وان كهت فأمر الله اكهني وان مضيت فأمر الله أمضاني
 وهو مغلوب على أمره في كل شيء .

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت
 نهائي عقلي عن أمور كثيرة وطبني اليها بالعزيزة جاذب
 قضى الله فينا بالذي هو كأن فم . وضاعت حكمة الحكماء
 وهل يابق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟
 ولكنه يمود فيقول بالاختيار :

تقلدن المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات
 تخير . فلما وجدة مثل ميتة واما جليس في الحياة منافق
 فما أذنب الدهر الذي أفت لأثم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا
 ثم يتردد ويضطرب ويختار فيقول :

تخالفت الأشياع في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها
 وقيل نفوس الناس تطبع فملها وقال أناس بل تبين جبرها
 ارى شواهد جبر لا احققه كأن كلا الى ما ساء مجرور
 قالت معاشر . كل عاجز خرع ما للخلائق . لا بطء ولا سرع
 مدبرون بلا عتب اذا خطئوا على المسي . ولا حمد اذا برعوا
 وقد وجدت لهذا القول في زمي شراهداً ونهائي دونه الورع
 وحرار في الثواب والعقاب . ورأى ان من الظلم عقاب المجبر . ولم يعلمثن الى
 الجبر . فطمع في الغفران . وآمن بالمقل وكفر به

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد
 فشاور العقل واترك غيره هدرا فالمقل خير مشير ضمه النادي
والمقل غرس له بالصدق آثار

ثم يرجع فيقول :

هي الأفهام قد صدئت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل
 وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يفهم طول أعمالها

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهاوما في حنّس تصادم
 سالتوني فأعيتني اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا
 انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته
 أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى
 أنا اعمى فكيف اهدى الى المنه هج والناس كلهم عميان
 فهم الناس كالجوول وما يظ فر الا بالحسرة العلماء
 * * *

وحسبنا هذا القدر من الشواهد

وقد قيل ان علة الملل هي عماء . وان هذه المهنة هي التي حملته على التزهّد
 وايتار العزلة . ورياضة النفس على الكفاف . وان آفته هذه هي مفتاح شخصيته .
 فلا سبيل الى فهم المرعي على حقيقته الا اذا اردنا كل عمل او قول له الى هذه
 المصيبة التي اصابته في طفولته لغير ذنب جناه .

وغير مردود ولا منكور ان ذهاب البصر محنة . ولا سبيل الى الشك في ان
 المكفوف لا يسمعه الا ان يشعر بما حاق به من المكروه . وما حرم من المزية . والا
 ان يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وان اظهر الجلد وابدى التشدد . ولا يمكن
 ان تخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من اثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه
 عقله ونوع احساسه بالحياة والناس .

كل هذا مسلم لاخلاف عليه . فما يستوي ان تكون او لا تكون للانسان
 هذه الجارحة والا كان خلقها عبثا . وزايذاً لاداعي له . ولكفي لارى راي
 القائلين برد كل شيء الى فقدانها . ولا انها هي مفتاح شخصية المرعي . فليس من
 الحتم ان يحدث ذهاب البصر هذا الاثر . وقد عمي بشار جنينا ولم ير ضوء النهار
 وتحسر وتألم . ونقم وسخط . ولكنه لا تزهد ولا اعتزل . بل نزل الى المعترك .
 وخاض الغمار . وضرب في الزحمة وكان حيواناً كبيراً . وروى يريك الأديب
 الانجليزي المشهور في كتابه « الجليل والجميل » أنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً

علم الضوء في الجامعة . وهو قد ولد مكفوفاً . وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه « العالم تحت أناملي » لكاتب امريكي حديث اسمه « كارستن اونستاد » ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية . أي بعد أن أمتع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً . فالحسارة افدح . والحرمان أوجع . وقد ترجم في هذا الكتاب حياته . ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة . وكيف غالبها فغلبها . وهو لا يعتمد الا على العصا ولا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه الا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق . فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه . وكيف كان يشارك الطلبة في العابهم ومغامراتهم . حتى الزحلقة على الثلج في الجبال .

وعندني أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري اليه . الا اذا اجتمع أمران على الخصوص : - حس مرهف دقيق في المكفوف . ومجتمع لا يزال يشمره انه مكفوف كأن يبدي العطف عليه . أو يعيره . أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً او مستكثراً على مثله . واحسب ان عامل المجتمع اقوى الاثنين فاذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي . وعاملوه كأنه مثاهم بلا فرق . ونزهوه عن العطف والتمييز والتعجب . فان أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به ، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده . وتقيه بسلو كها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه .

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة . واثار الوحدة والمزوبة . وكرهه أكل اللحم وذبح الحيوان والطير . ولو شاء المعري لتولى القضاء في المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله . وعمه أبو بكر محمد . وجدته سليمان . وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لما حرم نفسه طيبات ما أحل الله . بل لو شاء أن ينهز مع الفواة بدلأهم ويسيم سرح الهو مثلهم لفعل . فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك . فاذا قيل أنه كان حساساً جداً وانه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزي به . وان شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطالب فيمنع ويشتهي فيحرم . قلنا أن هذا ليس من العمى . بل من دقة احساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه .

ودع هذا واسأل ماذا حرمه العمى؟ انه شاعر أديب وعالم متفلسف . وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم وحدة الذكاء . وسمة الاحاطة باللغة . والحذق بالنحو . وجودة الشعر . والامام بكل علم معروف في عصره . وكان تلاميذه يعدون بالمئين . ويضمون داره . ولما مات أنشد على قبره المرثي أربعة وثمانون شاعراً . فهو قد فاز في حياته بالحظ الأجل من الشهرة والتوقير . ولا يزال الى يومنا هذا في المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية . أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية . فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تموزد فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة . فالأمر مرجعه الى ارادته لا الى عماءه . واذا قلنا ارادته فقد قلنا ما ينزع به اليه مزاجه السوداوي الخاص وما بني عليه من الطباع . وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد اليه ما كان من سيرته . وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداداه الخاص فقد نشأ في بيت علم وفضل وتقوى . وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلدته الصغيرة . وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو عائد من بغداد بعث الى أهل المعرة بكتاب ينبهم فيه أنه اعترم أن يلزم داره ويمتزل الناس . كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو « منشوره » يسبقه اليها بلاغ منه . وكان هو إلى ذلك عالماً ضليعاً وأديباً ربيعاً . فاجتمعت له كرامتان : كرامة علمه وأدبه وفضله . وكرامة بيته وآله . وخلق حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقبها جلد . فهي أبدأ مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة . ولهذا كان ينجعل أن يرى وهو بأكل مخافة أن يرى منه ما يعاب . ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزرابة أو السخرية . ومن هنا لجأته في تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم وإنه جاهل وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى ذمه . ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يسميونه به . ومثله ينزع الى العدل والانصاف . لأن الانصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفتن فطنته الى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها احساسه . حتى لقد عرف الدين بأنه

إنصاف الناس . ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه . وان كانت رحمته مفرطة حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له فزوجاً أوصى له به الطبيب في مرضه . ويقول : « استضعفوك فوصفوك . فهلا وصفوا شبل الأسد ؟ » وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لأنها ظلم حاق به بغير ذنب . فظل نائراً على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة . ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم . إلا ضرباً من التحامل على النفس وتمذيبها لا يستغرب . فان تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من نفسه المجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول الى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقدار . وكل امرئ ينزع بطبعه الى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه ولو احساساً غامضاً . وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان . وأحسب أن مما يجري هذا المجرى شدة تكلفه في اللزوميات وإلزامه نفسه فيها ما لم يلزم أحداً ، وإكثاره من الغريب فيها وفي ثره . وتمجيره الوحشي وغير المأنوس من الألفاظ . حتى كتاب « الفصول والغايات » جعله فصولاً غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة . وذلك كله لأبنا القدرة والرسوخ في العلم والاستبحار فيه . بل التفوق والتميز . وهنا موضع سؤال : ماذا احب المعري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب ؟ وأعجب به وأكبره الى هذا الحد ؟ حتى تعرض للأذى من أجله ؟ وألف فيه كتاباً سماه « معجز أحمد ؟ » لقد كان يتمصب له تمصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لا يقولون عنه شأنناً . وان معاني المتنبي ليست كلها مما ابتكر وان كثيراً منها يوجد في أشعار غيره . ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه « ذكرى حبيب » فما هو سر هذا التمصب المفرط ؟

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لاشاعريته . فقد كان المتنبي يمثل كل ما ينقص المعري . أو ما يحس المعري أنه ينقصه : الجرأة . والاققدام . والثقة بالنفس . والأطمئنان الى صواب ما يرى . والجزم في الأمور والفحولة التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة . وعلى الخصوص اليقين الجازم . والثقة بالنفس . واتقاء الحيرة والاعتناع بأن فهمه للناس وللحياة

صحيح لا يرتقي اليه الشك . وكل هذا ينقص المعري . فهو أبدأ مضطرب
لا يستقر . وحائر لا يهتدي . لا يطمئن الى رأي . ولا يثق بصواب .
ولا يرضى عن نفسه . ولا يحول عينيه عما يدركه من قصورها وعيوبها .
يحس أن في وسعه أن يجتري ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره
الى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه .

وأحسب أن كل من قدم يفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعري . لا بد
أن يضطرب اضطرابه . ويضل ضلاله . ويقع في مثل حيرته . فان هذه
أمور أشكال لاسبيل الى الاهتداء فيها الى ما يقنع العقل . وليس المعري
يبدع في هذا فان له لأعدادا كثيرا في الشرق والغرب .

ولقد كنت منذ ايام أراجع رواية هملت لشكسبير الشاعر الانجليزي .
فاذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفارى القبور . وفي يده حجمة
« أتظن أن الاسكندر كان هذا منظره في الأرض ؟ »

فيقول رفيقه هوراشيو « تماما »

فيقول هملت « وكانت له هذه الرائحة ؟ أف . »

هوراشيو « كذلك ياسيدي »

هملت « إلى أي درك نصير ياهوراشيو . . لماذا لا يتعقب الخيال رفات
الاسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل ؟ . . . مثلاً : مات الاسكندر .
دفن الاسكندر . عاد الاسكندر ترابا . والتراب من الأرض . ومن الأرض
نصنع الصلصال . ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا
منه ما يسد برميل بيرة ؟ »

فأذكرني هذا قول أبي العلاء :

إذا غدوت بطن الأرض مضطجعا فم أفقد أوصابي وأمراضي
تيمموا بترابي علّ فملكم بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جملت بحكم الله في خزف يقضي الظهور فاني شاكر راضي
والبيت الأخير هو الشاهد
وتأمل صيحة هملت باوفيليا حبيته

« إلى الدير . . لماذا تريد أن تكوني أما لآمين ؟ اني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما . ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها انه كان خيراً لو لم تلدني أمي . وأنا رجل متكبر جداً وبي من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن . ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الارض والسماء ؟ اننا جميعاً أوغاد أشرار . فلا تصدقي أحداً منا . »

ثم يقول لها « إذا كان لا بد لك من الزواج فتزوجي مغللاً . فان العقلاء يعرفون كيف تخليهنم وحوشاً شنيعة . إلى الدير . اذهبي بسرعة . »
وأما أكثر ما أبدا المعري وأعاد في هذه المعاني . وما أشبه رأى هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يمد النساء فوارس فتنة وأعلام غي .
وتأمل مناجاة هملت لنفسه « تكون أو لا تكون ؟ هذه هي المسألة . »
وهي مشهورة . يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري « انما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد » ولكن الموت قد تتخلله الأحلام . فأني أحلام نراها ياتري إذا سلبتنا الحياة . كما يتساءل المعري « كيف لي بمخبر . يمتام نقائس ما أحذر عليه . يعلمي بعد الموت كيف أكون ؟ » وكما يقول :
وبين الردى والنوم قربي ونسبة وشتان براء للنفوس واعلال
إذا نمت لاقيت الأجابة بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال
وكا يسأل

« سبحانك مؤبد الآباد . هل للمنية نسب الى الرقاد ؟ »
ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة . وسهام القضاء . وسياط الزمن وظلم الظالمين . وصلف المتكبر . وبطء تحقيق العدل . ووقاحة ذوي الأمر وبينهم واحناء الظهر تحت أثقال الحياة . واحتمال ذلك الشقاء فزعا مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر . وهذا خوف يفل العزم ويفري المرء بالراضى بالآلام يعرفها واتقاء ما يجبل — وذلك كله ما كان يلهج به المعري .

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملك لير وغيرها .
 وندع شكسبير وما يجريه على السنة أبطاله . وننتقل الى جوتيه الشاعر الألماني وروايته فوست على الخصوص . وهي كما وصفها الشاعر « جولة بين الأرض والسماء » وفوست رمز للإنسان الذي ينشد المعرفة ويبي أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التي كان يعكف عليها لا تقيدته يقيناً ولا تكشف له عن سر ولا تبيحه مجهولاً أو مفيماً . وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه . وعاهده أن يسلمه روحه اذا وسع إبليس أن يفيدته الدعة والاطمئنان واليقين فبدأما رحلة طويلة لاداعي لوصف مراحلها فان القصة مفروفة . وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به الفضاء الرحيب فالتمس ماوراء ذلك لعل الخيال يفني حيث لم تغن الحقيقة . وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال أن ينجي الأستار المسدلة . ولم يجده رفع طرفه الى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه . ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تجيء . وان كانت لا ترضيه . وأشقاها عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد الا الحيرة اللازمة وادراكه مبلغ جهله . ولم يصل الى شيء من ثلوث افلاطون — ثلوث الحق والجمال والخير — واستدان بالشيطان على ضمفه البشري فأب بالندامة والخسار .

وليست هي لإاقصة أبي العلاء في حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه . بل قصة كل مفكر من بني الانسان في هذا العالم . وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها « سانين » وقد سميتها ابن الطبيعة . وهي لها ترب شيق . ومن أشخاصها من يدعى يورى يشهد جنازة منتحر فيسهول أنه لم يمد موجوداً . وانه كان شيئاً فأصبح لا شيء . ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبة على النعش . ويفتح الانجيل فيقرأ فيه أن من يهبط الى الأرض لا يصعد أبداً فيقول :

« ما أصدق هذا وأحكمه . حلم فظيع . هذا أنا أعيش ويلج بي الظلم إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج عليه » .

ويناجي القوة الخفية فيقول :

«ماذا جنى الانسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر؟ إذا كنت موجودة فلماذا تحفين نفسك عن عينه؟ لماذا تجمليني إذا آمنت بك لا أو من بإيماني؟ (كأبي العلاء تماماً) وإذا أجبني فكيف أعرف أنت الهية أم نفسي؟ وإذا كنت على حق في رغبتى في الحياة وطلبي لها فلماذا تسليبي هذا الحق الذي منحتني إياه؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدينا نحملها من أجل حبنا لك . ولكننا لانعرف أيها أعظم قيمة : الشجرة أم الانسان . ان الشجرة دائمة الأمل . إذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة . أما الانسان فيموت ويذول ويرقد فلا ينهض مرة أخرى . ولو أني كنت على يقين من اني سأحيا مرة ثانية بمد ملايين السنين . لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام . »

وهذه معان تقرأها كلها في المعري ثراً وشعرا فقد مزق قلبه بها طول حياته .

ومما يستحق الذكر أن يطل هذه الرواية « سائين » بيدي رأياً في يورنى هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لا يجدى . فكأنه يديه في المعري وذلك حيث يقول :

« ان الانسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط الى نفسه . فهو اما لا يستطيع أو لا يجزؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوبا لا يزعه الا دنو الموت الرهيب . ولكننا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية . وصرنا نحس العار والحجل منها ونحفيها في صور وضيمة والضعاف منا لا يفتنون لهذا بل يقضون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقدمهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً . وان الجسم ينشد السرور واللذة . وانه يتعذب

من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم . وشك مستمر
يتعلقون بكل ما يقدر أن يعينهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد .
ولا يزالون كذلك حتى يعودوا وهم يخافون أن يعيشوا وبحسوا .
هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق
وصف . أراد أن يخلق فوق الحياة فعجز . لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه
إنسان . وتهيب الحياة ففر من ميدانها . وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد
فانتقمت منه وتأرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج . فتعذب وراح
يتساءل لم ولماذا؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل . ويحاول أن ينفذ ببصيرته
من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة فما اهتدى إلى شيء يستريح إليه
العقل وتطمئن به النفس . وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن
يعيش ويحس . . لأنه يتألم . ولأنه يجهل المصير .

وبعد فإن مجال الكلام ذو سعة . ولكني لست الوحيد الذي قال أو يقول
في أبي الغلاء . وليس من حقي ولا في مقدوري أن أحاول الإحاطة بكل
جانب وأن ألم بكل ناحية . فحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز . واني
لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم . ومعتذر إليكم من التقصير . والسلام عليكم .

ابراهيم عبد القادر المازني

سر الخلود في شعر أبي العلاء

أيها الحفل الكريم:

حياكم الله بالحسنى . أرجو أن تسمحوا لي قبل الافاضة في الموضوع أن احيي حاضرة بني حمدان ذات التاريخ اللامع ، والمز الراسخ الشامخ ، أيكة أبي الطيب التي اكثر فيها التفريد وأطال فيها النشيد ، وروضة الحارث بن سعيد التي صدح فيها بالمفاخر وغنى بلجليل من المآثر . وان احيي البهليل من غطارقتها الصيد الذي وصلوا طارف مجدم بالتليد .

أما بعد فانني كنت شديد الرغبة في أن اتحدث اليكم عن « أبي العلاء في بغداد » ، لاني احب أبا العلاء واحب بغداد واحب أن اجمع بينها ، ولكن سبق لي أن تحدثت بهذا الحديث في عاصمة فيصل الثاني ايده الله وحاطه برعايته وقديماً قيل : المعاد معاد وعلى هذا وقع الاختيار على « سر الخلود في شعر أبي العلاء » ، ودكنت اوثر أن اتبسط في هذا الموضوع واشبهه تحقيقاً وتمحيصاً ولكن حديثاً لايزيد عمره على نصف الساعة لايمكن أن يتسع للتحقيق والتمحيص واستخلاص النتائج من المقدمات ولهذا اجدي مضطراً ان اقتصر على شيء وأترك اشياء فأقول :

مضى على الناس زهاء الف عام وهم يتناقلون شعر أبي العلاء ويتدارسونه ويحرصون على اقتنائه وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو اليه مكبراً لكل ما يثني عليه ، وفريق آخر يمتقد أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين وأن الكثير منه يدعو الى الانحراف عن الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين يجمع على ان هذا الشعر وليد المبقرية الفذة وتناج العقلية الجبارة وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره وجمله موضوعاً للنقاش والاستشهاد

في مجالس المسامرة والمذاكرة وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السر ياترى في كل هذه العناية والرعاية مع تباين الانظار فيه وتضارب الأفكار حوله ؟ ... يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة فيقال : ان السر في ذلك « جودته » تمشياً مع قانون بقاء الأسلح . والله اخو خزاعة حيث يقول :

يموت ردي الشعر من قبل اهله وجيده يبق وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله أن يسأل ماسر الجودة في الشعر؟ أي الفاظه؟ أم في معانيه؟ أم في اغراضه؟ أم في اوزانه وقوافيه؟... والجواب على هذا أن شعر أبي العلاء يتحلّى بكل هذه المزايا ، فهو جيد في الفاظه جيد في معانيه جيد في اغراضه . فان سمة اطلاع أبي العلاء على اسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع منها . وانا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي العلاء من فرائد الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابه ينفي الناظر فيه عن الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرفها أبو العلاء فهي غاية في الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه ابتداءً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا الى قسمين : القسم الأول شعره في الشطر الأول من حياته والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع أكثر منه مبتدعاً فقد رمى فيه الى الأغراض التي كان يرمي اليها شعراء زمانه ومن سبقهم على انه تتكعب بعض الأغراض التي تصم الشعر وتحط من كرامة الشاعر ، مثل الجورن والهجاء وغزل المذكر والأعائيت التي كان يتعاطاها الخلماء من الشعراء ، على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة تنم عن اتجاهه الفلسفي

فإننا نجده عندما يطلق لنفسه السير على سجيتها تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قلّ أن سمعنا بمثلها من شعراء زمانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مرثيته لأبيه وصدر مرثيته لصديقه الفقيه وهما من أوالي شعره في الأولى يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي	يراد بنا والعلم لله ذي المن
إذا غيب المرء استسر حديثه	ولم تخبر الأفكار عنه بما يفني
طلبت يقيناً من جبينه عنهم	ولن تخبريني يا جبين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلاً	فاني لم اعط الصحيح فاستغني
وإن لم يكن للفضل ثم مزية	على النقص فالويل الطويل من العين
وفي الثانية يقول :	

صاح هذي قبورنا تملأ الر	حب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما اظن اديم الأ	رض إلا من هذه الأجساد
خلق الناس للبقاء فضلت	امة يحسبونهم للفساد
انما ينقلون من دار اعما	ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح	الجسم فيها والعيش مثل السهاد

وهذا يترجم عن نفس أقلقها الشك في أمور واطمأنت الى اليقين في أمور ، فهي في الحالة الأولى تلح في التسأل وفي الحالة الثانية تطمئن الى برد اليقين . أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً ابتدعه لنفسه ابتداءً تنكب فيه جميع الافتراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون واتجه الى درس أمور لاعهد للشعراء بدراساتها واتخذ في ذلك من عقله اماماً مرشداً ومناراً هادياً يعرض عليه جميع ما يعين له من شؤون الملكوت في السموات والأرض فيقر ما يقره وينفي ما ينفيه ويقف موقف الشك فيما يعجز العقل عن البت فيه :

يرتجى الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل	مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

نهائي عقلي عن أمور كثيرة وطبي اليها بالفريزة جاذب

والعقل يسمى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

تركت مصباح عقل ما هتديت به والله أعطاك من نور الحجى قبسا

فشاور العقل وأترك غيره هدرًا فالعقل غير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الانسان فخلل غرائزه وطباعه
كما حلل أخلاقه وعاداته ، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته كما أنعم النظر
في حياته ومماته وأولية أمره وآخرفته . وإذا كان لا بد لنا من ضرب الأمثلة
في هذا الباب فهاك طرفاً منها :

انتهت به دراساته للغرائز البشرية الى أن هذا المخلوق المسمى بالانسان
مطبوع على الشر مجبول على العدوان وإذا صدر منه الخير فأنما يكون ذلك لعله :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

حملت بيضاً وأغربة وأتت بالقوم أجناسا

كلهم ضمت جوائحه مارداً في الصدر خناسا

أتعبت الساج في لجه ورعتم في الجوزات الجناح

هذا وأتم غرض للردى فكيف لو خلدتم يا قباح

ما أنتم بالنبات الحميم د ولا بالنخيل ولا بالعُشُر

ولكن قتاد عديم الجناة كثير الأداة أبي غير شر

ما فيهم بر ولا ناسك إلا الى نفع له يجذب

أفضل من أفضلهم صخرة لاتظلم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقد طاف بها طواف خير بصير فأنتهى به المطاف الى
الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزّه عن جميع
صفات النقص :

اثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد اشهد أنني خير جاحد
اخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم أن الأمر في يد واحد

الله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب
واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
أما النبوات واليوم الآخر فانه كان يدور فيها في ليل من الشك
فتارة يقف على مطمئن من الاثبات وتارة يندفع الى شفا الانكار فيينا
نسمعه يقول :

دعائم الى خير الامور محمد فليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تمجيد من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ماذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل

ويقول :

أحسن بهذا الشرع من ملة يثبت لا ينسخ فيما نسخ

ويقول :

وجدنا اتباع الشرع حزمًا لذي النهى ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
ومن يعف عن ذنب ويسخ بنائل نخالقنا اعنى وراحته اسخى

ويقول :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حضر خلقت ولا بعث لأموات
ولا تطيعن قوماً ما دياتهم إلا احتيال على أخذ الأناوات

ويقول :

ما اقدر الله أن تدعى بريته من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
قديمكن البعث ان نادى المليك به وليس منا لدفع الشر امكان

ويقول :

وان طال الرقاد من البرايا فان الراقين لهم مهب
فبينا هو كذلك اذ نسمة يقول : إن الديانات القت بيننا احناً
وعامتنا افانين العداوات

ويقول :

إن يصحب الروح عقلي بمد مظنها للموت عني فأجدر أن ترى عجبا
وإن مضت في الهواء الطلق هالكة هلاك جسمي في تربي فوا شجبا

ويقول :

واوصال جسم للتراب مألها ولم يدر دارر اين تذهب روحها
ويقول :

قلمت ظفري تارات وما جسدي الا كذاك متى ما فارق الروحا

ويقول :

ايرجون ان اعود اليهم لا ترجوا فاني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود

ويقول :

وروح الفتى اشبهت طائراً اطير فما عاد لما نفر

ويقول :

وجبر وكسره في الزمان وبكسر يوماً فلا ينجبر

ويقول :

سنؤوب في عقبى الحياة مساكننا لاعلم لي بالامر بمد ما بها

ويقول :

لو جاء من اهل البلى مخبر سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى في النار نوبخت

ويقول :

لا حس للجسم بعد الروح نعمامه فهل تحس اذا بانث عن الجسد

ويقول :

أرى قبساً في الجسم يطفئه الردى وميا دمت حياً فهو ذا يتلهب
وفي هذا ما فيه من الحيرة الحائرة التي تجهد العقل وتكده ثم تتركه
يدور في متاهات المجهولات وآخر ما قرأت له في هذا الباب قوله :
اقم خمسي وصوم الدهر ألفه وأدمن الذكر ابكاراً بأصال
عيدين افطر في عامي اذا حضرا عيد الأضحى يقفو عيد شوال
واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن عبادة اكرام واجلال
اصون ديني عن جعل اؤمله اذا تعبد اقوام بأجمال
على انه كبير الثقة بأن الدين بمجموعه إنما هو وسيلة تهذيب النفوس
وصقلها وتصفية الأرواح من ادراك الشرور والسمو بالاخلاق الى اوج
الكمال :

صم ثم صلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبماً فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطاعه لم يلف بالتماسك

ما الخير سوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسدٍ

توهمت يا مغرور انك دين عليّ عين الله ممالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك تجار بالئس وخدين

لعل اناساً في المحاريب خوفوا بأي كناس في المشارب اطربوا
اذا رام كيداً في الصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لأبي الحق إن وجبا
ونظر في الحياة فرأي انها صلة بين روح وجسد وانها عبء ثقيل وانها

بمجموعة من التكاليف المضنية وان التخلص منها ربح وفوز مبین :
وما العيش الا علة برؤها الردى نخل سبيلي انصرف لطياتي
ويقول :

كأس المنية اولى بي واروح لي من أن اكابد اثناءً واحواجا
ويقول :

العيش افقر منا كل ذات غنى والموت اغنى بحق كل محتاج
اذا حياة علينا للأذى فتحت باباً من الشر لاقاه بارناج
ويقول :

رب روح كطائر القفص المسجوز ن ترحو بموتها التسريحاً
ويقول :

مى الق من بعد المنية اسرتي اخبرهم أني خلصت من الأسر
ويقول :

صمت حياتي الى مماتي لعل يوم الحمام عيد
ويقول :

ان السيوف تراح في اغمادها وتظل في تمب اذا لم تمعد
ويقول :

ضجة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد
ويقول :

تمب كلها الحياة فما اء جب إلا من راغب في ازدياد
ويقول :

إن يقرب الموت مني فلست اكره قربه
من يلقه لا يراقب خطباً ولا يخش كربه
ويقول :

ايا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً اذا ما رجعت الى الاصل كالطير الصيب

ويقول :

إذا افترت أجزاءنا حط ثقلنا ونحمل عباً حين يلتئم الشعب
ونظر في موقف الانسان تجاه سائر انواع الحيوان فحكم على الانسان
بأنه معتدٍ أئيم لا يشبعه الكثير مما كثر ولا يقف في وجه مطامعه واقف
مهما قوئى يفترس الوداع من الحيوان ويمتدي على دره ويضنه وسائر نتاجه
واعلن أن عمله هذا ظلم مشين واعلن أكثر من هذا فحرض الغراب على
مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلاً :

جريا غراب وأفسد لا ترى احداً الا مسيئاً واي الخلق لم يجبر
نخذ من الزرع ما يكفيك عن عرضٍ وحاول الرزق في الأعلى من الشجر
لو كنت حارس اثمارهم ينمت ثم اقتربت لما اخلوك من حجر
بل اعلن المطف والرقه على الحشرات المؤذية فهذا هو يقول :
تسرح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون تطلقه وجون كندة امسى يعقد التاجا

ولسنا زيد استقصاء آراء ابي العلاء في الانسان وما يحيط به من
الموارض وانما زيد أن نشير الى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً واتخذ
له موضوعات حية باقية فجاء شعره جامعاً بين الابتكار في الموضوع وبين
العمق في التفكير والصراحة في التعبير والبراعة في التصوير وان شعراً
يجمع بين هذه العناصر الحية لجدير بالبقاء ما بقيت اغراضه وموضوعاته حية
مائلة وما بقى الفن الذي ابرزه حياً مائلاً ، وليس غرضي أن اقرر الخلود
على شعر شاعرنا الفيلسوف وانما اريد أن اقول ان كل شعر يجمع بين
العناصر التي جمعها شعر ابي العلاء من حيوية الموضوع وعمق التفكير
وصراحة التعبير وبراعة التصوير فانه خليق بالمعنى الطويل .

سلك ابو العلاء هذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في اوديتهم
يهيمون بحبرون قصائد الثناء استدراراً لا كف اهل الثراء ويطيلون الهجاء
لمن يمنهم العطاء ويرثون من لا يعرفون ويتهاقون في العبث والمجون تركهم

في ذلك وانصرف الى درس احوال الانسان وما يحيط به من خير وشر فأخذ يقرر ويصور ويخترع ويبدع ، فمات الكثير من شعر اولئك الشعراء المنطوي على الثناء الزائف والهجاء الباطل والرثاء الكاذب بموت اولئك المدوحين والمهجوين ، وبقي شعر شاعرنا حياً يطاول ويصاول ويجاهد ويجمالد ، فان رأينا بعض شعر المدح والهجاء والرثاء والمجون يعيش فاعلمنا ذلك لما يحمل معه من نادر الصفات الفنية وطريف المعاني الأديبه أو لما يتخلله من الموضوعات الخالدة الباقية فاني ازعم أن قصيدة المتنبي التي هجا بها ابن كيخلغ :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وختل اني اسلم
لم تتداولها الا لسن إلا لما انظرت عليه من بارع الحكم ذات الموضوع
الحمي الباقي وما عليك إلا أن تنظر في قصيدة ابي الملاء نفسه التي مطلعها :
غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
فانك تجد جهرة المتأدين يحفظون صدرها ولا يعرفون من سائرها
إلا التزر اليسير وما ذاك إلا لأن صدرها حيوي الموضوع خالد الاثر
على الزمن واما باقيا فانه كسائر شعر الرثاء يزيد عليه أو يساويه .
واني لأزعم أن الكثير من شعر أبي الملاء لم تنكشف مخبآت معانيه
لماصريه لبعده ما بين عقليته وعقليتهم وفرق ما بين نظراته ونظرتهم خذ مثلاً
على ذلك قوله في ساسة زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
فان كلمته هذه مع صراحتها لم يتوضح معناها جلياً الا في هذه المصور
التأخرة عندما ذر قرن الديمقراطيات في الغرب ثم في الشرق مع أن
رجال النهضة الاسلامية الأول كانوا يدركونها ويعملون بقتضاها ولكن
تتابع القرون وتتابع الكوارث طمست معالمها حيناً من الدهر . وسيتيق
كثير من شعر أبي الملاء كامن المعاني الى أن تفسره اعمال الاجيال المقبلة
واحوالها لأن الرجل كان ينظر الى الحقائق بعجز متقن الصنع فيرى

الكثير مما يخفى على غيره ولا يظن ظاناً أننا عندما نكبر في أبي العلاء عقله الجبار وعبقريته الفذة ندعو الى اعتناق مذاهبه كلها لاننا اذا اكبرنا فيه اكباره للعقل وشغفه بالخير ودعوته الى الحرية على اختلاف ضروبها والعدالة والمساواة بأدق مقاييسها والى التحلي بكل خلق كريم والتخلي عن كل عمل رذيل . واذا اكبرنا فيه اتساع معارفه في علوم الكون والسرائع وفنون الآداب فاننا لاندعو الى اعتناق مذاهبه في الحياة المتكشفة الجافة وهجر جميع متع الحياة البريئة والدعوة الى الزهد في زينة الله التي اخرج لعاده والطيبات من الرزق والتبرم بالحياة واستتقال اعائها فان الأحوال التي اكتنفت حياته جعلته جزوعاً كثير الضجر عديم الامل رزيء المنى وهذه كلها من خوصات نفسه لا يجمل بأبناء هذا العصر ولا سيما الناشئة منهم أن ينحدروا معه ويتخذوا منه قدوة فيها فان الله جل وعلا خلق لهم مافي الأرض جميعاً ليتمتعوا بالحلال الطيب وينعموا بالعيش الرافه الهنيء « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » ..

طه الراوى

الفيلسوف

ملعبَ الدهرِ لو ملكنا هدايا بلغنا من الحياة مُنا
سبقنا إليك احنحة الشوقِ وشقت لنا سبيل خطانا
وتلقيننا بسمه إشفاق وطوقتنا رضى وحنانا
ودرجنا مع الشروقِ نغميك ونسقي سمعَ الدُّنَى الحانا
وحنين المجهولِ ، أخيلةٌ تُتَبَّتْ من كل صخرةٍ ريحانا
أي زاد سوى الظنون حملنا ؟ وتركنا الى هواها العنانا
كلما اوغلت ركائبنا ضاق على زحمة الدروب مدانا
واحتوانا من كل صوب ضباب يرجع الطرف خاشعاً حرانا
أزيد الوجودَ منهكِ الستِ رينا اسراره عريانا
ويفض القدم عن قلبه السمح ويجريه للعطاش دنانا
لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الله في نشوة الشعور عيانا
نحن نسج الثرى فما لأمانينا على كل كوكب تتفانى
تلك اقدامنا تمثر بالاءِ شباب حينا وبالخصى احيانا
وظلال الغروب ، دون مدى الطرف ، الى رهبة اللقاتداني
نشطت قبلنا مواكب شتى وزامت خضيبه خذلانا
وبقايا اشباحها من رؤى الموموم اوهي تماسكاً واقترانا
تغمر الهاجس الرهيف فما يلبس صدقاً منها ولا بهتانا
وخي الوجود ما انفك لا يذبض قلباً ولا يرف لسانا
طلبت عين انجبال ولما لهته تكسرت أجفانا

ملعب الدهر إن رجح حنين من اقصيك اوهف الآذانا
واستغز الاجيال من حجرة الفيب فهت تمزق الاكفانا

وتهادت ثقل موكب فكر يسحب الشهب خلفه اردانا
 قام عنه ابو العلاء ، وقام الموت مستنزف الاباء جيانا
 قد طواه الزمان حتى اذا الخلد اجتباه أطل بطوي الزمانا
 ذاك تجواله كأن انطلاق الروح فيه لم يستطب ميدانا
 بين شك مروع و يقين مطمئن ما يأتي حيرانا
 وهو في حالته قيثاره زهراء تروي نسيدها الفتانا
 وقف الشرق بعدلأي لتذكا رصدها مرشحاً نشوانا

يا أبا الحكمة السنية هل نلت على سدة الخلود أمانا
 كيف ألفت عالماً لم يفتح مرود النور جفنه الوستانا ؟
 هل محاسبة الكآبة عن فيك واردي في صدرك الاحزانا
 وهدى خاطراً ، وزان لساناً وسبي مقلة ، وارضى جنانا
 كم تهاوت من دونه روحك الحرى وسالت جراحها الحاننا !
 عالم الوم نحن صفنا رؤاه و اردناه ان يكون فكاننا !
 لست تستطيع ان تكون إلاهاً فاذا اسطمت فلتكن إنسانا

لمن الارض إن سلاها بنوها وتناسوا سخاءها الهتاننا
 وهبتنا من قلبها خفقة القلب وشدت بساعديها قواننا
 وابتاحت لنا جناها واعطت فوق ما افق حلمنا اعطاننا
 فهي مرأتنا ، ومرآة مسرا نا ومرآة سخطننا ورضاننا
 ما بكينا نزارها إنما العجز على صرخة الحنين ، بكانا
 اي قلب حملته بين جنبيك ووالاك طيباً اسواننا
 طالته الحياة مشبوبة الانفاس تذكى دماءه اشجاننا
 مر من وهجها الملح فما هدهد شوقاً ولا شقى حرماننا
 كنت في حبك المجرد لا تحبس عن كل معترف احساننا

أمنَ الحبَّ انْ تدار عليكَ الكأسُ ملائى وتثني ظمّانا
 ما العزاء الذي نَحرتَ لهُ الممرَّ وقدمتهُ لهُ قربانا ؟
 أنصبك موردٌ من ° وراء الغيبِ تفتى نعيمهُ جذلانا
 كنتَ تدري انْ الهناءةَ طيرُ لآحَ في دوحَةِ الحياةِ وبانا
 بالزهورِ الصبا نظرتُ بينيه الى العيشِ مورقاً ريانا
 ما عرفتُ ارتماشَةَ الكفِّ بالكأسِ اذا كانتِ المني ندمانا
 هيكلِي الرحبِ كلِ اهواءِ نفسي في ذراهُ اقتتها أوثانا
 سوف امضي كما مضيتَ وندي في حمى الروحِ اينَا اشقانا

يا أبا الحكمةِ السنية هلْ منكَ التفاتُ الى صدى نجوانا
 سلسلتها على الخناجرِ ذكرا كَ وقرتْ في كلِّ سمعِ بيانا
 منك اشراقها ، ولولا الجذورِ الحضرةُ ماهزتِ الصبا اغصانا
 أتخافُ الاصفاء انْ يجرحَ الهدأةَ او انْ يصوغها اشجانا
 قدْ يحنُّ الطريدُ للربيعِ مها سامهُ الربيعُ شقوةً وهوانا
 هذه الدارُ كم سئمتَ بها الميـشـ وكَم ذقتَ مرّها ألوانا
 سرحتْ في ضلوعها شيعُ النسـلِ فنزتْ ضلوعها ادرانا
 وتمالتْ صيحاتكَ الحمرُ تهدي لو أصابتْ اصداؤها آذانا
 وتلقيتها اسيّ قتلقتْ اسداً في قيوده غضباننا
 فتواريت عنْ عيونِ مراضِ خلتَ الحاظها عليكَ سنانا
 وطويتَ الايامَ في عزلةِ الرهبانِ لم تحتسبْ لها حسابنا
 قدْ تجفُّ الحياةُ ، إلا وريداً ويضيقُ الوجودُ الا مكانا

كيف تفتّر عنْ رضى ولياليكَ اقامتْ عليكَ حرباً عوانا
 وعمجافُ الرجال ارفعُ قدرا منك في غيهمْ وابنه شانا ؟
 طالما كنتَ مبصرأ في دياجيكَ وكانوا في نورم عيماننا

م (١٢)

اسرجوا صهوة المذلة واتقضوا على مشخن الجراح طمانا
 واستباحوا مال الضيف عتواً واهانوا حرماته طفيانا
 وأزاحوا عن المنابر أحراراً فهزّت أعودها عبدانا
 وتمشوا لدى الأعاجم حملان وسابوا في قومهم ذؤبانا
 هذه الزمرة التي في حماها وقف الملك مطرقاً خزينا
 ما ظنّ المصور مرّت عليها فتلفت أما تراها الآنا !!!

يا فتواداً من المراحم نبضات ومن جامد السنن شريانا
 مرجل الحفد لم تلامسه كف الحب إلا ادمى لظاه البنانا
 لم يزل مشرب النجيع سكارى يتبارون حوله عدوانا
 طرفوا مقلة السماء وأدموا كبد الأرض عثيراً ودخانا
 ما ألانت قلوبهم ادمع الأيـــــتام أو هزّم أنين الحزاني
 فضحاياهم تمور على الرمل المدمي وتمتلي صلبانا
 كلهم في وليمة البني يخشى أن يرى جوف غيره ملآنا
 والحجى بينهم شراع على الدماء لا يرتجي له شطانا
 قل لتلك الحمام البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا !!!

أناجيك يا نجيّ الدراري وأغنيك أغنياتي الحسانا
 إن آفاقك البعيدة لا تطلق للخاطر الحبس عنانا
 حسبك المجد ان ترى كل يوم لاغانيك عنده مهرجانا !!!

عمر أبو ريثه

الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء

وآثره في بيئته وشعره

عاش شاعرنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي — في تلك الفترات السود التي تصدعت فيها السيادة العربية على مذبج الشبهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من الأعمام المتسلطين . نعم ، عاش شاعرنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تمصف بها النزاع وتهزها الاغصير . فكان الحكم في بغداد غيرَه في مصر ، وفي بلاد الشام غيرَه في القطرين المتنازدين ، وهو في أقصى المغرب ، في الاندلس ، وفي شمال افريقية غيرَه في الاقطار العربية الثلاثة — كل شيء قد تمرّض للميوعة والتفكك ، ففسدت الحياة السياسية ، وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا العربية وكأنها على بركان . . . دولٌ مختلفاتُ المنازعِ والاهدافِ قد انتشرت في الرقعة الاسلامية الكبرى ، نزعاتٌ فردية في إهاب من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر ، جمعياتٌ سرية تستهدف غايات مربية ، مذاهبٌ جديدة هدامة ترمي إلى نزعاتٍ سياسية خطيرة — كل شيء قد فسد واضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرة الفيلسوف الانساني المتألم وقد أشفق — وهو الحكيم البعيد النظر — ان تنهار هذه الامبراطورية الكبرى في الفترة التي وصلت فيها الحياة العقلية إلى الذروة ، وأن يكون لبيئته النصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار . . .

ولعل من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجري أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الاقطار العربية الثلاثة — مصر والشام والعراق — على غرار واحد من الانشاء أو التهديم ، من النظام أو الفوضى فما يجري اليوم مثلاً من تجاوبٍ بليغ للنهوض والتحرر والتطور والتاسك كان يجري بالأمس ، في تلك الفترة ، وفي نفس هذه الاقطار بالضد ،

من تنافس وتناحر وتنازع وتخاذل وثورات وفتن أدت إلى انهيار سحيق ذاق العربُ مرارته طويلاً عبرَ القرون .

هذا التنازع الذي كان طابع الحكومات الاسلامية في عصر أبي العلاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي — ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدةً غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعةً للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمت العراقَ وفارسَ حكماً اوتوقراطياً فيه هذا التكالبُ على السلطةِ والمال ، وهذا التزام على المجد والسلطان ، وهذا الصراعُ الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذ كان للخلافة هذا السلطان الداوي في الرقعة الاسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوةٍ من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البدهة بمكان ، وقد تقلص ظلها في بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التي تربطهم بآل البيت . فقد ادّعوا هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسبِ فاطمة بنت الرسول ، ورغم ما قامت به بغدادُ من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت في القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوةِ السيف وبريق الذهب ، وكلمة المعز لدين الله يذكرها كلُّ من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسي ؟ هاكم فاقراؤه :

سلِّ نصف سيفه من غمده وقال لهم : هذا نسي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسي ! ..

ماذا كان موقفُ المعارضين من هذين البرهانيين القاطمين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة في مصرَ أقوى منها في بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكش في حدود ضيقة بعد أن أصبح الخليفةُ الشرعي في بغداد ، العموية في أيدي الامراء البويهيين المتسلطين . والشام — وأريد بيئة المرعي — ماذا كان شأنها في جون هذه الاحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعلّ أقربها إلى عهده تلك الحروب والغزوات التي أثارها الامير سيف الدولة توطيداً لكيان العربي وصوناً لثغور الشام من الغزو البيزنطي . . وإذا كانت الايام لم تسعد المعري ان يرى المجد الشاخر الذي شاده الامير الحمداني في السياسة القومية والحياة العقابية ، فقد شاهد ، وهذا مازاد في محنته ، لونا من ضعف السياسة وفساد الرأي في ابنه سعد الدولة ، وفي حفيده أبي الفضائل ، وإذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يميز بالاحداث الخطيرة فارجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهت حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ماوصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجدّه بل كانت مطالعه منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جدّه ، هذا يفكر بمجد امته وبلاده ، وذلك بمجده الشخصي ، والفرق جدّ بعيد بين الاتجاهين . . وإذا كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي امراء مختلفي المنازع والاهواء فقد فكر الفاطميون بضمها إلى مصر لاسيما بعد أن تضاءل سلطان بغداد الروحي كما تضاءل سلطانها السياسي . . وقد عزّز هذه الفكرة الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقين على حكم أبي الفضائل من جهة واغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب واطرافها من جهة اخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة باحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر للخطة المزرية التي انتهجها أميرها . . ماذا استغاث أبو الفضائل بياسيل الثاني امبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك فقد اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد يديه الاثيمين ما بناه الجد . أي هدم هذا ؟ لقد مدّ يده إلى الاجني — تحقيقاً للزوات الشخصية الهاشمية والانانية السوداء — وقال له :

إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فيما ادخلوها مطمئنين . بل أن يزيدني ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . . .

وتتالت الاحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطميين كتب فيها النصر للفاطميين أولاً ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزري لاعداء الدين واللغة والعادات والوشائج والدم . ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من هذه الاحداث بمد أن مست سلطانهم بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام فنجحوا وسقطت حلب في أيدي الفاطميين الذين قضوا على السياسة الخرقاء التي انتهجها أبو الفضائل الذي اعتمد ، مع وزيره لؤلؤء ، على الاجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .

وهكذا ، فقد مثلت في تلك الفترة ، وفي بيئة الميري ، رواية من أفع مآسي التاريخ ، هي نتيجة هذا الاضطراب السياسي الذي ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الاطاع تهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ، أما اطاع الجنوب ، فمها قيل عنها ، فهي في اعتقادي ، هينة يسيرة ، هي اطاع الفاطميين الذين يحكمون مصر ، وهم يتنون إلى العروبة بنسب عريق . . . أما اطاع الشمال فهي السيفُ يحزُّ العنق — اطاع الاعداء الطبيعيين لهذه الاوطان التي حماها سيفُ الدولة فترة غير قليلة من مطامعهم نجاء أبو الرذائل — أريدُ حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ، ويمهد الاسباب لدخول أعظم ثغور المملكة الاسلامية .

وكتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمي القلب ويدمع العين . وليس كالاديب رجل تعاف نفسه شروز السياسة وشروز الحروب والقتال . . . وقد فكر في بقعة تكون في معزل عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالاً من الشام ، وهي إلى هذا كعبة العلم والادب ، فشد إليها الرحال ، ومكث فيها سنةً وبعض سنةً فما الذي أفاده من هذه الرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذكريات؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي ان الانسان بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم — هو هو في جبلته وطبيعته

وان الحكام هم م في كل مصر ووطن . وانتهى إلى الرأي الذي يتلاقى وروح
فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

إن العراقَ وإن الشامَ مذمّن صفران مابها للعلك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة* في كل مصر من الوالين شيطان
وعاد إلى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد
هذا الصراع الدامي في أرضها ، وشهد ابو العلاء هذا الصراع بين احفاد الحمدانيين
أو غلمانهم والمتغلبين من اعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين
المرداسيين والفاطميين ، وأخيراً بين المرادسيين وغلمانهم الذين ثارت في نفوسهم
شهوة الحكم أيضاً مما لايسمح المجال لان تقصّ تفاصيله باسهاب . . نعم ،
شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراعَ الداميَ المتعاقب ، وبديهي ان تؤله
هذه الاحداثُ وان يكون لعواملها الاثرُ الاكبرُ في فلسفته وأدبه .

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير ، وفيلسوف حر ذو
نظرة نافذة ، رأى وطنه نهياً للاهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية
وقد انتهت إلى ما انتهت إليه من الضعف والاضطراب والفوضى ، بديهي
أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيع روحُ السخرية في هذا الادب ، وان
يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصورٍ من ملائكة الرحمن بينما هم ابالسة
في إهاب انسان .

لقد آلمته هذه الاحداث العاتية التي هزت البلاد العربية من أقصاها
إلى أقصاها . . ولعله فكر بالزوح عن وطنه . . ولكن إلى أين والدنيا العربية
في لهيب محترق من الفوضى . لقد فكر بالهجرة إلى الحجاز . . ولكن :

أما الحجاز فما يرجي المقام به
والشامُ فيه وقود الحرب مشتعلُ
وبالعراق وميضُ يستهل دماً
إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميمٌ لامقام به
ان الحجاز عن الخيرات محتجز
والشام شؤم وليس اليمن في يمن
وإن حلت ديار الويل والرم
وما تهامة الا معدنُ التهم
ويتربُ الآن تتريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالمهجرة الى اية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره ومخازيه وقد ودَّ أكثرَ من مرةِ الخلاص من هذا المأزق .
 كيف التخلص والبسيطة لجةٌ والجوُّ غيمٌ بالنواب يسجم
 فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الإنام ولا ضلال منجم
 إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشورور؟ قبع في بيته ،
 في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة في تصوير طباع البشر
 — طباع اولئك المسيطرين على دفة السياسة ، المتربعين على دست الحكم وقد
 نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا اولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا
 مطية الاهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على
 عاتقهم وهي خدمة الشعب وانهم اجراؤه لا أسياده .

مُلِّمُ المقام فكم أعاشر امة امرتُ بغير صلاحها امرؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا النفس البشرية وطواياها فوصفها
 أبلغ وصف ، كما وصف هذه الشهوات التي كانت لاتعرف غير النهب والاستلاب
 فكان رغم عزله ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التي تشغل الشعب سواء
 من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .

في الواقع ، ان ابا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ
 الوقور الذي يعتبرُ حكيمَ العصر وفيلسوفه بحق ، بعيداً عما يمثل على مسرح
 البشرية ؟ . . . أبدأ . ان عزله لم تحصنه عن شكاوى الافراد والجماعات ، وكانت
 شخصيته الفذة تجتذب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى سجنه المتواضع ،
 يحلُّ قضاياهم ومعضلاتهم ، ويتوسط لدى أولي الأمر برفع ظلاماتهم ، وقصةُ
 عصيان أهالي المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، والقائه القبض
 على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملة للقضاء على مثيري تلك الفتنة ،
 ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته
 ان هذه القصة تدلُّ دلالة بالغة على انه كان على اتصال بما يجري على مسرح
 السياسة ، وان القوم لم يتركوه يتمتع بعزله ، وهذا ما كان له أكبر الأثر

في ادبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس باعماق النفس البشرية .
وفي اللزوميات وفي رسائله تقرأ الكثير من هذه المميزات التي تصف اضطراب السياسة ، وسوء الإدارة ، وفساد الحكم .

فالسياسة التي تسير على الاهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن - هي في نظره - سياسة خرقاء . .

وإذا الرئاسة لم تكن سياسة عقلية خطيء الصواب السائسُ
يسوسون الامورَ بغير عقلٍ فينفذُ امرهم ويقالُ ساسه
فأفَّ من الحياة وافَّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسه
هذه السياسة المضطربة التي غمرت بيثته وكلُّ بقعة من الأرض العربية
هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الاهواء الجائحة . كان يشير الى روح الظنجان
في نفوس المتسلطين الذين يريدون ان تخضع الرعية لأهوائهم رغم مايقومون
به من مظالم .

يسود الناسَ زيدٌ بعد عمرو كذاك تقلب الدولات دوله
ومن شر البرية ربُّ ملك يريد رعية ان يسجدوا له
لقد تساءل اكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضد تلك السياسة الفاشمة ؟
كيف يدفع الافرادُ الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد
الشهوات والذادات . .

واری ملوکاً لاتحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟
وجدتُ الناسَ في هرجٍ ومرجٍ غواةً بين معتزل ومرجی
فشان ملوکهم عزفٌ ونزفٌ واصحاب الامور جباهُ خرج
أعجب من ملوک الأرض امسوا للذات النفوس عبيد قن
فيا لذلك العصر الذي عاش في صميمه ، لاهمَّ الملوكه وزعمائه الا لذاتهم
واهواؤهم ، والا مصادرة اموال الناس وإشاعة الفوضى في البلاد ، والزيف في
قرارة النفوس - هذا العصر المضطرب الذي عاش في اعاصيره وأهوائه قد جعله ،

ونفسه اميل الى التشاؤم ، ان ينظر الى الدنيا هذه النظرة السوداء ، وان يراها على حقيقتها ، اي ان يرى شرورها أغلب . .

عرفتُ سجايا الدهرِ اما شروره فنقدتُ ، واما خيره فوعد
اذا كانت الدنيا ، كذلك غفلها ولو ان كل الطالبات مُسعود
رقدنا ، ولم نملك رُقاداً عن الاذى وقامت بما خفنا ونحن قومود

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرم نال الامارة بالحنى وتقييم بصلاته متصيد

لقد سئمت نفسه هذه المخازي - هذا التنازع على إماراتٍ كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره والتي كانت في مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها ؟ ممن لا تطمئن اليهم النفوس . . من صميم الشعبين . . كان يرى في هذه المذاهب الشائنة التي سادت عصره وسيلةً للسيطرة والحكم . . فما كان اصحابها ليقصدوا المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا اليها سواء منهم القرامطة او غيرهم .

انما هذه المذاهب اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

اولئك الرؤساء الذين عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرّاً ازدراء - هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطاعمهم الدنية واجمادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وما تجرّه وراءها من ارهاق تستثيره وتستفز ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل اية مظلمة ، وهو الذي عاش في افق واسع من فرديته الحرة رغم سجونته الثلاثة - هذا الثائر الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل وعن حرية الفرد وحرية الجماعة قد اهاب بالانسان ان يثور على المظالم . وطلب الى المفكرين الذين يساهمون في سياسية الدولة ان يتحرروا هم ايضاً من الرياء الاجتماعي ، وان لا يكونوا آلاتٍ مسخرة في ايدي العتاة ، يملون مع الهوى دون أن يستجيوا لنداء الضمير . لقد غمز الادباء والشعراء والخطباء - الخطباء الذين يصفون الامير بالتقوى ايام الجمع بينا هو آية في الهوى والضلال . .

ما أجمل الأمم الذين عرفتهم ولعلّ سالفهم أضلّ وأتبر
 يدعون في جماعتهم بسفاهةٍ لأُميرهم ، فيكاد يبكي المنبرُ
 نعم ، يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرأى الذي يخدع
 الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها لا في الشؤون السياسية بل في
 الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله :

طلب الحسائسَ وارتنق في منبرٍ يصف الحساب لامة ليهولها
 ويكون غير مصدقٍ بقيامةٍ أمسى يمثل في النفوس ذهولها
 والادباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية في هذا المصطرع الصاحب
 كما يؤديها هو؟ ان رسالة الادب رسالة مقدسة لا يجوز التهاون بها . .
 وكما غمز الخطباء المشعوذين فقد غمز الشعراء المداحين الذين يتخذون الشعر
 آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بني الآداب غرتكم قديماً زخارفُ مثلُ زمزمة الذباب
 وما شعراؤكم الا ذئاب تلصصُ في المدائح والسباب
 لقد اضطرب كل شيء في نظره — اضطربت مقاييس الحياة ، واختلّ
 النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة الا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تطوي
 فيها خيوطُ فلسفته التشاؤمية .

قد اختلّ الانامُ بغير شكٍ فجدوا في الزمان أو العبوه
 نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات
 الكاذبة ، والانسان يخادع أخاه الانسان ، اليوم يرتفع به إلى السماء ،
 وغداً ، يشك بزاهة قصده فيهبط به إلى مواطئ الاقدام . .

وكم أدنى امانته إليها امينٌ خونته وسرقته
 وقائم امية زكته عصرًا فلما أن تمكن فسقته
 هذه هي أهواء الجماعات لانكاد ترتفع بالرجل الذي احبته حق تهبط
 به الأرض ، لانكاد تؤله وتعتبره رمزاً للامانة حتى تنكرك له وتعتبره
 رمزاً للخيانة !

وبعد فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة ..
ولكن هل هذه الآراء الا صورة ذلك العصر المليء بالخنازي والموبات ،
مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الامة العربية —
ذلك الانهيار الذي ذقت مرارته العصور الطوال . . نعم ، - كدنا ننتقل
من تصوير الاضطراب في عصره السياسي إلى آرائه في الحياة — تلك الحياة
التي سئم أوضاعها وأضاليلها فنظر إليها هذه النظرة الفلاسفية المتعالية ..
كيف يجتمل هذه المخازي؟ كيف يدفع هذا الطغيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر
— هذا الينبوع الثر الذي يبرد غليل الموتورين المتشائمين .

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واحناسها
والشر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم في سجوف هذا اليأس الحزين
يهدم وينقد ويهاجم هل كانت له رسالة في الحياة ؟ مالون هذه الرسالة ؟
كيف كان يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير المحض ، وأراد له
العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهناءة المثلى للبشرية فهل تحققت رسالته ؟
ابداً .. فقد اصطدمت هذه الميول الطيبة بغيرزة الانسان وتزعته الشريرة —
فترأت له الدنيا ، في مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الاحداث التي واجهت عصره
— صورة من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة —
تلك العزلة التي انتجت للادب الحي ثروة خالدة ترمز إلى جبروت العقل
العربي الذي لا يقل في خياله وابداعه عن أسمى العقول التي عرقها
آداب البشرية .

فاذا أضفنا إلى عزلته هذه الحياة الجافة القاسية الملولة التي عاشها في سجنه
الضيق خمسين عاماً ، بعيداً عن المباحج والاضواء واللذذات ، والشرور
التي أصابت عصره وما كان لها من أثر سيء في بيئته ، ثم تلك الهنة التي
بلي بها وهو في الرابعة من عمره ، ومزاجه السوداوي الكئيب ، وشكوكه
الفلسفية القلقة — علمنا ما كان لهذه الحياة من أثر في أدبه — هذا الادب

الملائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الامم الحية ، والذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتلاقى مع أصدق ماخلده أ كابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، اننا نجد مثلاً في حدائق أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شوبنهور وسخرية اناتولر فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في عصرنا هذا ، ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والعزلة بل تعدتها إلى الاخلاق والسياسة والاجتماع والدين والانسان والخالق فأبدى رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، مظهر منها وما استتر ، حتى الاشتراكية التي عرفتها مذاهب القرن العشرين — فكان شاعراً فيلسوفاً يعكس في شعره كل النزعات التي يحسها الفكر الحر الذي سما بنزعاته فوق كل القيود التي فرضتها عليه مواضعات عصره ، وهكذا ، فقد كان لنا من لزومياته ، والعبوته ، وفصوله وغاياته والكثير من رسائله هذه الثروة الضخمة التي تشغل في رحاب الفكر الانساني مكاناً رفيعاً .

* * *

أيها السادة

ان مجد الامم يقوم على ما يتركه ادياؤها ومفكروها من تراث ثمين ، وقد ترك المعري لامته أضخم تراث أدبي ، فاذا احتفت الدنيا العربية بذكرى مولده الالفي فانها تحتفي بتراتها الذي خلد على الاجيال — بذكرى رجل اقتعد مكائته السامقة إلى جانب عباقرة الادياء العالميين الذين قام مجدهم على الصدق لا على الشموذة ، وعلى جمال الفكرة ونبيل الشعور ، أحسن فتأم فأمل ، حتى هذه الأبيات المتفرقة التي وصف بها لوثات عصره — كافية للدلالة على ما كان يحيش به صدره من ميول صادقة ونزعات سامية في سبيل الخير والحق والجمال — الخير الذي كان يصدمه الشر ، والحق الذي كان يغلبه الباطل ، والجمال الذي كانت تلتطخه البشاعة — بشاعة الفرائز الدنية التي تدفع الانسان إلى تشويه الحقائق في سبيل الانانية الحمقاء — تلك الانانية التي كانت من أقوى العوامل في انهيار السلطان العربي الذي واجهه عصر أبي العلاء .

سامي الكبيالي

الحفلة الخامسة

في المرزقية

في الساعة التاسعة من يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر ايلول ١٩٤٤ غادر أعضاء المهرجان مدينة حلب متوجين الى اللاذقية ، فضت سياراتهم صوب الغرب تقطع سهول حلب الخصبه ومسافاتها ، حتى بلغت بلدة (ادلب) ، فوقفوا عند مدخل البلدة ، حيث احتشد أعيان المدينة ، وموظفو الحكومة ، وطلاب المدارس وطالباتها لاستقبالهم . فدوت الانغام الموسيقية ، وأشد الطلاب بعض الأناشيد الوطنية ، وقدم الطالبات طاقات الزهر الى ضيوفهن . ثم اجتاز الركب صفوف المستقبلين بين الهتاف والحماسة والمطف ، وانحدرت السيارات الى وادي العاصي حتى بلغت بلدة (جسر الشغور) . ثم تسنمت جبلاً عاليةً مخضرة ، وما زالت في صعود وهبوط حتى وقفت عند (قسطل العجوز) . وعدلت بعد ذلك عن الطريق العام قاصدة أحراج البائر حيث أعدت بلدية اللاذقية لأعضاء المهرجان مأدبة غداء . فصعدت في جبال صعبة المرتق فيها من المضايق والتلال والمعاطف والأحراج الكثيفة ما يبعث في قلب المسافر شعوراً عميقاً بالخشية والجلال (١) . فكان الركب لا يبلغ قمة جبل حتى ينحدر الى فجاه ويطون أوديته . وكلما سعد في جبل ظن أنه سيطل منه على البحر . وما زالت الجبال تتلو الجبال، حتى صعد الركب في سفح جبل شاهق مطل على واد عميق . فلما شارفت السيارات قمة الجبل ، احترقت احداها ، وهي سيارة أرسلها محافظ اللاذقية لارشاد الركب الى مكان المأدبة . فأوعت الاعضاء ، وأوجسوا خيفة من الطريق ، حتى ظنوا أنهم سيمضيعون في

(١) تبلغ مساحة الاحراج في سورية ٢٥٠٠٠ هكتار ، ومأدبة أحراج البائر والبسيط نحو ٢٠٠٠ هكتار ، معظم اشجارها من الصنوبر وأنواع البلوط كالسنديان واللؤلؤ . وفيها حرجات كثيرة من الارز والدنوب والزيتون البري والبطم واشجار متفرقة من الآس والدردار والنار والعبهر وغيرها . وحراج البائر والبسيط تشبه حراج اوردبة الفيحاء .

مضايق الجبال بين اشجار الصنوبر. وبينام في هذه الحالة اذ وقفت السيارات في واد يقاله فرواٲق على حدود لواء الاسكندرونة فيه عين ماء وأشجار عالية باسقة تحيط بساحة مستوية على شكل دائرة أعدت فيها موائد الطعام على هيئة بديعة من الترتيب . فلما دنوا منها رأوا محافظ اللاذقية الأمير مصطفي الشهابي ، ورئيس بلديتها السيد عدنان الأزهري، على رأس وفد كبير من أعيان اللاذقية ، خرجوا لاستقبالهم . فزلوا من السيارات ، وسرى عنهم ما كان اصابهم من التعب ، وسروا بما رأوا من سحر الطبيعة وجمالها . ثم أنهم جلسوا الى مائدة جمعت حسن الحضارة الى جمال الطبيعة ، فتناولوا الطعام على الانغام الموسيقية التي غناها بعض القرويين من رجال التركان بمزاميرهم وطبولهم . وسمعوا كلمة الترحيب التي القاها السيد عدنان الأزهري باسم مدينة اللاذقية ، فأنسوا بما سمعوا ونسوا وعورة الطريق ووعثاء السفر . ولما انتهت مأدبة الغداء سار الركب الى مدينة اللاذقية على طريق انطاكية فهبط في سفوح الجبال المطلة على البحر ، حتى انتهى الى سهول اللاذقية الخصبية ، وبلغ المدينة قبيل غروب الشمس .

وكانت مدينة اللاذقية قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطابية في فندق السياحة والاصطياف المشرف على البحر. فلما استراح الاعضاء قليلاً في الفندق ، نزلوا الى مكان الحفلة ، وهو في الناحية الجنوبية من الفندق متصل بأمواج البحر . وغصّ فناء الفندق بالمدعوين وامتلاّت شرفاته بالمدعوات ، وأحاطت الجماهير به من جهاته الثلاث ، بعضهم في الطرق المؤدية الى الفندق ، وبعضهم الآخر في الحديقة العامة المتصلة بساحل البحر .

وكانت الحفلة الخطابية من أروع الحفلات التي اختلفت فيها انغام الموسيقى وأمواج البحر، وانسجم هتاف الجماهير مع كلام الخطباء ، حتى خيل الى السامعين انهم في أرض يفيض منها السحر والايمان والروعة والشعر .

وألقى الامير مصطفي الشهابي في أول الحفلة كلمة ترحيب عرف فيها الضيوف بمحافظلة اللاذقية ، قال ان سكانها قرابة نصف مليون نسمة منهم ٦٢.٠/ علويون و ٢٠.٠/ سنويون و ١٨.٠/ مسيحيون معظمهم من الروم الارثوذكس . وقال ان أم غلاتها التبغ والزيتون والقطن . وفيها معدن من القار (الاسفلت) .

و ٨٠. / من التبغ الذي يدخن في سورية ولبنان يزرع في هذه المحافظة، ويشحن قسم كبير منه الى امريكا. ثم ذكر نبذة عن مدارس المحافظة ، وطرقها ، وبلدانها، ومصايفها، وحراجها، وآثارها الرومانية والعربية والصليبية كقلعة صهيون والمرقب والحسن ، وشيئاً عن عادات السكان ودلائل على أن معظمهم عرب أقحاح ولا سيما العلويين والنصارى .

ثم تتابع الخطباء بعده على المنبر على الوجه الآتي :

١ - الاستاذ عبد الحميد العبادي الناحية التاريخية في أدب المعري

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الاول

٢ - الدكتور جميل صليبا فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

عضو المجمع العلمي العربي

٣ - الاستاذ بدوي الجبل الدهر ملك العبقرية (قصيدة)

٤ - الاستاذ محمد الشريقي أسلوب المعري

٥ - الاستاذ أنيس المقدسي الروح العلائية في أدبنا الحديث

ممثل الجامعة الامبركية في بيروت

ثم كانت مأدبة العشاء بعد ذلك في دار الامير مصطفى الشهابي ، دعى إليها وجهاء المدينة ، وموظفوها ، وأساتذتها ، وتخللها حفلة سمر ألقى فيها بعض المتغنين قطعاً من الزجل الشعبي ، وأوى الاعضاء بعد ذلك إلى فندق السياحة والاصطياف فنعموا بالراحة بعد التعب ، وناموا على أصوات الامواج الرتيبة . وفيما يلي نص الخطب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

ناحية التاريخ

من ادب أبي العلاء المعري

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي .

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من اخبارهم طرف
فهو يدعي أنه ما من امة وجدت في هذه الدنيا الا وقد ألم بطرف من أخبارها
وعرف شيئاً من تصاريف احوالها . والحق ان أبا العلاء لم يصطنع المبالغة . ولم
يركب متن الشطط عند ما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من اول أمره أن
العاية الجثمانية التي لحقته منذ طفولته لاشك مانعته من معرفة الطبيعة الانسانية من
طريق البيان والمشاهدة غير أنه فطن الى أن في وسعه أن يتدارك ما فتوته عليه
هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضي الانسانية المسطور في تاريخها .
فالتبيعة الانسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد العهد بهم ام قرب .
ذلك اصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولماً عند رجوعه من بغداد
الى بلده ، واعتزاه لزوم ثاني محبسه . فان أبا العلاء لم يرد باعتزاله الناس أن يضرب
بينه وبينهم حجاباً كثيفاً لا يراهم من دونه ولا يرونه ، وانما اراد بالعزلة أن
يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم وأن تتاح له حرية درس احوالهم ونظمتهم
ومصاير امورهم دون أن تمتد اليه ايديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل
الخطاير وهم القلب وفتنة النفس فكأنه اراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية
ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والفايرين
أي من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه اذا كانت الضرورة هي التي قضت على
أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حجب هذا العلم الى عقل شاعرنا

— ١٩٣ —

م (١٣)

٧ • المهرجلن الألفي

الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون الذ العلوم واشدها امتاعاً متى ورد الانسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الامم ومعرض الحياة الانسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة وفيه تظهر اسباب عظمة الشعوب واسرار اضمحلالها . فيه حكمة الحياة واضحة لالبس فيها ولا ابهام . فاذا كان أبو العلاء قد اقبل على التاريخ يتلو صحائفه ويستخرج عبره فان ذلك انما كان عن ضرورة اول الامر ثم عن حب له وشغف به احيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت اليه في ايامه أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الاول من القرن الخامس الهجري . فمما كانت حدود هذه الرواية ؟ لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الاول الهجري ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت اخبار العرب قبل الاسلام واخبار الامم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس والروم والهنود والمصريين والاحباش وكل ذلك كالمدخل الى التاريخ الاسلامي ثم دوت سيرة الرسول عليه السلام واخبار المغازي والفتوح واخبار الدولتين الاموية والعباسية، وما تفرع عن الاخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالتطهرية والسامانية والغزنوية والبهيمية والمحدانية وبعضها في الغرب كالطولونية والاشييدية والادريسية والفاطمية وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر اكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للاخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التأليف شي غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن اسحق بتلخيص ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة والدينوري والبلاذري واليعقوبي وتواريخ الطبري والصولي والمعمودي وأبي الفرج الاصفهاني ومسكويه . لاشك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب ان لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد ولا ادل على سعة علمه بالتاريخ العام واخبار العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي من كثرة استشهاده بالحوادث التاريخية كثرة رائعة في نثره وشعره . ففي الرسالة التي يعزي

فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة باخيه نجده يسرد أسماء الانبياء من لدن آدم الى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة ويبان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن الى الموت والفناء ومجده في «رسالة الغفران» يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجنى «أبي هدرش» كيف استغوى هذا الجنى في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة الى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فأمن به وصدقته واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر واحد والخندق كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجل وصفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء في «رسالة الغفران» تليحات وأشارات الى الفرق والنحل الاسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئه كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبي عبيد والمنصور العمي والحلاج . ومن الطريف انه ساق في آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الاسلامية فيه تفصيلات لا يجدها في كتب التاريخ التي بأيدينا . وتفويض «اللزوميات» بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الاسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود الغزنويين والاشعدي وابيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك)

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ العام الاسلامي وغير الاسلامي مادة انتفع بها الى ابعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم فقد وجد في حوادث عصره أو في التاريخ المعاصر له مادة غزيرة اكسبت شعره وثره حيوية عجيبة وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع ان نقول ان شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه «سقط الزند» يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ «سقط الزند» «واللزوميات» ان يتبين صورة لآبأس بها لحوادث الشام خاصة في زمن أبي العلاء .

كانت معرفة النعمان معدودة عن الاقليم المعروف «بالمعاصم» والواقع على تخوم الدولة الاسلامية مما يلي مملكة الروم وقد أصبحت حلب اذ ذاك قاعدة ذلك

الأقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري امراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم ويستولي الفاطميون على حلب ولكن سرعان ما انبرت لفاطميين اسرة عربية بدوية هي الاسرة المرديسية فنتسولي على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي . وقد تبعت المعرة حلب فيما اختلف عليها من الاحوال لذلك نجد أبا العلاء يمدح امراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية . فيمدح الامير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الاولى من « سقط الزند » كالتصيدة الاممية الأولى ومطلعها :

اعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

كما يمدح ولاة الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :
لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لساني حادث الحبس

ثم ان أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني فذهبت الى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالحمار واتهبوا حاوته وهدموها والى هذا الحادث يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

اتت جامع يوم العروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر امرها

فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها نخلت مماء الله تمطر جمرها

فهدوا بناء كان بأوي فناء فواجر القت للفواحش خمرها

واستفحل انخطب عندما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » (وكان حنقاً على أهل المعرة) بقبض سبعين رجلاً منهم وسار صالح الى المعرة فأخرج اليه اهل المعرة ابا العلاء شفيماً فشفعه صالح واطلق له الاسارى السبعين سنة ٤١٨ والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

تفتيت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الجسد

فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحي فراق الجسد

بمشت شفيماً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد

فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام اصبحت الشام نهياً لقبائل العرب

المتبذية من لدن الجزيرة الى حدود مصر وخاصة قبائل كلاب وطيء وعامر
والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله :

أرى حلباً حازها صالح	وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء	يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار	قتاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضام	فأصبح بالدم قد خلقا
وما ينفع الكاعب المستنبا	ة هام على غضب فلقا
وظل قتييل فلم يذكر	وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت آهلاً وحده	وكم غادرت مثيراً مملقا
يسائل في الحمي عن ماله	وما القول في طائر حلقا

وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر
القرن الرابع وأوائل الخامس فإنها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية
أبي العلاء، ناحية وطنية وحب لبلده ومشره وحزنه لما يصيبه واستعداده
لأن يخدمه بنفوزه الأدبي عند الاقتضاء، وهي أشعار تأتلف وشعره الذي
قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المرة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهرًا آخر . لقد كان للشام في زمنه عدو اجنبي
يرقب الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد زمان
سيف الدولة والثياث الأمر بالشام قد استولوا على انطاكية سنة ٣٥٨
واستولوا بعد على اللاذقية وذلك في أيام امبراطورهم تقفور قوقاس . ثم أخذوا
يمدون أعينهم الى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني وولاية الفاطميين يدافعونهم
جهدم . وهنا تجدد ابا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة
العالم الاسلامي كله ، فهو في مدائحهم لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ،
فيخاطب الأمير سعيد الدولة الحمداني (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توات	سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم اذ كل عين	تمد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطبق الليث فيه	مساورة ولا السيد احتالا

ويقول :

الى حارم قاد العتاق سواهماً
 بني القدر هل الفيتم الحرب مرة
 وهل اظلمت سحج الايالي عايكم
 وهل طلعت شعث النواصي عواليا
 فان تسموا من سورة الحرب مرة
 ففي كل يوم غارة مشمعة
 الى أن يقول في الخليل :

يردن دماء الروم وهي غريضة
 وقد علم الرومي انك حتفه
 ويتركن ورد الماء وهو زلال
 على أن بمض الموقنين يخال

وكان الشيخ ابو الحسين بن سنان احد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب
 اليه أبو العلاء ينهاه عن الحج في عامه ويريه ان الروم لطلب بالمرصاد فمن ذلك قوله:
 « وسفر مولاي الى الحج في هذا العام حرام بسلك كما حرم صوم عيد الفطر وحظر
 على المحرم تضحك بمطر وهو ادام الله تمكينه امين من امناء
 المسلمين يرهف الشوكه ويستجيد الامة ويحصن ماوهي من سور أو شرفات
 ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر واجراء السعد لحفظها والقدر ،
 وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يفتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ولا يلبث
 ان يزول بانقصاد الهدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم الى كرسيه من بزنتيه »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح امراء حلب
 المناضلين للروم تجري مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات
 لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على
 ان أبا العلاء كما يخيل الينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه ان روح الجهاد قد فتر
 عند المسلمين وعند قومه خاصة وانهم امام استعلاء الروم وكلهم عليهم قد التزموا
 خطة الدفاع دون الهجوم . وقد احب ان يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في
 نفسه من طريق الكناية والرمز ، فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة

« بالدرعيات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرع اداة وقاية لاسلح مجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فان يكن ظننا صادقا فقد أبدع أبو العلاء الرمز واجاد الكناية .

ويستعرض أبو العلاء جملة احوال العالم الاسلامي لعمده فيرى حالا لاتسره من ظلم واضطراب وفقر وطغيان ويجهد في أن يطب لتلك الحال فيذهب الى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا انهم في حقيقة الامر خدام رعاياهم واجراؤها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مل المقام فكم اعاشر أمة
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وامرت بغير صلاحها أمراؤها
وعدوا مصالحها وم اجراؤها
ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس
بإداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :
واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم
لما رأيت بني الاعدام شاكينا
ياقوت ما انت يا قوت ولا ذهب
فكيف تمجز اقواما مساكينا
ويرى ان الارض لله لا يصح تملكها :
الارض لله ما استجيا الحاول بها
تنازعوا في عواري فيبينهم
أن يدعوها وهم في الدار اضياف
نبل حطام وارماح واسيف
ويرى ان في امكان الناس ان يصلوا الى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو
الجماعة السياسية المثالية اذا سلخوا طريق القصد وجادة الاعتدال :
ان اكلتم فضلاً وأنفقتم فض
لا تولوا أموركم ايدي الناس
الا فلا يدخلن وال عليكم
س اذا ردت الأمور اليكم

* *

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غدت فيه الأدبي وأعانته على صوغ آرائه في الاصلاح السياسي والاجتماعي فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأسر والأمم وما يختلف على الناس من احوال فوجد كل ذلك لا محالة متهنياً الى العدم والفاء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة تبيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك غادية
على الأنام بإلباس وتلبيس
الوت بكسرى ولم تترك مرازبه
وبالمناذر أودت والقوا بيس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً
وواجهت آل عباس بتعبيس
والليل والنهار عنده شفا مقراض
ياتيان على كل شيء :

الصبح أصبَحُ والظلال
م كما تراه احم حالك
يتباريان ويسلكا
ن الى الورى ضيق المسالك
أسدان يفترسان من
مرا به فأبه لذلك
حملا المالك عن ردى
قاض الى خان وآلك

والشرء لا الخير هو الغالب على الناس :

والارض موطن شره وضاغئ
ما أسمىحت بسرور يوم فارد
هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل تشائم
لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء
والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل وبقاء النوع :

تواصل جبل النسل ما بين آدم
وييني ولم يوصل بلامي باء
وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم .

وزهدني في الناس معرفتي بهم
وعلمي بأن العالمين هباء

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر
أقاربك الإدادني واحذري
وان انا قلت لا تحمل جرازاً
فهز أخوا السقاسق واضربي

الى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل ان مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي اخذ نفسه بها بعد عودته
من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لاعلة
لتلك الحال . فهو انما اخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف البالغ بعد أن بلغ الاربعين
وبعد أن استكمل خبرته بالناس والاشياء اذاً خبرته بالناس والاشياء في القديم وفي
زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل اليه وكما عرفه .

لقد كان علم قسماة المؤرخين من الاغريق والرومان بالانسان وحياته قاصراً
قصوراً بينا . لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الاسرة أو القبيلة أو

المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ اذا بني على هذا الاساس ان يكون قائم اللون مليئاً باخبار الفتن والثورات وظلم الانسان للانسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض فلما اطلع فلاسفة الاغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات افلاطون والرواقين والايقوريين وصنيق ومارك اوريل . فمنهم من رأى ان العالم ينتقل في دورات زمنية تفتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتدلى ويضعف حتى تختتم الدورة بحال فوضى واضمحلال ثم تفتح دورة أخرى وهلم جرا . ومنهم من رأى الانسان محدود القدرة مضروراً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لاسلطان له عليه فنعمة فلاسفة الاغريق . والرومان نعمة حزن وبأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام . ثم جاءت العصور الوسطى الاوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون ان هذه الدنيا دار بلاغ وان الآخرة هي دار القرار وان السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وان الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقاً بالحياة واصبح شعارهم الزهد فيها وتبني الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية والمجتمع الشرقي القديم لم يكن يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الاغريقي الروماني القديم ومن ثم كانت نظرة حكمائهم الى الحياة هي نفس نظرة حكماء الغرب نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الادوار التي تحدثنا عنها عند مفكري الاغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والايمان بحياة م. متقبلة ينعم فيها المؤمن ويخاد هي خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا

لم يلحظ القدماء على العموم ان الانسان ابتداءً ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة ارادته يرق شيئاً فشيئاً ولكنهم خصوا بعنايتهم ضعفه امام عوامل لاسلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد فابو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشاركة والمشاركة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه ويأسه ينطوي على حب حقيقي للانسان والانسانية واذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك في انه كان في اعماق نفسه اشد رفقاً بالانسان .

عبد الحميد الباري

فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

ليس غرضي في الكلام عن فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء ان أحيط بفلسفته الخلقية كلها ، فان أمراً كهذا يحتاج الى وقت واسع وبحث طويل . وانما أريد أن أبين ما هو المثل الأعلى للخير في نظر أبي العلاء ، وما هي القواعد الخلقية اللازمة عنه .

والبحث في فكرة الخير هام جداً ، لأن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً مدرسياً ، ولا صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا . وإنما كان فيلسوفاً خلقياً قبل كل شيء . ومن البحث في فكرة الخير يستطيع الناظر أن يطلع على الفلسفة الخلقية كلها .

لم يكن أبو العلاء حسن الرأي في الدنيا والناس . ومن الاطالة أن نستدل على ذلك الآن بشعره ونثره . فقد ذم الدنيا كما ذمها ابو المتاهية ، واتهم الانسان بالظلم كما اتهمه به المتنبى ، ونفض يده من اصلاح الانسان فلم يرج له شفاء من أدوائه ، ولا نجاة من أوصابه وآلامه ، بل زعم أن جبلته فاسدة وان الشر في طبعه وانه غادر يميل الى الظلم .

وجيلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت
وأكثر الذين بحثوا في فلسفة ابي العلاء الخلقية لم يدرسوا إلا هذه الناحية السوداء من مبادئه . فأشاروا الى تشاؤمه ، وريبه ، وسخريته ، وتقده للحياة الاجتماعية والدينية ، وشكه في إصلاح الانسان ، وأهلوا ايمانه بالخير ، وألحقوه بالفلاسفة المتشاؤمين كشوبنهاور وغيره . وأريد الآن أن أبين أن تشاؤم أبي العلاء انما هو تشاؤم نسبي لا ينافي الإيمان بالخير . وفي الازوميات والفصول والغايات أدلة كثيرة على تطلع أبي العلاء الى مثل أعلى شبيه بالمثل العليا الخلقية التي تطلع اليها أصحاب الأحلام من الشعراء والفلاسفة والمصلحين . فما هو الخير في نظر ابي العلاء ؟ -

من الصعب لا بل من العبث ان نبحث عن تعريف علمي واضح للخير في شعر أبي العلاء . لان اللزوميات ليست كتاباً فلسفياً مشتقاً على تعريفات علمية واضحة . وليس من شأن الشعراء ان يضعوا التعريفات وان يبنوا عليها المبادي والغايات. على أن أبا العلاء قد ذكر لنا الخير في كثير من أشعاره ، فلم يكتف بالتلميح به بل اثبتته وعدد لنا كثيراً من صفاته. ولندكر الآن بمض هذه الصفات :

١ - لنبين اولاً ان الخير محب الى النفس . فكل عاقل يطلبه ويريد الحصول

عليه ، لانه يجد فيه لذته وسعاده . نعم ان الانسان قد يمجز عن الخير لصعوبة الطريق المؤدية اليه فطريق النبي واسمة ، وطريق الخير كما يقول ابو العلاء ضيقة كسم الخياط . والمدل صعب والمرء يمييه قود النفس للخير ، مع انه « يقود العسكر اللجب » . وقد يمجز الانسان عن الخير لكسله الطبيعي وفساد جبلته ، وغش طبيعته ، ولكنه اذا ما تجرد عن غرائزه ، وابتمد عن هواه استسهل فعل الخير ، ورغب فيه واحبه .

والخير محبوب ولكنه يمجز عنه الحي أو يكسل

٢ - على أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ، ولا هي مبدأ من مبادئه لانها تنقلب الى الم . فقد تولد لذة ساعة واحدة شقاء حياة طويلة ، وقد تولد المرض والفضيحة والعار . والذين يرسلون نفوسهم في اللذات لا يعرفون الراحة والهناء انهم كالانعام ، لا بل اضل سبيلاً . لان اللذة كما يقول أبو العلاء لا تخلد صلو كاً ولا ملكاً . ولا تدوم على حال واحدة ، بل سرعان ما تنقلب الى ضجر وملل .

اذا فرعنا فان الامن غايتنا وان امنا فما نخلو من الفزع
وشيمة الانس ممزوج بها ملل فما ندوم على صبر ولا جزع
فلا خير اذن في لذة تيجتها الملل ، ولا قيمة لسرة نصيها الزوال ، ولا فائدة
في امن لا يخلو من الفزع .

جاءتك لذة ساعة فأخذتها بالعار لم نخل سواد العار
ان يرسل النفس في اللذات صاحبها فما يخلدن صلو كاً ولا ملكاً .

٣ — وكما ان اللذة ليست غاية الفعل . فكذلك المنفعة ليست غاية الخير ، بل الفضيلة اسمى من ان تتحل الى تجارة رابحة . فيذني للعاقل ان ينزه الخير عن نتائجها ، وان لا يؤمل الربح منه كأنة تاجر . نعم قد يجرب الينا الخير نفعاً ، فنضله كما يقول أبو العلاء لأن له «ثمرة لذت في المطعم ، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والتوسم ، وجاوزت الحد في العظم ، ونفعله لحسنه في المسامع ، ونفعله لنكسب به ثواباً عند الله .

فافل الخير وأمل غبه فهو الذخر اذا الله حشر
ولكن المنفعة والخير امران مختلفان تماماً . وانك لتجد المنفعة في هذه الدنيا قد وفرت للاشراق اكثر مما وفرت لاولى الفضل ، بل اولو الفضل كما يقول أبو العلاء غرباء في اوطانهم ، غرباء في بني جنسهم . وكثيراً ما تولدت المنفعة من الشر .
ولا لون للماء فيما يقال ولكن تولونه بالأواني
وفي كل شر دعت الخطوب شواسع منفعة أو دواني
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام
فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير الا نفعاً ، ولما ولد الشر الا مضرة . فالخير ليس اذن في اللذة ولا هو في المنفعة بل هو مستقل عنها معاً .

٤ — لذلك صرح أبو العلاء بان الخير يجب ان يطلب لذاته لانفعه . فالاحلاق في نظره ليست في مداراة الناس ، ولا هي في طاب المنافع واللذات ، بل هي ذاتية مثالية . والعاقل انما يفعل الخير لانه خير وجميل ، لا لأنه يرجو عليه ثواباً عند الله والناس ، أو يخشى من مخالفته عقاباً . « قد تقول لك النفس انها في اذى وقذى ، فاذا كنت محباً للخير قلت لها يا نفس صبراً وتسليماً ، ان ماتفعليته هو الواجب » . فابو العلاء لم يكتف بتزنيه الخير عن اللذة والمنفعة حتى تزفه عن العقاب والثواب ، وجعله خالصاً لربه ، وزجر السنة الناس عن مديحه . وفي ذلك يقول :

كن صاحب الخير تنويه ونفعه مع الامام على ان لا يدينوكا
فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن للاجل ثوابها
توخي جميلاً وتعمله لحسنه ولا تحسكي أن المليك به يجزي
فنزّه جميلاً جثته من جزاية تؤمل او ربح كانك تاجر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا
فأخبر جميل ، والعظم قبيح ، وأبو الملاء يفضل عذاب النار مع الخير ، على نعيم
الخلد مع الظلم :

وما سرنى انى اصبت معاشرأ بظلم ، واني في النعيم مخلد
ومثل هذه المعاني كثير في اللزوميات والفصول والغايات لم نشأ ان نطيل في
الاستدلال بها . وهي كلها تدل على أن أبا الملاء قد آمن بالخير وطلبه لذاته لالتفمه .
• — ومن اعظم صفات الخير قيمة صفته العقلية ، لأن العقل في نظر أبي
الملاء هو معيار كل معرفة صحيحة ، وميزان كل منهج قويم . فالخير لا يكون
خيراً حقيقياً الا اذا كان خاضعاً لحكم العقل . ومنهج الاخلاق لا يكون واضحاً
الا اذا اضيء بنور الروية والفكر . لم يوصف العقل باحسن مما وصفه ، أبو الملاء
في لزومياته وفصرله وغاياته . فقد جعله اماماً ومشيراً وهادياً الى الرشاد ونبياً . قال
في الفصول والغايات : « العقل نبيء ، والخالط خبيء ، والنظر بريء ، ونور الله
لهذه الثلاثة معين » . وقال في اللزوميات :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العق ل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

وقال :

وينفر عقلي مفضباً ان تركته سدى واتبع الشافعي ومالكا

وقال :

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي
وهذا يدل على ان الخير كل الخير هو في اتباع العقل لان العقل مشير امين .
فاذا ما اطاعه الانسان جلب الى نفسه الرحمة واتمدد عن القسوة ، وتحرر من
سيطرة التقاليد العمياء والمادات المظلمة وحكم النظر في الاخبار والروايات .
فان الغائص كما يقول أبو الملاء لا يتناول درة الحق الابالروية والفكر .
واذا قوي عقل المرء استطاع ان يهوى الدنيا ولا تهويه ، اما اذا قل عقله فان
الدنيا تقويه وتغريه بزخارفها واكاذيبها . فليأخذ الانسان اذن في سبيل العقل
ليهدى بهديه . انه اذا فعل ذلك ادرك ان هناك عادات قبيحة ومعاملات سيئة ،

وقوانين وشرائع بالية تحتاج الى اصلاح وتبديل . ولو اتبع الانسان عقله في هذه الدنيا لما لقي فيها الا الخير .

وها هنا مسألة لا بد من الاشارة اليها ، وهي ان أبا العلاء لم يكتف ببيان أثر العقل في الخير ، بل اشار ايضاً الى ان الادراك العقلي ضروري للمسؤولية الخلقية والشعور بالالم . فما قاله في الفصول والغايات : « ان الله ، وله علو المكان ، قد جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقل خطأ من المعقول ، الا ترى الحجر مر به العائر فادى الابهام . لاذنب للحجر ، ولكن للواضع والمعثرين » وقال ايضاً : « داء المسرة العقل ، وداء الحزن الجهل » وهذا يدل على ان ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ، ويزيد شعوره بالالم . فالعقل يولد الحزن والالم والشقاء ، والجهل يولد القناعة والرضى . و ابو العلاء يمتقد كشوبنهاور ان للشعور بالالم درجات : فالجماد لا يحس بالالم ، والنبات يكاد يكون عديم الحس . اما الحيوان فان درجات شعوره بالالم متفاوتة . فكلما كان ارقى كان شعوره بالالم اشد . وكلما كان ادنى كان شعوره بالالم اخف . واما الانسان فهو اكثر الحيوانات شعوراً بالالم لغو مداركه العقلية . ولو فرضنا ان هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من المعقول ، ونمطه في الوجود شبيه بالنمط الذي نحن فيه ، لكان شعوره بالالم اشد من شعور الانسان به . فكأن العقل عن النعيم صاد ، وللسمادة مضاد . وكأن العلم سبب من اسباب الشقاء .

اذا علمي الاشياء جر مضرة الي فان الجهل أن اطلب العلم
فاذا كان العلم يشقينا ، فخير لنا ان لانعلم . ولنحن حقيقون بأن نتم في الجهل ،
وأن نفضل الظلمات على النور .

فهم الناس كالجبول وما يظفر إلا بالحسرة الفهاء
اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فانحسر للمعلماء
فالجهل مع الفضيلة خير من العلم مع الرذيلة . والذي يقيم الصلاة ويروم
بها كيداً أبعد عن الله كما يقول ابو العلاء من تاركها عمداً .

فأنت ترى أن أبا العلاء قد جعل العقل من جهة ميزان الخير ، وجعله من
جهة نانية علة الشقاء والضير . وليس في هاتين الجهتين أي تناقض ، لأن العقل

لا يكون علة الشر إلا إذا كان ناقصاً ، فيكون له في هذه الحالة جهتان إحداهما جهة الملو ، وهي جهة الشعور بالكمال ، والأخرى جهة السفلى ، وهي جهة الشعور بالنقص . وكلما غلبت الجهة الثانية الجهة الأولى كان الشعور بالألم أشد وأقوى . فإذا استطاع الانسان أن يتغلب على غريزته ، وأن ينزه عقله من العاطفة والهوى لم يشعر إلا بالكمال ، ولم يدرك إلا الخير . وإذا غلب هواه قواه ، وطغت غريزته على عقله عاش في عذاب دائم وضلال مبين .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملاً لما أضمرت فيما يليه به غماً والنفس لا تشعر بهذا الشقاء الا لوجودها في الجسم . فقد كانت قبل اتصالها بالجسم سعيدة هادئة . فلما هبطت اليه أدركها العذاب ، كما يقول أفلاطون وابن سينا ، ونحن لا نعلم لماذا هبطت الروح إلى الجسم ، ولماذا أراد الله لها هذا الشقاء ، ولماذا أمرها أن تكسب الخير عن طريق العقل . فما هي إرادة الله ، وما هي عنايته ، وما هي صفاته ، إن العقل لا يستطيع أن يحيط بذلك كله ، فهو لا يعرف حقيقة الله ، ولا قدم العالم ، لأن نطاقه في أمور ما بعد الطبيعة محدود . دع عنك ان قيود الجسم والغريزة تصده عن إدراك الحق ، فلا بد له إذن من الاستعانة بنور الله .

٦ — وإذا استقل العقل عن الغريزة ، وتجرد من العواطف والأهواء ، أدرك المثل الأعلى وتطلع الى الحياة الروحية المثالية . فالمائل لا يطلب الخير لنفسه فقط ، بل يطلبه لنفسه ولبنى جنسه أيضاً . وأبو العلاء لا يريد أن يفرد وحده بالخير ، بل يريد أن يعم الخير جميع الناس . ولو كانت له جنة الخلد لما أحب بها انفراداً . وفي ذلك يقول :

ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ولا فرق في نظره بين حر وعبد ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين هاشمي وغير هاشمي ، بل الناس كلهم سواء لأنهم متساوون في أصلهم ، متساوون في حقوقهم وواجباتهم لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى .

فإن الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمت
 ٧ - فأنت ترى أن مذهب أبي العلاء في الخير قريب من مذهب الرواقين ،
 لأنه قد مدح الجهد والمشقة ، ودعا إلى اتباع العقل ، وهجر اللذات ، ونادى
 بالعدل والمساواة والرحمة . وهو قريب أيضاً من مذهب شوبنهاور ، لأن الرحمة
 عنده هي الحب ، لا بل هي مبدأ الاحسان والعطف على الانسان والحيوان .
 وربما كان شعوره بالرحمة أحد مظاهر تشاؤمه ، لأنه كما قدمنا قد حكم على
 الناس بالفساد ، وذهمهم لتخبطهم في دياجير الظلام ، ولكنه في الوقت نفسه حنا
 عليهم حنو الأم على رضيعها ، فأراد إنقاذهم مما هم فيه من الجهل والظلم والشقاء .
 وإنك لتجد وراء تقده الاجتماعي ووراء هزمه وسخريته شعوراً عميقاً بالحب
 والحنان . وتجد قسوته على نفسه أشد من شعوره بالعطف على غيره . ولكم
 تمنى أن يشعر الانسان بالرحمة التي يشعر بها هو نفسه ، وأن يسود العدل بين
 الناس ، وأن لا يقابل الشر بالشر . ومن أجل هذا الشعور بالرحمة رام الدفاع
 عن الحيوان ، وأراد حماية الضعفاء والمرضى والمساكين والشيخ والأطفال .
 فهو إذ ذاك رسول الإخاء وعدو الظلم وبطل المساواة والعدل . ألا ترى إليه
 كيف يطلب الى المسلم والصابي والهادي أن يرحموا المسكين ، وأن يصيدوا
 الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . إن الأمراء لا يسوسون الرعية بالعقل ،
 بل يمتدون على الأفراد ويسومونهم أنواع العذاب ، ويحدثون الفوضى في
 سبيل مطامعهم . والقضاة والعلماء ليسوا أحسن حالاً من الأمراء ، لأنهم
 يستخفون بقضايا الناس ، ويستجيزون الجور والفهر ، ويقبلون شهادة الزور
 والرشوة . فهم أشبه بالتجار الظالمين منهم بالعلماء العاملين . لا يصلح الناس إلا
 سياسة عقلية مبنية على الرحمة والعدل والمساواة . ولو صلح الحكام لما احتدمت
 نار الحرب بينهم ؛ ولوفروا على الناس كثيراً من البؤس والشقاء . فأبو العلاء
 يكره الحرب ، ويرجو أن يسود السلام في العالم ، وان يحل الوثام محل
 الخصام ، والحب محل البغضاء ، وان لا يشهر رجل على رجل سيفاً .

وفي ذلك يقول :

فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فأفضل ما نلت اليسير المروج

ويقول :

فان ترشدوا لانتخبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجرائم
ويقول : « يارب العب ، ان عبادك لفي تعب ، الام الاسنة على الرماح والاعنة
في اعناق الخيل ورحائلها فوق الاثايح » .

فالانسان في نظره اخو الانسان احب ام كره . ومن الظلم ان يسلم الناس
امرهم للغريزة وان تلعب بهم المقادير ، وان يسوقهم الدهر الى هذا الشقاء .

٨ — وهذه الاخلاق التي نادى بها أبو العلاء ليست سلبية ، لانه لم يكتف
بالامتناع عن الشر ، بل دعا الى فعل الخير دعوة ايجابية بدون قيد ولا شرط .
فهو من جهة يقول : لا تؤذ بلسانك بشراً ، ولا تخن من خانك ، ولا تضرب الجار اذا
لم تنفعه ، ولا تهزأ باحد ، ولا تؤازر الظالم ، ولا تجالس المقتاب ، ويقول من جهة
ثانية : صد افعال الخير ، وان استطعت ظالماً فاردعه ، واكرم صاحبك ولا تخدعه ،
واطم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري اجد ثوبيك ، وامسح دموع
الباكية بارفق كفيك ، وافعل الخير ببذل ، وكن دون المحرم احا عذاب .
ويقول ايضاً :

لانسدين قبيحاً ان هممت به وافعل جميلاً فان الخير يقتنم

فان قدرت فلا فعل سوى حسن بين الانام وجانب كل ما قبحا

٩ — وهذا يدل على ان فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء مفعمة بالشعور
الديني ، ولا غرو في ذلك فابو العلاء قد نشأ في بيئة دينية ، فكانت حياته مثلاً اعلى
يقتدى به في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي لزومياته ابيات كثيرة يدعو
بها الى الصيام والصلاة والزكاة . فالعقل عنده ، وان كان نبياً ، خاضع للنور
الالهي . ولولا غريزته الوحشية ، ومغالاته في التوحيد ، ورغبته في التوحيد ،
وضعف جسمه وققد بصره لما انتقد الحج ولا ذم المرأة ولا اعرض عن الزواج
والنسل . ان ارادة النسل عنده شبيهة بارادة الحياة التي اشار اليها شونهاور .
انها لاتنافي غريزته الوحشية فحسب ، بل تؤدي الى زيادة كمية الشر والالم في
العالم . ومهما يكن من امر ، فان الخير في نظر أبي العلاء عقلي وديني معاً . ولا فرق
عنده بين الدين والاخلاق .

م (١٤)

الدين إنصافك الأقبوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا
 ١٠ - ويظهر أن للخير في فلسفة أبي العلاء درجات ومراتب ، كالخير
 الخاص بالحيوان ، والخير الخاص بالانسان ، والخير الخاص بالملائكة ، والخير
 الأعلى هو الله ، فاذا فعل الانسان خيراً ارتفع إلى عالم الملائكة ، وإذا فعل شراً
 هبط إلى درجة الحيوان .

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجيل غير أنس
 فان فعل الفتي خيراً تعالى الى قنس الملائك خير قنس
 وإن خفضته همته تهاوى إلى جنس البهائم شر جنس

والشر لا ينسب إلى الله أبداً ، بل ينسب إلى الدهر والمادة .
 كذب الذي نسب التبيح إلى الذي خلق الأنام وخط في برسامه

لا أزعم الصفو مازجاً كدرأً بل مزعمي ان كله كدر
 كأن الدهر بمر نحن فيه على خطر كركاب السفين
 أعجم قد بين الرزايا وجعل الشر ترجمانه

فالإله خير وكمال ، والعالم شر ونقص . ولولا تيار الزمان الذي عكر
 صفو الوجود لما تولد الشر ، ولا خوف على مصير الانسان لأنه يستطيع أن
 يتغلب على الشر باتباعه العقل وإيمانه بالله وثقته بمدله وكاله . والدهر لا عقل
 له ، أما الله فهو كما قالت الفلاسفة عقل محض ، ومن اتبع عقله فقد تشبه بالله .
 ١١ - تلك هي صفات الخير في فلسفة أبي العلاء . فما هي القواعد الخلقية
 التي تلزم عنه ؟

لا أريد الآن أن أذكر جميع القواعد التي اشتملت عليها فلسفة أبي العلاء
 الخلقية ، وإنما أريد أن أنبه إلى أن مثله الأعلى الخلقى قد جره إلى العزلة
 والتقصف والمحبة والرحمة والتسامح والسلام .
 فالتقصف يقضي باتباع العقل وإماتة الشهوات ، والاعراض عن الذات ،
 والقسوة على النفس ، ومجاهدتها ، وقطع عقباتها الغريزية ، والتنزه عن أخلاقها
 المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وكفها عن الهوى .

والعزلة تقضي بقطع القلب عن الدنيا ، والتجافي عن دار الغرور ،
والاعراض عن الجاه والمال والزواج والنسل ، والهرب من الشواغل والعلائق .
والرحمة تقضي بالتسامح والحب والسلام والعطف على الانسان والحيوان .

١٢ — فهذه الاخلاق كما ترى ، شبيهة باخلاق الرواقيين ، لا بل باخلاق
الزهاد والمتصوفين فهي تدل على ان تشاؤم أبي الملاء لم يكن تشاؤماً مطلقاً ، بل
كان تشاؤماً نسبياً لاينافي الايمان بالخير ولو كان تشاؤمه مطلقاً لما عزى نفسه
بالايمان ، ولا تمسك باهداب العقل ، ولا تطلع الى المثل الاعلى . واصحاب التشاؤم
المطلق يمتقدون ان حقيقة الوجود شر ، وان الوجود خير من الوجود ، اما
اصحاب التشاؤم النسبي ، فيعتقدون ان الخير موجود في الدنيا مع الشر ، وانه في
وسع الانسان ان يتغلب بارادته العاقلة على الظلمات . فأبو الملاء لا يرى ان حقيقة
الوجود شر مطلق . ولو اعتقد ذلك لنسب الشر الى الله ، ولما آمن بالله حكيم
قادر ، خير عادل ، يجزي المحسن ويجازي المسيء . ولما أثبت الخير في الدنيا الى
جانب الشر . وهو يقول في ذلك :

جهلنا ولكن للخلائق صانع اقربه فسل من القوم او شهم
ويعلم كل ان للخير موضعاً وفضلاً على انباته اجمع الدم
ويقول : « غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير الى جنب الضير » .

ويقول :

خير وشر وليل بعده وضح والناس في الدهر مثل الدهر قسبان
ويقول :

والشر مشتهر المكان معرف والخير يلمح من وراء خمار
فوجود الله المسيطر على الدهر ، والنور المحيط بالظلمات ، والعقل الهادي
إلى الرشاد ، كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد ان الله سينقذ الانسان من برائن
الدهر ، وسيرفمه إلى المثل الاعلى . فأبو الملاء متشائم في الدنيا متفائل في
الآخرة . وإذا كان قد بكى لبكاء الناس ، وحنأ على الحيوان ورثى لحال البائس
المسكين ، فما ذلك إلا لأنه تطلع إلى المثل الاعلى ، ورغب في حياة مثالية

لا يشوبها نقص، ولا يمكر صفوها ألم. ومن الخطأ تشبيهه بشوئناور، لأن الارادة في نظر شوئناور إما هي عمياء هوجاء. سيان عندها الخير والشر. أما الله في نظر المعري، فلا يصدر عنه إلا الخير، ولا يريد لمباده إلا الرحمة والعدل. وهذا الايمان بالله هو كما يقول أبو العلاء خير الذخر في كل شدة «والخير عند ربنا لا يضيع، فليرد الإنسان إليه أمره، وليطهر مهجته بخوفه، وهذا يدل على أن أبا العلاء لا يختلف عن غيره من أصحاب الأحلام، كأفلاطون والفارابي وغيرها، الذين حللوا بمدينة فاضلة لا تبت أرضها إلا الرحمة والعدل، فهو بهذا المعنى شاعر المثل الأعلى، ورسول الكمال والخير.

جميل صليبا



الدهر ملك المبقرية

حلي الندي كرامة للراح
لك في السرائر بدعة مرموقة
مجد كآفاق السماء اذا انتهت
الدهر ملك المبقرية وحدها
والكون في أسراره وكنوزه
ذرت السنون الفاتحين كأنهم
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها
مرح على كيد الحياة وأهلها
خير المقائد في هواي عقيدة
تبنى الحياة على هدى إيمانها
سكرى من الحق المدل وربعا
سكر العقيدة أين من آفاقه
ملك الحياة يغلف كل ثنية
شرف العقيدة أن تكون جريحة
واحمل بكفك الحياة تحدياً
العمر من غيب القضاء خبيثة
لا تشك من قصر الحياة فرجما
سفر الحياة اذا اكتفيت بمنته
واختر لنفسك ميتة مرموقة
لموت في اللجج العنيفة رهبة
حوطت بالله العقيدة من أذى
سكرت على كرم الندي وعربدت

عجياً اتسكرنا وأنت الصاحي
أنس المقيم وجفوة النزاح
منه نواح بادت بنواح
لا ملك جبار ولا سفاح
للفكر لا لوغى ولا سلاح
رمل تناوله مهب رياح
الا بفكر كالضياء صراح
يلقى شدائدتها بأزهر ضاح
شمام ذات توثب وجماح
والعقل مثبت غيرها والماسي
لقي الختوف فغاد عنها الصاحي
سكر الميرون وأين سكر الراح
للئاس يكن منه الف طلاح
فبدار قسطك من أذى وجراح
منها لأول معتد بالساح
فابسط مصون كنوزه بالراح
أغنت اشارتها عن الايضاح
أغناك موجزه عن الشراح
بين النجوم على الاديم الصاحي
شمخت بسؤدها على الضحضاح
خرقاء فاجرة اليمين وقاح
فالآن لا تخري ولا أقداحي

فيم المقام على قرابي وفاتها
ومن البلية لا بلية قلبها
لهو العيون—ولأقول قذاتها—
مترنج العذابين من خيلائه
الله يعلم ما أردت شماتة
تأبى الشماتة في الضعيف شمائي
وانا الذي وسع المهوم حنانه
أشقى لمن حملوا الشقاء كأنما
غسل الاسى قلبي وحسبك بالاسى
ووددت حين هوى جناح حمامة
حب قد انتظم الوجود بأسره
اعمى تلفتت العصور فمأرات
نفذت بصيرته لآسرار الدجى
من راح يحمل في جوانحه الضحى
أمصور الدنيا جحياً فأراً
البنغي عند الأقوياء سجية
هون عليك في النفوس بقية
خلف الهجير وعنفه ولهيبة

* * *

ضجت ملائكة السماء لساخر
السخر فيه اذ سقاك حتوفه
نكب العقائد والطباع فيالها
وعدا على حرم السماء فياله
عمرى السرار والنفوس ممزقاً
وجلامصون من الضائر فانتهمى
ان يقس في نقد الطباع فلم تكن

* * *

في الروح حطم ظنى وقصف. ماح
أن تحسب العجفاء كبش نطاح
وكل تكلف زهوة لمجناح
ماذا تركت لغارة وكفاح
بمصرعين من العياء طلاح
وتعف عن شلو الجريح صفاحي
وبكى لكل معذب ملتاح
أتراح كل أخي هوى أتراحي
من غاسل حقد القلوب وماحي
لو حلقت من خافقي بمجناح
اسد الشرى وحمامة الادواح
عند الشمس كنوره اللامح
فتبرجت منها بألف صباح
هانت عليه أشعة المصباح
يرمي العصور بجمره الفلاح
والمكر في الزهاد والصلاح
من رحمة ومروءة وسماح
ماشتت من ظل وطيب نفاع

مر الدعابة شاتم مداح
كالسخر حين تراه في النصح
فتكات حتف كالفضاء متاح
فتحا أطل به على الفتاح
عنهن كل غلالة ووشاح
حمس النفوس لضجة وصياح
ترجى لرحمتها يد الجراح

* * *

ايه رهين المحبين ألم يثن
ظفرت برحمتك الحياة وصنّتها
أنضيق بالانثى وحبك لم يضق
يا ظالم التفاح في وجناتها
عطر أحب من المنى وغلالة
هي صورة لله جل جلاله
منحت بقدرته النعيم ولونت

* * *
ليت الهموم العبقرية هدهدت
لو انها نزلت على نعمى الهوى
حرم على عسر الزمان ويسره
ماحوج العقل الحكيم وهمه
ولمن تدلله وآسكرو روحه
انثى اذا ضاقت سريرة نفسه
تسقي الهموم اذا وردن حنانها
وتردهن عرائساً مجلوة
للعبقرية قسوة لولا الهوى
رعناء ان ترك الجمال عنانها
ماللشرع على العواصف حيلة

* * *
بمخاض طيبة اللحنى بمراح
نزلت مدلاة باكرم ساح
وحى امين السرب غير مباح
وسع الحياة لصبوة ومراح
عند المهجير بظلمها النفاح
طلعت بأفاق عليه فساح
بمعطر كالسلسبيل قراح
كندى الصباح وكن غير صباح
عصفت بكل عقيدة وصلاح
طاحت بفارس ممتنها الجحجاج
ان لم تصرفه يد الملاح

* * *
ايه حكيم الدهر اي مليحة
اسكنتها القلب الرحيم فراها
جرحت اباءك والحياء فاقفلا
لو انصفت لسقتك خمرة ريقها
ولأسعتك على الهوى - بمعطر
لا تخف حبك بالضغينة والاذى
واطل هجاءك ما ردت خلفه

* * *
من نبعة وتسلسلا من راح
العبقرية والجمال تحدر

اخوان ماطلع الضحى لولاها
 الظلمان المالكان ونعمة
 ان التي حرمتك نعمة جها
 لو كان في يدي الزمان وسره
 لاعدتها بعد الردى مجلوة
 في مشهد تكسو الوفود رحابه
 فتزعت فتنها وسحر جفونها
 ونثرت جوهر ثغرها من عقده
 ورددت للسبعين ريق عمرها
 وجلوت مرآتي فندت صرخة
 حتى إذا أتممت ذلك كله
 فتأرت من ظلم الجمال وربما
 واذا رأيتك ضقت فيه- تنكرت
 * * *
 هذي العروبة في حماك مدلة
 الازرق الرجراج حن لرملة
 وأرى الكنانة ان تاجد ماجدت
 الوحدة الكبرى تهلل فجرها
 «شكري» الذي لقي السيوف بصدرة
 * * *
 سمماً حكيم الدهر فهي قصيدة
 عصماء ان شهد الندي خطيها
 بدعت شواردها المدى بكتيبة
 هل في ثراك على المعرفة موضع
 حنت النفوس عليه تسكب جها
 ما للجياد الأعوجية حسرا
 فاعذر اذا لم أوف مجدك حقه

الا على المبرات والأتراح
 ما سلفا من زلة وجناح
 وايبك عار كواعب وملاح
 واعنة الإمساء والإصباح
 بشبابها وجمالها الفضاح
 ويفض بالفادين والرواح
 ومحوت نور جبينها الوضاح
 فصحاحه المطرات غير صحاح
 والحاليات من الصبا المفراح
 كلى وغطت خزيمها بالراح
 أشرفت أنظر نظرة المراتح
 شممت جراح في الثرى واضاحي
 للجد منه دعايتي ومزاحي

* * *
 ريع العدو بها وجن الاحي
 في الدجلتين ندية مساح
 بالعاص لا «بمعى» ولا «بفتاح»
 بظلال أبلج ذا نذ نفاح
 فأعادها مزقاً على الصحاح

* * *
 وأيمك بدع مفرد صداح
 تركت فصاح القوم غير فصاح
 خضراء تلعم بالحديد رداح
 بين الميون لدمني السحاح
 فحلت براح البيد غير براح
 صرعى المهجير على المدى الفياح
 ليج الخضم طغت على السباح

بروي الجبل

أهلوب المعرى

ومنهاجه

سيداتى وسادتى :

باسم تراثنا الادبى وسلسلة الفكر العربى مجتمع الآن فى ضوء هذا المهرجان ومن حول مناوره وذرى مناره لنحى ذكرى (أبى العلاء) [أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى] رهن الحبسين . ولنكرم فى ذكره ليس شخصاً زائلاً بل عبقرية فذة وفكرة باقية ونفحة عطرة من نفحات الادب العربى تملّت بها العروبية والانسانية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة وما زالت تطوي مراحل الزمن لتعيش بيننا بعد ألف سنة بما نعد ولتعبّر عن حاجتنا الادبية تعبیرها عن حاجات عصرها وزمانها . وإذا كانت الشخصية الادبية هى التى توفى فى أى عصر من العصور فى التعبير عن الحاجات الادبية لذلك العصر أو لجماعة من جماعته أو فئة من فئاته وكلا ارتفعت فى ميزان القيم اتسمت آفاقها وعظم شمولها وجاوزت حدود الحاضر الى المستقبل فان أبى العلاء هو من طراز تلك الشخصيات الادبية التى أوفت على الزمن وشغلته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ذلك لان أبى العلاء فى غالب ما اخرج للناس لم يكن إلا ومضة حق وخير وتعبيراً حراً بليغاً عن الكون والحياة وصدى قويا شجيا لخلجات القلب وأمواج النفس .

ومها اختلف النقاد فى هذه الشخصية الادبية النادرة واستبقوا النظر فى منهاج أبى العلاء وأسلوبه واكتناه مناخيه فزعموا له الوضوح او الابهام والشك أو اليقين والقوة أو الضعف او اعتبروا لفته وألغازه وجناسه ومجازه دليل تفوق وتمكن او ضرباً من ضروب العبث فان هذا ليس بضائره فى شيء بل ان هذا كله للدليل اهتمام بندي خطر لا بد وأن يختلف إليه النظر اختلاف النقاد فى مذاهبهم وادواقهم وعقائدهم وثقافتهم .

أما الذي لا ريب فيه وعليه الممول واليه ميل جبهة النقاد فهو ان أبا العلاء شخصية أدبية فذة طالعت الآداب العربية بأسلوب جديد له خطره وأثره في الشعر والنثر تفنن فيه أبو العلاء لفظاً ومعنى شكلاً وأساساً وتأثر به الادب العربي والآداب الاجنبية الى حد بعيد . ونحن اذا صحبنا أبا العلاء واستمعنا إليه في رفق وأناة واستقصينا آثاره وفنونه وشروحه ومتونه استطعنا أن نرد المنهاج الذي اعتمده وركز عليه اسلوبه سواء أفي الشعر أم النثر الى الاصول الآتية :

(أ) في الشعر

١ — الاخذ بمبادئ المدرسة القديمة (مدرسة الخليل بن أحمد) في العروض والقافية مع استقصاء نواقص هذه المدرسة واكمالها وقد كان من جراء ذلك ان استحدثت القافية المقيدة المجردة أثبتتها في ديوانه (جامع الاوزان) على ماروى (ياقوت) قال : (وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث يشبه المقصور) .

٢ — اخضاع حروف المعجم بكاملها للقافية الشعرية والنظم على منوال ما فقد أو ندر أو أهمل من ذلك عند المتقدمين وهذا بعض ما قصد إليه في (اللزوميات) . وعمل كهذا كان يعتبر من باب الاستقراء الادبي والاجهد اللغوي الفني ورياضة الفكر بل حتى الخليل بن أحمد وهو أدنى إلى عصر البساطة والطبع (نظرف) فجمع حروف المعجم في بيت من الشعر .

٣ — لزوم مالا يلزم على مثال ما شرح وأوضح في مقدمة (اللزوميات) أيضاً وهو أن يلزم مع كل روي حرفاً ليس بلازم تقوية للقافية في السمع كما في قوله :

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن في المسالم البشري إلا بائس
والموت باز والنفوس حمائم وهزير عريس ونحن فرائس
فقد التزم في هذين البيتين الهمزة المكسورة مع السين كما هو ظاهر
من كلتي (بائس) و (فرائس) وكان بإمكانه أن يكتبني بالسين لو لم يجد في

ما التزم ايقاعاً أجملاً ولفظاً أنبل . ذلك هو منحاه في (لزوم مالا يلزم) وهو شكل من أشكال النظم الدائر في شعر المتقدمين وسمه وأضاف اليه وتقن فيه واختصه باغراض شعرية جديدة . وأنشأ عليه أبنية أوراق ديوان (اللزوميات) وأكثر ما ورد منظوماً في رسالة (ملق السبيل) .

٤ — نذره أسلوب القصيدة العربية التقليدي سواء أبالنسبة لاغراضها أم تسميتها وذلك أن الشاعر العربي قد ظل محافظاً على أساليب العصر الجاهلي وقوالبه الشعرية يستلهم من حياة البداوة ومنازعاتهم وصور البادية وتقاليدها ما يبين طبع الحضارة واحساسها وصورها وحاجاتها ومن أعرض عن ذلك من الشعراء المحدثين ظل فردياً في المجتمع العربي الجديد وفي معزل عن الذاتية القومية إلى حد بعيد إلى أن جاء أبو العلاء بأسلوبه متخذاً من صدق الكلمة والنظر الحر والحياة العامة والمثل العليا دليلاً في الشعر .

(ب) في النثر

١ — استحدثاته قوالب جديدة للنثر الفني تجمع بين الروح الشعري والفكر التعليمي الفلسفي مضميلاً إلى بمضها (الغاية) أو القافية إلى السجع والتوازن على نمط خاص هو أدنى إلى ما نسميه (الشعر المنثور) في اصطلاح أيامنا ليكون التعبير أحسن جرساً وأوقع في السمع والنفوس . وهذا هو أسلوبه في (الفصول والغايات) و (والأيك والفصول) محمولاً على مواعظ وتأملات وأحاديث وآراء والتفاتات ذهنية وروحية إلى حقائق أو مظاهر كونية وإنسانية في صيغ متينة حافلة بفوائد وطرائف أدبية ولغوية تستسر غالباً في الوشي الفني والاعراب والتكلف .

أما في (ملق السبيل) وهو نثر وشعر من نوع المواعظ والتذكير بالنهاية فيجبيء بالقطعة النثرية لا تتجاوز سطرًا أو أسطرًا على حرف واحد أو عدة حروف من السجع ثم يكرر معناها شعراً مبتدئاً بهذا من الهمزة إلى أن يستوفي حروف المعجم وهو نمط آخر يمتد حل المعنى وعقده ووحى الالفاظ والاوزان معاً . وهو أدنى إلى أسلوب الوعظ الخطابي القديم عند العرب .

٢ - اصطناع الاسلوب القصصي التعليمي الفكاهة محمولا على الخيال المبدع والسخرية اللاذعة والاستقصاء الادبي الجامع وهو أسلوبه في رسالة الغفران المشهورة وقد كاد ينفرد به .

والمرعي لم يكن عابثاً أو متفكهاً في اعتماد هذه الاصول او ابتكار تلك القوالب الادبية التي أودعها حشاشة نفسه وعصارة فكره مهما اختلف التقاد في تقويمها بل كان يريد أن يبلور ما لم يكن مبلوراً من أشكال الصيغ العربية . وأن يتم تقصا أو يسد ثلثة في دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين وأن يأخذ بالاقوى من القافية مصطفيا موسيقى اللفظ وراداً قوة الكلمة في بناء القوافي إلى لزوم ما لا يلزم وإلى توافق الكلمات في السنج (أي أصل بناء الكلمة) لان هذا هو الامتن والاحسن في رأيه ولان العرب كما يقول : كانت تختار أشرف الكلم في السمع متأثراً في الوقت نفسه بما كان شائماً في عصره والعصور التي تقدمته من افتتان بالصنعة والتوشية والمحسنات اللفظية والمنوية وبما كان للصيغة من أثر سحري يشفع بالاغراب والتكلف ذلك ما جعل أبا العلاء يأخذ بأقصى حد العبارة وهو يرى للالفاظ قوة ايمائية تنقل أكثر من معانيها وتخلق أجواء من عواطف وتصورات .

بيد أن أبا العلاء لم يقصر أسلوبه على هذا المستوى بل كان يراعي فيه مقتضى الحال فالنثر الفني المحمول على التفوق الادبي والمنهج التعليمي هو عنده غير النثر التعليمي المجرد او ما يكتب في المراسلات او يقال في الجماعات ففي الاول يؤثر الصعوبة والمتانة والتعمق اللغوي والسجع ولزوم ما لا يلزم والتفنن اللفظي والمنوي وحشد المعرفة وفي الانواع الاخرى يتوخى مع الجزالة وتوثيق السرد بساطة التعبير وسهولته ومن كلامه في بيان ما ترك من حروف المعجم توخياً للسهولة في ما وضع من خطب منبرية عامة قوله : (تركت الجيم والحاء وما يجري مجراها لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلاً) . ومن شواهد أسلوبه البسيط السهل (مقدمة الزوميات) و (رسالة الملائكة) والمرعي لا يختار الصيغة

للتعمية كما ظن بعض النقاد بل لان الصعوبة أنفس من السهولة في مذهبه الادبي وما يهمس أو يلحح به أحياناً ليس هو من باب التعمية بل من سوانح الرب الغابر وقد تكون الاشارة أبلغ فيه من العبارة وليس أدل على وضوح أبي العلاء وصراحة طبعه وحرية فكره حتى في الشؤون الدينية والسياسية من آرائه الجريئة وأفكاره المعلنة في تعريف الله ونفيه عنه الصفات واثباته له الزمان والمكان بالمعنى الذي عرفها به ومن قوله بالعلل ورسالة العقل وحرية النظر والخير للخير والمساواة العامة والمغفرة الشاملة ومن حملانه العنيفة على الطغيان والطفافة والولاية وتجار العقائد والماديء وسائر مساويء عصره ومن تقدمه المذاهب والشيع والمقالات جميعاً حتى ليصح أن يدعى له مذهب مستقل . ولو أن أبا العلاء كان يؤثر التعمية حقاً في أسلوبه ويانه لم يُتبع كل مؤلف ممتاز من مؤلفاته الادبية بشرح أو تفسير لكشف مغلفاته — على ما هو ثابت في ثبث مؤلفاته — بل أن الصعوبة هي مهراز البحث والاستقراء وتزعة تعليمية عند أبي العلاء أوجت أن يلحق مديوانه (لزوم مالا يلزم) (زجر الناجح) و (شرح اللزوم) و (الرحلة) و (راحة اللزوم) و (بالفصول والغايات) كتابي (السادن) و (اقبيد الغايات) و (بالأيك والفصول) او (الهزمة والردف) (تفسير الهزمة والردف) . وهذا كله لان أبا العلاء لم يكتب لنفسه فحسب بل لطلابه وقرائه جميعاً . بل ان التزعة التعليمية العملية لتلائم أسلوبه حتى في القصص الخيالي الفكاه وقد يضحى الوحدة الفنية ووحدة السياق اللاذة في سبيل الاستقصاء العلمي النافع . ومن اثاره هذه التزعة استخدامه مصطلحات وسائل العلوم والفنون الخاصة في اختراع المعاني العامة وتوسيع الطاقة الانوية والبيانية بحذق وعمق سواء أفي الشعر أم النثر مما لم يسبق إليه .

قال في (الفصول والغايات) : [استفرك ماحي السيئات من قول ليس باسناد . استكثر من السناد . كم أوطي* في الذنوب وضمن الحوب بالحوب . وإذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ومتى انكفأت إلى الخير أكفأت . فلستري ربي فعيوبني أقبح من السناد والاكفاء] .

وقال في (الأيك والغصون) : [لا تعين احداً بأمر فتطأ على مثل الحجر . اصبر على ما حكم ربك واياك وليت السكاذبة ولو الفرارة وعسى الخلفة ولعل الخالبة وابك على خطيئتك ولا تكون كالرجل يبكي العداء .
ومنها :

ما ترحيم وضع وكلام ضم وجمع جر بالاضافة ونصب على الاغراء [
وقال في (لزوم مالا ينزم) :

بعدي من الناس براء من سقامهم وقربهم للحجبي والدين أدواء
كالبيت أفرد لا ايطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء
وأمثله ذلك كثيرة جدا في شعره ونثره .

والمعري الخار أو الساخر أو الشار شخصية مطبوعة لا مصنوعة .
يبد أنه كلما أوغل في حروف المعجم أو عالم الالفاظ والكلمات وأغرب أو
تفنن في الجناس والالغاز والتوشية مستسراً في بطولة البيان والبديع واللغة
اكتنفه الغموض الى أن يفسر نفسه باملائه أو تفسره المعاجم وهو في
مثل هذا الايفال قد يضحى الجمال الفني بمعناه الحديث ليشبع نهمه العلمي
او التعليمي ارضاء لذوق عصره . والقطعة الفنية من مثل بيانه هذا انما
نستفيد منها اليوم بمقدار ما يستفيد علماء الحضارات القديمة من القطع الاثرية
والنفائس المتحفية . أما عندما يرتجف قلبه بالالم وتغمر ثورته النفسية معالم
الصيفة وتتكاثف عواطفه وأفكاره فينبثق عنها الالهام فاننا لنبصر فيه
عندئذ أوضح وجه وآنس روح وأعمق نظر بل الشاعر الحق متصلا ليس
بمصره فحسب بل بجميع العصور الانسانية .

وأبو العلاء عندما يأخذ بالسمت الفلسفي في الشعر أو باختراع المعاني
العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية الخاصة لا يسخر الشعر للعلم
بل العلم لا شعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أو النحوي أو الفلكي
بالمعنى المنتقص في الذوق الادبي بل هو الشاعر الملهم ابداً والمشرف بشعلة
وجدانه وبيانه على صميم الحياة وأقصى المسالك الانسانية .
وقد يهيجنا أن نستمع إليه الآن قليلا لتكون أكثر اتصالا بروحه
الشعري الواضح واسلوبه الحر :

قال من قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) يمجّد الله ويندد بما انتهى إليه
مجتمع عصره من انحلال أخلاقي :

وللعليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات اماء
فالهلل المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والمساء
والثريا والشمس والنار والنث رة والارض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكاء
خلفي يا أخي استغفر الا ه فلم يبق في إلا الذماء
ويقال الكرام قولاً وما في المص ر إلا الشخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها غواة واقترتها للمكسب القدمات

وقال : يحمل على الطغاة والظفيان والقوضى السياسية في عصره :
يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معاً ونحن بدم في الارض قطان
ان العراق وان الشام من زمن صفران ما بها للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل بخص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
تشابه النجر فالرومي منطقته كمنطق العرب والطائي مرطان
أما كلاب فأغنى من ثمالهم كأن ارماعهم في الحرب أشطان
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى كأنما كلها للإبل اعطان
وقال : يخاطب الدنيا الغرارة ويقوم مصير الانسان :

يموج بمحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء
إنس على الارض تدمي هامها إحن منها إذا دميت للوحش أنساء
فلا تفرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا برغهم فاذا النماء بأساء

وقال : وكأنه يرى الموت أثبت الحقائق على ما فيه من سر غامض :
أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بقاء الموت ميعاد
سر قديم وامر غير متضح فهل على كشفنا للحق إسعاد

سيران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه إصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وابعاد
توقموا السيل أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع إرعاد
وبعدُ : أوليس في هذا الشعر أعمق وأدق ما يحتلج به القلب البشري ؟
أفلا نرى فيه الشاعر الملهم وقد أبرز أفكاره وأحاسيسه في صيغ متينة
متسقة من اللفظ الواضح المأنوس تدخل الآذان من غير استئذان لتحتل
أعماق النفس ؟ ألم يخشع مع الشاعر لعظمة الله بديع السماوات والارض وقد
أبرز الكون عبداً لله بمذكراته ومؤنثاته ؟ ألم يصور لنا حياة عصره
حتى لكأننا نراه ونعيش فيه ؟ ألم يبصرنا بالموت والحياة وقد أشهدنا النهاية
سيلاً جارفاً وابعادها عارضاً تخطف الابصار بروقه وتسم الآذان رعوته ؟
ألا ان هذا هو الشعر بأكل معانيه وأجمل مبانيه .

أما قصائد (أبي العلاء) المشهورة كترثيته الخالدة (غير مجد في ملتي
واعقادي) وقصيدة (علاني فان يبض الاماني) وأشباهاها فقد كاد يجمع
أهل البصر في الشعر أنه ابتى منها هيكل جمال فني مازال يخشع له
الخيال والفكر .

وأبو العلاء إذا لم يستطع أن يطالعنا بالمسرات والمباهج في (الزوميات)
لأنها نظر حزين في نقص النواميس ورتاء حار للانسانية الضعيفة الفانية
ومعالجة جريئة لمجتمع مريض وحيرة متجهمه متجهمه فلقد طالعنا بما يروح
عنا في رسالة الغفران وبرز أسلوبه القصصي التعليمي غنياً بالخيال والصور
الفكاهية محمولة على السخرية اللاذعة مما هو معروف مشهور ولا مجال
الآن لتحليله وتفصيله . والسخرية في اسلوب أبي العلاء مردها إلى النقد
الضمني كأن يظاهر خرافة او صورة على المبالغة ليثير من حولها الضحك .
والقهقهة التي يثيرها حول بعض الاساطير والعقائد تكون معمول هدمها
وآية نسخها .

ومما تفنن فيه أسلوباً وبياناً انطاقه الطير والحويان بما ينفع الانسان

ويبهج البيان . ألف في هذا الباب — على ما نقل الرواة ومؤرخو الآداب العربية ولم يصل إلينا — (سجع الحائم) يتكلم فيه على السنة حاتم أربع و (أدب المصفورين) و (الصاهل والشاحج) و (خطب الخيل) يتكلم على ألسنتها (والقائف) على مثال (كلمة ودمنة) بل هو كما يقول الكلاعي صاحب (احكام صنعة الكلام) أكثر ورقاً وأفسح طلقاً وأكثر شميماً وعبقاً . وله مما يمد من الاشكال الادبية الخاصة كتاب (المواعظ الست) في خطاب (رجل ، اثنين ، جماعة) ، (امرأة ، امرأتين ، نسوة) . ومما تحسن الاشارة إليه تفننه في اختيار العناوين الطريفة المبتكرة لآثاره ومؤلفاته الادبية سواء أفي الشعر أم النثر وهي زعة الادب الحديث محمولة على الذوق الفني والدقة والاناقة . ولقد تأثر أبو العلاء في أسلوبه إلى حد كبير بما حدد لنفسه من معنى الادب وغاية الشعر إذ كان المتقدمون يرون الشعر باباً من ابواب الباطل فاذا بالمعري يخرج به عن هذا فيبتدئ على القيم أي على الحق والخير والجمال بعد أن ظل الشعر أمداً طويلاً مسخراً للعباثات وأهواء الرئاسات والمدائح والاهاجي والاغراض الخاصة المحدودة .

ومما صرح به في مقدمة (اللزوميات) أنه قد رفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصادقة معتزلاً عما قد يبدو من ضعف فنه الشعري بسبب هذا المنحى فيقول : (من سلك في هذا الاسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام لانه يتوخى الصادقة) إلى أن يقول : (و يروي عن الاصمعي كلام معناه أن الشعر باب من ابواب الباطل فاذا أريد به غير وجهه ضعف) .

بيد أن توخى الصادقة لم يكن باعث ضعف في شعر أبي العلاء بل قوة وهذا الاسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي نفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم بل المفرد العلام الذي حمل الكون والانسان على أئمة اللسان ومنطوق البيان واختار للحكمة أفقاً شعرياً تشرف منه على العالم ،

وفي الحق أن أبا العلاء في اختياره مذهب الصادقة قد جعل من الشعر

تعبيراً تاماً عن نفسه . والفن تعبير كما يقال والشاعر كلما كان أصدق تعبيراً عن نفسه كان أبلغ شعراً وأعظم أسراً . نعم . قد يجاوز المعري أحياناً حدود الروح الشعري في استمداده المبني من الصيغ الصعبة ولكنه ليظل في استمداده المعنى من ثورته الروحية الملهمة وشعوره الاصيل مثال الشاعر الجبار .

وإذا كان قد انفصل في أسلوبه الجديد عن مذهب (الفن للفن) وهو في أصله مذهب أرسطو ثم الأصمعي إلى مذهب (الفن للفائدة) وهو في أصله مذهب أفلاطون معتبراً غاية الشعر التهذيب والحقيقة والمثل الاخلاقية العليا مجاوزاً في هذا ما أخذ به الأصمعي من الفصل بين الاخلاق والشعر فإنه في الواقع لم يأخذ بهذا السميت إلا لأن الانسانية في نظره قد تستطيع أن تستغني عن باطل الفن ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الاخلاق .

ونحن إذا أخذنا برأي من يذهب إلى أن (الادب نقد الحياة) ولاحظنا القوة الناقدة الزاخرة بالحوية الذهنية والمعارف الشاملة والحس المرهف في أسلوب أبي العلاء أمكننا أن نضمه في الذروة بين عباقرة الادب وأن نحمل تفوقه الادبي على مواهبه الممتازة وثقافته الواسعة وفهمه الحياة والعالم فهماً عميقاً شاملاً أمداً أبداً قوته المبدعة بالأضواء والظلال والجمال والجلال .

ولعلنا نختلف أحياناً مع أبي العلاء في آرائه ومقاييسه وفي تفسيره الحياة والكون والمعاني الآلهية ولكن الذي يستهويننا منه أبداً هي حرية فكره وطهارة نفسه وأن يصدر في كل ما يكتب أو يقول عن إيمان صادق وغيره عامة وفكر رصين وشعور عميق . وفي الحق إذا كان أسلوب الكاتب أو الشاعر شديد التأثير بمزاجه وخصائصه النفسية والفكرية فإن أسلوب أبي العلاء ليس بمطبوع على هذا لحسب بل هو ذات أبي العلاء يطالعنا بصرامته ورقته وغموضه ووضوحه وقلقه واطمئنانه وبما يواكب عواصف نفسه وآهاته وواهاته من تشاؤم مكفهر ونظر حائر وتناقض أحياناً .

لا جرم أن المفاجئات الروحية في حنادس الكون والحياة ومعارج (اللانهاية) لا بد وأن تهز الانسان هزاً وأن تجاوب في نفسه أمواجها ومفارقاتها .

وأني لأبني العلاء وقد أمجزه سر القيوب ووقف في ليل عاصف يتشوف على
خضم المجهول أن لا تطالعه الحيرة أو التناقض كلما أمعن في السرى ولما يطلع الفجر:
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
سألتوني فأعيتني لإجابكم من لدعا أنه دار فقد كذبا
وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلما في حنسد تصادم
بيد أن أبا العلاء قد أفاد من الحيرة على خضم المجهول أن ازداد ايماناً
بمظمة الله وصغر شأن الانسان ووجوب النظر الحر واتهى إلى تنزيه الخالق
مع التسليم للمكوتة والثقة المطلقة بمدله ورحمته لان الانسان على حد تعبيره
أقل في ملك الله من أن يناله غضبه أو رضاه .

قال في (لزوم ما لا يلزم) :

ليفعل الدهر ما بهم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تياس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه
وقال : وما أنا يائس من فضل ربي على ما كان من عمد وسهو

وقال في (الفصول والغايات) :

كن حراً وازل حيث شئت ولو بجرة النار فان رعاية الله شاملة للأحرار .
ولقد تأثر أسلوبه بنظره هذا واغتفى بالصيغ المبتكرة والتعابير الجميلة
الرصينة في مناجاة الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . بيد أنه من جهة أخرى
قد ظل مأخوذاً بفلسفة التشاؤم لدوام ريبه في العلة الغائية وهو ما يبرح يرى
للحد يصير لحداً مراراً وقد أضحك تراحم الأضداد.

وفي الحق ان التشاؤم وهو طابع الريب والألم محمولاً على المزاج لذو أثر
بليغ في أسلوب أبي العلاء بل هو (علامته الفارقة) لما حمله في (الزوميات)
(الفصول والغايات) من أفكار وألوان قائمة حتى أسرف بعض النقاد فاعتبره
في لون أسلوبه هذا (سلبياً هداماً) واقتصد آخرون فزعموه إيجابياً بقدر
معلوم واني لأميل الى الاخذ بالرأي الثاني بل الى القول بأن التشاؤم في ذاته

ليس هدماً للحياة بل هو لون من ألوانها ولحن من ألحانها بل ميزان من موازينها وممرض للكثير من صورها ورسومها . نعم . وأي ضمير في أن يطالعنا أبو العلاء بالألوان القائمة من الحياة البشرية محمولاً على مزاجه وحيرته وعوامل بيئته وخصائصه النفسية والفكرية .

أولست الحياة دماً وابتساماً وعرفاً ونكراً وخيراً وشرأً وقبحاً وجمالاً . أولست غاية الفن ان نرسم الطمر كما نرسم البرد . بل ان الجمال الانساني لا يقوم بغير المفارقات بل من منالم يشعر في بعض أيامه بحزن مجهول قد اكتنف روحه وقلبه وحملها اليأس والجزع .

ولقد تأثرت آداب الأمم جميعاً بهذه الظاهرة الروحية وانتهى التشاؤم بالطرب اليوناني الى فلسفة اغتنام وهي الفلسفة العابثة التي عب فيها شعراء شريقيون عديدون أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر الفارسي المشهور (عمر الخيام) . لاجرم ان المعري قد أحب الحياة والانسانية حباً جماً فخرج يطوف الآفاق وبوده لو أن يطول السهمى براحتيه حتى اذا اكتوى بنار التجربة وزاده فقد أمه مدبرة أمره وهو المستطيع بغيره حزناً وألماً انقلب الى ذويه متوحداً متقللاً لا فراراً من المجتمع لذاته بل عزوفاً عن مخزيانه وازوى في مدرسته المتواضعة في (معرة النعمان) منقطعاً الى التأليف والتعليم ورياضة النفس والجسد مؤمناً بمد أن حلب الدهر أشطره ان النفس البشرية المجهولة على غير الخير لا تحصل عليه الا بما استن لنفسه وبما توجه اليه من فلسفة صارمة :

فأكره على الخير مجبولة على غيره في إعلان وسر
فلم يجعل التبر حلي الفتاة حتى أهين وحق كسر

أجل . في هذه الفلسفة الصارمة الحازمة وجد أخيراً أبو العلاء اطمئنان نفسه وراحة ضميره ومستقر طموحه وكأني به وقد ابتداءً ايجابياً جد ايجابي يرتد به الطموح الى (السلبية — الايجابية) لا توكيداً بكيئوته فحسب بل ليمبر عنها ايضاً بأسلوب جديد يطالع العالم بالملح آثاره وأروع أشعاره .
وفي الحق اذا كان الأدب العالمي مديناً الى كرمة الخيام المتوددة المغردة

تفححه بالرباعيات فهو مدين الى مدرسة المعري المتوحدة المتمجدة تفححه باللزوميات
والفصول والغايات وغيرها من الآيات البيّنات .
ولقد أفاد أسلوب أبي العلاء من مدرسته الجديدة ونزعتها الفلسفية الصارمة
فكانت هي هو بكل ما إليها من ألوان وأجواء وظلال وأضواء .

* * *

وبعدُ . فليس المعري في تشاؤمه (السليبي - الايجابى) الا علماً من أعلام
النقد نقد الحياة وهدم الطفلة بأبلغ ما تستوعب الصيغ وهو بأسلوبه الحائر
او الساخر أو الثائر المنبثق عن ثورة وجدانه محمولاً على بيانه ليهز الضمير
الانساني هزا . ولا غرو بعد ذلك ان يتأثر بأسلوبه أدب المشرق والمغرب .
فقد أصبح معلوماً لدى الباحثين في الأدب المقارن ان الشاعر الفارسي
(عمر الخيام) الذي أبهج التشاؤم بالاغتنام والحب والمدام قد أفاد في رباعياته
من أسلوب المعري واقتبس كثيراً من معانيه الشعرية الفلسفية على ما بين الشعارين
من فارق في الوسيلة هذا الى مدام وذاك الى صيام .
ومثل هذا يصح أن يقال عن تأثر (دانتي) الشاعر اللاتيني في (جحيمه)
بأسلوب رسالة الغفران أيضاً مما اجتري بالاشارة اليه .
ويبدو أن عرب الأندلس خاصة كانوا من المهتمين بأسلوب المعري وفي
النسج على منواله كما يستدل من معارضاتهم للملقى السبيل . ولغيرها من آثار
أبي العلاء فقد عارض هذه الرسالة ممن علمنا الحافظ الربيع الكلاعي الأندلسي
المتوفى سنة ٦٣٤ هـ والكاتب الشهير (أبو عبد الله) محمد بن ابي الخصال وزير
يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين .
ولا حاجة بعد ذلك الى التنويه بما كان لعرب المشرق من اهتمام أوفى
بآثار المعري وآرائه فقد سارت بحديث ذلك الركبان وعلمه الناس
من قاص ودان .

* * *

إلى هنا . وأنهى حديثي عن أسلوب شاعرنا وناثرنا العظيم لأعرض على

حضراتكم صورة تذكارية ناطقة من صور شيخوخته الغانية وقد وقف كالشمس
الغاربة ملوحاً للماضي البعيد من شاطيء النهاية محملاً على هذه الأبيات :

سقياً لأيام الشباب	وما حسرت مطيئياً
أيام آمل أن أمس	الفرقدين براحتياً
وأفيض إحساني على	جاري ثم وجارتيما
فالآن تعجز همتي	عما ينال بخطوتيا
أوصى ابنتيه ليبد الماضي	ولا أوصي ابنتيا
لست المفاخر في الرجال	بممتي وخالتيما
لكن أقر بأنني	ضرع أمارس دارتيما
والله يرحمني إذا	أودعت أضيق ساحتيما
لا تجعلن حالي إذا	غيبت أبأس حالتيما

محمد الشريفني



الروح المعاصرة

وأثرها في أدبنا الحديث

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتصل بهم من عطاء الناس، إليهم يتزلف، وبوقائهم يهتم، ولاتمام رغائبهم يسرع. أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلما كانت تهمة أو تسترعي انتباهه. وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدمات قصائده أو خطرة خاطفة في بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره، فالمدح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه، والغزل أو العتاب لمن يجبه أو يلازمه، والفخر بنفسه أو بمشيرته. وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرة. بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء. انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحر إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة. وقد مرّت قرون قبل أن بمثت روحه ثانية تحرك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع. هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبين ولو بإيجاز كلي مدى أثره فيها.

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لا تزان جارية على سنة القرون الوسطى، وطفيفاً جداً كان تأثيرنا بالنضال المحتدم يومئذ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين، فظلت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي. وظلّ الإيمان بالله وبالآخرة راسخاً في نفوسهم. الله أكبر بيده نواميس الكون وآليه مصير الانسان، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوة إلا بديهيات لا تقبل مناقشة ولا تحتاج إلى برهان. وإلى ذلك يرجع

كل أدبٍ روحي في الأقطار العربية قبل الانقلاب الفكري الذي عم الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها .
فلما انتشر كتاب دارون في أصول الأتواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبق بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١) .
وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والايان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني (٢) والشيخ محمد عبده (٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الإسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوم ظاهر أفضاه مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظل هذا النزاع بين الطبيعيين والالهيّين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين ، ولعله لا يزال في بعض الأثناء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن ، هي نزعة التجديد ، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب يناهز بالحرية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الإلحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء » — كما يقول الدكتور صرّوف — افسد من هذا الوهم ولا أفج منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال ، فكم عالم من أشد الناس تديناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم (٤) .

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المقتطف

مج ٨ ص ٢١٢ — ٢١٩

(٢) راجع خاطرات الأفغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة ، المقتطف مج ١٠٥ (٦) المقتطف ٧ — ٥٦٥

هذا الأُدب الجديد أدبٌ فكري ومن مزاياه الشك في كل ما يناقض العلم أو يغفل العقل عن التقدم . ولا أقول إنه صدى لشعر المرعي ولكني أقول إنه يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحر المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسقى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنى لمفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بد في الإجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

« بيئة المرعي الفكرية » : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة — أي في إبان الحضارة الفكرية العربية . في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكرين . فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية . وكان من جراء هذا الاحتكاك تعدد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي . فتسرب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الإنكار أو اللأدرية ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن . ومن هؤلاء المرعي فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواءماً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل ، وفي نفسه الحساسية كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحر اصطداماً عنيفاً . حقاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتدأه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلا بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المعرّة . وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات (١) ما يدل على نزعتة منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس : « قد أخلقت الجسد فما تريدن ، اظنني عنه لا يحمدك في الحامدين . ما زلت أمل الخير وأرقبه حتى نضوت كمالاً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجه على نار الجاحب علمت أن الخير مني غير قريب . الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين ،

وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفر عن اليمين . ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المرعي إلى التأمل في النفس وتبعها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهّد والتعالّي عن سفساف الحياة (١) .

وقد زرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه ، إذ يقول عن مصير الأموات :

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم وان تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلاً فاني لم أعط الصحيح فأستغني
ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلا دور العزلة — دور اللزوميات ،
وفيه يظهر طابعه الروحي الخاص .

« طابعه الروحي »: ليست اللزوميات عند التحقيق إلا انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية . ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء والكتاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهنالك حياة ثانية أم لا حياة ؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والإيمان أم لا يتفقان ؟ . مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المرعي وكان لديها كالتقارب تتقاذفه اللجاج . فبينما تراه يقينياً يهاجم الجاحدين والمعتلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد
وقوله :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمي
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعماً
وقوله :

لا ريب أن الله حق فلتمد باللوم أنفسكم على مراتبها

(١) مع أبي العلاء في رحلته ص ٢١٥ - ٢٢٣

تراه يتابع اللا أدريين فيقف من الغيبات موقف المشكك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول :

دفعناهم في الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفقى ما قد طوى الله علمه يمد جنوناً أو شبهه جنون

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكون
يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
خذ المرأة واستخبر نجوماً تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور
والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فما لاشك
فيه أنه لم يصل إلى درجة الاتحاد فهو يقول بإله حكيم متعال عن البشر .
ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي .
ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها مخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني
لم يكن إلا نظر لا أدري متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .

٢ - تشاؤمه : وهو ظاهر في كثر شعره - كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وقوله :

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرم نال الإمارة بالحنأ وتقيمهم بصلاته متصيد
وجيلة الناس الفساد وضل من يسمو بحكته إلى تهذيها
ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة
ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية .
فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الإنسان ولد فاسداً وسيبقى
كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المرعي جبرياً وإلى أي حد ؟ وللجواب
عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية .

فالاولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الانسان غير مكلف وأنه لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الازل ، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشرعية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فبينما ترى الشاعر من جهة يقول بالقدر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحيّ رزق ما أناه بسميه وعقل ولكن ليس ينفعه العقل
 قضى الله فينا بالذي هو كأنّ قَم وضاعت حكمة الحكماء
 كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليلفن قضاءه المكتوبا
 ما حركت قدم ولا بسطت يد إلا لها سبب من المقدار
 قضاء بوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والاياسر
 ولولم يرد جور البزاة على القضا مكونها ما صاغها بمناسر
 وهل ألوم غيباً في غباوته وبالقضاء أته قلة الفطن
 وما دفعت حكاء الرجال حتفاً بحكمة بقراطها
 ولكن يمحي قضاء يريك أذا غيها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عاياً ينشدونها ويحضمهم على فضائل يمشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جادّ فيما يقول ، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الانسان على الخير . وإلا فما معنى طلبه الإصلاح الديني والاجتماعي وما معنى تقده حياة الافراد والجماعات ، ولماذا يدعوننا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضاً على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن المعري جبري إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الايام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نعم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري :
 فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطيع
 ولكن يأسه لا يمنعه عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب
 الحقيقي . فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمه يعارض الجبرية
 بقوله : إن كان من فعل الكبار مجبراً فمقابله ظلم على ما يفعل
 ٣ - الاخلاص : وهو من أبرز صفاته . فهو مخلص إلى العقل الهادي
 الوحيد في الحياة :

كذب الظن للإمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
 جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأناً ولكن فيها ضعف اسناد
 فشاور العقل واترك غيره هدرأ فالمقل خير مشير ضمه النادي
 ولا يعني ذلك أن المعري كان معتزلياً في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم
 بنقده جميع الفرق ، ولكنه كان كالمعتزلة في تعظيمه شأن العقل . ويظهر
 إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين . الاول : وضحي
 أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض ، وهذا باب للاختلاف بين الناس
 ولشهوة الحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :
 إن الشرائع ألفت بيننا إحنأ وأودعتنا أفانين المداوات
 والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب
 الفضيلة والتعالي عن الاطماع الضارة والشهوات الفاسدة :

وقد يكون في الوجه الوضحي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف
 كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري
 قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما
 يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية :

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فاعما دياناتكم مكر من القدماء
 أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبلدوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الافراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكم الصبهاء صباحاً ويشربها على عمد مساءً
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفقى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء
ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بمظاته متفقه في الدين يوجد حين يكشف طاهرا
ومع تفضيله الاسلام على سواء يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب
والفرق فيقول :

وكلنا قوم بسوء لا أخص به بعض الانام ولكن أجمع الفرقا
دين وكفر وأبناء تقص وفر قان ينص وتوراة وإحليل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من
إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى
الاضاع الخارجية . وإنما الامر عند الجوهر لا المرض — الروح لا المسوح —

فلا عجب أن نراه يخاطب الدين الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :
توهمت يا مغرور أنك دين عليّ يمين الله مالك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكا ويشكوك جار بائس وخدين
والذي يستسلم إلى اطاعه وشهوته :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له اطاعه لم يلف بالمتاسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :
الدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق إن وجبا
وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمس الدين في قلب الانسان وتصرفاته
لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في
موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة
بماله لاجل مصالحه ، لاسيدة مستبدة به تسومه العذاب وتمتع بما يجنيه
من مال . فيؤله أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة
ويصورم بأقبح الصور فيقول :

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
وقد يحمل المعري لإخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم
ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

ولا يستني نفسه بل يصرح بكل تواضع أنه جاهل :
الله يشهد أنني جاهل ورع فليحضر القوم إقرارى وإشهادى
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

أقررت بالجهل وأدعى فهمي قوم فأمرى وأمرم عجب
والحق أنني وأنهم هذر لست نجيباً ولا مُم نجب

علمي بأني جاهل متمكن عندي وإن ضيقت حق العالم

لقد علم الله رب الكمال بقلة عقلي وديني ومالي

دعيت أبا العلماء وذاك مين ولكن الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ؛
فاذا حبس المطر أو فاض فان الصلاة إلى الله مثلا لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقله حياه أو يزيد به السجم
فقولكم رب اسقنا غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والمجم
ومها يحاول الانسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فانه لا يرجع إلا
بالخية ولا بلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى حجراً يقول ولا هزبراً يغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً فأذاك تستمري وأنفك ترغم
وإذا كان الامر كذلك فعبث تملقنا بلخوارق واتكالنا على التدجيل
والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الاباطيل ، ومن العبث أن تقول
إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الانسان :

لم يسقم ربكم عن حسن فعلكم ولا حماكم غمماً سوء أفعال
وإنما هي أقدار مرتبة ما علق بساءات وإجمال

فالمرعي مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة
والابتعاد عن الغرور ونبد كل ما لا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في
عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنهه نفسه يرمونه بالكفر أو بتقوؤن عليه
ما عليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المرعي في القرن الخامس الهجري يعيش في جو قرننا الحاضر بل
نستطيع أن نعدّه من حكماء هذا القرن ومن رواد التفكير الروحي الحديث . ومن
يقراً أدبنا التأملّي اليوم ولا يراه مشعباً بالروح الملائية — روح الحيرة والتشاؤم
والاخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساويء
الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلا أنفسهم ولا يرون في
الأدب إلا ما يوصلهم إلى اغراضهم ، لكن المرعي وهو الاعمى قد أتى على الحياة
نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانهكست نظراته عن
بيئة قائمة كأنما هي أشمة تنفذ الينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو
النظرات التي زراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المرعي
بل أعيد القول أن شاعر المرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .

والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي الملاء

عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم . ولماذا؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العالمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تنهياً له بيئة تساعد على النظر الحر كما تنهيات له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة ، فإني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . ففي هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الاجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

« ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين » :
 إن أدبنا الفكري إزاء الروح الملائية بين عاملي جذب ودفع . الاول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجلده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ نشأتني خبرة مستقري
 فلم أشاهد غير ما حالة أرتني سوء بكل امري

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة - بدا خلّباً والشر ضربة لازم
 إذا ما رأينا واحداً قام باياً هناك رأينا خلفه ألف هادم
 وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلا صدّه ألف ظالم
 جهلت كجهل الناس حكمة خالق على الخلق طراً بالتماسة حاكم

ألا يمسك لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالانام ؟ وأمثال هذه الايات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الايتان به

إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصيح بمرارة اليأس :

أبي ! وفي النار مثوى كل والدةٍ ووالدٍ أنجيا لبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الجبل في عنقي يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

وهو ذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة الحديثة ، والمعنى في كتاباته باصلاح المجتمع . تجميعه أحياناً ساعات يقع فيها تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت ومالي في الحياة رجاء
وكنت إخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لؤماء
وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الاغاني
المرحة تحمل به أحياناً الروح الملائية فيصيح متظلماً من الحياة وأبنائها :
كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلبهم من الاضغان
وبعد أن يمدد مساويء الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة
إلى البكاء على الانسان وعلى طريقة المعري يصرح أن لا خير إلا في إخماء
هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضحج باللؤم أولى بانمحاء من صفحة الاكوان
وإنك لتحس بهذه الروح المتبرمة في كل الاقطار العربية - حتى في المهاجر
الاميركية ولعلمها بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خيالياتهم
الشرقية بالمدنية الغربية .

فجران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي
مواكبه يصرح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الاموات لو بصروا
والدين في الناس حقل ليس يزرعه إلى الاثني لهم من زرعه وطر
وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلا في الطبيعة

بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له. ومثله فوزي المألوف في قصيدته على بساط الروح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر .

وقد تجاوزت هذه الروح الملائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الأقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواها وتغلغلت في نفوس النشء الجديد. وكما تنبث روح أبي الملاء في عصرنا بالتشاؤم تنبث في الحيرة أو النزعة اللاأدرية . ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي « الطلاسم » وقصيدة الرصافي « من أين من أين يا ابتدائي » والزهاوي « حول الحقيقة » . ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة « في سر الوجود أو الحياة » :

لجة مزبدة أم نهر معتكر أم هو سيل

ما أمامي ؟ حيرة لا تنتهي ما دام هذا الليل

وقد فصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الإنكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها . فهو يقف هناك موقف المهكم من اليتيمين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى امر واقعي .

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض ، بالعمل دون العقيدة . ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر المصري في كل الأقطار العربية ، وهي أوضح من أن أمثل لها في هذا المقام . وقد دعت إليها دواعي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنظر الحر إلى الحياة . وأوقدها في الأدب حدثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل . فهذان الحدثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندفقة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام . وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالمعاصرة القومية . فالمعري لم يعن بهذه الناجية الخاصة ولم يكن في بيئته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت . أما الأدب الحديث فيجعل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور

الفارغة والانظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشبكت السياسة بالدين او الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب العننات الطائفية الحائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجيم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزوا كثير من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لاقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان . ومن أمثلة هذا الاسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها :

« الثورة الادبية » قال : (١)

« وأما الكهان يسادتي فهم أول من عاثوا في الارض فساداً . هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغدير . هم أول من استولوا على الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأبناء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الاديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الادبية . إلى أن يقول : « على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصب أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزت رعود دانيال في بابل . على تغريبات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون . »

وكما كان الادب الملائني ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الارلي وينفر من التدجيل والارهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الادب الحديث برغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والخيرة مسححة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بمقدرة الانسان على التقدم . وقد مرّ معنا أن المعري لم يكن جبرياً مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للانسان بشيء من حرية الارادة في التصرف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بمقدرة الانسان كما نراه في الادب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف

لوهن والتردد :

(١) راجعها في الريحانيات ٢ - ٤٣

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
 أما الشاعر الحديث فيتزعج إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى
 في الحياة ما يستحق السعي لاجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم
 قتمامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلا بإرهاق العزم واطّراح الخوف
 والإقدام على المصاعب . وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :
 انضُ عنك الحذار من حادث الدهر فليس الحذار ينفي فتيلاً
 إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلاً
 ويقول :

هو العيش كالحسنة تبفض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
 بدا لي أن لا سعد إلا تصبّر تقرّبه في التائبات صدور
 وعزم وإيمان وطبع وحكمة ورأي بآلاء الحياة خير
 فالكدّ والجراة وللصبر هي مفاتيح الحياة المثلى ، وإذا صح ذلك فالحياة
 التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جدرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً
 ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطّراح
 كل ما لا يقبله العقل السليم ، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا
 يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد للتخلص المطلق من كل ما يقيد
 النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المتردّد . ويمثّل لنا ذلك في جبران
 ومدرسته . فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل
 البناء الاثبت وهو التخلص من العوائق التي تموقنا عن النمو إلى ما هو
 أفضل (١) . وفي هذا الجهاد والسمي نحو الافضل تنكشف لنا معاني الحياة
 الحقيقية . فالألا أدوية الحديثة مع اعترافها بجهد الانسان للحقيقة ترى لزاماً
 عليه ابتناءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتناء والطموح تقوم دعائم
 العمران والتقدم .

ويكثر في أقوال المهديين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر
 موضعي تحصل عليه من الخارج . فالبعض يلتمسها في القناعة والبعض في

(١) راجع مقالة البنفسجة الطموحة في العواصف .

بساطة العيش والبعض في الاتجاه إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم (١) : « لذاتنا في الشوق لا في الوصال » ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله . أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي ، وأعلم غوته في روايته فوست هو أعظم من آثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين . (٢) ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حياً في نفوس المفكرين . ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبّي ولكن من سبيل آخر . فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي . ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحلي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان ، عن الشرائع والعمران ، عن الاكوان وما وراء الاكوان . ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواحٍ مختلفة من الفن الشعري ، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الاجيال . ولماذا ؟ أليس لانه يطعم شعره بطبايع الصراحة والاخلاص ، ولانه ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين :

فلتفعل النفس الجميل لانه خيرٌ وأحسن لا لاجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الاجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان ، وبادت أمم وبلدان ، ولكن روحه لا تزال حية لانها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان .

انيسى المقرسي

(١) يوسف خصوب في الفهم المجهول ١٤٩

(٢) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابا

فيض الحاضر ٣ - ٩٤ فهو حري بالمطالعة .)

الفئة السادسة

في دمشق

لما أصبح الاعضاء (يوم السبت في ٣٠ ايلول ١٩٤٤) ساروا في مدينة اللاذقية إلى الشارع الذي أطلق عليه اسم أبي العلاء ، بين دري الموسيقى وهتاف الشعب ، فزاروا دار الكتب الوطنية التي شيدها المحافظ ، وافتتحوا شارع أبي العلاء وساروا فيه .

ثم غادر الركب مدينة اللاذقية في الساعة العاشرة وسار إلى الجنوب مع ساحل البحر . فمرّ ببلدة باناس وقلعة المرقب وبلدة طرطوس حيث وقف قليلا ، ثم تابع سيره صوب الجنوب حتى بلغ حدود لبنان ، وعطف إلى الشرق ، فصعد في الجبال وبلغ بلدة تل كلخ . ثم أشرف على بحيرة حمص وحدائقها وسهولها .

وكان رئيس بلدية حمص السيد فيضي الاناسي ومحافظها السيد فؤاد الحلبي قد خرجا على رأس وفد من أعيان المدينة لاستقبال الركب . فساروا جميعاً في موكب عظيم وبلغوا مدينة حمص في الساعة الثانية بعد الظهر .

ولما دخلوا المدينة زاروا نخلة السيد هاشم الاناسي رئيس الجمهورية السابق فاستقبلهم في داره أحسن استقبال وأنسهم أطف إناس ، ثم خرجوا بعد ذلك معه إلى حديقة البلدية المعروفة باسم الروضة حيث أعدت لهم مدينة حمص مأدبة غداء فاخرة جلسوا في ظلال الأشجار وتجادبوا أطراف الحديث على مأدبة الطعام .

وتكلم على المائدة السيد فيضي الاناسي مرحباً بالاعضاء ، وتلاه الاستاذ عارف النكدي شاكرًا . ثم تكلم الدكتور عبد الوهاب عزام باسم الوفد المصري فقال : «علاء نفسي إعجاباً وروعة ونفاراً ، أن أقف على مقربة

من أعظم تمثال للبطولة المجاهدة المخلصة الطيبة . ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه . . . يا قومنا إن الفرصة قد سحقت ، والزمان ضنين بفرسه ، والفرص سريع مرورها ، فاحذروا أن تناموا وانخطوب يقظي ، أو تبطلوا والزمان يسرع ، أو تففوا والنلك يدور ، أو تهزلوا والزمان يجد ، ألا إن تكاليف المجد شاقة ومطالبه صعبة ، وغاياته بعيدة . ولكن في ضمان الغزائم المجتمعة ، وفي كفلة النفوس الأبية نذليل الشاق ، وتيسير الصعب ، وتقريب البعيد ، فاجمعوا أمركم ، واجمعوا كلمتكم ، وتقدموا إلى العمل بقلوب ملؤها الرجاء والامل ، ورؤوس ملؤها الحكمة والروية ، وأيد ملؤها النشاط والقوة . . الخ الخ . .

ولما انتهت مأدبة الغداء في الساعة الرابعة بعد الظهر رح الكعب مدينة حمص عائداً إلى دمشق فمر ثمانية ببلدة النبتك واستراح قليلا في حديقة البلدية ، ثم غادرها قبيل غروب الشمس فبلغ دمشق في العشاء .

وكان الدكتور طه حسين قد دعا أعضاء المهرجان والوزراء وأدباء دمشق وأساندها إلى مأدبة عشاء في فندق (اوريان بالاس) ، فألقى الاستاذ مهدي الجواهري أبحاثاً في مدح الوفد المصري دعا فيها الدكتور طه حسين واخوانه إلى زيارة العراق . ثم أخذ الأعضاء بأطراف الحديث عن رحلتهم وما نخلها من سرور ومشقة وإكرام وحنفاوة واخذوا بعد ذلك إلى الراحة في غرفهم . وفي الساعة العاشرة من صباح الاحد الاول من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٤ سار الركب إلى مصيف بلودان لتناول طعام الغداء على مأدبة المجمع العلمي العربي في الفندق الكبير ، ثم عاد منها في الساعة الثالثة بعد الظهر لحضور الحفلة الخطابية السادسة .

وبدئت الحفلة الخطابية في الساعة الخامسة بعد الظهر في بهو الجامعة السورية ، وهي ختام حفلات المهرجان تتابع فيها الخطباء على الوجه الآتي :

- ١ - الدكتور عبد الوهاب عزام لزوم ما لا يلزم :
عضو المجمع العلمي العربي مقى نظم ، وكيف نظم ورتب

- ٢ - الشيخ عبد القادر المغربي
 نائب رئيس المجسم العلمي العربي
 شيخ المعرة والشيخ الدرا
- ٣ - الاستاذ سليم الجندي
 عضو المجسم العلمي العربي
 دين أبي العلاء
- ٤ - الاستاذ هنري لاووست
 عضو المجسم العلمي العربي
 اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء
- ٥ - الاستاذ شفيق جبيري
 عضو المجسم العلمي العربي
 ذكرى أبي العلاء (قصيدة)
- وتكلم في هذه الحفلة بعض الخطباء ممن لم ترد أسماؤهم في البرنامج
 كالاستاذ فؤاد افرام البستاني ، والاستاذ عزمي النشاشيبي ، والدكتور عارف
 العارف ، والآنسة جهان الموصلية ، وسنثبت كلماتهم في الملحق :
 وتخلل الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق أبياتاً من
 شعر أبي العلاء وهي :

ومن لي بأني في جناح غمامة تشبهها في الجنج أم رثال
 تهاداني الارواح حتى تحطني على يد ريج بالفرات شمال
 فيا برق ليس الكرخ داري وانما رماني إليه الدهر منذ ليال
 فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
 إخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بحال
 أنبشكم أني على العهد سالم ووجهي لما يتنذل بسوآل

ولما انتهت الحفلة الخطابية في الساعة التاسعة مساء سار الاعضاء إلى
 قصر رئيس الجمهورية اجابة لدعوة نغامته فتناولوا طعام العشاء على مأدته .
 وتكلم على المائدة الشيخ بهجة البيطار فدعا إلى اتباع السلف الصالح في
 التشريع المدني الحديث ، ثم تلاه الاستاذ أحمد أمين فقال : « أبو العلاء
 شخصية من أعجب العجب . فهو يطمنا وبجوع ، ويجمعنا ويمتزل ، ويرمي

بالحجارة وزميه بالازهار ، وتسطم علينا روحه في هذا العصر متألقه بالحياة الجديدة . لقد كان في حياته يصف بؤس الناس ، ولا يريد أن ينغمس في شؤونهم . أما حياتنا الحديثة فتقضي أن نصف البؤس وأن نعمل لازالته . ولعل هذه الروح هي التي ترفرف علينا الآن .

« نحن لا نريد أن نمتزل كما اعتزل ، وان نصور ولا نتدخل في الحوادث ، ولكن نريد أن نتصور الحوادث ونعمل على اصلاحها وازالة شرورها . اننا نشعر أننا في عالم لا تنفع فيه الا الارادة القوية . في عالم لا تكفي فيه الاماني الطبية . وانما يحتاج الى العمل الطيب » .

ثم قال : « وأحب ان اقرر ان الشريعة الاسلامية سمحة لا تمنجر علينا ان نفهم العالم وان تكون نظراتنا الى الفروع نظرات مرنة . فالعالم تقدم في كل فرع من فروع الحياة ، والتشريع يجب ان يتشى مع العصر » .

ثم تكلم الدكتور طه حسين فقال : « اما انا فلم اقف لا يتحدث في هذه الموضوعات الخطيرة التي تحدث فيها الزملاء ، وانما لا ودي عنا جميعاً واجباً لا اشك انه احب شيء الينا . وهو ان نشكر لفخامة الرئيس الاول ما تفضل به من رعاية مهرجان ابي الملاء . ولا خلاف في ان مالقيه ابو الملاء في حياته من عطف الحكام أو غضبهم كثير ، ولكن الشيء المحقق ان حظ أبي الملاء بعد موته من الاضطهاد والاعراض عنه اكثر من المظف عليه والميل اليه . فاذا قلت ان حضرة صاحب الفخامة الرئيس هو اول زعيم عربي في العصر الحديث عطف على شيخ المعرة فشمّل الاحتفال برعايته الكريمة ثم افتتح المهرجان واختتم اجتماعاته ، ثم دعا الوفود الى قصره ليكرمها ، فانما أعبر عن شعور كل واحد منا » ثم اختتم كلمته بشكر الوزراء لما تفضلوا به من مشاركة اعضاء المهرجان في الاحتفال بأبي الملاء .

وارتجل فخامة رئيس الجمهورية كلمة شكر بها لاعضاء المهرجان جهودهم الطيبة في احياء ذكرى أبي الملاء وتوثيق اواصر المودة بين اقطار البلاد العربية فقال : « ان في مدينة معاوية ومدينة خالد بن الوليد ، ومدينة أبي الفداء ، ومدينة الحمدانيين وغيرها من المدن والقرى والداكر التي زرعناها لفكرة واحدة متغلغلة في

قرارات النفوس ، وهي ان هذه الأقطار لا تجب سوى الحرية ولا تفكر الا في العروبة والكرامة . وستبقى ذكرى المهرجان على مر الأيام منقوشة في الصدور لالاتها ذكرى أبي العلاء فحسب ، بل لانها ذكرى قدومكم الى ربوع الشام للحفاوة بالشاعر الثابتة والفيلسوف العبقري أبي العلاء المعري . واذا عدتم ايها الاخوان الى بلادكم فاذكروا ان هذه البلاد التي عانت من صروف الدهر وجور الزمان ما تمجذ الامم عن حملته تريد الآن أن تحيا سيدة عزيزة حاكمة نفسها بنفسها فخورة بماضيها وأمجادها ، وانها تريد أن تبقى حرة مستقلة . ونحن اليوم على وشك تحقيق فكرة بلذ لنا ترديدها ، لانها هدفنا ، وغايتنا التي نسعى اليها جميعاً . وهي انه لاحياة لبلادنا الا اذا اتحدت الامة العربية بآمالها وآلامها واهدافها . وكما انها ذات تاريخ واحد وتقاليد واحدة فكذلك تريد أن تكون ذات ثقافة واحدة وسياسة واحدة . ولقد ادركنا في اجتماعكم هذه الوحدة الثقافية كما بلغنا في الماضي الوحدة الأدبية . وستتحد سياستنا بحول الله في اجتماعات الاسكندرية . فلکم منا اجمل الشكر وللذين يجتمعون لأن في الاسكندرية التحيات الطيبات وخالص الاماني . والله نسأل ان يأخذ بآيدينا لنصل الى ما نصبو اليه نفوسنا من آمال ودرجات .

وكان ختام مهرجان ابي العلاء في منتصف الليل من اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٤ .

صميل صديا



لزوم ما لا يلزم

متى نُظِم وكيف نُظِم ورتب

عنيت بأبي العلاء المرعي ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تليداً . وما زلت
معنياً به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجل
عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المرعي ، وكتابة
من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ما سألت الأدباء وسألت نفسي : متى نظمت اللزوميات وكيف
رُتبت ؟ أخطأ الشاعرُ خطئها ثم نظمها ولاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فأراه
فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ما تضمنه أبيات على رويِّ الهمزة مقدم زماناً على
ما يذكر في أبيات على رويِّ الباء وهلم جرّاً ؟ أم نظم الرجل ما نظم ثم رتبه على
حروف الهجاء ، فقدم متأخراً وأخر متقدماً ، مسaire للترتيب الهجائي ؛ فما يعرف
المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا ما دلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا
يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان ؟ وكنت أقول إنه لا بد للمؤرخ
أبي العلاء من إن يفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان
أو غير مرتبة .

فلما دعاني المجمع العلمي العربي إلى شهود الاحتفال بذكرى أبي العلاء بمد
مرور ألف عام على مولده ، وسألني عن الموضوع الذي أوتر الكلام فيه في هذا
الاحتفال ، اخترت أن أتكلّم في تاريخ اللزوميات وترتيبها . فأعدتُ قراءتها
مستوعباً ، متقصياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ،
والتي تذكر فيها سنُّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة .
وراجعت مآثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه . فاتميت إلى القضايا التي
أسجلها فيما يأتي :

المبحث الأول

متى نظمت اللزوميات

- ١ -

جمهرة شعر أبي الملاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهجا وتنزل ورتى ووصف الخ .

وقد قال أبو الملاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في ربان الحدائة ، وجن النشاط ، ماثلا في صفو القريض ، أعتدته بمض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البلوغ . ثم رفضته رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيده كذب ، ورديته ينة ص ويجدب . »
وقال مستملى أبي الملاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الادباء :
« من غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » ،

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربع مائة . وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بها القاضي ابن نصر المالكي ، ومرثية جعفر بن علي بن المهذب .
والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم ما لا يلزم » .

- ٢ -

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي الملاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطها ، وتكلف لها ماتكلف من لزوم ما لا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :
« كان من سوائف الاقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، وزهتها عن الكذب والميط . ولا أزعها كالسمط المتخذ ، وأرجو ألا تحسب من السميطة . فمنها ماهو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . الخ » .
وقال في المقدمة كذلك :

« وقد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث كلف :
الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها .
والثانية : أن يجيء رويّيه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .
والثالثة : أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من
الحروف » .

فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظام في القوافي ، وترتيب على الحروف
وحرركاتها . وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل . وهي خطة
تسلى بها في عزلته . فينبغي أن يكون تاريخه متصلاً ونظمه متواليًا .
وانا ادعي أن ماتضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبي العلاء في عزلته
بعد سنة أربعمائة ، وان هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بمد هذه
السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال في مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال
في مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت في كلام لي قديم إنني رفضت الشعر .
رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته . والغرض ما استُجيز فيه الكذب ،
واستمين على نظامه بالشبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ،
وأمرراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جباوا على انفس والمكر ، فهو
إن شاء الله مما يلمس به الثواب » .

فهذا النظم الذي توخى فيه العظة والايقاظ كان بمد النظم الذي جرى فيه
مع الشعراء ثم رفضه رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته .
ودليل آخر أنه ذكر سنه في كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ،
ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمائة ،
إلا بيتاً واحداً في هذه القطعة :

إذا هبت جنوب أو شمال فأت لك مقتاد جنيب
رويدك إن ثلاثون استقلت ولم يُنب الفتى فمتى ينب

واخطاب في هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر وإما أن يكون بعض
اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون

هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزاه الاعتزال ، وكانت سنه حينئذ سبعمائة وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربع مائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع بنظم الزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر في الزوميات - كما فعل في سقط الزند - رحلته إلى العراق أسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، في غالب الظن ، لا يقال بعد مضي سنين كثيرة على هذه الرحلة :

وما بيَ طَرَقَ للمسير ولا السُرى لاني ضرب لا تضيء لي الطُرق
أغربانك السجم استقلت مع الضحى سوانح أم مرّت حمائمك الورق
رحلتُ فلا دنيا ولا دين نلته وما أوتيتي إلا السفاهة وألحرق

يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى أُنِي رَجَعْتُ إِلَى هَذِي الدِيَارِ وَلَمْ أَهْلِكْ بِيغْدَادَا
إِذَا رَأَيْتَ أُمُورًا لَا تَوَافِقُنِي قَلتِ الإِيَابُ إِلَى الْإِوَطَانِ أَدْنَى ذَا

شُئِمْتُ يَا هَمَّةَ عَادَتِ شَامِيَةَ مِنْ بَعْدِ مَا أَوْطَنْتِ عَصْرًا بِيغْدَادَا

وأزيد على هذه الأدلة أن أبا العلاء ذكر سن " الاربعين في الزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث .

— ٣ —

إن كان المعري شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجوعه من بغداد أو بعد رجوعه بقليل فكيف استمرّ ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التي كتب ؟

يمكن أن نجيب هذا السؤال بوسيلتين ؛ الأولى تتبع الحوادث التي ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم في شعره . والثانية استقراء الأبيات التي ذكر فيها سنه .

(١) الحوادث والرجال :

١ - أولاً : بنو عامر وطبي :

يذكر أبو العلاء قتنا وخطوباً أنارها بنو عامر وطبي في الشام وما حولها ، ويسمي بمض رجالهم في مواضع كثيرة ، منها :

إذا عامر تبت صالحا وزجت بنو قرة الحردبا
وأردف حسان في مأنج متى هبطوا مُخصباً أجديبا
وإن قرعوا جيلا شاعخاً فليس يُمنف إن يجديبا
رأيت نظير الدبا كثرة قديرهم كميون الدبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبني كلاب سمو بالبلاد غزة والمريش
ولو قدروا على الطير الفوادي لما نهضت إلى وكر بريش
ويذكر طيئاً وزعيمها حسان في قوله :

قد أشرعت سنبس ذوابلها وأرهفت مُبجتر معابلهما
لفتنة لا تزال باعثة راحمها في الوغى ونابلها
حسان في الملك لا يحس لها تزجي إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حلبا حازها صالح وجال سنان على جلاقنا
وحسان في سلفي طبي يصر من عزه أبلقا
فلما رأيت خيلهم بالغبار ثغاما على هامهم معلقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد مُخلقا الخ
وقد رثي للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :
والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون ققارا

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا والملك في مصر يمتقارها (١)

(١) الملك في مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (٢١١ - ٢٢٧) فهو يلوم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تبت في الأرض وهم لا همون بتعتبر فارات المسك يطيبون بها لا بعقر الفوارس . والعتر الذبج .

جعلوا الشفار هواديا لتنوفة مرهاء تكحل بالدجي أشفارها
تكتبو زناد القادحين وعامر بالشام تقدح مرخها وعفارها
ويقول :

أيا قيلُ إن النار صال بجرها مقيمُ صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشمشاء شيبٌ وولدة أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم قبل مارست من ظلمها ماتارس
وأحسنُ منكم في الرعية سيرة مُطفجٌ بن جف حين قام وبارس
وقد ذكر المعري هذه الحادثات في سقط الزند كذلك ، إذ قال في القصيدة
التائية التي بعث بها الى علي التنوخي بعد رجوعه من العراق :

بيني وبينك من قيس وإخوتها فوارسٌ تذر المكثار سكينتا
ويقول في القصيدة الطائية التي أرسلها إلى خازن دار العلم بغداد وهو محتجب
بعمره النعمان :

وما أذهلتني عن وداك روعة وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائية عامرية يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرائها إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعانون مازال للقنا مع الشيب يوماني عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم وج يتحنى أن فارسه سقط
ونبالة من مُبجتر لو تعمدا بليل أناسي النواظر لم يخطوا

فما هذه القن التي ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية في أواخر القرن الرابع وأوائل
القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والامراء المتنبلين من بني حمدان
ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلاي
صاحب الرحبة على حلب في هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب
ودت حاباً إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز
الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قبلهم ابن شعبان طمع صالح بن مرداس في
التغاب على نواب الفاطميين فخالف اثنين من رؤوس العرب هما حسان الطائي

وسنان بن عليان الكلبي واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر ، فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسان . وذلك سنة ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعري التي تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها في العقد الاول من القرن الخامس ومعظمها في العقد الثاني . فهذه الابيات قد نظمت كذلك في هذين العقدين ولا سيما الثاني منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس في اللزوميات مرات آخر لحادث آخر كان له في نفس المعري أثر باق .

تقل ياقوت عن أبي غالب بن مهذب المعري في حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يقتصبها نفسها . فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) في نواحي صيدا فوصل الامير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأي وزيره تادرس بن الحسن الاستاذ . وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغني أنه دعي لهؤلاء المعتقين بآمد وميما فارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو الدلاء المعري إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الاجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار المانع اشتد هجيريه وطاب برداه ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه . خذ الففو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبتم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه . »

ونقل ياقوت أيضاً عن القفطي أنه وجد على ظهر ديوان الاعشى في مدينة قنط سنة ٥٨٥ ما يأتي : « حكي أن صالح بن مرداس صاحب حاب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد في الحصار لاهائها . فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي العلاء لعجزهم عن مقاومته لانه جاءهم بما

لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلامي الأمر بالخروج إليه بنفسه وتدير الأمر برأيه إما بأموال يبذلونها أو طاعة يعطونها ، فخرج ويده في يد قائده وفتح الناس له باباً من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فحيثوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ثم قال : الامير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ .

وهذه الحادثة ذكرها المعري في موضعين من اللزوميات في حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تفتيت في منزلي برهة	ستير العيوب فقيده الجسد.
فلما مضى العمر إلا الاقل	و"حم" لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح	وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام	وأسمع منه زئير الاسد
فلا يعجنني هذا النفاق	فكم نفقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب في قيص مموه	فأكون شارب حنظل من حنضل
نجي المعاشر من برائن صالح	ربُّ يفرج كل أمر مُعضل
ما كان لي فيها جناحُ بعوضة	والله ألبسهم جناحَ تفضل

فباتان القطعتان نظمتا في حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمه لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً - يذكر الشاعر « محموداً » في مواضع كثيرة يقول :

يسلك محمود وأمثاله طريق خاقان وكنداج

أسر إن كنت محموداً على خاق	ولا أسر بأني الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان - يمهدها	وإنما هو بعد الموت جهود

لا كانت الدنيا فليس يسرني	أني خليفتها ولا محمودها
---------------------------	-------------------------

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

من محمود الذي كرر المعري ذكره وجمله مثلاً في الملوك وقال إنه لا يسره أن يكون في منزله ، وإن الدهر سيبتش به كما ببتش بالضعفاء ؟
في تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى في تلك النواحي ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح بن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ وخلع في السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الامارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بمد وفاة المعري .

ولا أدري لماذا أثبت الشيخ الميمني البيت الاول : « يسلك محمود . . . الخ » اول فصل من كتابه عن المعري عنوانه : « هو ووزير محمود بن نصر بن صالح » . نقل في هذا الفصل ما يقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعري وخلص المعري بالدعاء . وهي خرافة مروية نفاها الشيخ الميمني وقال إن محموداً تولى بمد وفاة المعري كما قلت . فهل الميمني ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذي في البيت هو حفيد صالح ذكره المعري قبل توليه الملك ؟ لأدري لماذا أثبت هذا البيت في فاتحة هذا الفصل .

والذي أراه أن محموداً الذي أكثر المعري ذكره هو سلطان ذاع صيته في ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يعين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه المعري بالخليفة في البيت :
لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى الملك من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الايات التي تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب لان المعري يذكره ذكر الاحياء ، ويقول : « سيموت محمود . . . الخ » . ويزيد هذا وضوحاً أن الشاعر يقول في اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والسمود خائفه فمدت عن ذكر محمود ومسمود
ملكنا لو أنني خيرت ملكهما وعود صلب أشار العقول بالمود
ومسمود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بمد أن ظفر

بأخيه محمد . وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقي وأخوه مسعود فقد ملكا في القرن السادس الهجري .

رابعاً — كان أبو القاسم المغربي الوزير ممن أقام بالمرّة وكان يواد الميري ويراسله ، وكان الميري يحفظ له ولايه من قبل أيديه . فلما توفي رثاه بأبيات مثبتة في اللزوميات . ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحاً صريحاً :

ليس يبقى الضرب الطويل على الدهر ولا ذو العبالة المرحاه
يا أبا القاسم الوزير ترحل ت وخلفتني ثقال رحاه
وتركت المكتب الثمينة للناس وما رحى عنهم بسحابه
ليتني كنت قبل أن تشرب الموت أصيلاً شربته بضحابه
إن نحتك المنون قبلي فاني منتحاهها وإنها منتحاه
أمّ دفر تقول بمدك للذا ثق لا طعم لي فأين فحاه
إن يخط الذنب اليسير حفيظاً فك فكم من فضيلة محابه
وهذا الوزير توفي سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت في هذه السنة .
خامساً — يقول الميري :

أم ترني وجميع الانام في دولة الكذب الذائل
مضى قيل مصر إلى ربه وخلى السياسة للخائل
وقالوا يعود ققلنا يجوز بقدره خالقنا الآئل
اذا هبّ زيد الى طيء وقام كليب الى وائل
أظن أن قيل مصر المعنى في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطمي ، فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر أن هذه الايات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن الميري في اللزوميات :

يذكر الميري سنه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الانسان كذا آن له أن يعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصياً الايات التي يذكر فيها سنه ؛ فاذا هو يذكر الاربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً

ولا يذكر ما دون الأربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر
السبعين مرة سأبتها من بعد .

يقول في الهزبية التي افتتح بها اللزوميات :

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُص لي بين النجوم خباء
أراييك في الود الذي قد بذلته فأضعفُ إن أجدى لديك رباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الأربعين صباء

* * *

ويقول :

خير الحياة شروورها وسرورها من عاش مسدة أول المتقارب
وإني بذلك أربعين فإله عذر إذا أسمى قليل تجارب

* * *

ومنى سرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

* * *

ورميت أعوامي ورأيت مثل ما رمت المطي مهامه السفار
وركبت منها أربعين مطية لم تخل من عنت وسوء نفار

* * *

شربت سفي الأربعين تجرعا فيا مقرأ ما شربه في ناجع

* * *

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه باغ ثمانياً وأربعين :

عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلكا
فاذا بلغت وأربعين ثمانياً فحياة مهلك أن يوسد هالكا

وأما ذكر الحسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الأربعين منية ووجدان حلف الأربعين فقود
فإني وقد أدركت خمسة أعقد أيني وبين الحادثات عقود ؟

* * *

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خسرًا فالنية لي ستر
وما أتوقى ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن يحل بي الهتر

* * *

إذا طلع الشيب المسلم فحيه ولا ترض للمين الشباب المزوروا
لقد غاب عن فرديك خمسين حجة فأهلا به لما دنا وتسورا

* * *

وما العيش إلا لجة باطلية ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها

* * *

أخمين قد أفنيها ليس نافعي بتأخير يوم أن أعرض على خمس

* * *

لاخير من بمد خمسين انقضت كمالا في أن تمارس أمراضا وأرعاشا

* * *

خسون قد عشتها فلا تمش والنمش لفظ من قولك اتمش

* * *

علقت بجبل العمر خمسين حجة فقد رث حق كاد ينصرم الجبل

* * *

كأنك بعد خمسين استقلت لولدك ، البناء دنا ليهوى
وقد ذكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف
والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :

من عاش سبعين فهو في نصب وليس في العيش بعدها خيره

رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد كما
قلت آنفاً . وقد عرفنا أنه ذكر سن الاربعين والخمسين كثيرا ولم يذكر
الستين قط على برمه بالحياة وتمجده الموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات
لاكثر ذكرها — فساغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الاربعين
إلى أن يتف على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يعن بها نفسه .

وإن قدرنا أنه المعني بها فقطمة أو قطع قليلة نظمت بعد وألحقت بهذه المجموعة التي نظمت كلها أو جلها في السن التي قدّرتُ .
ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هذا التاريخ .
وقد رثى الوزير المغربي الذي توفي سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفي سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في الازوميات تقع في العشرين الاولى من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الاحياء هلك حول هذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١ .

واما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، ولم ينظم إلا نادراً .

وأعزّز بأمر يستأنس به مضموماً إلى الأدلة السابقة ، أن أبا العلاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يدرك بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي معنياً جسدي رأسي أحم وظهري غيرُ منأطر

* * *

غرك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كلفتني شيمة عصر ، ضى هيات منك العصر السالف

* * *

يا مفرقي هلا ايضضت على المدى فما سرني أن بت أسود حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيه لونه بفود الفق والله يعلم ذلكا

* * *

تأخر الشيب عنى مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حضرا

* * *

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيب رأسه وبياض شعره ،
مثل قوله :

نننا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ منتاب

* * *

كانت مفارقُ جِون كأنها ريشِ غِربه
ثم انجلت فمجبنا للقرارُ بَدَلِ صِربه

* * *

أَذِيبْ فيكمُ أيامِ شِبي كما أذِيبْتُ أيامَ الشِبابِ

* * *

قد شاب رأسي و من نبت الأثرى جسدي فالنبتُ آخر ما يمتصو به الزهر

* * *

أيها الشيب لا يريك من كفي مقص ولا يواريك خطر
إن نهيت النفس اللجوج عن الأثْمِ وطابت فإنما أنتِ عطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى شاب .
وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها قبل
الاربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها بعد الخمسين لما ذكر
المفرق الحالك والشعرات السود . ولا يجوز أن يدعى أنه نظم قبل الشيب
واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الأدلة الأخرى
على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو الملاء فرغ من نظم اللزوميات أو كاد
حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرما ، وطول الثواء متمملا ، وذكر
ذنو الاجل وقرب الرحيل ، وسقوط الاسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أتى لمفاصلي أن تسقبد بضمها صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يرث جبلي إلى أن حان للعرس انقطاع

* * *

أعلل مهجتي ويصيح دهري ألا تغدو فقد ذهب الرفاق

* * *

تخلفت بعد الطاعنين كأنهم رأوك أبا وهن فما حملوكا

* * *

أيتها النفس لاتهالي شرخي قد مر واكتهالي
لم يبق إلا شفاً يسير مُقرب من موردي نهالي

* * *

فهي أخذت منه الليالي وإنني لأشرب منه في إناء مثلم

* * *

رب متى أرحل عن هذه الدنيا فاني أطلت المقام
هذه الابيات وأشباهاها تصدر عن الشيخ همم ، بلغ أرذل العمر ، وذهب
جيله وبقي وحده . ولكن المعري له شأن آخر ، فهو يبرم بالحياة في
عنفوانها ويقول :

شربت سني الاربعين تجرعا . فيا مقراً ما شربه في ناجع
وبرى ان الحياة بعد الاربعين موت ، والوجدان فقد .
حياتي بعد الاربعين منية . ووجدان حلف الاربعين فقوم
فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، وبرمه بالحياة لا يدل
كل حين على الشيخوخة أو الهرم .
وأما قوله :

فهي أخذت منه الليالي وإنني لأشرب منه في إناء مثلم
فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قد رت أنه نظم فيها الكتاب .
وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان ، وقد تقدم
إليه باختصار كلية ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ،
ولما يبلغ أبو العلاء الخمسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميات

- ١ -

وضع أبو العلاء خطة هذه المنزومة متكلفاً فيها ثلاث كلف كما قال في المقامة :
 أن يلتزم في قوافيه حرفاً لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، وأن
 يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .
 وقد تبين من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هذا النظم وون تاريخ
 الرجال الذين ذكروهم ومن الأسنان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي
 لا يسير الترتيب الزمني . أنظر إلى روي الأبيات التي أثبتنا فيما تقدم ، وإلى
 تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسنان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فلا
 يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلاً ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة
 في حرف الميم ، وينبغي ألا ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء
 في لزومياته .

- ٢ -

ودليل آخر : أن كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق
 في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحياناً . فلو أنه نظمها ولاء لم
 يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعة واحدة ، ولو نظمها
 قطعاً متوالية لم يُجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني ، فليس الفصل
 بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متوالتان على الميم المضمومة :

العقل يجبر أنني في لجة من باطل وكذلك هذا العالم
 مثل الحجارة في المعظات قلوبنا أو كالديد فليتها لا تالم

ويليها :

لم تلتق في الأيام إلا صاحباً تأذى به طول الحياة وتالم
 وُيمد كونك في الزمان بلية فاصبر لها فكذلك هذا العالم

ويقول من قطعة في حرف القاف :

مرازبُ كسرى ماوقت مهجة له وقيصر لم يمنع رداه الطارق
وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الأيام كسرى وحوله مرازبه أو قيصر وبطارقه
فلو أن القطعتين نظامتا ولاء ما كرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، وإبروي وحركته أو
سكونه فكثيرة لا تحوج إلى التمثيل هنا . والامر كله أئين من أن يطال
فيه الكلام .

- ٣ -

وهنا نسأل : إن كان أبو العلاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات
فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد
نظم على الروي والحركة اللتين تعنان له دون أن ينتقل من حرف إلى ما يليه
ومن حركة إلى ما بعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟
لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يكتب كل حرف
في فصل على حدة ، وكان يستعيد قوافي هذا الفصل فيكمل نقصه حتى
كملت الحروف والحركات . وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على
غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب .
فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتبته وأكمل نقصه . وبهذا يشعر
قوله في المقدمة : وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب
فائشاء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والضاد المضمومة ، والطاء الساكنة ،
والهاء الساكنة ، لم ينظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم
لإيقاظ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة .

- ٤ -

نظم أبو العلاء ملتزماً ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب
كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :
« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً ؛ لكل

حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الالف وحدها فلها فصل واحد ، لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبه إليه المرعي . وهو يسر على الباحث عن الآيات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات . ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبجدر عند العروضيين .

ف نجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبجدر بينها على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبجدر الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذي يبحث عن قطعة أو بيت على الرء المفتوحة — مثلاً — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في آيات الرء المفتوحة كلها ، بل يطلب البحر الذي فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الرء المفتوحة . وذلك يسير إذا عرف ترتيب الأبجدر في العروض وهو أمر أمم .

* * *

هذا ما بدالي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بداله ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليفضل مشكوراً بالأدلاء برأيه والإبانة عن حجته . وكنت همت أن أتبع هذا البحث بنظرة شاملة في موضوع اللزوميات وترتيب أمهات الآراء فيها مسلسلته ، ولكن عدائي عن هذا طول البحث وتجاوزه الحد الذي يحده ضيق الوقت وكثرة المتكلمين في حفلات أبي العلاء . ولعلي أضمه إلى هذا البحث من بعد ليكونا بحثاً جمعاً مستوعباً اللزوميات : تاريخها وترتيبها وموضوعها . وبالله التوفيق .

عبد الوهاب عزام

شبع المصرة والشبع المدرا

موضوع كلتي ايها السادة لا يتعلق بأبي العلاء نفسه . وإنما يتعلق بوصف كتاب مخطوط دمشقي له علاقة بآثاره . وتفسير أشعاره . وهو موضوع على قلة شأنه بالنسبة إلى موضوعات الافاضل الذين تكلموا في هذا المهرجان الالفي — فيه جدّة تسوّغه . ونسبة دمشقية تروّجه . وشي من مفاجأة يشفع به .

على أن موائد العلم كموائد الطعام . لا تستطاب ما لم تعدد ألوانها . وتباین طومها . ويجد كل من الآكلين ما يلذ له منها .

وإن كان شاعر بني عبس شكا شعراء زمانه الذين لم يفادروا له متردماً برّعة فان المتكلمين من خطباء وشعراء في هذا المهرجان تركوا لي — من فضلهم وعن غير اختيار منهم — متردماً رتقته . وشتاناً لمتته . وخبراً من أخبار أبي العلاء . جئتكم به أمشي على استحياء .

* *

إذا وازنا بين ما تركه لنا أبو العلاء من ثروة في أدبنا العربي وبين ما تركه غيره من أدبائنا الاقدمين وجدنا بطل مهرجاننا قد تقدمهم . وأبرّ عليهم . وكان له السبق خاصة في ثلاث خصال :

(١) أخطبته المبتكرة في المعاني .

(٢) أسلوبه القصصي^(١) في ايراد أبحاثه اللغوية والادبية .

(١) هنا موضع التساؤل أو التعجب من أبي العلاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل حوار خيالي بين عدة أشخاص أو بين الطير والحيوان واللائكة أحياناً : فن تصفح اسما . اكتب التي صنفها علماء حاشوا في زمن أبي العلاء وقبل زمنه وبعد زمنه لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الأسلوب الخيالي : فبين مصنفاته [أدب الصوفيين] [مُخطب الخيل] [رسالة الضمير] [رسالة على لسان ملك الموت] [جمع الحائم] [الصاهل والشاحج] [كتاب القائب] قالوا انه على مثال كتاب كلية ودمنة [رسالة الفران] [رسالة اللاشكة] -

(٣) نقده الجري للأنظمة الاجتماعية الفاشية في زمانه .
 على أن آثار أبي العلاء ليست كلها سواء في حسن السياقة . ولا في
 قرب تناول . ولا في الفائدة والامتناع : فسقط الزند شعر ولا كاللزوميات .
 والفصول والغايات ثر ولا كرسالة الغفران . حتى أن أبا العلاء نفسه كان
 يانف من نسبة أشعار (سقط الزند) إليه . أو أن تقرا عليه . أو أن
 يتمثل بها لديه . وكان يسمى سقط الزند (ديوان الصبي) بينما كان يسمى
 شرحه على اللزوميات (راحة اللزوم) .
 ومن بين هاتين التسميتين يمكننا أن نستخرج اعتراف أبي العلاء نفسه
 ببداعة لزومياته . وتختلف ما عداها .

— وهي على شكل رسالة الغفران غير أن رسالة الغفران أوسع منها خيالاً . وأتمم امتناناً . وله
 كتاب باسم [تظلم السور] وهذه التسمية تشير بأن سور القرآن تتشاكى وتظلم من بعض
 النبي . كل هذه الصفات مما وضعه أبو العلاء . وهي تدل على أن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً
 في فن القصة لم نهدمه في غيره من عباقرة المؤلفين الذين طاشوا في زمانه ومثل بيثته فمن ورث
 هذا الميل يا ترى ؟ وكيف تسرب الى نفسه ؟
 نعم ان شروط فن القصة في آثاره الخيالية هذه لم تتوفر بتامها فيها لكن نواتها قد وجدت
 فيها مستوحاة من طبع أبي العلاء وغريزته العبقرية .
 يخاطر لي أن هذا الميل في أبي العلاء ان لم يكن تسرب الى طبعه من القرآن الكريم فقد تسرب
 اليه من الفرس فقد كان له « كما يظهر من ترجمته ومجموع أخباره » زوار وخلاص . وثلايد
 منهم : أشهرهم الخطيب التبريزي وكان تلميذاً له ويظهر أن المرة كانت إلى عهد قريب منزلاً للعجاج
 والزوار الإيرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولاثر في جامعا منسوب الى سيدنا الحسين .
 ومن أشهر من زار المرة في زمن أبي العلاء من الفرس « ناصر خسرو » الرحالة الفارسي
 العظيم وقد وصفها ووصف أبا العلاء في رحلته التي سماها [سفرنامه] فلا جرم أن يكون أبو العلاء
 — وهو الذكي الأملح الترف اللذيق — عرف من هؤلاء الطراف الفارسيين شيئاً ولو قليلاً
 من أدب الفرس وتخييلات شعرائهم وأسلوبهم القصصي في مصنفاتهم . وما نفس لا نفس [كليلة
 ودمنة] و [شهنامة الفردوس] . ومن كان في ذكأ أبي العلاء لا يعوزه لاجل التأثر والمحاكاة
 أكثر من هذا القليل حتى تقيض قريحته بالكثير مما كان على نمطه ومضروباً على غرار . ويمكن
 أن تبدأ مقامات البديع الهذلي من جملة الآثار الخيالية التي تأثر بضمائنها أبو العلاء : فهي
 — وان كانت عربية في مولدها — فارسية في مجتدها . إذ أن البديع فارسي البرق : كان
 يقيم بهرات ومات فيها . وكان ماضراً لأبي العلاء : جمها بديع الشباب وطاش المرمرى بعه
 أكثر من نصف قرن .

إذن يصح القول بأن أبا العلاء ليس سوى لزومياته : فهي التي لم يفر فيها قرينة أحد . ولم يُلبهم في عمق تفكيرها إلهامه أحد . بل هي التي سجلت له حق الخلود من جهة . وكشفت لنا عن أسرار مجتمع زمانه من جهة أخرى . وقد نبهنا هو نفسه إلى صنيعه هذا منذ قال :

(ومن تأمل أقوالي رأى جملاً يظل فيهن سرّ الناس مشروحا)
وهل يريد بسر الناس إلا ما زیده بقولنا : (أسرار المجتمع) (أسرار الوجود) (نواميس الاجتماع) (طبائع العمران) .

* *

ومن مواضع العجب أن أحداً من فحول العلماء لم يتصدّ للزوميات فيشرحها كلها (١) شرحاً يستوعب فيه جميع ما دفن فيها من كنوز . واستتر تحت ذيلها من رموز .

ولو تصدى متصدراً إلى شرحها على النحو الذي وصفنا لمذبحنا من واسع علمه (دائرة معارف) تحيط بثقافتنا العربية الاسلامية من جميع جهاتها . ولكن هذه الاحاطة تحتاج إلى عيلم (انسكلوبيدي) عام في مناحي علمه . شامل لكل فن ومطلب في اتساع ذرعه . وعمق تفكيره . ولا ندري ان كان أمثال هؤلاء العيلم تركوا شرح اللزوميات تهيئاً للعمل ؟ أو تأثماً من العمل ؟ لا جرم أن في اللزوميات ما يتفعل منه الورع المتزمت . ويقطب عند سماعه المسلم المتشدد . أما ديوان (سقط الزند) فلا يكاد يوجد فيه والحمد لله ما يحول بين المرء وقلبه . أو يلقنه الشك في ربه . ولذا أكثر شراح السقط . وقل أو فقد من شرح اللزوميات .

* *

(١) بلاننا أخيراً أن قد شرح بعضها أبو عبد الله الطليوسي . ويوجد من شرحه هذا بعض أوراق في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وبعض فرائد من الدرر المذكور في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس .

وعلى قاعدة (ازهد الناس في العالم وأهله وجيرانه) زهد الجيران والاقارب في وضع شرح على السقط : أولئك الجيران والاقارب الذين عناهم أبو العلاء بقوله في (سقط الزند) :

(أخواننا بين الفرات وجمائق يد الله لا خبرتكم بمحال)

وقام الابعاد يشرحونه . ويتفننون في التعليق عليه . وإيضاح ما خفي منه : فشرحه التبريزي والرازي والخويي^(١) والايوردي والواحدي والاحسيكتي والحوارزمي^(٢) وهؤلاء كلهم مشاركة . وربما كانوا أعاجم أيضاً . وشرحه من المغاربة الاندلسيين القادسي والبطلوسي^(٣) ،

ونسأل الجيران عن سبب زهدهم في شرح ديوان جارهم . فيجبنا الاستاذ عباس الغزاوي البغدادي عضو مجعنا العالمي بأن لديه شرحاً للسقط ألقمه سنة ١٢٧٧ هـ أحد أدباء العراق : وهو ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي وسماه (نفع الزند) وقد قرظ هذا الشرح أمين أفندي الجندي مفتي دمشق الشام . وأسرة الحيدري أسرة علم في بغداد كانت . أما اليوم فمن أبرز شخصياتها السياسيين معالي (داود الحيدري) وزير العراق المفوض في لندن .

وأتم يا علماء القطر الشامي ؟

يجيبنا صاحب كشف الظنون بأن ابن الرازي الحموي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ)

له شرح على سقط الزند .

وأتم يا أقرب الجيران : يا علماء دمشق الماضين الذين قال أبو العلاء في بلدكم : (دمشق عروس الشام الموموقة . وواسطة عقدها المرموقة) ها أتم أولاء ترون مبلغ عناية أحفادكم دماشقة اليوم بتكريم أبي العلاء في مهرجانه الألفي . أما لكم فيه أثر ؟ أولديكم عنه خبر ؟

فيجبنا شيخان دمشقيان متعاصران ومتقاربان في الوفاة : (يوسف البديبي)

(١) وشرحه يسمى (التنوير) وهو مطبوع في الهند سنة ١٢٧٦ هـ ثم طبع في مصر سنة ١٢٨٦ هـ .

(٢) وشرحه يسمى (ضرام السقط) وهو مطبوع على هامش طبعة التنوير الهندية .

(٣) قال بروكلمان أن شرح البطلوسي قد طبع أيضا .

و (محمد بن نور الدين (١) الدر ١) . يقول لنا الاول : إنه ألف في أخبار أبي العلاء كتاباً سماه (أوج التحري) (وهو الذي طبعه المعهد الافرنسي بدمشق . ووزعت نسخته خلال أيام مهرجانه الأثني) فنقول للبديهي لا يزيد هذا وإنما يزيد شرحاً لسقط الزند . فيهمهم إذ ذاك الشيخ الدرا وسمعنا صوته المهيّب . من وراء برازخ الاموات قائلاً : انني وضعت شرحاً على ديوان سقط لزند الذي نظمه عروس مهرجانكم في مجلد تزيد صفحاته على خمسمائة صفحة . وفرغت من تأليفه سنة أربع وستين بعد الألف للهجرة . فيكون قد مر على ولادته إلى يومكم هذا ثلاثمائة سنة كادلة وبذلك أستحق أن يقام له مهرجان صغير بجانب المهرجان الأثني الكبير . وافتتحت مقدمته بقولي : (محمدك يا من شرح صدر من بصّره بنور الهداية . فارتسم في ديوان حضرة الولاة . وطمس على بصيرة من حذره غرور الغواية . فأخذ إلى الارض وأبي العلاء) . إلى أن قلت في سبب وضمي للشرح المذكور ما خلاصته : إنني كنت مولماً بديواني (ابن الفارض) و (أبي الطيب) كما كنت حريصاً على أن أنظمهم معاني اشعار (أبي العلاء) في ديوانه (سقط الزند) . وقد صعب عليّ تفسير طائفة كبيرة منها . حتى علقت في الكف نسخة من الديوان عليها هوامش . فاستعنت بها في وضع شرحي هذا . معاً أنا فيه من القرية في مدينة مُجدة حاجاً . وكتبي اللغوية بعضها في بلدي دمشق . وبعضها الآخر في الديار المصرية . وقد ترددت أولاً في الشروع حتى رأيت في المنام مولانا الشريف (زيد) ابن محسن (٢) وكان من سعادة تلك الرؤيا تقبيلي لراحته . فألهمت أن أخدم خزانه كتبه بهذا الشرح . ففعلت . وقدمت بين يدي خدمتي قصيدة مدحته بها . وجملت عدتها أربعة وستين بيتاً بمدد ما زاد على الألف من تاريخ نظمها الذي كان سنة أربع وستين بعد الألف ومطلعها :

(خذ يمين الحلي فم بدور طلعت في دجا الشعور مُتثير)
 (كل بدر يُقله غصن بانٍ مشعر بالدلال لدن نضير)
 (فقدت فلها المناطق فيه فهي حيرى على الخصور تدور)

(١) وفاة الشيخ الدرا كانت بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ . ووفاة الشيخ البديهي ببلاد الروم

سنة ١٠٧٣ هـ .

(٢) راجع ترجمته في تاريخ الهبي الدمشقي جز ٢ ص ١٧٦ .

قال : وكنت سميت شرحي (سقط العقبان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء) .
ثم رأيت في المنام أنني أستقبح زندياً . واستصبح منه كئيداً . فعبرت
ذلك بأن أسميه (ضوء الفند^(١)) من سقط الزند) .
قال : وقد خطر لي أن أرتب قصائد الديوان على حروف المعجم بعد
أن أدمج فيها الدرغيات وأجعلها ديواناً واحداً — خلافاً لترتيب نسخه المتداولة
في أيدي الناس — ثم شرعت في العمل فقلت : قال أبو العلاء احمد بن عبد الله بن
سليمان المعري نسبة إلى المعرة وهي قرية من قرى دمشق الشام) إلى آخر ما قال المؤلف .
اقول : جعل المؤلف (معرة أبي العلاء أو معرة النعمان) من قرى
دمشق أمر مشكئ : ويمكن تأويله بأن المعرة كانت في زمن المؤلف من
ملحقات حماة . وحماة من أعمال دمشق فتكون المعرة من قرى دمشق .
أو أن الناسخ أخطأ : أراد أن يكتب (حلب) فكتب (دمشق) . وهو
الاقرب . ومن المستبعد جداً أن يكون (الشيخ الدرا) أراد بمعرة أبي العلاء
معرة صيدنايا التي هي من قرى دمشق . نستبعد هذا لانه جهل مطبق .
لا يتفق مع فضل المؤلف المحقق .

* *

هذه أمها السادة خلاصة ما قاله الشيخ الدرا في مقدمة شرحه . ثم ذكر
في خاتمته أنه أمته في خلال تسعة أشهر . وأنه بيض منه أربعة كراريس
ورجع إلى وطنه دمشق . فتوفي في السنة التي بعدها (أي سنة خمس
وستين بعد الألف) ودفن في جبانة باب الصغير . وبقيت مسودات الشرح
مهملة مدة ثلاثين سنة . حتى قام ابن أخت المؤلف (عبد الحق بن علي الدرا)
فبيض المسودات بياضاً كاملاً . وذلك سنة خمس وتسعين بعد الألف .
والهجي في تاريخه^(٢) (خلاصة الأثر) ترجم للشيخ الدرا ترجمة حسنة وأثنى
عليه . وقال إنه كان من أببل أبناء وقته فاضلاً شاعراً تمتع المحاضرة قرأ

(١) الفند معناه الشمع الذي يستضاء به وهو لفظ لا تعرفه العرب بهذا المعنى وربما كان
سريانيا . وقد كتبت فيه مقالا مسهباً نشرته مجلة الجمع العلمي العربي (مجلد ١٧ ص ٥٧)

(٢) جزء ٢ ص ٢٤٩ .

العريضة على النجم الفزني وحضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي فتفوق وشاع فضله ورحل إلى القاهرة مراراً . وأخذ عن الشيخ سلطان ومن عاصره من العلماء . ومدح من ساداتها الشيخ محمد البكري الصديقي بقصيدتين :

مطلع الأولى :

(خليلي حطاً باركائب من مصر سقاها وحيائها المريع من القطر)

ومطلع الثانية :

(من لقلب من الهوى لا يُفبق وعيون إنسانهن غريق)

ويظهر أن مخطوطة مكتبتنا هي التي كتبها عبد الحق ابن أخت المؤلف . وربما كانت وحيدة لا ثاني لها : فقد سألت عنها كبير آل الدرا في دمشق فقال إنهم يسمعون بها ولم يرو لها أثراً . وراجعت فهرس دار الكتب الظاهرية . ودار الكتب المصرية فلم أظفر بذكر لها . وقد كتبت على ظهر المخطوطة هذه الجملة : (إن هذا الشرح أحسن شروح الديوان) أما كيف وصلت هذه المخطوطة إلينا في طرابلس الشام فيمكن استنتاجه مما يلي :

يوجد في الصفحة الأربعين من المخطوطة هامشة نحوية بخط أديب كبير من أدباء دمشق هو أحمد بن الياس الكردي . وقد وقع عليها وأرخ بجانب التوقيع سنة كتابتها بمائة وثلاث وتسعين بعد الألف .

وأحمد الكردي هذا من عيون شعراء الشام في القرن الثاني عشر . ترجم له المرادي في تاريخه (١) وقال : إنه كان يلقب بالارجاجاني (٢) الصغير وبالقاموس الماثني . وهو الذي وصف السفينة وصفاً أبدع فيه كل الإبداع وذلك يوم ركبها إلى مصر القاهرة بمدح واليها محمد باشا الشهير بالراغب ومطلعها

(١) سلك الدرر جزء ١ ص ٨٢ .

(٢) تشبهاً له بالارجاجاني الكبير وهو لقب القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد المتوفى سنة ٥٥٤هـ . وربما كان السبب في أنهم شهبوه به إبداعه في وصف السفينة كما أبدع الارجاجاني في وصف الشمة في قصيدته التي مطلعها :

(نمت بأمرار ليل كاد يظفها

ثم سرد أوصافها إلى أن قال :

(صفر غلائها . حر عمائها

سود ذوائبها بيض ليايها)

(هذي مُنانيّ بلغتْها لاوانها فالحمد للافلاك في دورانها)
ومنها :

(النيلَ أيتها السفين فليس لي في فارس أرب ولا أرجلها)
(فتر شني من ثغر دُمياط المني لا ظل ذلك الشُعب من بوانها)
قال المرادي : ونزل أحمد الكردي طرابلس الشام وتزوج بها وحصل له بعض وظائف . ثم غادرها إلى حلب موافياً صديقه الوزير راغب باشا المذكور حينما جاء والياً . فمات فيها سنة تسع وتسعين ومائة بمد الألف للهجرة . أما كتبه فيظهر أنها بيعت في طرابلس . ومن جملتها مخطوطة الدرا التي قانا إن عليها هامشة بخط أحمد الكردي فوقت إلينا منذ ذلك التاريخ . وخط هذه النسخة جيد واضح . والأبيات وحدها مكتوبة بالهجرة . غير أن فيها طائفة من الأغلط . لأن ناسخها على ما يظهر لم يكن متمكناً من العربية وآدابها .

وقد عارضت النسخة بشرحي (الخويي) و (الخوارزمي) فاذا فيها آثار كثيرة من شرح الخويي المسمى بالتنوير : مما يدل على أن النسخة التي ظفر بها المؤلف الدرا في جدة كانت هوامشها مستقاة من شرح (الخويي) .

**

وللشيخ الدرا استظهارات أو نقول آراء شخصية لم يجدها لغيره من الشراح مثال ذلك ما قاله في شرح بيت المعري :

(ورأني أمامُ والامام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء)

فهو بعد أن أطال في المعنى المراد من قوله : (ورأني أمام والامام وراء) ونقل جميع ما قاله غيره من الشراح قال : (وتمّ معنى آخر يحتمله التركيب : وهو أنه أطلق الورا والامام وأراد بها مظلوفيهما : الموت والحياة . مجازاً مرسلًا : إذ أن أمل الانسان جهة أمامه واجله من خلفه . وحقيقة المعنى حينئذ : إذا لم تعرف قدري العطاء فموتي حياة وحياتي موت . قال وهذا الاحتمال أنسب بمواقع كلام أبي العلاء كقوله (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) .

وقال بعد أن شرح قول أبي العلاء :

(يود أن ظلام الليل دام له . وزيد فيه سواد القلب والبصر)
مانصه : (وإذا تأملت غوى هذا البيت رأيتك كالهادم لاركان البيت
السابق ما لم يتكلف له) . والبيت السابق هو قوله :

(ماسرت إلا وطيف منك يصحبنى سرى أمامي وتأويأ على أنري)
وهكذا نرى للمؤلف استظهارات أو مبادعات من رأيه الخاص لم نرها لغيره .
وإذا رأى الشيخ الدرا شيئاً لم يعجبه من شعر شيخ المعرة لا يبالي أن
يلتزمه وينال منه . ففي قول أبي العلاء :

(حلباً يملأ الجفان سديفاً يَرعب الفاليات بالترعيب)
شرح الشيخ الدرا معنى هذا البيت ثم قال : (قعاقع ماتحتها طائل)
وبعد أن شرح قوله :

(مستقي الكف من قليب زجاج بغروب اليراع ماء مداد)
قال : ولعمري إن الذوق لينبو عن هذه الاستعارات .

* * *

ولقد لمخنا من خلال شرح الشيخ الدرا أنه من الشيوخ الذين يسيئون
الظن بشيخ المعرة خلافاً للبديعي مؤلف (أوج التحري) فإنه كان يحسن الظن
به . ولعل المعاصرة بين ابني البلد الواحد الدرا والبديعي هي التي أدت إلى
اختلاف وجهة النظر في أبي العلاء ثم انتهت بهما إلى وضع تأليفيهما . على أن
الشيخ الدرا ما كان يشير إلى رأيه السي في أبي العلاء إلا في الندرى :
مثال ذلك أنه بعد أن شرح قوله :

(وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطه الاوائل)
قال : (وقد أظم بحرف واحد ورد الله يده في فيه) يشير بقوله :
(أظم بحرف واحد) إلى قصة الغلام الذي اعترض أبي العلاء قائلاً : أنت
الذي قلت : (وإني وإن كنت الخ . . .) قال نعم . قال إن الاوائل وضعوا للهجاء
تسعة وعشرين حرفاً فزد أنت عليها حرفاً واحداً إن قدرت . فسكت مفجعاً .

وأقام الشيخ الدرا التكبير على شيخ المعرة مذقال في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة :
(واحِبُّواهُ الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفاس الأبراد)
تتألف الشيخ الدرا من هذا الغلو وودف صاحبه بما لا يرضي أنصاره
وربما حكم عليه بأشد مما وصف .

✽

حقاً إن عقول المفكرين من البشر لم تقف في الحكم على أحد من البشر
موقفها من شيخ المعرة : حتى كانوا فيه طوائف ثلاثاً : طائفة جعلته من أصحاب
اليمينه . وطائفة جماعته من أصحاب المشأمة . أما الطائفة الثالثة فهم الحائر
في أمره . المتوقفون عن تقرير مصيره . ويوشك أن يكون أبو العلاء عنى
نفسه وهذا الفريق الثالث عندما قال :

(والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد)
فهو هو الانسان الذي استحدثه خالقه من جماد . وجمع فيه ما تشقت
من ذكاء العباد . وأودعه ماشاء من النقائص والاضداد .

✽

وقد قلت :

أبو الملا لغز غدا حله	معضلة سعي بها العالمون
كم بات في أمر الورى حائراً	والناس في حيرته (١) حائرون
فقال : حيرته عن مهدى	وقائل حيرته عن فتون
وقائل : حبل عن خلوة	لا مطم فيها غير بلس وتين
وقائل : شكك راهب	فكان في الشك زوال اليقين
وقائل : ضل فلم يهتد	لرشد : فهو من الاخسرين
لكما الجنة مفتاحها	في يد ربي لا يد القائلين

المعري

(١) وأشهر قول له دل به على حيرته - هذا البيت :

(ويهزى النفس إنكار ومعرفة) وكل معنى له نقي وإيجاب

دين أبي العلاء

إذا حاول الإنسان أن يتكلم في أبي العلاء وجد مجالاً واسعاً للقول لأن في شعره أبياتاً رائعة في كل غرض من أغراض الشعر وفي نثره آيات بارعة لا تقل عن شعره في الجودة ولكن الناس نسوا أو تناسوا ذلك ولم يذكروا له إلا السيئات حتى في هذا اليوم الذي أعد للاحتفاء به .
ولقد بدا لي أن تكون كلمتي هذه في تشاؤمه الذي فرض عليه فرضاً فرأيت ذلك يجر إلى سخط القائلين به فصرت نفسي عنه .
ثم حسن عندي أن أئين عطفه على المرأة لأن بعض الناس يعتقد أنه أعدى عدولها ولكنني عدلت عنه لأنه يحتاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام .
وبعد اللتيا والتي . تخيرت القول في دين أبي العلاء أو مذهبه أو معتقده .

ما هو السبب في تكفيره

افتن المتقدمون والمتأخرون في تكفير هذا الرجل ووصفوه بالالحاد والزندقة والمروق وما أشبه ذلك من النموت ولا بكل حادث في هذا الكون من سبب يوجبه وعلّة تقتضيه والمعمّن في البحث يجد أسباباً كثيرة لذلك من أشدها الحسد من أعدائه والتنطع والتشدد في الدين من خصومه والطموح إلى الظهور على أكتافه . والولوع بالآغراب على حسابه .

الحسر

أما سبب الحسد فإن أبا العلاء أوتي من المواهب الفطرية ما لم يؤته كثير من الناس ونال حظوة عند الملوك والأمراء والكبراء فلما نالها شاعر أو عالم ورزق من طيرورة النهرة ما لم يتح لكثير من النوابغ .
فقد بذل له المستنصر العلوي ما في بيت المال في المعرة . وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري له ما ندعو إليه حاجته في جميع مهامه .

وكلف الوزير الفلاحي عزيز الملك أن يحمله إلى مصر ليبيّن له دار علم . وسمح له بخراج المعرة مدة حياته فأبى ذلك كله وكان عفاه هذا يزيد حرمته في أعين الملوك فمن دونهم ولم يرّ بالمعرة وزير مذكور أو فاضل مشهور إلا وقصده واستفاد منه أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه .
فهذه الخطوات وتلك المواهب أوقدت في قلوب حساده ناراً .

التنطع والتمسرد

وأما سبب التنطع فإن أبا العلاء انتقد كثيراً من المزاعم التي كان يمتقدها بعض الناس في زمانه .

فأنكر أن يكون حام اسودّ من أجل ذنب أحدثه . وأن يكون الخضر حياً . وأن الشيب لم يعرفه الناس قبل إبراهيم وأن الأدمي كان إذا عطس لفظ أنفساً . وأن الشمس تضرب وتهان إذا حانت الشروق وأن عجوزاً تحلب القمر وأن . . . وأن . . .

وأنكر تأثير الاحراز التي تكتب لدفع العين أو الجن كما أنكر المشي على الماء والطيران في الهواء وأن يعود ملك مصر إلى الدنيا وأن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء إلى كثير من مثل هذه المزاعم وكان جريئاً في نقده وإبداء آرائه فتناول رؤساء المذاهب والنحل والملوك والعلماء والخطباء والشعراء والتجار وقلماسم منه صنف من الناس ولم يتخير لذلك قولاً لينا ولا أسلوباً لطيفاً وإنما واجه هؤلاء بكلمات أشد من الصواعق . وفي اضعاف كلامه كثير مما لا يرضيه المتشددون في الدين وإن لم يوجب تكفيره .

وأما الظموح الى الظهور

فقد رأينا فيمن انتقد أبا العلاء كثيراً ممن لم يستطع إدراك ما يريد أبو العلاء من كلامه على وجه صحيح وربما جاء بالبيت على أنه حجة له وهو حجة عليه ولكنه انتقده ليقال إنه انتقد أبا العلاء ؟

وأما الولوع بالاعراب

فإن فريقاً من الناس يجد في البحث عن زلة لأبي العلاء ويتسقط هفواته حتى إذا ظفر بشيء ولو بشبهة. ضعيفة ابتهج وتنفج كأنما أحدث فتحاً جديداً في الاسلام وفيهم كثير ممن عثر فيما قال عثرة لا تقال .

فتألب عليه حساده وأوائك المنطمون والطامحون والمولعون وأرادوا أن يسقطوه من أعين الناس فالتمسوا مغمزاً في علمه وأدبه وعقافه فلما أعيام ذلك لجؤا إلى الدين فاتخذوا منه سلاحاً للطعن فيه ومالاً لهم على ذلك فريق ممن يتابع على غير بصيرة فذهي أكثر الأسباب ، تأثيراً في تألب الناس عليه .

مازالتوا يفعلون

اتفقت كلمة حساد أبي العلاء وأعدائه على تكفيره ولكنهم اختلفوا في الطرق التي توصله إلى ذلك فمنهم من كفره بما لا يوجب التكفير ومنهم من نسب إليه آياتاً هو بريء منها ومنهم من حرف أقواله عما يوجب الايمان إلى ما يوجب الكفر ومنهم من جره إلى الكفر بغير سبب ولا مناسبة ومنهم . ومن هؤلاء ياقوت فقد جملة ملحداً وروى له هذين البيتين :

اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح

هذا يعالج دليمة والشيخ من حق يصيح

ولم يروها غير ياقوت ولا هما في ديوانه ولا يظهر فيها أثر للإلحاد وتأليفها الركيك يشهد بأن المعري بريء منها . ولقد كانت العامة أبرع من ياقوت في التكفير فانهم لم يروا فيها ما يوجب الإلحاد فزادوا بيتاً ثالثاً وهو :

كل يعظم دينه يا ليت شعري ما الصحيح

وأورد أبو العلاء في رسالة الغفران آياتاً لسمير بن أدكن مطلعها :

يصول أبو حفص عايننا بدرة رويدك ان الحق يطفو ويرسب

فقال ياقوت هذا يشبه أن يكون شعر المعري قد نجله هذا اليهودي .

كأنما أنكر أو أكبر أن يكون شعر فيه كفر أو لإلحاد لغير أبي العلاء .

وزعم ابن الجوزي والباخرزي ولذهبي ان أبا العلاء عارض السور والآيات بكتاب الفصول والغايات . وربما كان فيهم من لم يطلع عليه . ولم يبين واحد منهم ما يريد بالمعارضة فان ارادوا المعارضة بالمعاني والاعراض والمقاصد فهذا باطل لأن اغراض القرآن الكريم كثيرة ومقاصده مختلفة منها شرع الاحكام وبيان بعض الشرائع التي كانت قبل الاسلام وقص الاخبار وما اشبه ذلك والفصول والغايات اغراضه قليلة ومقاصده محدودة لانكاد تخرج عن تعجيد الله وعن العظمت وقد تصدى فيه الى القول في الموسيقى والعروض والنحو ونحو ذلك مما ليس له أثر في القرآن الكريم .

وإن أرادوا المعارضة بالألفاظ فهذا باطل أيضاً لأن أبا العلاء التزم في كتابه هذا أن يكون آخر كل غاية على حرف من جروف الهجاء وأكثر من السجع واستعمال الغريب واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ومحوها والقرآن الكريم خال من ذلك كله .

والذي أعتقده أن أبا العلاء كانت له ثروة في اللغة وباح طويل في الحكم واطلاع واسع على العلوم المختلفة فوضع هذا الكتاب على هذا النمط ليعين فيه قدرته في كل ما تقدم وبما ذكرناه يتبين أن بين القرآن الكريم وكتاب الفصول والغايات فروقاً متعددة في الألفاظ والمعاني .

وروى أبو الفداء في تاريخه هذين البيتين على هذا الوجه :

إن عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبي بعد هذا فضل القوم بين غد وأمس
والصواب روايتها كما وردا في ديوانه لزوم ما لا يلزم :

دعا موسى فزال وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحيى دين غير هذا وأودى الناس بين غد وأمس
والزخخشري أورد في الكشف بيت أبي العلاء في وصف النار :

حمرء ساطعة الذوائب في الدجي ترمي بكل شرارة كطراف

ثم قال وكأنه قصد بخصه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولقد عمي جمع الله له عمى الدارين إلى آخر قوله . وهذا البيت يصف فيه المعري نار القرى وهو من قصيدة رثى بها الشريف الموسوي وهو ببغداد . وليس فيه ولا

في القصيدة كلها ما يدل على ما قاله الزمخشري . ولعل هذا البيت أجمل بيت
قالته العرب في وصف النار .

ونسب ابن السبكي في الطبقات إلى أبي الملاء البيتين المشهورين وأولهما :
كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
ثم قال : قبحه الله ما أجرأه على الله . . . وهذان البيتان لابن الراوندي .
ونسب أبو الحسين الجزار هذا الشطر لابي الملاء وهو :
حديث خرافة يا ام عمرو

وهو لبعض مشركي العرب .

وهناك كثير من مثل هذه الاقوال المحرفة ألصقت بأبي الملاء ظلماً وزوراً .
وإذا كان مثل هؤلاء الأئمة لا يتثبت في الرواية ولا يتورع عن التحريف
والتقول ويكفر بغير موجب فما نقول فيمن هو أدنى منهم منزلة في العلم والشهرة .
وفي الناس كثير ممن يكفر أبا الملاء وإذا سألته عن السبب قال لك
إني لم أر شيئاً من كلامه ولكني رأيت فلاناً من العلماء يكفروه فقلدته في
ذلك ومن قلد عالماً لقي الله سالماً .

ومثل هؤلاء مثل رجل مر بالسوق فرأى فريقاً من الناس يضربون رجلاً مسكيناً
جاء إليه وأوسع ضرباً وشتماً وسباً فقبل له من هذا الذي ضربته وما السبب
الذي حملك على ضربه وسبه فقال إني والله ما عرفته قبل اليوم ولا عرفت
له ذنباً ولكني رأيت الناس يضربونه فضربته وهذا سبيل كثير من الناس مع
أبي الملاء استضعفوه فنتفوه حياً وميتاً .

كيف وزع المعري على الملل والنحل

لم تتفق كلمة المتقدمين والمتأخرين على جعل ابي الملاء يدين بدين واحد
ولأنما جعلوه نهياً مقسماً بين الملل والنحل والحقه كل واحد بما شاء وشاء له الهوى .
فجعلوه برهياً ومزدكياً وزنديقاً وملحداً وكافراً ومعتلاً ودهرياً وقرمطياً
وشيعياً ودرزياً وتقياً وزعم فريق أنه عارض القرآن ومن عطف عليه جعله
في حيرة او صاحب تقية او مجماً للمتناقضات ومنهم من جعله ساحراً إلى غير
ذلك من الاقوال ولكل واحد من هؤلاء متمسك يعول عليه في حكه .

البرهانية

أما من قال أنه برهمي فاستدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . وكلام أبي العلاء يدل على أنه لا يعتقد أن أكل اللحم محرم وإنما تركه اجتهاداً في التبعّد ورحمة للمذبوح ورغبة بفقران الله . ويعتقد أن العقل لا يقبح ترك أكله وإن كان حلالاً لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . وإن له في السنة نيفاً وعشرين ديناراً يأخذ خادمه بعضها وما بقي لا يعجب فانتصر على فول وبلسُن وما لا يمدب على الألسن . هذا ما قاله أبو العلاء ولكن الناس يجاملونه برهيمياً شاء أم أبي وقد روي أن النبي ﷺ أتى بشرية من لبن مشوبة بمسل فقال أما اني لست احرمه ولكني آركه تواضعاً لله . والتاريخ طافح بأخبار المتدينين الذين كانوا يتنعون من تناول الأطعمة المباحة زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله .

المزدكية

وأما المزدكية فمن أعجب العجب جمل المرعي مزدكياً لأن مزدك على ما قال ابن الأثير كان يستحل المحارم والمنكرات ويسوي بين الناس في الأموال والنساء ويأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر . وقد طلب من قباز أن يسلمه امرأته فاجابه ولكن ابنة انوشروان حال دون ذلك والقصة مشهورة وأبو العلاء كان يأبى زواج الحرائر ويتشدد في منع المرأة من الخروج إلى الحمام والعراف والحج ويحظر دخول الوليد عليها كل ذلك غيرة عليها وقد قال : برئت إلى الخلاق من أهل مذهب يرون من الحق الإباحة للأهل فجعله مزدكياً بعد هذا من الفرائب .

القرمطية

وأما نسبه إلى القرمطية فلا تقل في الغرابة عن نسبه إلى المزدكية لأنه لمن بعضهم وكفرهم في رسالة الغفران ص ١٤٥ وقال فيهم في لزوم ما لا يلزم : يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لإمام سوى المقسل مشيراً في صبحه والمساء
 إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
 غرض القوم متعة لا يرقون لدمع السماء والخنساء
 كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالاحساء
 وبض الناس يقطع قوله : إنما هذه المذاهب أسباب ... ويجعله بيتاً
 منفرداً ليصرفه عن الفرامطة ويجعله شاملاً لكل مذهب ليثير الناس عامة على
 تكفيره وأما نسبتته إلى بقية المذاهب الأخرى فعلى مثل هذا النمط والقياس
 كلها قائمة على الشبه والإرادها ثم ردها وإبطالها يحتاج إلى وقت طويل .

التقية

وأما التقية فلعلها أغرب ما قيل فيه وذلك أن الانسان إنما يلجأ إليها
 عند الخوف من فتنة أو شر أو بطش . وأبو العلاء صرح في مواطن كثيرة
 بأمور هي أحق من غيرها بالتقية . فإن التقية ممن يقول في ملوك عصره .
 مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراءؤها

ساس البلاد شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
 فاف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسه
 بل ابن التقية ممن يقول :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فما العظات وإن راعت سوى حيل من ذي مقال على ناس تحولها

قالوا فلان جيد فأجبتهم لا يكذبوا ما في البرية جيد
 فأمرهم نال الامارة بالحنى وتقيم بصلاته يتصيد

لو غربل الناس كما يمدمو اسقطاً لما تحصل شيء في الفرايب

وديوانه مكتظ بمثل هذه الصراحة الاذعة ولو كان عنده شيء من التقية للجا إليها في مثل هذه المواطن او استغنى عنها .

رأبنا في اعتقاد أبي العلاء

يحدثنا التاريخ ان ابا العلاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتعطيل وان تلامذته وغيرهم كانوا يعملون الاشعار على لسانه ويضمونها اقوال المأخوذة قصداً لهلاكه وقد حرف اثنان منهم بيتاً من لزوم ما لا يلزم ليثبتا عليه الكفر فكتب رسالة الضبعين الى معز الدولة يشكوها اليه ويبين له ان في حلب نسخاً من الكتاب بريئة من التحريف وإن ابا العلاء ألف كتاباً في الرد على من نسبته إلى معارضة القرآن وفي الجواب عن أبيات أخرجوها من لزوم ما لا يلزم وكفروه بسببها وسماء زجر النابج ثم طبنوا فيه بأبيات آخر فوضع كتاباً آخر سماه نجر الزجر أو بحر الزجر بين فيه التحريف ووجوه الآيات وممانها وإن أعداءه لم يألوا جهداً في الافتراء عليه وإن كتبه التي وصلت إلينا مغمورة بالشعور الاسلامي وليس في شيء منها متمسك لخصومه إلا رسالة الغفران ولزوم ما لا يلزم.

رسالة الغفران

أما رسالة الغفران فقد قيل ان فيها تهكماً واستخفافاً وهما من الأمور النفسية التي لا يعلمها إلا الله ولا يمكن لبشر أن يعلمها إلا إذا أخبره بها صاحبها ولم ينقل عن أبي العلاء شيء من هذا وبناء الحكم على الشبهة او الاحتمال لا قيمة له عند أهل العلم .

لزوم ما لا يلزم

وأما لزوم ما لا يلزم وهو الذي يعتمد عليه الناقدون والناشرون فقد طبعت نسخة منه في الهند ثم طبع في مصر وهذه النسخة لا نعلم نحن ولا غيرنا يعلم عن أية نسخة نقلت .

ولكننا نعلم يقيناً وفوق اليقين أنها لم تسلم من عبث الطابع والشارح
 فقد وردت فيها أبيات فيها كلمات زائدة على الوزن كقوله :
 وقد ضننت بشاة وهي فاردة على أزل فقيد المال قوت عسال
 فكلمة قوت زائدة . وأبيات فيها نقص كقوله :
 يخادع ملك الارض إذا أتت منيته لم تغف عنه مخارقه
 ولعل أصل البيت حتى إذا أتت . أو نحوها فقد نقص البيت كلمة .
 وأبيات فيها تحريف كقوله :
 والنون في حكم الخواطر محدث والاولى هو الزمان المظلم
 والصواب والنور في حكم . . وقد فسر الشارح بعض الكلمات تفسيراً
 غريباً كقوله :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدى . . .

قال الشارح العدي كل خشبة بين خشبتين . وحجر رقيق يستربه الشيء
 فيكون المعنى وأفواهكم خشبة . . أو حجر . وما أغرب هذا التفسير . وربما
 اجتمع في البيت الواحد تحريف وتفسير وكل منها يخل بالمعنى كقوله في الديك :
 ورثت هدى التذكار من عهد جرحم أو ان ترفت في السماء النعائم
 قال في الشرح النعائم ورف الطائر بسط جناحيه وهو غير مستعمل
 وانما المستعمل رفر ف إلى آخر كلامه .

وصواب البيت أو ان ترفت في السماء النعائم والمراد بالنعائم هنا ثمانية
 كواكب وهي من منازل القمر يقال لها النعائم وكقوله من أبيات يذكر
 فيها أبو العلاء ما يقتاتة :

لا أفع الام بالرضيع ولا أشرك هذا الفرير بالابن
 أقتات من طيب الذبّات وهل يسلم عود الفتى من الأبن

قال في الشرح والذبّات الذبّاق [أي الحمار] والاسد والزحار . والزحار
 جاء لمعان منها داء يأخذ البعير فيزحر منه حتى ينقلب سرمه ومنها استطلاق
 البطن . فقد جعل الشارح أبا العلاء يقتات حمراً أو أسداً أو زحاراً على أحد
 معانيه وكل ذلك قوت ممقوت . وصواب البيت أقتات من طيب النبات .

وفي الكتاب مئات من مثل هذه الهنات لم ينبه عليها الشارح لأنه لم ينتبه لها وإذا كان لا يفتن إلى ما يخل بالوزن أو المعنى وهو أقل ما يجب على الشارح ويزيد الخرق اتساعاً بالتفسير الذي يمجّه الذوق ويأباه العقل في الأمور البديهية فهل نأمن بعد ذلك من التحريف فيما يتعلق بدين المعري واعتقاده . ولو وقع في كلامه مثل هذه الجملة أنا أو من بالله ولا أشرك به لما استبعدت أن يحذف كلمة لا من الجملة الثانية ويزيدها في الأولى قياساً على ما رأيت في شرحه ولو ساعد المقام لأوردت جملة من هذه المضحكات ومن المعلوم ان لزوم ما لا يلزم لم يكن من كتب العقائد والدين وإنما هو ديوان شعر والشاعر قد يبالغ أو يوجز ويقول ما لا يفعل ويتخيل أمراً غير واقع ويلجأ إلى المجاز كما قال أبو العلاء

لا تقيد على لفظي فاني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فلا يجوز أن توزن أقواله بما توزن به النصوص الشرعية وأقوال العلماء في كتب الدين ولا أن يدقق في مفاهيمها وقبورها ما يدقق في كتب العقائد وإن التشدد في مثل هذا سهل على أعداء الغزالي أن يطعنوا فيه بقوله ليس في الامكان ابداع مما كان . والعقل يستبعد من الغزالي أن ينسب العجز إلى الله .

ومن أمعن النظر تبين له أن المعري يحتذي على مثال المعتزلة والحكماء النظريين فانه جعل العقل أساساً لآرائه . وعلى هذا الأصل ذهب في الفصول والغايات ولزوم ما لا يلزم إلى أن الله تعالى يقدر على المستحيلات لأن عدم القدرة عجز وهو صفة نقص فيجب أن ينزه الله عنه . وإن كثيراً من القضايا الشرعية يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيها .

ويظهر لمن تقصى في البحث أن فريقاً من الناس إذا رأى بيتاً للمعري يوم الحكم عليه بسوء العقيدة تمسك به وإذا رأى مئات من الأبيات الصريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ضرب بها عرض الحائط ولم يلتفت إلى قوة الأدلة ولا إلى تكافؤها والقاعدة أن الأدلة إذا تمارضت تساقطت فإذا سلمنا أن الأدلة التي تثبت إيمانه متكافئة مع الأدلة التي تنفيه في القوة والصراحة والسلامة من

الاحتمال حكماً بسقوطها ووجب علينا أن نلتمس سبيلاً آخر لا يوضح هذه الناحية وليس لدينا إلا حياة المعري العمالية وهذا التاريخ يحدتنا أنه كان صواماً قواماً صالحاً تقيماً زاهداً طاهر اللسان واليد والذليل .

ولا مشاحة في أن التكفير حكم شرعي ولا بد لكل حكم شرعي من علة توجبه وطريق يثبتها ولا يصح الحكم على إنسان بالكفر إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة وكان هذا الإنكار ثابتاً بدليل سالم من الاحتمال لأن الدليل إذا طرقة الاحتمال سقط به الاستدلال .

وقد رأينا فريقاً من العلماء إذا رأى في كلام المعري شبهة توجب تكفيره تمسك بها وإذا رأى ما يوجب إيمانه قال انه تقي . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكفر كل إنسان حتى في قوله لا إله إلا الله لأننا نجعل قوله لا إله نفياً لاله موجباً للكفر . وقوله إلا الله من باب التقية ومثل هذا لا يرضاه العلم ولا العدل .

وبعد كل ما تقدم فإن أعظم المواطنين التي أنكرها الناس على أبي العلاء يكاد ينحصر في خمسة أمور :

الأول اعتقاده بالله وقد يمجد الناظر في كتبه أنه أثبت لله من صفات الكمال كل ما أثبتته أهل السنة ونفى عنه ما نفوا ولم يشذ عنهم في شيء إلا في مسألتَي الزمان والمكان على ما فيها من نظر .

وقد نسبه فريق إلى الجبر وهو بريء منه ويشهد لذلك قوله :

لا تمس مجبراً ولا قدرباً واجتهد في توسط بيننا
وأصرح منه قوله :

وإن سألوها عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أبت ولا جبراً
واحتج لبطلان الجبر بقوله :

إن كان من فعل الكبار مجبراً فمقابله ظلم على ما يفعل

وما يراه الانسان في بعض آياته الأخر مما يوهم الجبر فهو من نوع ما يراه في أقوال العلماء عند إثبات الجزء الاختياري أو الإرادة الجزئية أو ميل النفس حتى قال بعض المحققين الانسان مجبر في صورة مختار .

وفريق آخر جعل المعري جامعاً للمتناقضات فهو مؤمن كافر وبر فاجر وتقي زنديق ودهري موحد فهو عنده مجموعة غريبة أو جامع لكل غريب . ومنهم . ومنهم .

الثاني والثالث اعتقاده بالكتب والرسول أو النبوات .

أبو العلاء عظم القرآن كثيراً وأنكر جواز النسخ عليه ووصفه في رسالة الغفران في ص ١٥٨ وصفاً بديعاً لا يصدر إلا عن قلب مقيم بالإيمان به .

وقالما رأيته ذكر نبياً إلا وأعقبه بقوله **ﷺ** إلا إذا ضاق الوزن أو السجع عن ذلك وقد ذكر النبي **ﷺ** في الجزء المطبوع من الفصول والغايات نحواً من اثنين وعشرين مرة وفي كل مرة يقول **ﷺ** .

وقد رويت له أبيات في الكتب والنبوات لا يمكن تأويلها تأويلاً حسناً إذا سحت نسبتها إليه منها ما هو في لزوم ما لا يلزم ومنها ما اتفرد بروايته راو واحد كياقوت وأبي الفداء وغيرها .

وإذا سمح لنا أن نجهر بقول الحق امكنا ان تقول إن في بعض هذه الايات حقائق لم يستمد كثير من الامة لقبولها بعد ولا يسامح في البحث فيها فندعها الآن إلى الزمان حتى لا نكفر على حساب أبي العلاء .

الرابع اعتقاده بالملائكة

لقد أثبت أبو العلاء الملائكة ولم ينف عن قدرة الله أشباح ضياء بغير لحم ودم وذكر كثيراً منهم في كتبه واعتقد وجودهم في السماء والارض والدنيا والآخرة واعتقاده فيهم لا يخالف اعتقاد أهل السنة :

الخامس الحشر

لأبي العلاء في شره ونظمه كثير من الجمل والابيات تدل دلالة صريحة قطعية على اعتقاده الحشر وفي لزوم ما لا يلزم وحده أكثر من مائة بيت كلها تصرح بانبات الحشر أو ما يكون فيه من جنة ونار وحساب وما أشبه ذلك وقد أعرض عنها بعض الناس وتمسكوا بقوله :

يحطمننا رب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
ورواه ياقوت :

يحطمننا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وسواء أكان الصواب لا يعاد له . أم لا يعاد لنا . فانهم جعلوا البيت دليلاً على انكاره الحشر . ومن البديهي أنه يريد بهذا البيت اننا ضعاف كالزجاج يسهل تحطيمه ولكن بيننا وبينه فرق وهو أن الزجاج إذا حطم في الدنيا أمكن إن يسبك فيعود إلى ما كان عليه فيها ولا يريد السبك في الآخرة وإذا لم يحمل كلامه على هذا الوجه كان معناه بيننا وبين الزجاج فرق وهو أن الزجاج يعاد سبكه في الآخرة ونحن لا يعاد لنا سبكه فيها . وهذا بعيد أن يصدر عن مثل أبي العلاء .

التقييد

إن التاريخ لم يعين لنا الزمن لكل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها ناسخاً للمتقدم ونحكم عليه بآخر أقواله .
وإننا نحترم كل رأي كما نحترم صاحبه وإن كان مخالفاً لما نعتقد في أبي العلاء وإننا لا نريد أن نجعل أبا العلاء في مصاف الصديقين والاولياء المقربين ولا نحاول أن نبرئه من كل ما قيل فيه .
وإنما نريد أن نبين أن تكفير الانسان بما ينسب إليه من قول لا يصح إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنه تكلم بذلك القول على الوجه الذي أوجب تكفيره . وأن التكفير على ما خيلت أو على شبه أو أدلة محفوفة بالشكوك أو الاحتمالات لا قيمة له في نظر الدين ولا في نظر العلم .
وإن الجنة ليست في أيدينا حتى نهبها من نشاء ونزاعها ممن نشاء .
وأن أبا العلاء قال ما قال ولم يعبأ بما قيل ولا بما يقال ولا بمن قال وسجل اسمه في ديوان الخلود رضي أعداؤه أم لم يرضوا .
وأن رحمة الله التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والارض لا تضيقان عن رجل يقول :

أصبح في الدنيا كما هو عالم . وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى
وإني لأجو منه يوم تجاوز . فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى
وكنت أود أن يتسع الوقت لأورد من كلام أبي العلاء ما يدل على كل
ما ذكرته ولكن ما كل ما يتنى المرء يدركه . وعسى أن لا أكون في
كلتي هذه كمن حاول أن يتخذ غريقاً ففرق معه . محمد سليم الجندي

اختلاف الآراء

في فلسفة أبي العلاء المعري

إن شخصية أبي العلاء المعري لهي من تلك الشخصيات العبقريّة الكبرى المتعددة المزايا والصفات التي يصعب على الباحثين عنها - وإن لم يستحل - أن يدركوها إدراكاً كلياً وأن يحدّدوها تحديداً شاملاً . فكذلك فلسفته . إنها متفننة النواحي متباينة الأطراف ، متناقضة المرامي ، فقلما تردد الناس في مذهب كترددهم فيها ، وقلما اختلف العلماء ، على تنوع طبقاتهم ، في غابر الزمان وفي حاضره ، كاختلافهم فيها .

فاذا تأملنا في أوائل الختلفين من المتقدمين وجدناهم على ثلاثة أقسام تفرّعت إلى فروع . فريق من زندقته أو كفره وفريق من حكم بصحة إيمانه واجتهده في الدفاع عنه إلى حدّ أنه أنكر فيه وجود فلسفة امتاز بها عما سواه وفريق من تحيّر في شأنه وما جرأ على شتمه ولا على تبريره فأمسكوا عنه وفوضوا أمره إلى خالقه .

إن هؤلاء المتحيرين ، لقلة عددهم وخفة أهميتهم ، لا يستحقون أن نعتني بهم أدنى اعتناء ولكننا أردنا أن نتوسع بعض التوسع في الذين كفّروه ثم فيمن برّأه ، وذلك تمهيداً لنفهم فلسفته فنذكر اختلاف الناس في تعليلها .

* *
*

إن أول من هاجمه مهاجمة منظمة كان الشيخ أبا الوفاء بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في وقته والذي عاصر أبا العلاء بمض المعاصرة . تفقه ابن عقيل على القاضي أبي يعلى صاحب الأحكام السلطانية المشهورة وأخذ الأصول عن الشيخ ابن الوليد إمام المعتزلة في زمانه . ان ابن عقيل على ما يرويه لنا الحفاظ - شبه أبا العلاء بابن الراوندي وأنه قال للناس ، زعموا أن أبا العلاء

أبدى إلحاده لعباً ومجوناً ، ما نصه : « وما الذي أُلجأه إلى أن يقول في دار الاسلام ما يكفر به الناس ؟ إن المنافقين مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه لانهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها وهذا أظهر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه والله إن ظاهره كباطنه . »

ثم اقتدى بـ ابن عقيل الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة والذي كان معظماً لابن عقيل متابعاً لمعظم آرائه وإن رد عليه في بعض المسائل . ان ابن الجوزي عاب على أبي العلاء مبالغته في معاداة الانبياء ، وهو الذي قال : « زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وأشدهم على الاسلام أبو حيان لانه يجمع ولم يصرح » .

اقتفى أثر أولئك البغداديين الذين طعنوا في أبي العلاء ، من انتسب بالشام إلى مدرستهم التاريخية وفي طليعتهم الشيخ شمس الدين الذهبي فانه تكلم عن أبي العلاء في كتابين من كتبه الكبار أولاً في تاريخه الكبير الذي لم يُنشر إلى الآن . ثانياً في مختصره المفيد الذي طبع في حيدرآباد لانه في كتابه الأول أطلق على أبي العلاء تسمية الزنديق واشتد في شتمه ولكنه في كتابه الثاني خفف عباراته واقتصر على القول بأنه سيء العقيدة .

ولكن أبا العلاء ، فيما أرى ، مالتى بالشام خصماً أشد طعناً فيه من الشيخ امماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي الذي لازم الحافظ المزني وأخذ عن الامام الشيخ تقي الدين بن تيمية . انه ، في بدايته ، خصص لأبي العلاء ترجمة قيمة كَفَرَه فيها ونسبه إلى فلسفة البراهمة ثم انه أبدى سوء ظنه بأبي العلاء أيضاً لما تكلم عن الشاعر المشهور بالعز والضير وهو الحسن بن محمد بن نجا . كان هذا الشاعر من نصيبين فنشأ بإربل حيث اشتغل بهلوم الاوائل قال عنه ابن كثير مانصه : « يُنسب إلى الإلحاد وقلة الدين وترك الصلوات له شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته وهو شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله » .

كان لأبي العلاء من جهة أخرى أنصار انتصروا له ودافعوا عنه أشد الدفاع ويجب علينا أن نذكر في طليعتهم الشيخ كمال الدين ابن العديم الحلي الذي توفي بالقاهرة سنة ستين وستمائة وأنه صنف حلب تاريخاً مفيداً وأفرد لأبي العلاء ترجمة طويلة سماها كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري «مُقدّم جزء كبير منها ونشرها لأول مرّة الشيخ العلامة المؤرخ المشهور راجب الطباطّخ في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، أصبح كتاب الانصاف والتحري العمدة التي اعتمد عليها كل من دافع عن أبي العلاء فيما بعد .

فمن أشهر من حذا حذوه واعتمد على كتابه الشيخ زين الدين بن الوردي . ولد ابن الوردي بالمعرة ونشأ وصنّف في عدة علوم . ترجم أبا العلاء في تاريخه المشهور ترجمة حسنة علينا أن نتوسع فيها بعض التوسع فان عواطف ابن الوردي نحو أبي العلاء مرت بثلاثة أطوار .

كان ابن الوردي في بادئ أمره متعصباً له لكونه من المعرة ولما شاهده في سيرته وشعره من غاية الورع والزهد ثم أنه بعد ذلك وقف على كتاب استغفر واستغفري فبغضه وأبعده عنه ثم وقف على الازوميات فزادته بغضاً له ونفرة عنه لإفراط الشك والتشكيك المتضمن بها . ثم ان ابن الوردي ، في الطور الثالث من تطوره اطلع على كتاب ضوء السقط الذي أملاه أبو العلاء قبل موته بقليل فان هذا الكتاب أرجع ابن الوردي عن سوء ظنه بأبي العلاء إلى الحكم بصحة عقيدته قال : « فكان هذا الكتاب عندي مصححاً لفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فانه كتاب يحكم بصحة إسلامه » . فعظم هذا الكتاب كل التعظيم لما يحتويه من العواطف الدينية السامية وقال في الختام ما يستحق الذكر . « وهو خاتمة كتبه والأعمال بخواتمها وقد يُعذر من ذمه واستحلّ شتمه فانه عوّل على مبادئ أمره وأواسط شعره ويُعذر من أحبه وحرّم سبّه فانه اطلع على صلاح سرّه وما صار إليه في آخر عمره من الانابة التي كان أهلها والتوبة التي تجبّ ما قبلها » .

هذا ولقد اختلف أولئك العلماء — وهم القليل من كثير ولكل واحد منهم مقام عالٍ في تاريخ الأدب العربي — اختلافاً كبيراً في فلسفة أبي العلاء وعقيدته فإذا أنعمنا النظر في هذا الاختلاف وجدنا له أسباباً معينة .
 أولاً: إن أولئك المتقدمين كانوا أكثر اهتماماً بدم أبي العلاء أو بمدحه منهم تفهمه أو بالتجري عن حقيقة فكره فهم أقرب إلى المتكلمين منهم إلى المؤرخين وهم في ذلك على خلاف ما نحن عليه الآن فان تطور أساليب النقد والبحث عوداً التمييز بين التبرير المذهبي وبين التعليل التاريخي . وثانياً : نشأ هذا الاختلاف في فلسفة أبي العلاء عن تناقل داخلي يُحسّ به في آياته نفسها في الزوميات خاصة وفي جميع مؤلفاته عامة فهذا أمر من الأهمية بمكان يجب علينا أن نتوسع فيه بعض التوسع .

* * *

ان أبا العلاء انتقد الديانات كلها في آيات عديدة مشهورة من الزوميات أنكر النبوات حتى بالتصريح وهاجم رجال الدين على اختلاف طبقاتهم مهاجمة عنيفة متكررة عاب عليهم بأمرّ التهكم جهلهم ونفاقهم وتناقضهم في أهم مسائل الدين وتنازعهم بمذاهبهم على الدنيا وما فيها فشكّ وشكك في كل ماجأت به الكتب المنزلة من البعث والثواب والمقاب ومن الأخبار المتعلقة بعالم الغيب وأظهر أيضاً ما كان يظنه مخالفاً للعقل في الشريعة من العبادات والمعاملات انه في كل ذلك تلون، وأي تلون، بأراء الطيب الفيلسوف أبي زكريا الرازي الذي تعدى الحدود في نقض الديانات والذي كان لكتبه الهدامة أوسع الانتشار بين غلاة الباطنية .

ولكنه مع ذلك ، مها ساء ظنه بالرسل والانبياء ، أظهر في آيات عديدة من هذه الزوميات نفسها إخلاصه لربه وتفضيله لنبيه محمد ﷺ على سائر الانبياء وإشاره لدين الاسلام لسائر الأديان . وأبدى في سيرته وفي شعره تقوى لاشك فيها وحث الناس عليها وأما زهده في الدنيا وإحسانه الى الغير فهذا أمر لأمزيد عليه فيه وكذلك لا يزال يذكر الله تعالى ويمجده وهو يقتنع بوجود الله اقتناعاً فطرياً وجدانياً لا يتكلف البراهين على إثباته وأنه في كثير من آياته وصف الله كما

وصف نفسه وكما وصفه رسوله الى حدّ أن عقيدته مُتشبه أحياناً عقيدة من اتبع طريقة السلف .

ان هذا التناقض الذي لا يظهر في اللزوميات فحسب ولكنه في جميع كتبه عامة كان ، فيما أعتقد ، مقصوداً فلماذا قصده ؟ هذه هي المسألة التي يزيد الآن أن نذكر أهم اختلاف الناس فيها .

* * *

ذهب بعض العلماء إلى أن علة هذا التناقض توجد في تطور أبي العلاء الفكري. انه كان ، على ما يزعمون ، في أول أمره ملحداً كافرأ ثم انه رجع الى الايمان في آخر عمره فتاب وأناب . اتنا فيما يخصنا لانعتقد بصحة هذه الفرضية وان جازت عقلاً . فان أبا العلاء أظهر شكه الفلسفي من أول شبابه لما اشتكى في مرثية أبيه جهله لأموال الغيب ولمصير الروح بعد الموت ، كما أنه عبر عن هذه العواطف نفسها من الشك والتشاؤم والادورية في قصائد يوجد فيها ما يدل على أهمان آخرمانظم . ذهب قوم آخرون الى القول بأن علة هذا التناقض توجد في تقيّة أبي العلاء وفي كتمانها . قالوا انه كان ملحداً في باطنه ولكنه خشيةً من عقاب الفقهاء تستر وراء تلك العبارات الايمانية والمظاهر الاسلامية . ولكننا أيضاً لانتاق هذه الفرضية بانقبول ولا نعتقد بأن أبا العلاء التجأ الى التقيّة بمعناها الاصطلاحى فان جرأته حينما يتكلم عن الديانات ورجالها تدل على صراحة لا توجه الى تقيّة الغلاة ولكنه في ذلك اضطر ، وهو في ذلك متألم أشد التألم ، الى أن يذهب من مذهب المجاز في ابداء كثير من آرائه لما تخالف مخالفة تامة مااتفق الناس عليه وربما كان في ذلك كاه أكثر خشية من الاضرار بالغير منه بنفسه اذ لا يكون عامة الناس مستعدين لفهم فلسفته حق الفهم . فجاز لنا أن نقول ان المعري في لزومياته قصد معاني اكثر مما ابداه صراحة .

فجاء قوم آخرون زعموا أنهم اكتشفوا سر باطنه واقترحوا لتعليل ذلك التناقض الذي أشرنا اليه علةً اخرى فقالوا : ان أبا العلاء المعري كان مخلصاً في اظهاره لدينه وابدائه لتقواه كما انه كان مخلصاً في حثه الناس على التمسك بدينهم

لما كانت في ذلك لعامتهم من فائدة ومنفعة . ولكنه في الحين ذاته كوّن لنفسه وللخاصة فلسفة إلهية مبينة على الوجدان والعقل أكثر منها على العقل أدى به إليها اجتهاده الخيالي غير اجتهاد الأصولي المرتبط بشروطه وهي فلسفة لا تخالف الديانات ولا تتفوقها ولكنها ترمي إلى جمع أسمى العواطف الدينية التي يشترك فيها البشر .

إن هذه الفلسفة الإلهية تدعو إلى الإيمان الواحد المطابق برب واحد حكيم مدبر للأموار على ما يشاء إيماناً وجدانياً فطرياً يحسّ به كل إنسان في صميم فؤاده فيتساوى فيه جميع المؤمنين ثم إن هذه الفلسفة الإلهية تكون أخلاقية أكثر منها عبادية أنها تفضل على العبادات الشكلية روح التعمد والدين فتدعو نحو تهذيب البشر ونحو تحويلهم عن الطمع في الدنيا إلى الزهد فيها وعن الظلم إلى الانصاف وعن التعصب إلى التسامح وعن التفاصل إلى التساوي وعن التباغض إلى التحابّ وعن اختلاف الكلمة إلى توحيدها والاتفاق والتضامن .

* * *

فإذا كانت تلك فلسفة أبي العلاء على ما يقولون فما هي العوامل التي حملته على التفلسف بها وما هي المصادر التي ألقته إلى مثل هذه الآراء الإلهية والاجتماعية؟ عايننا أن نشير الآن بغاية الإيجاز إلى اختلاف الناس في ذلك وأن نذكر أهمّ النظريات التي اعتمدوا عليها ، فهم في ذلك على قسمين : من نسبه إلى الزهد الهندي ومن نسبه إلى مذهب الباطنية .

إن أول من نسبه إلى الزهد الهندي هو أبو الفداء المؤرخ المشهور الذي قال عنه في تاريخه أنه تذهب بمذهب الهنود فيما يتعلق بنبأتيته . فحذا حذوه اسماعيل بن كثير في بدايته وأضاف إلى ذلك أنه شككه راهب في دينه . وكذلك كثير من المستشرقين ، وفي مقدمتهم Von Kremer فون كرمر ، فظنوا أن فلسفة أبي العلاء تولدت بالفلسفة الهندية خصوصاً فيما يتعلق بالزهد ورحمة الحيوان والنباتية وفلسفة عدم . فرد على هذه النظرية رداً ما الاستاذ العلامة Nicholson نيكلسون والاستاذ البجائي Massignon حينما تساءل عن إمكان وجود علاقات فكرية بين الحلاج وصوفية الهند .

نعم يجوز لنا أن نظن أن أبا العلاء أخذ بعض الآراء الهندية التي كانت شائعة في أيامه ولكنه أخذها متفرقة لا عن مذهب فلاسفي مدين . ولا غرو في ذلك فإن الصلة بين الهند وبلاد العرب اشتدت في زمانه على يد محمود ابن سبكتكين ، ولكن المسلمين في مختلف الاقطار وإن تعجبوا من عجائب الهند ودهشوا من غريب عوائد سكانها ، فانهم ما كانوا اطلعوا على عقليتهم الفكرية اطلاقاً مكنهم من التفلسف بفلسفتهم ومن التخلق بأخلاقهم . انما اتسعت هذه العلاقات الثقافية فيما بعد القرن السابع للهجرة ففي هذا الزمان المتأخر نفسه افترت على أبي العلاء هذه التهمة التي أشرنا إليها وهي تهمة تقليده لفلسفة الهنود .

وأما النظرية الثانية التي أشرنا إليها فهي نظرية من ظن أن أبا العلاء تأثر بمذاهب الباطنية ، إن هذه النظرية قد انتشرت انتشاراً ما منذ عدة سنوات في الشرق وفي الغرب وأول من أيدها هو الاستاذ بندي جوزي من جامعة باكو في كتابه عن الحركات الفكرية في الاسلام ؟ يذهب الاستاذ بندي جوزي إلى أن ما نراه في اللزوميات من حرية الفكر والاشتراكية والسامية والمساواة الاجتماعية قد سببه تأثير مذاهب الباطنية فيها . ثم ان الاستاذ Massignon ما سينيون هو الذي لفت أنظار العلماء بصفة علمية إلى أوجه الشبه بين فلسفة المعري وبين مذاهب الباطنية خصوصاً فيما يتعلق بتشاؤمه وشكك الفللسفي . ثم أن الاستاذ Bernard Lewis الذي كان من جملة من أحس بضرورة دراسة الحركات الباطنية ، الف كتاباً للتحري عن أصلهم أشار فيه إلى تأثير الاسماعيلية في أبي العلاء وغيره من كبار الشعراء مثل عمر الخيام . ثم أن الاستاذ عمر فروخ في مؤلفه القيم عن حكيم المعري بحث عن العلاقات بين فلسفة أبي العلاء وبين مذهب الحاكيمية فان هذا المذهب ، كما يعلم ، تكون في زمان أبي العلاء وتفرع عن مذهب القرامطة .

ولا غر في ذلك فان مذاهب الباطنية ، أيام أبي العلاء قد انتشرت وتوطدت في مختلف أقطار العالم الاسلامي فاحتك أبو العلاء في كثير من دعائمهم واطلع على بعض كتبهم ، وان لم يمتنع مذهب فرقة من فرقهم .

فانه خصص أحياناً كثيرة من الزوميات لمناظرتهم عاب عليهم فيها أموراً شتى تدل على أنه تبرأ منهم فعاب على التصيرية قولهم بالتناسخ وعلى الحاكمة عبادتهم للحاكم بأمر الله وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطعمهم في الملك .

اننا ، وهذا مما لاشك فيه ولا ريب ، نلاحظ مطابقة غريبة بين بعض أفكاره وبين بعض آراء الباطنية : منها قوله باتباع العقل اباعا كاد أن يكون مطلقاً وتفضيله إياه على النقل والخبار ، وزهده المتطرف وغير ذلك من الآراء ، كما أنه شاركهم في معرفتهم بالفلسفة اليونانية التي تكثر عناصرها في الزوميات وفي غيرها .

ولكننا بالرغم من ذلك كله ليس في استطاعتنا أن نحكم باتساق أبي العلاء إلى مذاهب الباطنية حكماً قاطعاً ما دامت معظم كتبهم مجهولة أو غير منشورة ومنها بصفة أخص كتب الشيخ المؤيد في الدين داعي دعاة الإسماعيلية في أيام المستنصر والذي راسل أبا العلاء في مسألة النباتية ، والذي له عدة كتب منها مجالسه التي أبدى فيها آراء تشبه آراء أبي العلاء في الزوميات . ليس في نيتنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة مطولة فاكثفينا بالإشارة إلى هذه النظرية لكونها شاهدة من شواهد اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء .

وتقول في الختام : ان أبا العلاء في لزومياته يذكر اختلاف الناس وتنازعهم في شؤون الدين والدنيا استهزأ لاختلاف الفقهاء في التحليل والتحريم وفي الاستحسان والاستنكار كما أنه استهزأ لاختلاف المتكلمين في نظرياتهم فانه لو كان في إمكانه أن يشاهد من عالم الغيب اختلاف الناس في شأنه بعد موته لاضاف أحياناً جديدة إلى لزومياته سخر فيها من هذا الاختلاف الجديد سُخرية يمتزج فيها تهكم المرء وشفقته الانسانية وتسامحه الشامل وعواطفه السامية التي تجعله نخراً لجميع البشر فعلمنا أن نقوض سر باطنه إلى الله تعالى وأن نكتفي بالعجاب من نفاذ فكره ومهارة فنه وإخلاص دينه والسلام .

هنري لاوست

ذكري ابي الملاء

هتفوا والحمي تومج جنانه ما ضجيج الحمي وما مهرجانه
 أهشام على السرير وعن السمك يطوي لمع الضحى لمعانه
 أم وفود الحجاج تطري فتاها وابن مروان وارف سلطانه
 أم خيال من آل جفنة كالفجر يبغي بطيفه حسانه
 فكان النعمان قد حشد المر ب وكسرى زاه به إيوانه
 مادري الهاتقون أية ذكرى هيجت ربهم فرف حنانه
 تلك ذكرى أبي الملاء وما ذكره إلا الربيع أو ريمانه
 دار والدمر وحيه فتراه فلكاء ليس ينقضي دورانه

* * *

كذب الشعر ما وفي حقه الشمـر ولا أدى فضله انقـانه
 هيكل من نمومة الحس بال لم يطفه من البلى جـانه
 واديم مرجم هـده الضمف فكادت تمجـه أردانه
 ذاب حتى تخاله العين وعمأ أمن الوهم شقـه ذوبانه
 عصب نأثر ولا ثورة النا ر وفكر لم يتشد هيجانه
 اركبت الخضم في عصفة الريح فما موجه وما طفيـانه
 يطمئن العباب بعد مثار ابن منه على الدجى اطمئـانه
 لو أصابت ملكاً عضواً قوافيه لمادت من وقعها أركانـه

* * *

انما الشعر ثورة من صميم القلب ، ما لحنه وما أوزانه
 ان لويت الحديد عن مائق الشعب تلوت بسحره قضبانـه
 دول كالأحلام تدرج في الارض وتبقى ندية أفـانه

— ٣٠١ —

هدم الدهر مشمخر المباني وسما عن تهديته بنيانه
 رب تاج على جوانبه الدر - نضيد ازرت به تيجانه
 اين صوب القلوب والفكر الغر - تعالى مثل السماء مكانه
 ثورة في اعتساف كل عنيد تلتظي في وجهه نيرانه
 وهدى في الانام يلح كالصبح قتمشي بضوئه عميانه
 أي سمع لم ينسط لاغانيه وقلب ما هزه تخانه
 يطرب البلبل المغرد في الروض فتدلى من صوته أغصانه
 ويفيض القريض في المحفل الظمآن حتى يروى به ظمآنه
 لا يعز الله العزيز رجالا لم يكرم في ظلهم فرسانه

* * *

يا ضريحاً على المعرة ما استوحش منه في ليلة جيرانه
 عاف رب الضريح كل نعيم في حواشيه ذله وهوانه
 لم يفتح أما بما ترضع الام - ففدت رضيعها ألبانه
 يرح الطير في ذراه أميناً ملء عينيه في الفضاء أمانه
 حسبه الماء والتفاز من الخبز فهذا نعيمه وليانه
 ماريف القصور، ماترف السلطان، ماتاجه وما صولجانه
 رب كوخ أشهى إليه من القصر وان ماج انسه وقيانه
 عيشة الفكر لا حياة جماد مات احساسه وطاح كيانه
 عيشة الحس والمواطف والفن - ففيها صراعه وطمانه
 هكذا المرء فكرة وشمور لا جماد العرا ولا حيوانه

* * *

يفخر الناس بالآلئ من كسب حرام ، وفخره ديوانه
 لم يضره فقد النواظر فالقلب بصير تفتحت أجفانه
 قد يرى المرء بالفتاة ما ليس تراه على النوى أعيانه
 كم بصير أعمى الجنان إذا أمّ - سبيلا ضل السبيل جتانه

* * *

فلسفي التفكير إن رام فكراً
 يتهادى على خضمّ المائي
 وزن الدهر والخلائق والناس
 لس الدنيا باليدين وجالت
 فتخطى القلوب حتى وعها
 فترى اللؤم أصفر اللون يخفي
 وترى الكذب جائلاً في مداه
 وترى الخبث ثملياً يتلوّى
 ويظلم الغبي بالزهو يهنّي
 صور أملاها الزمان عليه
 يهرم الدهر والتصاوير باق
 في عنان السماء لان عنانه
 لم يفته موج ولا حسابانه
 س ولم يخطيء شعرة ميزانه
 في خبابا رجالها آذنه
 فجلاها مثل الضحى تبيانه
 نهشة الموت والاذى ثعبانه
 ثم تغدو قصيرة أشطانه
 لم يطل مكره ولا روغانه
 ما زهو الغبي ، ما هذيانه
 فرواها كما رواها زمانه
 سرها لا يمسه حدثانه

* * *

راحة القبر لحنه وأغانيه فما التذت غيرها الحمانه
 ما شفاه كماها الروح والريحان ، في دفن جسمه ريحانه
 ما ثدي كأنها حب رمان على الصدر، في الثرى رمانه
 ما عيون الغزلان والسحر فيها فانبيا في شعره غزلانه
 فكان الفناء دفاء من البر د وقد طال قرسه وأوانه
 أو كأن الهلاك ظلة حر يتلاشى في ظلها وهجانه
 امل ذاهب ويأس مقيم طال في جانبها خطرانه

* * *

أذعن الناس للسلاسل فانقا دوا واعيا أصنامهم إذعانه
 نار من زخرف السياسة فيهم فتحدى طفاتها شيطانه
 كل عالج في ظلها عربي من معدّ يسمو به عدنانه
 ما رأى منها محسناً يسع الامسة في ليل ظلمها إحسانه
 ذهب الصادقون منها على الدهر - فجاشت لفقدهم أحزانه
 وتمطى في جنبه كل دجال - توالى على الورى بطلانه

نهب الشعب واستباح حمى الشعب فمته قصوره وجنانه
 ضجّ منه أبو العلاء ومن غفوة شعب ما هاجه عدوانه
 صاح: أين الامام في الوطن الحر - تفني بملده أوطاناه
 أين أين الامام في أمة يصدق فيها فؤاده ولسانه
 لا تراه يذوب في كل لون لم يحل عهده ولا ألوانه
 انما الملك خدمة ملؤها الصدق وقلب ما يلتوي ايمانه

* * *

فسد الخلق من قديم الليالي واستوت في فساده أزمانه
 فكأن الانسان في الغار من أمس ولم تنخسف به غيرانه
 أفلا تشهد الزحام على الارض وهذي جروحه وأنانه
 كم بكى الجن والاناسي من هول ألحت عليهما أشجانه
 لم يبدل غرائز الناس علم يبدل الأرض والسما ميدانه
 وعظ الواعظون منا طويلاً ما شقى وعظهم ولا برهانه
 ليت نوحاً على السفينة والكويت غريق يعمه طوفانه
 فلمعل الايام تأتي بحيل لم تروغ سخاله ذؤبانه

* * *

خفف الهمس ما أظن رفات الشيخ يرضى بضجة لقيانه
 عاش في عزلة ومات عليها في هدوء اعتزاله رضوانه
 لم نكرم أبا العلاء ولكن كرمته آياته وبيانه
 بعثت جلق روائع ماضيه - وهذي آثاره وعيانه
 قسماً بالحمى وما نسج الفجر عليه فلا لآت أحضانه
 ليس يفنى شعب تفنى بماض ملاء الدنيا نعمة عنفوانه
 أرايتم والمهرجان صداه كيف هبت سهوله ورعانه
 يتناجى شبابها في هوى الماضى ونجوم ضممه وضمانه
 فمتى ينظم الحمى علم يحمى بشرى التفاهم خفقانه

تفنى جبري

تم

م (٢٠)

من ضحايا العقل^(١)

يغتبط لبنان ، وقد قام بقسطه من تكريم أبي العلاء في تمام الذكرى الالفية في شهر آذار الفائت ، بان يشارك اليوم للدول العربية في تشييد هذا الصرح الفخم لحكيم المعرفة، هذا الصرح الذي وضع أساسه المجمع العلمي العربي، وتبارى في رفع بنيانه فنانو العمارة في مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وسوريا ، فكان للبنان أن يأتي بحجره المتواضع ، مستوحياً من هذه الأبحاث النفيسة المتوالية علينا طول الاسبوع في تحديد أبي العلاء ، سائلاً ، ماهو سر الحيرة في هذه الشخصية العجيبة ؛ وما هي قيمة ذلك المقياس العقلي الذي اتخذته المفكر في قدر الطبيعة وما وراءها ، فاغتر بمصنعه ، مؤملاً ان يخرج به من تلك الحيرة . حتى اذا خذله المقياس ، رأيناه وهو المفكر مؤله العقل ، يهوي صريعاً من ضحايا عقله .

* * *

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جمادٍ منذ أن وقف الانسان ذاهلاً أمام مظاهر الطبيعة ، متشوّفاً ، في تفهمها ، الى ما وراء الطبيعة ، دخلت الفاسفة في العالم . وكان محورها ، ولا يزال ، هذا الانسان نفسه ، الحائر في كيانه ومصيره حيرة البرية جمعاء . يتناول بطرفه بسائط الأرض ، ويرق بخياله معارج الأفلاك ، ثم ينكفي على عالمه الأصغر ، متأملاً متسائلاً قادراً مركزه من المجتمع ، ومن العالم الأكبر بكامله ، مقابلاً بين تلك « القصة الصغيرة » على قول بسكال ، وهذا الكون الهائل ، بين مسكنة القصة نجاة جبروت الكون ، وصغر هذا الكون تجاه سمو الفكر في تلك القصة . بين اللامتناهي في الصغر

(١) الكلمات التي وردت متأخرة في تذكر في برنامج المحفلات ، وألحقت بالمحفلة السادسة وألقيت فيها .

والامتناهي في الكبر يقف الانسان وسطاً معتدلاً في هذا النظام الكوني الشامل
وإذا به المحمول والموضوع في التفكير الفلسفي . بل هو انقائس والمقياس والمقيس .
يتدرج من المظاهر الى اسبابها ، ويتقصى الأسباب إلى سببها الأول ، فيأتي بالشروح
والحلول والتعليقات المتباينة .

ويكون العقل اليوناني ، فينسق ويرتب ، ويطلع بالنظم الفلسفية على بناء متماسك .
ويبدأ النقل على عهد الامويين . فتصطدم المدينتان . وينتبه الفكر العربي من
طأنتيته ، فيسأل ويقلق ، ويحاول بدوره الحلول والشروح والتعليقات . ويحاول
الايان بالنظام المنتاسق على يد الفارابي ، بعد ان يترس بالمذاهب والبدع والاهواء
فمن قدرية يثيرون مشكلة الحرية والاختيار الى جبرية يهولهم الانتقاص . من قدرة
الله فيسكنون الى القضاء والقدر ؛ ومن معتزلة يشيدون بذكر العقل مادام العقل
يوافق نزعاتهم ، الى اشاعرة بلوذون من المنطق بالمنطق ، الى فلاسفة يحاولون
التوفيق بين الحكمة والتريعة فلا يوفقون الا الى وضع الواحدة لزاء الأخرى ،
متقابلتين حيناً متدابرتين أحياناً . وناهيك بالديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية
بطوائفها ومذاهبها من يعقوبي ونسطوري وملكاني وماروني ، والمجسوية بتنوع
مظاهرها من زرادشتي ومزدكي ومانوي ، والبوذية وما تفرع اليه من انواع
المبادات والتشقات .

في هذه البوتقة الجائشة نشأ ابو الملاء . وفي هذا الخضم المتلاطم تاهت فكرته
متلمسة مستهدية .

يترك بلدته المعرّة فريسة النزاع السياسي ، ويهبط انطاكية ، فتزججه اصداء
المجادلات البرنطية الشهيرة . فينتقل الى اللاذقية ، فتعلق عليه سكينته تلك الضجة
الصاخبة « بين أحمد والمسيح » . فيمرج على أحبار الرهبان يحاوره ويجادله . ويكون
الراهب قد « درس الفلسفة وعلوم الاوائل » ، كما يقول المؤرخون . فتفتح لأبي
الملاء على النصرانية واليهودية ، وعلاقة الدين بالدنيا والطبيعة بما وراؤها ، آفاق
يرتادها تنقلاً واتساعاً ، ولا يتوقف على نقطة منها عمقاً ونأملًا . فلا يفيد الا للمأمات
كافية لتغذية شكه واستخفافه بالمبادات على السواء .

ويُنقل به الحظ الى بغداد . وبغداد تحيىش بالمناقشات الدينية والمناظرات الفلسفية ، والمجادلات العلمية ، على حرية تامة في الفكر والقول ، واحترام متبادل بين المتناظرين ، وتساهل نسيم به اليوم - بعد الف سنة - فنضجل من أنفسنا . وقد وصف لنا الذهبي بمض هذه المجالس الكلامية بما إستعازمنه بالله واسترجع اليه . الا انه أفادنا الفأدة كلها في تاريخ الحركة الفكرية في ذلك العصر . قال في حوادث سنة ٣٧٢ للهجرة (٩٨٢ م) .

وفي هذا الزمان كان الأهواء والبدع فاشية بمثل بغداد من الرفض والاعتزال . فانا لله وانا اليه راجعون . ذكر الحميري في ترجمة ابي عمر احمد بن سعدي الاندلسي الفقيه طامة كبرى ، قال : « سمعت أبا محمد بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر بن سعدي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق فقال : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم أعد اليها . قال : ولم ؟ فقال أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة ، والبدعة ، والكفار ، واليهود ، والنصارى ، والدهرية ، والمجوس . ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فادا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس . فاذا تكاملوا ، قال قائل من الكفار : « قد اجتمع للمناظرة ، فلا يحتج أحد بكتابه ولا بنبيه . فانا لا نصدق بذلك ولا نفتد به وإنما تتناظر بالمقل والقياس » . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم أعد ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبت اليه . فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم . فقطعت مجالس أهل الكلام » .

وفي بغداد تعرف الميري الى الهجوسية وآرائها ، وإلى البوذية . أو السومانية كما كان يقال ، ومبادئها في تحريم لحم الحيوان ، والميل الى حياة صارمة متقشفة كثيراً ما تقود الى النسك الكثيب المشائم . وفي بغداد كذلك سمع بالتناسخ وابعراق أجساد الموتى ، فأعجبه هذا ، واستنكر ذلك .

وإذا أضفنا الى هذه المعلومات الدخيلة ما غذي به ، منذ طفولته ، من علوم العربية الأصلية ، وما لُقن من شعر القدماء وأحاديثهم وأساطيرهم ، صح لنا أن نبرر قوله :

ما سرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف هو « الأخذ من كل شيء بطرف » ، وهو تحديد الأدب في نظر القدماء . أو منحطيه ، نحن اليوم ، إذا قلنا بهذه الثقافة العلائية إلى الأدب في سعته وتسطحه عن العلم في عمقه وتناسقه ؟

كل هذه البذور صادفت تربة خصبة في عقلية أبي البلاء المطربة القلقة ، فنبتت كما شاءت تتجاور ولا تكاد تتعارف ، بل هي في نزاع دائم وصخب مستطيل حتى يعجّ الجدل في دماغ الأعمى ، وقد حُجب عنه كل ملهى ، وسدّ عليه كل سبيل للتسلية والترفيه ، وإذا به يحاور عقله ، ويجادل نفسه الليل والنهار ، يسأل ويقارن ، وقد لا ينتظر الجواب ، بل كثيراً ما اكتفى به استفهاماً منكراً ساخراً ، وكأنّ تنبهه إلى مواضع النقص من البشر ، وشدة استحياؤه منهم ، وحذره من غمزاتهم عليه وأقوالهم فيه .

يروّعه السرار بكل أمرٍ مخافة أن يكون به السرار

دفعته إلى اتخاذ تلك الارع من الهزء بهم ، والسخر من أعمالهم ، وأكثر ما يكون هذا السخر حاجزاً يلجأ إليه بعض الضعفاء الحيين فيفاجئون الناس بما يخافونه منهم ، وأعمى المعرة كان من هؤلاء فسخر وأسرف في السخر ، حتى لم ينبج منه أحد ، لا من كبار القوم ولا من صغارهم ، لا من رجال الدين ولا من رجال الدنيا ، لا من الأحياء ولا من الموتى ، لا من عامة البشر ولا من الأنبياء ، لا من الملائكة ولا من الجن ، وكان يتزج هذا السخر بشيء من الحسرة ولد تشاؤماً كثيراً وسوء ظن بالناس لم يختص بالنساء وحدهن بل شمل بني آدم أجمعين ، وارتقى أحياناً إلى الخالق نفسه .

وكان من نتائج هذا الغليان الفكري ، ومن أثر تلك الحالات المتناوبة عقلية الشاعر الحساسة القلقة ، شذور أحكام وشق آراء مسكوكة سكة النقود الملعلة يتداولها الناس فيستنتجون منها المذاهب المتناقضة ، والعقائد الغريبة ، يُزري عليه بعضهم إلحاده الوقح ، ويبرئه غيرهم من « وصحة الكفر الشنعاء » ، ويقومه فريق آخر زعيماً لأرباب الشك والارتياب ، ويبني له غير هؤلاء صرح الفلسفة المادبة عالياً ، ولكل فريق أسانيد صارخة في « اللزوميات » وفي

غير « اللزوميات » ، يشرحونها ويؤولونها ، ويعلقون عليها ، وكل حزب بما
 لديهم فرحون .

بيد أن الخطب أيسر من ذلك في نظرنا ، فليس أبو العلاء بالكافر الملحد ،
 ولا بالمومن المستسلم ، ولا بالشاكّ الحائر شكاً علمياً ، ولا بالفيلسوف المادي . إنما
 هو ذكاء حاد ، وعقل معجب بذاته حتى الغرور ؛ وشعور مُرهف بوطأة
 مصايبه خاصة ومصايب قومه عامة ؛ وفضول مستيقظ لما يقال في زمانه — وفي
 كل زمان — في جور الحكام ، وفساد الأخلاق ، وحيل النساء خاصة ، ورياء
 رجال الدين ؛ وبقية إيمان في قرارة النفس تكاد تخنقها هذه الموجات الطامية ،
 ثم هو ، فوق ذلك ، بلاغة صارخة على هدوئها ، وحجة دامغة ، واستنتاج
 جارف لا يقف لدي تحفظ ، ولا يأخذ باحتياط ، ومقارنات مفاجئة كانت
 في أصل ذاك السخر الهدّام .

ولكان أبو العلاء غير هذه الشخصية المبدّدة لو أمكنه أن يتعمق في
 درس الأصول الدينية فيميز بين الشريعة في روحها ومظاهر تطبيقها في العالم
 ولا يحمل النبؤات نفاق بعض اتباعها ورياء بعض ممثلها . ولو أمكنه ، كذلك
 أن يتلقى المبادئ الفلسفية على وجهها الإنساني الأصيل ، غير مكثف بفنار
 الجدالات وزبد المناظرات ، لما اغترّ بالعقل الحسي المشترك وحده يجعله إمامه
 في كل شيء .

هذه خطوط عامة في تصوير شخصية أبي العلاء ، قد تكون متقطعة وقد
 تكون واهية ، ولكنها ضرورية في نظرنا ، لتمثل المفكر قبل الولوج إلى فكرته .
 أما موضوعات هذه الفكرة أو أهداف الحملة الملائية ، فقد تُردّ إلى أربعة :
 ١ — العناية الألهية . وهي ، لو كانت موجودة ، لعنيت بالنظام والعدل
 في هذا العالم ، فلم يسيطر فيه الشرّ ولم تتوال المصايب على أبي العلاء ؛ تلك
 المصايب التي لم يجد لها سبباً في أعماله ، ولا في حياته الخاصة المكتنفة
 بالعفاف والزهد .

٢ — الحقائق الدينية بمحملتها في جميع الديانات ، والشرائع التي تسمح للناس
 بالاساءة إلى الناس .

٣ — مصير النفس بعد الموت ، وكل ما تعلق بذلك من بمت و ثواب وعقاب .
 ٤ — هذا المجتمع البشري الفاسد الذي لا دواء له إلا قطع النسل . ومن هنا حملته على الزواج ، وبالتالي على المرأة .
 وقبل أن نشهد الأعمى في هذا المعترك اليائس ، لتفحص معداته للقتال ولتتعرف مقياسه ، فنراه أعزل إلا من العقل .

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ، ما إمامي سوى عقلي
 ولكن أي عقل هو ؟ ولأي شيء يصح مقياساً ؟

ينتج من اللزوميات أن المقصود بهذا « العقل » الذي يردد ذكره أبو الملاء في أكثر الصفحات ، فيلوذ به كما عرضت له مشكلة ، هذا الحس ، أو الإدراك ، أو بادي الرأي المشترك بين الناس يأخذون به في اختبارهم اليومي وأحكامهم الجارية ، هذا الإدراك العامي الذي جعله ديكرت مُشاعاً بين البشر .
 هذا العقل الحسي الشائع يصلح مقياساً للمحسوسات ، فهو سيد في منطقته المادية ، أما إذا ارتفعنا به إلى ما فوق فلا يرى إلا الانكار والنفي ؛ حتى في الشؤون الطبيعية التي لا تقع تحت حسه ، كأن ينفي في القرون الوسطى أن تكون الشمس ثابتة والأرض تدور ، وكان من حقه أن ينفي ، لثلاثين سنة خلت ، أن يسمع أهل دمشق مثلاً رجلاً يتكلم في بغداد .

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسلم به أبو الملاء فأقبل على الكون بأجمعه ، يقيس كل شيء ، ويجادل في كل شيء ، تحت راية ذلك العقل ، فلا عجب أن يُشير كثيراً من الغبار ، ويحدث ضجة ، لا تزال أصدائها تتردد حتى اليوم في أنحاء الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامة ، وأي فرق بين هذا الشاعر المفكر والرجل العامي لا يفهم أحكام ما يفوق « عقله » من الشؤون فيزري بها ، سوى تلك اللذعة التهكمية ، وذاك التساؤل المغربي بالتشكيك واللاأدرية ، أو لم يقلد المعري في « عقله » كثير من الشعراء ، ففرضوا الاستفهامات عديدة في مجالي الكون ، وتصوروا أنهم أدركوا قمة التفكير الفلسفي إذ أجابوا عن كل ذلك بتعبير واحد : لست أدري !

ذلك أن لكل مقيسٍ مقياساً خاصاً ، ولكل نظامٍ في العالم محكا من وعه ، فلا تكال الأرض بالصاع ، ولا يقاس الفكر بالقفران .
ولا نرى أبا العلاء ميز في صلاح مقياسه العقلي بين نظم العالم المتدرّجة من الطبيعي المادّي ، إلى الانساني الفكري ، إلى الالهي فائق الطبيعة ، فكان لا بدّ من فساد النتيجة إذ فسدت المقاييس ، وكان لا بدّ من أن ينفي وجود الملائكة والجن كما ينفي وجود فلان من الناس في بيته مثلاً ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لا يحسّ بها :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحسّ لجنيّ ولا مملوك
أخذ أبو العلاء بهذا المقياس في اختبار المادّي فصحّ مقياساً الأحكام ،
وأمكنه أن ينفي وجود الفلان في بيته لأنه لا يحسّ به . فخال المقياس صحيحاً
كذلك في الشؤون الفارقة المادّة ، ومنّ من المفكرين لا يميز بين هذين
العالمين الفارقين ، فينتقل من الواحد إلى الآخر بالمقياس نفسه ؛ إلا إذا شاء
أن يتظرف أو يتأخف فعل أبي نواس ، ولا نزاه بعيداً عن أبي العلاء في
استخدامه هذا المقياس :

ما جاءنا أحدٌ يُخبّر أنه في جنة مذمات أو في نار !

وينتقل الشاعر بمقياسه من الجن والملائكة إلى الله فيقول :

أما الإله فإني لست مدركه

وهو على حقّ وإخلاص في قوله ، لانه لن يدرك الإله عن هذا الطريق .

على أن الطبيعة الإنسانية ، طبيعته التامة ، كانت كثيراً ما تتور على هذه

النتائج المنطقية الفاسدة ؛ فيسكن أبو العلاء إلى الإيمان :

أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر النفاة

* * *

انفرد اللهُ بسلطانه فإله في كل حالٍ كفاء

ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء؟

ثم يمود بقله إلى العالم الروحي ، فيزى الديانات المتباينة والعبادات المختلفة ،
والسرائع المتناحرة أحياناً ، وكلها تدّعي صحة الدين ، وطهارة الإيمان ، والعمل

على خلاص البشر ، فيضيع مقياسه في ذلك ، ولا يرى أفضل من أن ينكرها جميعاً ،
حاكماً عليها بالضلال لأنها تخالف « العقل » :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت والهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا دين ، وآخر دین لا عقل له !

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاوت بالمذاهب وازدراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقلٌ تشدُّ به عُراها !
وذاك ان اختلاف العبادات يظهر جديراً بالازدراء في نظر هذا العقل ، فلو كان
الجوهر واحداً ، لما تباينت الأعراض :

عجتُ لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى : إله يُضامُ ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود : إلهٌ يُحب رشاشَ الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من اقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم ! أيعمى عن الحق كل البشر (١)

أجل هذه مفاعيل المقياس المادي الضيق الذي لا يمكنه أن يتجاوز الأعراض
الى الجوهر الروحي لأنه من نظام مادي . ولا مندوحة لنا في قدر هذا الفرق قدره
الصحيح من تذكر ما أشاد به بسكال من تدرج الأنظمة في العالم : النظام المادي وله
مقاييسه ، والنظام العقلي وله مقاييسه كذلك ، والنظام الروحي ، أو نظام المحبة ،
وله مقاييس خاصة . ومن لم يتح له تجاوز النظام الى تاليه فيستعمل لكل نظام
مقياسه الخاص ضدّ ولم يستصبح بنور . هذا المعري يرى تنوع الديانات في
اعراضها فينكرها جميعاً ويرمي أصحابها بالعمى . وهذا ابن عربي يتحقق التنوع
نفسه ، ولكنه يتجاوز في حكمه نظام المادة الى نظام المحبة فينفذ من الأعراض
المتباينة الى الجوهر الموحد ، فيتحقق ان لامعبود في الواقع الا الله ويصبح :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ فرعى لغزلانٍ ودير لرهبان
وبت لأوثانٍ وكمبة طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحف قرآن

(١) سواء اهتمت نسبة هذه الايات أم لا فانها تصور الفكرة العنصرية في صميمها .

أدين بدين الحب أنى توجهت ركايبه فالحب ديني وإيماني

*
* *

ولنعد الى إله أبي العلاء، الذي يعود اليه بعقله ، فلا يمكن أن يتصوره خارجاً عن الزمان والمكان . وقد كان مشكل ازلية العالم لا يزال يحير الأدمغة في ذاك العهد . فإذا كان العالم أزلياً ، كان الزمان - وهو امتداد الحركة - والمكان - وهو امتداد الاقطار - ازليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر، ما استطاع الخروج من الدهر
فصار الله ضمن الزمان وضمن المكان :

قالوا : لنا خالق قديم قلنا : صدقم ، كذا تقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ؛ ألا فقولوا :
هذا كلام له خبيء معناه : ايست لنا عقول !
اما الجنس البشري في هذا العالم الأزلي فليس من الضرورة ان يبدأ بأدم
المعروف ، بل قد يرقى في القدم الى الأزل . ولم لا ؟

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جأز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم ؛
والديانات ظواهر اجتماعية تأتي وتزول :

أتى عيسى فأبطل دين موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحییء دين بعد هذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

ولا تترك بيننا إلا التفرقة والاحن والمداوات :

إن الشرائع ألفت بيننا إحناً وأورثتنا أفانين المداوات
وهل أبيضت نساء الروم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات
ثم يتناول الشرائع وتناقضها الظاهر في نظره :

يد بخمس مئين عسجداً ودبت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له وأن نموذ بمولانا من النار

وهو فساد قياس أدبي إليه سوء الفهم لروح الشريعة . وقد اتقنه له الكثيرون ممن تعقبوا المعري بالنقد والرد والشم والتكفير . قال ياقوت جامعاً كل ذلك « كأن المعري حمار لا يفقه شيئاً . وإلا فلراد بهذا بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار لكثير سرقة ما دونها طمعاً في النجاة . ولو كانت اليد تودي بربع دينار لكثير من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . نعوذ بالله من الضلال ؟ »

ومن المشاكل التي اثارها خيال المعري ، وأرهفت حسه ، وأقلقت عقله مشكلة الانسان : كيانه ومصيره .

أولم يكن من الافضل ألا يكون ؟

رب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهي بين ذاك وبين
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبمئت انت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحاليين
أما الموت فيتوق إليه المعري على خوفه منه . يتوق إليه لان فيه راحة وغنى
ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
تمب كلها الحياة فما أعجب الا من طامع في ازدياد

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج

* * *

فما لي أخاف طريق الردي وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ومال ملك
ولكنه يخاف على الرغم من هذه المحاولة في الاقتناع
وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استذبحه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده ، جتي عدن
ويقول ، وملء جوانحه الرعب والأسى :

يهال التراب على من ثوى فاه من النبا الهائل

ثم يخلص نفسه ، فيتصور انقضاء اجله واهتمام الناس بجفر قبره في تلك الصورة المفزعة :

يكر الحول بعد الحول عني
كأنني بالاولى حفروا لجاري
وأماما وراء الموت ...

أما الجسوم فللتراب مآلها
ولندعه على عيه بالارواح هنيهة ، منصرفين الى ما يستخرجه خياله الخصب
من نهاية الجسد وتحوله الى تراب :

تعود إلى الارض أجسامنا
ويقضي بتنا فرضه ناسك
وتلحق بالعنصر الطاهر
يمرّ اليدين على الظاهر

* * *

تيمموا بترابي علّٰ فلكم
وان جعلت بحكم الله في خرف
بعد الهمود يوافيني بأغراض
يقضي الطهور، فأني شاكر راض
فاذا كان الانسان نهايته الى إناء الفخار

فلايس فخاراً من الفخر عائد
لعل إناء منه يصنع مرّة
ويحمل من أرض لارض ومادري
فواها له بعد البلى ، يتغرب
وأعجب بتغرب هذه العناصر بعد هلاك المركب الجامع .

وما أقرب فكرة التحول هذا إلى رباعية الخيام ، وقد دخل معمل الخزاف
فتخيل سماع الأرواح ترتفع إليه من خلال الطين المجهول ! قال (في تعريب
وديع البستاني) .

أمس أبصرتُ جارنا الخزافاً يجمّل الطين كيف شاء اعتسافاً
ويكيل المقدار منه جرافاً

وكأنني سمعت بسين يديه صوت مظلومة تشكي لديه
آه رفقاً ! فأنت طين وماء أيها المرء ، لا تسمني العذابا !
هذا النفع المادي من مآل الأجسام البشرية يتوسع فيه أبو العلاء حتى
التصورات المزعجة . فيذكر أجساداً كانت جذيرة بالصون وقد صارت في
طلاء الجدار .

وكم من رجال جسومهم عُفُرُ تبنى بهم أو عليهم الجُدُرُ
وهذه الصورة ، وهي أروع وأشد وقماً لما فيها من التخصيض والتضاد :
لعل مفاصل البناء تُضحى طلاءً للسقيفة والجدار
ويبلغ به التصور الخيالي أن يرى سطح الأرض كله من تراب الأجسام
فيربأ بالمتى أن يدوسهم الأحياء :

خفف الوطاء ما أظن أديم الأَرْض إلا من هذه الأجساد
سِرٌّ إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيلاً على رفات العباد
وقبيح بنا وإن قدم المهدي هوان الآباء والأجداد
وكيف بهذا التصور الفسيح الغفّي إن علق به الشاعر الفارسي فأشار
إلى عادة الفرس في إراقة القطرات من الكأس قبل شربها :

ماُ جزافاً ما قد أراق السقاة ! لا لعمري بل تكلمُ صدقات

إنما الترب يا ندامى رفات !

فليرقوا فتلكم القطراتُ لكبودٍ تذيبها الحشرات

وليريقوا لعلها مطفئات لوعة في الثرى توجع الهباب !

* * *

هذا مصير الأجسام . وأما الأرواح ، وهي لا تقع تحت الحس ، فلم يكن
لعقل المعري أن يجيب عن مصيرها بشيء .

فهل تحس إذا بانث عن الجسد ؟

أم انها تنتقل من جسد إلى جسد وفقاً لزعم الهنود في التناسخ ؟ وهل
تدخل جسد الحيوان في تنقلاتها ؟ وهل هناك بث ؟ وحشر ؟ ودينونة ؟

أما العقل فيقول :

ولم تربطن الأرض يلقي لظهرها رجلاً كما يلقي الى بطنها الظهر

* *

تعطنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك

ويرفض التناسخ :

يقولون إن الجسم يُنقل روحه إلى غيره حتى يهذه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلةً إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل !
واما بقية الايمان فتصيح :
وقدرة الله حق ليس يُعجزها حشر لجسم ولابعث لأموات

* * *

اذا ما أعظمي كانت هباءً فان الله لايعميه جمى
بل هي تناضل عن هذا الايمان بالبعث ، وتراهن عليه ، قبل الغزالي بتصف
قرن ، وقبل بسكال بستة قرون :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لامعاد . فقلت : ذاك إليكما
ان صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي ، فالوبال عليكما

* * *

وكيف يشيب الله الناس أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهم غير مخيرين فيها .
وهل في هذا الكون القديم السائر منذ الازل الى الابد ، مكان لاختيار أو
أثر لحرية ؟ وكيف يؤمن العقل بالحرية والتخير .
والمرء يقدمُ دنياه على خطرٍ بالكره منه ، وينأها على سخط ؟

* * *

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي ، فهل لي بمدتخير ؟
كان عراك الجبرية والقدرية قد خفَّ في المجتمع الاسلامي . ولكنه لم يخف
ولن يخف في الفكر البشري ، وهو المقابل بين معرفة الله الشاملة وارادته المطلقة
من جهة وعدله بين الناس في توزيع الثواب والعقاب وما يفرضه ذلك من مسؤولية
فردية وبالتالي من حرية اختيار .

اما ابو العلاء فقد كان جازماً في حكمه ، غير متردد في استنتاج كل ما يمكن
من هذا المبدأ . فحمل على القائلين بهلاك من يفعل الكبائر .

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على مايفعلُ
وتجاوز حتى جعل المدح والذم لامعنى لهما لأن الانسان غير مخير في اكتسابهما.
وقال إن تأليفه الكتب ونظمه الشعر بقضاء وقدر .

وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح الاصلاح لا يرجى في المجتمع ، وظل
الانسان شريراً بطبعه ، كما بقول ، وظل الفساد غريزة فيه ، لا يمتاز أحد عن
الآخر في هذا الأمر :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع ، أسوء
أو كان كلّ بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت للناس حواء
وإذا فقد كان طبيعياً أن يفضل المعري الحيوانات على البشر ، بل يفضل
تسريح برغوث على عمل الإحسان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً !
اما الخلاص من الشر الاصيل في البشر فلا سبيل اليه الا العدم أي قطع النسل :
فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء
ومن نظريات المعري الحبيبة الى قلبه ان الآباء يجنون على ابنائهم :
على الولد يجني والد ولوانهم ولاة على أمصارهم مُخطباء
وهو مايرر تلك الوصية الغريبة التي شاءها ان يكتب على قبره :
هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد !

ولا سبيل الى قطع النسل الا بتحريم الزواج ، فينقطع بذلك الشر في العالم .
وقد سهل له عقله ، وهو الشفيق على البرغوث ، أن لا يتراجع عن وأد البنات :
ودفن ، والحوادث فاجمات لإحداهن احدى المكرمات
بل ان عقله هذا يقوده الى تصور امور يتسم لها في التساهل بتزويج البنات
شرط أن لا يزوج البنون :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعها وخوف ابنك من نسل وتزويج
ولا نعلم بما نمتذر عنه في حملته على النساء . وما كانت تلك الحملة مقصودة
لنفسها . الا انه جر إليها في حملته على النسل البشري . ولو لم توجد المرأة لكان
ذلك بدء السعادة . اما وقد وجدت فينبغي .

لرومها البيت مع اهتمامها حتى يجيها الوفد من حمامها
وطبيمي أن يكون تلميم النساء امرأ مفروغاً منه في نظر المرعي :
علموهن الفزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ص نغني عن يونس وبراهه

* * *

ولا تحمد حسانتك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلبات
وإذا كان لابد لهن من تلاوة شيء من القرآن فلينظر الى عجوز متناهية الكبر
فاقادة الاسنان :

ليأخذن التلاوة عن عجوز من الالائي ففرون مهتمات
بسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متألمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من شيخ ضيرر يلقنهن آيا محكمات
سوي من كان مرتعشاً يدها ولته من المتشغفات
وكأنه يتصور مطالب النساء الكثيرة ومراميهن البعيدة فيرسم لهن تلك
الصورة المتحركة على مهلها :

أعوذ بالله من ورهائه قائلة للزوج : إني الى الحمام أحتاج
وهمها في أمور لو يتابها كسرى عليها، لشين الملك والتاج!

* * *

ولم يفت نظام المجتمع فكر المرعي ، وقد كثر فساد الحكم في عصره . فحكم
عقله في السلطة ومبداها ، وطلع علينا برأي كان جديداً في القرون الوسطى
المؤمنة بان كل سلطة من الله الخالقة حول صاحب الامر هالة من الكرامة
والتبجيل . واذا باعنى المعرة يفتح أبصار الناس على أن مصدر السلطة الشعب
وان الامير خادم الرعية :

من المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها ، وم أجراؤها !

ثم يستنكر عقله أن يكون البشر طبقات مميّزة في الشرف والحقوق وهم
متساوون في الاصل والجيله ، فيصيح :
لا يفضرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا ككقنبر
هذه المساواة بين البشر يريدونها كذلك في الممتلكات ، رامياً الى شيء من
الاشتراكية ، لفظاً على الاقل :
لو كان لي ، أو لغيري قدر أئمة من البسيطة ، خلت الامر مشتركاً

**
*

من الاله ؛ الى النبؤات والشرائع ، الى مصير الاجساد والارواح ، الى
مظاهر المجتمع . لمحات خاطرة ، ونفذات مشمة ، وأحكام تتفاوت خطأ وصواباً ،
وآراء تتباين عمقاً وتسطحاً . هي حجارة من مقال مختلفة تحتها الشاعر الجاهد
فزخرف بعضها ، وصقل البعض الآخر ، وتركها مبثرة معالم على طريق المفكرين
دون أن يشيد منها ذلك الصرح الموحد التصميم ، الموحد البناني في التفكير
البشري المتناسق . إلا أنه ، وإن لم يوفق الى السير في سمت الفلسفة الانسانية
السوية ، فقد كفاه غمراً أنه بدأ ، منذ ألف سنة ، يجر هذه الاداة العجيبة التي
تجعل من الكائن البشري انساناً كاملاً ، ألا وهي العقل !

فؤاد افرام البستاني
مندوب لبنان

من هو ابو العلاء الممرى

ولم تقام المهرجانات لذكرى مرور الف عام على ولادته

ما كان ابو العلاء الممرى نبياً جاء بدين يهدي البشر الى الصراط المستقيم ولا خليفة راشداً استن لامة سنناً تهديهم الى سبل الرشاد . ولا ملكاً عزيز الجانب لم تأخذه في الحق لومة لائم . ولا قائداً فاحماً وسع ملك العرب وسلطانهم ، ولا بطلاً رداً عنهم غزاة بلادهم ، ولا مجتهداً وضع لامة مبادئ قادتهم الى الخير ، ولا مكتشفاً ضم الى بلادته بلاداً اخرى ولا مخترعاً اوجد لامة ما هون عليها مشقات العمل .

ولكن الروح الانسانية تواقه بفطرتها الى الافكار والسوانح العلوية التي تعبق من مهبط الكمال في ظلمات اسرار الخليقة فتتير السبل وتدفع البشر الى العلاء .

والذكاء والمعرفة أعلى ميزات الانسان وأجلها ، فاذا اقترنا بالعقل والوجدان كانا كواكب منيرة في ظلمات الخليقة يهتدي بها العاشي في حالك المضلات . واذية الانسان وحرسه على صيانة ما يخصه من كل جامعة تجعله يقدس من تخلق بالقواعد التي وضعها البشر لهذه الغاية واحترام كل من يدافع عنها بالقوة او باللسان . واذا كان هذا التخلق والدفاع في زمن كثر فيه الاستهتار واشتدت فيه قوة الاستغلال زاد صاحبه اكباراً واجلالاً في نظر أمثاله من بني الانسان .

واذا جاء بأكثر مما كان يطلب منه استجلب الانظار اليه واختص بتقدير من لم يكن قادراً على مساواته وأصبح بنظر الناس من الأئداد . وابو العلاء الممرى كان خلوقاً جريئاً قوي الروح والارادة زكياً عالماً قادراً على التعبير عما يخالج نفسه من عواطف وأفكار وانتقاد كل ما لم يقبله الخلق الكامل

والعقل السليم بحرية وجرأة وبلغة متينة غير مبال بما تأتي به آراؤه بالنسبة الى عصره من مقت ونكبات .

وقد تغلب فيه جوهر الروح على جوهر الجسد فكبح جماح شهواته المادية وعاش عيشة الزهاد المتقشفين مكتفياً بما يمسك مسكة حوبأه من طعام وشراب وتغذية روحه بالدرس والتفكير والتدريس والنظم والتأليف ، غير ملتفت الى قيود محيطه الذي ساد فيه القلق والاضطراب وضجيت فيه الحرية في سبيل ممارسة خصائص الحكم التي كانت تستلزمها حالة الاجتماع آنئذ .

وهذه الخصائص وهذا الاعتكاف على الدرس والتفكير الذي اتخذ فيه الحياة الانسانية كلها موضوعاً لتفكيره والتأمل بحل معضلاتها جاء بينات أفكاره التي استجلبت اعجاب الادباء والعلماء من سائر بني الانسان .

ان منشأ حبنا وتصورنا ومخاوفنا وآمالنا وحسراتنا ورجائنا هو النفس وليس العقل الذي هو آلة الفكر والمحاكمة ، فالنفس هي ينبوع الفياض لمواطننا ، والمواطن هي الجوهر الأصلي في انسانيتنا والفكر واسطة لتسميتها وتفسيرها واللسان وتر ما يلد في وجداننا من المواطن المنبعثة عن حالاتنا النفسية .

وهناك بعض تجليات نفسية عميقة لا نستطيع التعبير عنها بلغة الكلام تذهب بنا الى فكرة يأس عميق أو سرور ظاهر .

ومن هذا يمكن وجود مسلكين متناقضين من فكرة واحدة أحدهما يشقي الانسان والآخري سمده قليلاً أو كثيراً ، والأول هو التشاؤم والثاني هو التفاؤل ، واذاً ليست مسألة التشاؤم والتفاؤل الامسألة مزاجية .

فاذا نظر الانسان الى الاكوان الخارجية وصحف حياته نظرة تقدير يحاول بها تعيين التقيم فلا ينظر الا من وراء أحواله النفسية فيرى الدنيا جميلة او قبيحة والحياة سميدة أو شقية على نسبة اتعاشه المعنوي .

واللذة والألم والسرور والحزن حالتان أصانيتان في الحياة الانسانية وكل حالة منهما يتلازم فرعاها مردودين الى شكل عام من أشكال الشعور ينتهي بنا الى القول بأن من لم يتألم لا يتلذذ ومن لم يحزن لا يسر وان الوجدان البشري بحر خضم مجهول الحدود لا ينال غوره تمر به الرياح والعواصف من حين الى

آخر فتشير فيه أمواجاً يعجز العقل عن استيعابها وهي ما نسميه وحياً والهاماً وتلك الأمواج هي الحالات النفسية ، والانسان على استعداد عظيم لحمل الكون الجامد الصامت بأسره على لسانه وهذا هو الشعر في اعم وأتم معناه والانسان يمثل هذا الاستعداد انما يأنس الى الأكوان فينطقها ويقبس منها معاني وأفكاراً تصلها به الصلة التامة فيمد الكون بالمعاني .

وما الشاعر الفذ الا ذلك الذي يمد الكون بالمعاني البليغة ويخترق حجب الحياة والموت ويهز النفس أبدأ لسورة إلهامه ويزن الحياة بالقسطاس المستقيم . وليس من أمر انساني يفوق أهمية أمر تقويم الحياة وتفسيرها بالمعنى الصحيح الا أن الناس لم يختلفوا في أمر قط اختلافهم في حل هذه المعضلة المويضة ، لما يكتنف مزاجهم من مجلى حالي التشاؤم والتفاؤل وما صنع أفكارهم من صبغة الأمل الباسم أو اليأس الباكي .

وان أروع الشعر واجمل البيان هو ما استطاع أن يكشف العواطف المسترسنة المتصلة بقضايا الموت والحياة والسعادة والشقاء التي تتلاطم أمواجها في قفوسنا دائرة على قطبي اليأس والرجاء .

ولمقايد الانسان في المعاد والآخرة اتصال وثيق بانصراف أفكاره وعواطفه الى نظريات التفاؤل والتشاؤم وللايمان وشكوكه آريين في تلك العقائد ولتقديره الكون قائماً على الاتقان والنظام وعدم يقينه بذلك دخل كلي في إيمانه وشكوكه فمن لم يؤمن بالعدل المطلق لا يؤمن بالآخرة ، ولهذا المباديء أكبر صلة بالخير والشر فمن يعتبر الخير أصلاً وعلّة غائية يظل متفائلاً ومن يعتبر الشر أصلاً في الخلق لا يعيش الا متشاؤماً .

ومن هذا نستنتج ان الاصل في السعادة هو الاطمئنان النفسي وهذا مبثت الايمان . والايمان خارج عن اختيار الانسان لانه لا بد فيه من الهام قدسي خاص أي هداية كما قال تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي التشاؤم الاقرار بأن الشر اصل في الوجود ، وقد كان المعري من عباقره الشعراء الذاهبين الى الشق الثاني ويرى أن الدهر قائم على الاتلاف والافساد والمجتمع منصوب على القدر والخيانة وأن النظم البشرية التي يسير

عليها المجتمع بعيدة عن تقويم الحياة والقسطاس المستقيم الذي يريده العقل ، وأن لاشي' قائم على الاتقان والنظام والعدل والمساواة ؛ فأراد أن يفهم الكون بجميع المعلومات الناجمة عن تجارب البشر والاديان وتاريخ الانسان على العموم ، فدار حول دائرة المعارف الانسانية الصغيرة في وسط فضاء الظلام الواسع يدرس ويفكر وهو الشاعر الملمهم والحكيم الواعي ، والفيلسوف اذا سار مع ميوله الطبيعية وتذوق بالشبه ولم يكبح جماح خياله وقع بالشك وانتقاد للمؤثرات النفسانية التي تهاجمه من كل صوب وحذب فتطوَّح به للانكار وتزمله بالتشاؤم في كل أقواله وأفكاره .

وعمي المرعي في الرابعة من عمره وقساوة محيطه وعيشه وما أوتيه من الاحساس الرقيق دفعه لانتقاد كل ما لم يقبله عقله ووجدانه غير هيّاب ولا وجل . فصور آراءه في شعره ونثره غير ملتفت إلى قيود محيطه وعتيدته فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية ووقف حائراً يقول :

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهاوما في حندس نتصادم
ونظر إلى موت أصحابه الذين سبقوه إلى دار البتاء ، فرأى هناك سرّاً
غامضاً تقف العقول عنده حيرى كليلة فقال :

أما الصحاب قدمروا وماعادوا وبيننا بلقاء الموت ميمادا
سرّ قديم وأمر غير متضح فهل على كشفنا للحق اسعادا
سيران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه اصعادا
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وإيمادا
توقموا السيل، أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع ارعادا
وتراه تجاه هذا السرّ المبين ينتقل فجأة إلى تقويم الحياة وبيان ماهية

الوجود فيقول :

كل ذكر من بعده نسيان وتغيب الآثار والأعيان
إنما هذه الحياة عناء فليخبرك عن أذاها العيان
ما يحسّ التراب ثقلاً إذا ديس ولا الماء يتعب الجريان
نفس بعد مثله يتقضى فتمرّ الدهور والأحيان

ومرثيته الخالدة خير معبر عن فكرته في الحياة التي لا يرى فيها ما يستحق
منه دعة أو ابتسامة حيناً يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعمي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلکم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميَّاد

ولكنه سما بتفكيره إلى عالم الحقيقة عالم القيم المحضة المعينة المستقر الذي
لا يتغير فُجذبه نحوه كالغناطيس وعلا به إلى مكائنه المليا ووهبه قوّة على النهوض
فوق قوّة مستواه الطبيعي فرأى أن العالم ليس مجرد مجموعة ذرات مادية
محسودة بدون معنى وأنه ليس مجرد فراغ تدور حوله حياة الانسان ، فقال :
بوحداية العالم دنا فذرني أقطع الأيام وحدي
وقال :

انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء

ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء

والبيت الأول لا يمدو قول الله عزّ وجلّ (قل هو الله أحد) إلى آخر
السورة ، لأنه يثبت الوحداية ويثبت القدرة بلفظ القرآن .
وقال :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل

وهنا يقصد استقرار الموجود المطلق ، ثم قال :

والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صار

وهنا قال بعالم لا يتناهى ومكان لا يتناهى وإله في هذا العالم لا يتناهى .
وقال :

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك

له العزم يشركه في الملك غيره فيا جهل إنسان يقول لي الملك

وأيامه منظومة في حياته ولا نظم يبقى حين يمتلي السلك

خلقنا لشيء غير باد وإنا نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

وهنا استمد ضرورة الايمان من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت بها الافكار وهو يرى اننا خلقنا شيئا غير باد لعقلنا المحدود .

وهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الآخرة وعبادته الموجود المطلق عبادة خالصة لوجه تعالى ، لاحيا بجنته ولا خوف من ناره ، ومنها :
وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر الخلق ولا بعث لاموات
فالعجب لعلوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن تعبد اعظام واجلال
اصون ديني عن جعل أوءمله اذا تعبد اقوام باجمال

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
مادامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح امر النسك للاسد

وقد وضع على ما يفهم من نصوص الكتاب في زمن متأخر من حياته كتاب
الفصول والغايات بقدرس الله فيه ويبجله بقديس النادم المستغفر الذي يعتقد أن
ذنوبه اعظم من ان تغفر واشد من أن تجدد مجالا للغفران .
وللتدليل على ذلك اذكر لكم مقاله في هذا الخصوص :

(استغفر من لا يعزب عليه الغفران لو كانت الذنوب سودا صارت بشرتي
كلك انغراب واصبح دمي كالحبر المستنعت للكتاب واعدت ماجورني من وقت
ومكان حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظاما وانا في رأد الضحاء) وقد
وضعه في تمجيد الله والمواعظ ، وقال :

(قد علم ربنا ما علم اني الفت الكلم آمل رضاه المسلم واتقي سخطه المؤلم فهب
لي ما بلغ به رضاك من الكلم والمماني الغراب) . والكتاب من الناحية العلمية
متعة الاديب وامنية العالم ملاءة بشق العلوم من اللغة والادب والعروض والنحو
والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك ، بث فيه كل ما وعاه صدره من العلم
وغيره مما لم يسبق لغيره جمعه بالطريقة التي سلكها ذلك انه يبلي الفقرة على تلامذته

ثم يختصمها بالغاية وهي عنده منزلة القافية من بيت الشعر، وقد تطول الفقرة وقد تقصر ثم يملئ التفسير .

فالمعري شاعر حقيقي وفيلسوف مزاجي واكبر مميزات شعره انه صادر عن الم فياض وهيجان نفسي، ولكن آراءه ساطعة وطراز تفكيره موافق لاصول مراقبة الوجدان وسبيل استدلاله مثال للمنطق الحسي وسلسلة محاكاته تنطلق من تموجات حواسه ، وطول عراكه في ظلمات الحياة ساقه للفضب وانكار قدسية الاديان .
 وذهن المعري فعال في كل ميادين الحياة . وجوامع الكلم التي جاء بها غذاء روحي للمثقفين من ابناء الامة العربية .

وفعالية المللكات المعنوية في كل مؤلفاته والتنوع الذي لم يسبق اليه يجلبان لنا الدور الذي لعبه العقل والحس والالام وكلها تحتاج الى فكر وقاد ووجدان رقيق حساس وعلم جم والهام رائع يجب ان يحاكم من اتى بثلها وجدانه قبل ابرازها محاكمة دقيقة وان يتنور كل ما يحيط ويتمركز في قرارة نفسه ووعيه لانها لاترد عفوا ولا يمكن أن تأتي من العدم بل هي ثمرة عملية ذهنية مصقولة جريئة وليست مما يقدر أن يأتي به كل انسان بل خص بها الافذاذ وصقلها العلم والتفكير ولذلك فان شاعرنا الفيلسوف من ارباب الخلود الذين انارت خواطرهم وسواهم عقول المثقفين وزادوا ثروة العالم الفكرية ، فلا غرو اذاً ان يحتفل به العرب احتفال الامم الاخرى باكبر مفكريها .

اربيب وهبه

مندوب شرق الأردن

المعري والمرأة

أبا العلاء ! هل كان يحظر ببالك أن تشترك امرأة في تقديمك وتكريمك ؟ أما
تعجب يا عدو المرأة الجبار أن تقف امرأة الآن تفخر بك وتشيد بتكريمك ؟ أما تستغرب
فيلسوف المعرة أن أقف اليوم لأعيد مأسطرته قريحتك الناقمة الفياضة من الطعن
واللذع والحط من قيمتنا نحن معشر النساء ؟
ألست أنت القائل :

ألا إن النساء جبال غي بهن يضيع الشرف التليد
وهل تنكر قولك :

أنت خنساء مكة كالثريا وختل في المواطن فرقدتها
ولو صلت بمنزلها وصامت لالفت ماتحاولة لديها
وهل نسيت قولك :

ودفن والحوادث فاجمات لاحداهن احدى المكرمات
وقولك :

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلل المنيمة والخدور
هبالك أبا العلاء تسرف في تجريح المرأة فتراها شيطانة غي تجرر وراءها الفتنة
حيث سارت وحيثما حلت واني هبطت حتى ولو كانت في مكان من أقدس الاقداس .
وما الذي حدا بك حتى اوسعتها ذمًا وتقريماً ورغبت في دفنها وسلبها نعيم الحياة
وعهداها بك تمتت القسوة والظلم فهل اعتقدت اسحالة اصلاحها ؟ وليس عجيباً أن
تشترك المرأة في احياء ذكراك وتكريم آتارك الخالدة بعد أن تناولتها بلسان لاذع
وقول فارس لأن ظلمك الناس لم يكن مقتصرًا على المرأة فحسب بل تناولت الرجل
أيضاً بنصيب وافر من التقذ والتشنيع إذ قلت :

فأفٍ لعصريهم نهار وحنس وجندي رجال منهم ونساء
فكنت إذا تحدثت عن الحاكم نعمته بالظلم وعن الولد رميته بالعقوق وعن

الضديق وصفته بالخلل والقدر وقد شككت بكل شيء حتى في القدرة الالهية فلا عجب إن شككت بمد هذا ، وكان حقاً عليك أن تنقلها الى جميعك فتصلها بناره وتحرقها بأواره . ولكن المرأة المستضعفة في نظر الناس استطاعت أن تصمد أمام حملات طائشة مفرضة وأن تبقى أمد الدهر موئلا الرجل وملاذه .

وأنا زعيمة بأن الرجل الذي يكثر من التحدث عن المرأة نقداً وتجريحاً ، قذفاً وتشويهاً إنما هو اقرب الرجال الى المرأة واشدهم حباً لها واشاراً لأن من أحب الشيء أكثر من التحدث عنه .

سيداتي سادتي عاش أبو العلاء في عصر زهده في الحياة وورغبه عنها وملا نفسه سوء ظن بها ، عصر فتنة واضطراب عصر ضج بالظلم والزور والبهتان ، عصر عم فيه الفساد ونزرت العصمة ، عصر غمره الفجور فسادت فيه الإباحية الخلقية وهوت الحياة الاجتماعية الى أحط للدركات ففسخت الأسرة وعمت الفوضى ففضلت الاماء على الحرائر وتكونت لدى شيخنا المعري النواة الأولى لنسيجه الفلسفي التشاؤمي حتى صب نغمته على المرأة وعلى الحياة لابل على الوجود أجمع حتى أنه لم يستثن ذم نفسه حيث قال :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لامحالة أبدأ
لاشك في أن الآلام التي بلاها في حياته جسدية أو روحية كانت العامل الأكبر في تشاؤمه وزهده في الحياة ، ففقدان بصره وحرمانه من عطف امرأة تحذب عليه وتمجن إليه تشاركه آلام الحياة وتصور له مباحجها تخلق له جواً سعيداً يسهل لديه اسباب العيش ويجب إليه البقاء تلك أسباب حملته أن يركب هذا المركب الساخط الصاحب على الحياة .

اجل لم يحظ أبو العلاء بمطف امرأة في حياته ولمله أصابه أذاها فمنه كبرياؤه من ذكر هذا الأذى فنقم عليها تقمة المتاع وأطلق لسانه في ذمها .

من يدري لو أن حكيم المعرة هذا لاقى حناناً واشفاقاً من شريكة أو اخت أو ابنة لماضن عليها بوفاء أو تناء ولكف عن ذمها وأخذ من نار عدوانه لها وحقده عليها . على أن شذوذه حمله على التناقض في رأيه فبينما نراه يطعن بالمرأة ويصب عليها اللعنات نراه يشفق عليها وينكر تمدد الزوجات وينسى عدوانه حين يذكر المرأة الأم بقوله :

العيش ماضٍ فأكرم والديك به والامم أولى بالكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه مران بالفضل نالا كل إنسان
تلك الامم التي عد نعمها اكبر صدمة من صدمات الدهر أتم بها بناء بيته المظلم
من الحزن الذي لزمه طيلة حياته ففاضت شاعريته برنائها بقصيدتين مفعمتين
بالزفرات الحارة التي كان يصعد بها بعد وفاتها .

سيداتي سادتي لو كنا جميعاً معشر النساء والرجال في عصر أبي العلاء وتوالت
علينا مصائبه وويلاته لاشتر كنا معه في وضع المرأة بأحط منزلة في ذمة التاريخ .
ولو شهد فيلسوف المرة عصرنا هذا عصرأ اشتركت فيه المرأة مع الرجل في
العلم والأدب والفلسفة عصرأ برهنت فيه أنها مبعث إلهام الرجل وموقظ القوى
الخامدة فيه ، عصرأ شعر الرجل فيه أنه بجانب شريكة تبادلته الرأي وتشاطره
آلام الحياة وافراحها ، عصرأ ظهرت فيه دائبة لاتمل متحركة لاتسكن نشيطة
لاتفتقر ولجت ابواب العلم ونحت بكل غالٍ وثمين لكشف النقاب عن أعظم سر من
اسرار الوجود خلص البشرية من أكبر الآفات ، عصرأ قطعت فيه السنة من كانوا
يصمون بالضعف بما خلذته من المآثر العلمية والأدبية .

لو شهد المعري هذا العصر لغير رأيه في المرأة فما آذى شعورها ولا جرح
إحساسها وقدمها أجل تقديس ونالت من نفسه مكانها الأسمى ولسكن الى زوج
جملت من نفسه المتشائمة المظلمة نفساً مشرقة متفائلة تريحه السعادة في الشباب والهرم
في الغنى والفقر في الصحة والمرض وتنير الناحية المظلمة من آرائه وافكاره ،
وتترجم خلجات نفسه ووحى شعوره وتكشف النقاب عن الكثير من كنوز اسراره .
لك العذر أبا العلاء لأن المرأة لاتعتمد في كل عصر عدواً لها يرى في كل عمل
من أعمالها نقصاً وفي كل حركة من حركاتها عيباً ولكن المرأة يذكي نشاطها النقد
ويقوي حركتها التهجيم ونحن مهينات انفسنا لاقتحام كل صعب وتخطي كل حاجز
بزعمة لاتخور وهمة لاتفتقر .

مهراة الموصلي

مندوبة الندوة الثقافية النسوية

ابو العلاء واقطاب الفكر المحمديون

ايها الحفل الكريم ،

يسرني قبل البدء بالكلمة التي أعددتها لهذا المهرجان ان أذكر حضرتكم وحضرة الآنسة الموصلي ان عدو المرأة في الوقت الحاضر هو توفيق الحكيم وان الدكتور طه حسين بك والدكتور مهدي البصير والداعي المائل أمامكم من عشاق المرأة وأنصارها . المؤمنين بجليل قدرها وخطير شأنها في حياة الافراد والشعوب ، وأن لنا أزواحاً واولاداً من اجلهم نجيا لا من اجل أنفسنا فغفواً أيها الآنسة الفاضلة واغفري ذنب أبي العلاء الذي يكفيه جزاء ان حرم عطف المرأة وخانها. تلك المرأة التي قال الله عنها في كتابه العزيز = « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . الآية . . »

وبعد اتقص قدر أبي العلاء بمض مواطني اللبنانيين بنية النيل من الثقافة العربية وتقديس الثقافة الغربية الحديثة فمز عليّ وانا المدافع بحكم حرفتي على المجرمين أحياناً ان لا ادراؤ الظلم عن أمة لم يعرف التاريخ بين الفزاة من هو ارحم منها ، وعمن يُمثل ثقافتها أحسن تمثيل ، لا سيما أن بيني وبينه رابطة العاهة .

وقد رأيت خير سبيل للرد على مواطني المصايين بهوس الاستغراب ولاظهار الحق أن أقارن بين المعري والمفكرين الغربيين المحدثين جملة وأن أختار موضوعاً لهذه المقارنة الحاطفة اسمى مالمدي الانسان من مميزات — العقل والقلب .
يفتخر العلماء الغربيون بالاعصر الحديثة افتخاراً عظيماً ويدعونها بأزمة النور لاستعادة العقل فيها سلطانه المسلوب وبسط نفوذه على المذاهب والآراء والمعتقدات كافة .

بيد أننا لو أجلنا الفكر في تلك الازمنة المضئنة لتبيننا أن ضياءها كان في أكثر الاحيان كسواء البلاد التي انبثق فيها مشوهاً غير خالص النقاوة والصفاء وسر ذلك أمور أحصها وأعماها معاً هو أن فريقاً من أئمة المفكرين الذين أوجدوا ذلك الضياء

لم يمتروا بحقوق العقل الطبيعية ولم يتركوه حراً طليقاً يستشف الحقائق من وراء الحجب والاصداف التي نسجتها العصر المظلمة بسخاقتها وأهوائها المزممة المتركمة .
فالفيلسوف الفرنسي الامام « ديكارت » مثلاً بالرغم من تمجيد العقل تمجيداً عظيماً وتوجيه الفكر الحديث نحو التنظيم لم يعلن سيطرة العقل على المعارف كلها بل استثنى منها كل ما تملق بالكنيسة وتعاليمها ، وقال بوجود الأخذ بتلك التعاليم كما هي دون ما نقد ولا تمحيص .

وإذا ذكرنا ما كان للكنيسة في عصر «ديكارت» من أثر بين في صميم الحياة النورية الخاصة والعامة ادر كنا دون عناء مدى الافق البعيد الذي اعتبره أمام العقليين المحدثين حراماً وحذر العقل أن يضيئه بشعاعه .

وإذا انتقلنا من «ديكارت» الى «بسكال» وجدنا عند هذا المفكر المشهور ما يدهش من لا يدهش ، ذلك أنه يمد أن نهج في الشطر الاول من حياته ازاء العقل نهج «ديكارت» لم يلبث أن رجع في الشطر الثاني منها عن هذا المنهج وانطلق — على أثر حادث عربة جرت له فنجاً منها كما يقولون — ينتقد العقل إنتقاداً شديداً — ويدعو إلى تمجيد الكنيسة واعتبارها وحدها — ام الحقائق .

وفضلاً عما تقدم ان أكثر هؤلاء المفكرين وإن اعترفوا في القرن الثامن عشر وما يليه بسلطان العقل فانهم لم يتجردوا في اغلب الاحيان عما انطبع أو اشتد في أنفسهم وأذهانهم من أهواء ومعتقدات .

وحسي أن أذكر حضرتكم أن المفكر الاجتماعي العظيم « مونتسكيو » على الرغم من وجوده في عصر كله تحرر وانطلاق من سلاسل الماضي واغلال العهد الاقطاعي فانه لم يتجرد عن هواء الطبعي الموروث بل طالب بالمحافظة على امتيازات النبلاء وان المؤرخ الأشهر «ميشيل» لم يتجرد عن هواء الحزبي فشوه عامداً متعمداً وجه تاريخ امته تشفياً من الملكية والملكيين . وان أكثر المستشرقين والمستعربين لا يتجردون عن شعوبيتهم ضد العرب والاسلام فيشوهون الحقائق ويحرفونها عن مواضعها تحريفاً لبقاحيناً وحقاً طمأ منهم في هدم ايماننا بماضنا وأملنا بان يتبع ذلك انهدام ثقنتنا بمستقبلنا فنبقى بلا أمل ولاطموح وتبقى للغرب الغلبة علينا أهد الدهر .

أما أبو العلاء خير من يمثل الفكر والثقافة العربيين وان جارى العاطفة حين لها أو التي نفسه امام المعضلات الفلسفية الكبرى التي لم يطق حلها والتي لا يستطيع العقل الانساني استكناه اسرارها فانه لم يتهيب مبدئياً حرمة الماضي ولا قداسة تراث الاباء فاعمل فيها العقل غير هيب ولا متحفظ كما عمله في كل شيء لاقتناعه ان العقل سبيل المعرفة العامية الاوحد .

كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء وواضح ان هذا البيت المشهور الرائع في لفظه ومعناه ليس من شوارد الخيال أو فلتات اللسان عند الميري ولكنه في رأيه اعلان حقوق العقل وان شتم تعبيراً احدث فقولوا انه ميثاق المرة بل بيان حكيمها الفكري اذاعه على المفكرين من الف عام وكان من اول من قيد به في كل موضوع تناوله بالبحث لم يفرق بين ان يكون الموضوع دينياً أو غير ديني اسلامياً أو غير اسلامي عربياً أو غير عربي . ولا شك ان بحث هذه الموضوعات وما اليها بالعقل المتجرد عن الميل والهوى ليس بالشيء اليسير حتى عند صفوف العلماء والمفكرين مثل « ميشله » و « مونتسكيو » كما اسلفنا بل هو من اصعب الامور واشقها على النفس لما يستلزم ذلك من انكار ما انفرس او اشتد فيها من اهواء ومعتقدات امتزجت بالنفس امتزاجاً تاماً واصبحت مع الزمن جزءاً من اجزائها بل كيانها المعنوي حتى اننا لنفكر بهوائنا ومعتقداتنا واوهامنا اكثر مما نفكر بالعقل .

ولولا أن أبا العلاء من احدث الناس ذكاء واثقهم فكراً وارجحهم عقلاً واشدهم انقطاعاً عن اسباب الدنيا لما استطاع بلاريب ان يبحث كل موضوع عاجله بالعقل ولا ان يبلغ تفكيره ذروة التحرر والانتماق حتى اتت آراؤه رغم ما بينها من تناقض احياناً حقائق نقية صافية لا يشوبها قصر نظر « ديكارت » ولا هوى « مونتسكيو » ومن منحها نحوها في البحث والتفكير .

يبد أن تفوق أبي العلاء على اكثر المفكرين الغربيين المحدثين لم ينحصر في الناحية العقلية النظرية البحث بل تمدى ذلك الى الناحية الخلقية العملية أيضاً .
فبينما نرى الاديب والمصلح الفرنسي الاشهر « فولتير » مثلاً ينفق القسم الاكبر من اوقاته في تملق الملوك والامراء وذوي الوجاهة والتراء فيحوك معهم أو ضدهم

مختلف الشباك نبيلها وحسيسها لجلب الدنيا حلالاً أو حراماً ، وبيننا نزي الفيلسوف الانكليزي الامام « بيكون » بالرغم من ثروته الطائلة وجاهه العريض ومنصبه السامي في الدولة يأكل اموال الناس بالباطل فيحكم عليه بالزج في غيابة السجن اعواما ، وبيننا نزي الفيلسوف الالماني الشهير « لاينتر » بوغر صدر المليك الغازي لويس الرابع عشر على الشرق ويقدم له مشروعاً خطياً منطوياً على افناء الملايين من الشرقيين للجرم ارتكبوهم بل لجرد انهم مسلمون أي أن لهم في عبادة الخالق مذهباً غير مذهبه ، وبيننا نزي طائفة من المستشرقين يتخذون العلم اداة للفتح والاسترقاق ويعتبرون الامم والشعوب المستضعفة اقنانا لمجتمعاتهم وعبيداً كما كان اباؤهم الاقطاعيون يعتبرون تلك المجتمعات ذاتها اقنانا وعبيداً .

بيننا نزي كل هذا وأكثر من هذا عند فريق من مصاييح ازمنة النور اذا بمفكرنا المرعي المحدث والمنشأ أبي العلاء يرفق بالطير والانسان والنحل والحيوان على حد سواء واذا به يأبى التكبس بالشمر مخافة أن يفتصب بواسطة الحكام والامراء المدوحين مال الشعب والفقراء . واذا به يعتبر البشر قاطبة سواسية لافرق عنده كما قال بين هاشمي وآل بربر ولا بين الامام علي كرم الله وجهه ومولاه قنبر ، واذا به يتعالى عن الدنيا ويأبى الا ان يمش على هامش الحياة مكتفياً منها بما لا يكاد يقيم اوده .

واذا قيل أن أبا العلاء لم يترفع عن الدنيا الا بسبب العاهة التي اطلقت النور من عينيه وغمرته منذ الطفولة بالظلمة الدائمة فاني اذكر حضرتكم ان تلك العاهة ذاتها لم تمنع الدكتور طه حسين بك ولا الدكتور مهدي البصير ولا بشار بن برد ولا الشيخ سليمان الفاروقي ولا المائل امامكم عن طلب الدنيا واستمراء ما بث لنا الله فيها من نعمة كما ان وجود الضياء في عيني « كانت » و « سبينوزا » لم يمنع هذين الفيلسوفين العظيمين عن التزام حياة المزلة والتقصف حتى ان « سبينوزا » وهو اليهودي التجار لم يقبل اكثر الهدايا والمرتبات التي عرضت عليه من الامراء والاغنياء بل أبى الا أن يمتاش من مهنته اليدوية الشاقة وهي صنع زجاج النظارات . ولا ريب ان هذه الامثلة وما إليها تلبت بصورة لا تحتمل الجدل ان العمي ليس

في حد ذاته سر الاعراض عن متع الحياة وان سلامة البصر ليست في حد ذاتها سر الاقبال عليها .

اما انوار الذي يعتبره الاستاذ العقاد سر التقشف عند أبي العلاء وان حال بلا ريب دون التهنك والاستهتار فانه لا يحول ابدأ دون الذائد والمسرات التي يبيحها العرف وتقرها الشرائع والانظمة .

فاعراض أبي العلاء عن متع الحياة ليس اذاً صدى عاهته المشهورة كما يتوهم بعض المفكرين ولا نتيجة وقاره المعروف كما يعتقد الاستاذ العقاد ولكنه منبث عن اسباب وعوامل وان عزت معرفتها معرفة دقيقة لتملقها باختلاجاته النفسية الداخلية فان اهمها على ما يظهر لي ، مزاجه الخاص ثم ما شهد من عسف يرافق الحياة ويتغلغل في صميم مظاهرها المختلفة .

تفني أيام أبي العلاء كاعب من الكواعب كام كلثوم في زماننا مثلاً ساعة أو بضع ساعات فتجني الف دينار ، إن لم أقل أكثر ، فوق ما تجني من نشوة الزهو والاعجاب ويشتغل عامل من المال أو فلاح من الفلاحين الدر كله فلا يتال لقاء أعماله المرهقة العائدة على المجتمع بالنفع العميم والخير العظيم ما تجني تلك المغنية في حفلة واحدة . ولتقل مثل ذلك عن تاجر يبرم عقداً من عقود البيع او الشراء فيكسب من المال في دقائق مالا يكسبه الف قطب من أقطاب الفكر والادب أنفقوا أعمارهم في خدمة العلم والانسان .

هذه هي الحياة في عصر أبي العلاء وهكذا كانت في كل عصر من العصور وفي كل مجتمع من المجتمعات وهكذا ستكون مادامت على الارض حياة وما دام فوقها بشر يختلفون مواهب وحظوظاً .

وبين أن حياة كهذه قوامها الظلم وفلسفتها ابدأً الاخلال بالتوازن بين مال المرء وما عليه ، بين ما يعطي وما يأخذ ، ما يستحق وما يتال ، ليست مما يفري حكماً كأبي العلاء حرم على نفسه اللحم والمسل مخافة أن يمتهدي على ما للنحل والحويان وامتنع عن الزواج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوحد .

إن حب الحقيقة دعا أبا العلاء الى إنكار ما يوافق من المذاهب والآراء والمعتقدات

عقله فلا عجب ان يدعو مزاجه الحساس النبيل وحبه العدل الى ترك ما لم يرض من اللذائذ والمسرات وجدانه .

وعلى كل حال وأياً كان السبب الذي أهاب بحكيم المعرة الى التزام حياة العزلة والتقشف فما لا يقبل الجدل ان أبا العلاء قطب من أقطاب الفكر والفضل والادب وركن من أركان الثقافة والعدل والرحمة وانه إذا جاز للغريبيين ولبعض مواطني اللبنانيين المصايين بهوس الاستغراب أن يفخروا بالاعصر الحديثة ويدعوها بارمنة النور فان من حقنا أن نمجّد أبا العلاء وأن ندعو مفكرنا العربي الاعمى بالضياء بل بالشمس طلعت في معرة النعمان فاضت الشرق والغرب باشعتها النقية الخالدة خلود الفكر .

عارف العارف

مندوب الحكومة اللبنانية



كلمة الاذاعة الفلسطينية

يطيب لي أن أقف موقفي هذا في حفلكم العظيم الكريم فاشترك بالنيابة عن دار الاذاعة الفلسطينية في القدس . فاتقدم بالشكر والتقدير العظيمين للمجمع العلمي العربي الموقر وللجمهورية السورية الجلييلة على ما صنعت أيديها للادب العربي والفكر العربي وللهنضة العربية جميعاً بما نظمت هذا المهرجان الالفي لذكرى أبي العلاء وكأقد أحسن المعري إلى الادب العربي والفكر طوال هذه القرون العشرة الماضية فقد أحسن الادباء والعلماء الذين عرفوا في أبي العلاء أدبه العميق وفكره الخالد السامي فرفوه إلى الناس ونوهوا به في الشرق والغرب — أقول كما قد أحسن هؤلاء الادباء والعلماء محدثين وقدماء إلى الادب والفكر معاً بما قد قدموا للناس من شرح للادب الملائي والفلسفة الملائية . فقد أحسن المجمع العلمي العربي في دمشق وأحسنت الجمهورية السورية الجلييلة بحفاوتها الالائقة هذه بذكرى ذلك الشاعر العظيم والفيلسوف الحكيم فاحيكم أيها السادة الاعلام . وأنقل لكم تحية فلسطين بهذه المناسبة السعيدة العظيمة .

أيها السادة الاجلاء لست أقصد هنا الى البحث في أدب أبي العلاء وفكره وفلسفته ولن يكون هذا القصد موقفاً . وأنا أعلم أن فيكم من تفرغ لابي العلاء وتعرف الى أبي العلاء وعرف بابي العلاء على نحو يدعو الى الاعجاب والتقدير حقاً . وانما أقصد كما قد أشرت الى أن أعرب عن شكر فلسطين للقائمين بهذا المهرجان العظيم وبهذه الحفاوة البالغة لذكرى علم من اعلام الفكر العربي مملناً بذلك ان هذا المهرجان سيكون خدمة جديدة لكنها بارزة تضاف الى ما قد أدى الى الفكر الملائي من احسان وخدمات .

على أنني فيما ازجي كلمة الشكر والتقدير هذه لايسعني الا أن افضي أمام هذا المحفل الكريم بان فكر المعري انما قد خلد هذا الخلود لانه أثار مشاكل في هذه الحياة مازال قائمة . ومع ان الدراسات التي ظهرت للمعري وتظهر الان ستظهر

بسبب هذا الاحتفاء نفسه كثيرة . فان بسط هذه الفلسفة لم يستنفذ بمد . وان لاولي الاقلام وحملة المكر في بلادنا لجالا وأي مجال في هذا المضمار الفسيح . وليس هذا المهرجان الذي تجتمع عليه البلاد العربية هو وحده شاهداً على أن أدب المعري خالد ولكن هذه الدراسات المتوالية في غضون القرون العشرة المنصرمة شاهد آخر . وليس هذا غريباً فالرجل الذي قال عن وجوده .

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد .

والرجل الذي قال عن الحكم الجائرين .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

والرجل الذي قال :

يرتجي الناس أن يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لامام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

الرجل الذي قال هذا وغيره انما اثار مشاكل لاتزال ماثلة وهذا هو لعمري

الحق سر الخلود .

غير أن الانصاف يقضي بالقول أن فلسفة أبي العلاء اثار مشاكل ولم تشر الى حلها ولعل حل هذه المشاكل أن يكون من واجب المدينة الحاضرة في ديمقراطيتها الصحيحة . بل لعله يكون من حقنا أن نأمل ذلك لئتم لرجال المكر في العالم العربي الحديث مابداً به أبو العلاء .

وقد ينسى الناس أبا العلاء عند ما يجدون سبيلهم الى حل هذه المشاكل فينعمون بالمدينة زاهرة زاهية بريئة من اسباب الكدر والشقاء . ينسونه اذا هم فقدوا يومئذ حس الوفاء وعرفان الجميل وهبات لهم أن يفعلوا وهبات اذن أن لا يظل أبو العلاء خالداً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عزمي النساشبي

مندوب الاذاعة الفلسطينية

(١) لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي

مدخل البحث

كنت منذ حين أتوقع قيام المجمع العلمي العربي بقضاء حق واجب عليه لأبي العلاء المرعي فالمرعي من حيث منهجه في البحث العلمي اللغوي في أكثر كتبه المعروفة ما هو إلا مجمع من أعظم المراجع العلمية وأكثرها عائدة على الأدب واللغة ولست مغالياً إذا قلت أن المرعي سبق زمانه بألف سنة في القيام بأعظم ما تقوم به المراجع العلمية الحديثة من المهام وقد تخلى عن جميع متع الحياة لينجز بمفرده عملاً عجز عنه جمع غفير من العلماء فهو والحالة هذه أحق أئمة العلم واللغة والشعر بهذا المهرجان وقد فطن مجتمعا العلمي العربي إلى ذلك فنهض بواجبه وأدى الحق لصاحبه وهي لعمري مأثرة من مآثره وحسنه كبرى تضاف إلى حسناته الأخرى .

كنت من جملة من دعي إلى المساهمة في هذا المهرجان وقد تلقيت دعوة الرئيس بكثير من الابتهاج وذلك لولمي بأدب المرعي منظومه ومنتوره بيد أنني تحيرت بأي ناحية من نواحي المرعي أبدأ وهي والحق يقال كثيرة يحار فيها الكاتب والأديب أأكتب فصلاً في سيرة المرعي وأخباره أم في عصره وأحواله فأردد ما كتبه المؤرخون أم أملي كلمة في حكمة المرعي وآرائه في الحياة وهو موضوع أكثر خوض أعلام الفكر والأدب فيه أم أنثني مقالة في أدب المرعي وهو بحث مطروق ثم نظرت فإذا أمامي نسخة محصلة مختارة من اللزومات طالما تأملتها واستوحيتها في شرح الشباب وقد ألهمتني هذه النسخة الآن أن أكتب في هذا الموضوع ألا وهو لزوم ما لا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية .

(١) الكلمات التي بحث بها أصحابها لتشر في الكتاب بعد أن تذر حضورم إلى دمشق في أسبوع المهرجان .

لزوم مالا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية

في لزوميات المعري نواح حجة تشير فينا حب الدرس والنظر فمن ذلك ناحيتها الفلسفية وهي أوفر نواحي اللزوميات حظاً من عناية الادباء فقد اوردوا فيها الرسائل والفصول غير انه قل من أفرد بمبحث في تاريخ تطور هذا الفن المسمى « لزوم مالا يلزم » وكيف نشأ في الأدب العربي سواء أكان ذلك قبل عصر المعري ام بعده لذلك رأيت من المفيد الامام بهذه الناحية الادبية اللغوية من نواحي اللزوميات ومن الواضح انه لاعلاقة البتة لهذا البحث بالفلسفة العلائية .

لزوم مالا يلزم في شعر العرب

قال أبو العلاء المعري (١) :

كثيرٌ انا في حرفي اهبت له في التاء يلزم حرفا ليس يلتزم
أبي شاعرنا الحكيم الا ان يكون مؤرخا في بيته هذا يؤرخ الفن الذي احبه
ونذر له نفسه ألا وهو التزام مالا يلزم .

يقول أبو العلاء انه حذا حذو كثير عزة الذي التزم اللام في تأنيته التي يقول في مستهلها :

خليلي هذا ربيع عزة فاعقلا قلو صيكا ثم احللا حيث حلت
وهذه القصيدة — وهي مما يستجد من شعر العرب — تمد حسب رواية
القالبي (٢) خمسة وثلاثين بيتا بناها من اولها الى آخرها على التزام حرف معين قبل
الروي وهو امر لم يسبق اليه شاعر من شعراء العرب وله قصيدة أخرى اولها :
أدارا اسلمى بالنباع فحمت سألت فلما استعجمت ثم صحت
فلزم الميم كما فعل باللام فهل كان كثير اول شاعر استخدم هذا النوع من
انواع البديع فقلده الشعراء وهل اراد المعري ذلك ؟ الجواب كلا . ومن رأيي أن
المعري في اقتدائه بكثير عزة لم يفعل ذلك لان كثيراً اول من استخدم هذا الفن
كما توهم فريق من علماء البيان بل لأن لزوم مالا يلزم لم يرد الا نادراً في شعر العرب

(١) اللزوميات ٢ : ٢٣٠ ط الجالية سنة ١٣٣٣

(٢) امالي القالبي ٢ : ١٠٩

قبل عصر كثير كما انه ورد عفوا في نبد ومقطوعات قصيرة اما كثير فقد نظم اشهر واطول قصيدة لزومية تناقلها الرواة وبذلك يتداعى زعم من زعم غير هذا من علماء البديع . وفي مقدمة اللزوميات للمعري نفسه مايفند مزاعم القوم في المقدمة المذكورة (١) شواهد تدل على أن هذا النوع من أنواع البديع ورد في شعر الأعرشى وطرفة والناطقة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من القدماء ولا حاجة إلى القول بأنه شيء غير مقصود وقد ورد عفواً في شعر القوم أو في كلامهم المطبوع أما صاحبنا كثير فقد تصنع وقصد التفنن في تأنيته فحذا حذوه الشعراء وحسب كثير أن يعترف المعري له بهذه الفضيلة .

وللمعري فصل لطيف في تاريخ علم القوافي ومصطلحاتها أو ألقابها كما يقول وهل هي - أعني مصطلحات القافية - من وضع العلماء في عصر التدوين أم تلتقت عن العرب فان سكان العمدة وإن كانوا لا يعقلون هذه المصطلحات إلا أنه وجد فيهم من يعرف مواقع الحروف ويقرأ ويكتب وقد ورد في هذا الفصل من مقدمة لزوم ما لا يلزم ذكر الخليل وسعيد بن مسعدة (٢) والفرء وخلف بن حيان من علمائهم بالشعر والنحو واللغة وقد استنبط المعري من الباب الذي عقده أبو عبيدة القاسم بن سلام للبحث في القوافي (في كتابه الغريب المصنف) ومن إسناده لها عن الشيوخ ان صاحب الغريب يرى أنها أي المصطلحات مأخوذة عن العرب كما تؤخذ عنهم اللغة وهذا الفصل الذي كتبه المعري من أقدم ما وصل إلينا في هذا الموضوع (٣) .

هذا وقد أكثر شعراء العرب قبل كثير عزة وبعده من التزام ما لا يلزم قبل تاء التانيث هذه فتارة يلزمون اللام كما رأيت في قصيدة كثير وهو الأكثر وطوراً يلزمون الميم وقد يلزمون غيرها من الحروف وأكثر ما اتفق لهم في ذلك من الشعر يعد من الرائق المستجاد ومن هؤلاء الأعرشى وعمرو بن

(١) مقدمة اللزوميات للمعري ١٩ و ٢٠ ط الجاهلية سنة ١٣٢٣

(٢) هو أبو الحسن المعروف بالاختش الاوسط انظر ترمة الالباء ١٨٤ ومجم

الادباء ١٢٢:٤ و ١٤٤

(٣) مقدمة للزوميات ١١ و ١٢ ط الجاهلية سنة ١٣٢٣

معديكرب ومن بعدهم يعقوب بن سليمان بن طلحة بن عبدالله ومن أحسن شواهد هذا الباب وأشهرها الأبيات التي أولها (١) :

سأشكر عمراً ان تراخت منيتي أيادي لم تمن وإن هي جلت
وأول أبيات الأعرشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلت
وأول أبيات يعقوب بن سليمان (٢) :

وقد كنت لي حسباً من الناس كلهم ترى بك نفسي مقنعاً لو تملت
ومن القوافي التي التزم فيها العرب ما لا يلزمهم كاف الاضمار في مثل
« جمالك وشمالك » وقد التزموا اللام فيها قبل الضمير وقد علل المعري التزم
العرب بذلك في خصوص هاتين القافيتين أعني التائية والكافية بأن تاء التأنيث
هذه وكاف الاضمار ضعيفتان وكتاها من حروف الهمس (٣) وكان اللام الملتزمة
في هذه القصائدهي القافية وكأن كلاً من التاء والكاف صلة لها لا أكثر .
هذا ويمكن أن يلتزم الشاعر حرفين أو أكثر إلى أربعة أحرف أو
خمس (٤) وعن بلغ الغاية في ذلك أبو الملاء المعري نفسه فقد بنى قافية على
« دارم مزدارم صدرام » ملتزماً فيها أربعة أحرف وبنى أخرى على « ضارم
حارم سارم » ملتزماً فيها خمسة أحرف وثلاثة على « يعذبون يكذبون
يجذبون » ملتزماً فيها أربعة أيضاً إلى غير ذلك .

لزوم ما لا يلزم في أدب المولدين

لزوم ما لا يلزم معدود على الأكثر من صناعة المحدثين أو المولدين كبقية
أنواع البديع فالمحدثون استخدموا هذا الفن فأكثروا من استخدامه عن علم

(١) رويت الأبيات المذكورة في كتب الأدب لجماعة منهم عبد الله بن الزبير على وزن
[فتيل] ومحمد بن سعيد البغدادي وابراهيم بن العباس الصولي وغير هؤلاء . ومن نسبها إلى
الصولي ابن خلكان في الوفيات ٣ : ٢٣١

(٢) ذيل أمالي القاضي ٢٩

(٣) مقدمة اللزوميات ١٨ ط الجاهلية سنة ١٣٢٣ ويقول المعري ان حروف المعجم مقاديرات
في القوة الا ما ذكر من التاء والكاف المصدر نفسه ٢٧
(٤) المصدر نفسه ٢٨

وخبرة وبذلك تميزوا عن القدماء ومن أوضاع المحدثين على الأغلب هذه الألفاظ أو الألقاب التي أطلقوها على فنون الديع ولذلك لا يكاد يخلو شعر شاعر من خولهم من لزوم ما لا يلزم نجده في شعر أبي نواس على قلة وهو أكثر في شعر أبي تمام ولا يخلو شعر البحري منه قال المعري (١) وقد بنى أبو عبادة قصيدة على الطويل الأول وجعل قوافيها على «أروى وجدوى» فأنز الوأو إلى آخر القصيدة فقد لزم فيها ما لا يلزم أن جعل روي القصيدة الألف أما ابن الرومي فهو على ما يقول علماء الأدب والبيان من أكثر المحدثين ولما يلزم ما لا يلزم قال المرزباني «ابن الرومي أشعر أهل زمانه بمد البحري وأكثرهم شعراً وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه يركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره ويلزم نفسه ما لا يلزم ويخلط كلامه بالألفاظ المنطقية يجعل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ (٢)» وقال الزبيدي كان ابن الرومي من أكثر الناس ولماً يلزم ما لا يلزم في شعره (٣) إلا أن المعري أغفل ذكره في من ذكر في هذا الباب مع أنه أولى المولدين بذلك وهو خاصة أولى من البحري لأنه أكثر استخداماً منه لهذه الصناعة ولا ندرى على وجه التأكد علة ذلك الاغفال ونرجح أن للمعري رأياً خاصاً في صاحبه ونحن نعلم أن الاثنين مختلفان في المذهب والمزاج متباينان في الطباع ومن رأي المعري على الأرجح ان ابن الرومي مدخول العقل كما يظهر من وصفه له في رسالة الغفران (٤) ويؤخذ على ابن الرومي شيء من الغموض والتعقيد وله أسلوب في البيان يفتقر إلى الصقل والعناية وإلى ذلك يومي المعري في قوله (٥) :

لونطق الدهر هجا اهله كانه الرومي أو دعبل

(١) مقدمة اللزوميات ٢٨ وأول قصيدة البحري المذكورة :

لنا أبدأ بث نانيه في أروى وحزوى وكم أدتلك من لوعة حزوى

(٢) معجم الشعراء ٢٨٩

(٣) يحيى بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٤٠٢

(٤) رسالة الغفران ١٦١ ط. مصرية قديمة

(٥) اللزوميات ٢ : ١٦٣

وهو لعمرى شاعر مغزر بالفعل لكن لفظه مجبل

اقسام اللزوم

لم يعرف القدماء إلا نوعاً واحداً من لزوم ما لا يلزم وهو ما بنيت عليه لزوميات المعري بيد أن المتأخرين حاولوا إضافة اقسام اخرى الى هذا الباب من ابواب المبدع ومن هذا القبيل قسم سموه « المحجب » وهو أن يجمع في القافية بين كلمتين احدهما كالجنبية التابعة للأخرى مثل قول أبي الفتح البستي :

أبا العباس لا تحسب باني لةقري من حلى الاشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الاحجار جاري
وما اكبت لي الايام زندا فلي زند على الادوار واري

وهذا هو رأي كل من ضياء الدين بن الاثير^(١) وعبد الحميد بن أبي الحديد^(٢) والاكثرون على انه نوع من انواع الجناس وسموه « المزدوج » أو « المردد »^(٣) هذا وبما عده المتأخرون من اقسام اللزوم « تصغير القافية » مثل قول الشاعر :

عز على ليلى بنى سدير سوء مبيتي ليلة القمير

قال ابن الاثير اذا صغرت الكلمة الاخيرة في الشعر فان ذلك ملحق بلزوم ما لا يلزم^(٤) وقد نظم المتأخرون ونثروا بالفاظ كلها معجمة أو كلها مهملة أو جميعها متصلة أو بالعكس وبالغ كثير منهم في العبث بهذه الصناعة اللفظية وعدّ قوم هذا من قبيل لزوم ما لا يلزم قال العباسي^(٥) وبما يلحق بهذا النوع يعني لزوم ما لا يلزم ما يختبر به الادباء افكارهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهملة أو جميعها معجمة أو لا تنطبق معها الشفتان الى غير ذلك من التفننات ويغلب على الظن أن لزوميات المعري دخلا في اتساع القوم بهذا النوع من التصنع

(١) المثل السائر ١٠٣

(٢) شرح النهج ٢ : ٣٨٦

(٣) بجي بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٣٧٤ وراجع أيضاً المثل السائر ١٠٣ وشرح النهج ٢ : ٣٨٦ وحنان الجناس للصفدي ٢٧ قال : و منهم من يسمي هذا النوع « المكرر » و « المردد » والصفدي في هذا الكتاب بعض اللزوميات .

(٤) المثل السائر ١٠٨

(٥) معاهد التصحيح ٢ : ١٠٦

بعد المعجز عن محاكاة المعري في فنه زاعمين أن ذلك من قبيل لزوم مالا يلزم وليس منه في شيء ومهما كان فهو توسع لاثري فيه للإبداع ولا طائل تحته وانما هو عبث الأدباء في عصر استولى فيه الجمود واستحوذ التحول على الافكار .

القاب للزوم

ويبدو لنا من تصفح الكتب اتى الفها علماء البيان أن لهذا النوع من انواع البديع عدة القاب ظهرت في مختلف المصور ومن اقدمها « الاعنات » من العنت وهو الكلفة والمشقة وهو على ماظن اول لقب اطلق على هذا الفن وبه عرف في كتب البلاغة والبيان التي الفها القدماء مثل ابن المعتز (١) وغيره وقد استعمل هذا اللقب مدة بعد عصر ابن المعتز الى أن تغلبت عليه وعلى بقية اسمائه كالتشديد والتصنيق الكلمة الشائعة اليوم وهي « لزوم مالا يلزم » وذلك في عصر المعري أو في عصر قريب منه وخاصة بعد أن ظهر ديوان اللزوميات .

لزوميات المعري

كثرة الالتزامات في شعر المعري

عرفنا مما مر ان لزوم مالا يلزم ورد في شعر العرب ولكنه نادر على كل حال اما في شعر المولدين والمحدثين فانه اكثر من شعر العرب ولكنه قليل لا يكاد يذكر بالقياس الى شعر المعري في اللزوميات فالمعري هو أول من التزم مالا يلزم في مجموعة كبيرة من شعر تكون في العدة كدواوين كثيرة والشائع المتداول ان المعري فرض على نفسه التزام قيد واحد في اللزوميات والواقع غير ذلك ففي هذه اللزوميات قيود أو كلف ثلاث اولها استيناب حروف المعجم عن آخرها في الروي وثانها استعمال الحركات الثلاث في القافية ومن بعدها الوقف أي الاسكان وثالثها التزام حرف معين أو عدة أحرف قبل الروي وهو لزوم مالا يلزم بمعناه المصطلح فهذه ثلاث التزامات صناعية على رأي المعري (٢) واكثر من ثلاثة بعد اضافة الوقف اليها على رأي آخر (٣) وهكذا انفرد أبوالملاء بهذه الخصائص الفنية وامتاز

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز ٧٤ (٢) مقدمة اللزوميات ٣٠ و ٣١

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ وهذه عبارة ياقوت : « لزوم مالا يلزم » على حروف المعجم يذكر كل حرف سوى الألف بوجوده الأربعة وهي الضمة والفتحة والكسرة والوقف .

على الشعراء قديمهم وحديثهم بهذا المذهب الجديد والاسلوب المخترع فقد جرت عادة هؤلاء الشعراء ان ينظموا الشعر كيفما اتفق وعلى اي روي يهديهم اليه الخاطر لا يترسمون غاية معينة كما فعل صاحب اللزوميات والواقع انك اذا تصفحت كثيراً من دواوين القدماء لانتكاد تثر فيها على ابيات التزموا فيها ما لا يلزم الا نادراً ولا يوجد فيهم قط من استوعب حروف المعجم في القوافي أو نظم في قافية مستوعرة أو حوشية وهؤلاء المحدثون أو المولدون وخولهم مكثرون وقد يكون ديوان احدهم في العدة كدواوين كثير من القدماء فلما استوعبوا في قوافيهم حروف المعجم عن آخرها واذا اتفق لبعضهم ذلك في الحروف فانه في حلٍ من الحركات وفي حلٍ من الوقف والاسكان فهذا البحري لم يعثر في ديوانه على روي بني على الخاء والتاء والغين وهذا المتنبي استعمل الهمزة مضمومة مرة ومكسورة أخرى ولكنه لم يستعملها مفتوحة ولا ساكنة إلى غير ذلك فاللزوميات والحالة هذه عمل مركب شاق لا بد للاحاطة بجزئياته ثم انجازها من قوة ذهنية ممتازة ومواهب فطرية خارقة للمادة لذلك قيل « ان المعري » أحد أذكيا العالم ونادرة من نوادر بني آدم .

تفاسير اللزوميات ومختاراتها

من الخطأ أن يظن أن اللزوميات هي الكتاب الوحيد في موضوعه للمعري فقد اضطر صاحب اللزوميات إلى تأليف كتب ضخمة تتعلق بديوانه المذكور اما شرحاً لما فيه من الغريب مثل كتاب « راحة اللزوم » في مائة كراسة وقد ذكره القفطي وياقوت الحموي والحاج خليفة (١) واما دفاعاً عن آرائه فيه مثل « زجر النابج » وذلك أن بعض الجهال تكلم على بعض أبيات منه يريد التشهير والأذية فالزم أبا العلاء أصدقاؤه فأنشأه وهو كاره في (٤٠) كراسة وكتاب « بحر الزجر » يتعلق بزجر النابج وله كتاب سماه « الراحلة في تفسير لزوم ما لا يلزم » (٢) وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من كتب المعري ولم يصل إلى أيدينا منها شيء . وللبطلبيوسي شارح سقط الزند شرح على بعض اللزوميات

(١) كشف الظنون ١ : ٣١٠

(٢) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ وكشف الظنون ١ : ٣١٠

نقل لنا عنه بعض الأدباء (١) وتوجد من هذا الشرح أوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة وهو شرح مزوج لشعر المرعي في السقط واللزوميات . وفي الخزانة المذكورة رسالة تتضمن مباحث جرت بين القاضي أبي بكر بن العربي والبطلوسي بشأن الشرح المذكور وفيها أيضاً نسخة مخطوطة من مختصر اسمه « مختار لزوم ما لا يلزم » لم يعرف صاحبها (٢) وقد اختار بعض أدباء القاهرة منذ أربعين سنة مجموعة من اللزوميات سموها « الا لزم من لزوم ما لا يلزم » ولها مقدمة لطيفة وفيها يقول حافظ ابراهيم :

لله درّ انتخاب بحسن ذوقك يشهد
كان كتاب المرعي فصار معجز أحمد

وفيها لآخر (٣) :

أجدت انتخاباً يانسيم وجدته ألدّ من الماء الزلال على الظما
لقد كان سفرراً لم نجد لاقتنائه لزوماً فأضحى بانتخابك الزما
وألف شميم الحلي كتاباً سماه « الاشارات المرعية » (٤) ولابن القامغاز (٥)
الحلي كتاب المطاول يرد فيه على المرعي في مواضع سها فيها .

نقد اللزوميات

تقصّد بهذا العنوان نقد اللزوميات من ناحيتها الادبية فمن علماء الادب من يزعم ان الكلفة ظاهرة في لزوميات المرعي وان جيدها المطبوع لا يزيد على رديها المصنوع واقدام ماوصل اليها من هذا القبيل رأي ضياء الدين بن الاثير فقد زعم ان شعر أبي العلاء في اللزوم متكلف وقال عن شعر لابي تمام في اللزوم « هذا احسن ما يجي في هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء » وقال ايضاً « ما ينبغي لمؤلف الكلام ان يستعمل هذا النوع حتى يجي به متكلفاً وقد سلك ذلك أبو العلاء المرعي » ومن اقواله « وقد جمع أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان كتاباً سماه

(١) الحفاجي في شفاء الغليل ١٩١ والبلوي في الف باء ٢٠٤ : ٥٢

(٢) أبو العلاء المرعي لأحمد تيمور ٣٨ و ٧٣

(٣) الأ لزم من لزوم ما لا يلزم ط الجهور سنة ١٣٢٣

(٤) معجم الأدباء ٥ : ١٣٨

(٥) بشية الوعاة ٧٩

« لزوم ما لا يلزم » فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والردي الذي يذم (١) ومن شعر أبي العلاء المتكلف على رأي ابن الأثير لزوميته التي اولها :

«تتازعُ في الدنيا سواك ومالهُ ولا لك شيءُ في الحقيقة فيها

وقد تبع ابن الأثير في هذا الرأي جماعة منهم عبد الحميد بن أبي الحديد فقال : « وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم من نظمه فأتى فيه بالجيد والردي واكثره متكلف (٢) » وللمتأخرين عن هؤلاء كلام في نقد اللزوميات أضربنا عنه صفحا لانه لا يزيد على كونه ترديدا لكلام ابن أبي الحديد وابن الأثير مثل قول ابن معصوم (٣) « ألف الشيخ أبو العلاء المعري كتابا سماه لزوم ما لا يلزم ولكن جمع فيه الغث والسمين » الى غير ذلك من الاقوال .

فهذه كما ترى اقوال عامة لم تُدعم بدليل ومنشأها اما الجهل باغراض أبي العلاء أو الحسد والمكابرة . واللزوميات على ما ارى لم تخل من تشدد أو تكلف وكيف يخلو من ذلك سفر في ضخامة هذا الديوان ومن هذا القبيل قول المعري فيها :

غلت واغلت ثم غالت وأوحشت وحشت وحاشت واستمات وملت
وقوله :

مابال وأسك لاتبش بلونه عين وبات بكل ذي نظر يبش

يمسي كبعض الروم ابيض باردا ولقد يكون كانه بعض الحبش

فهذا والذي قبله شيء ثقيل بارد ولهذه الابيات نظائر في اللزوميات ولكنها قليلة مغتفرة بالقياس الى كثيرها من الشعر المطبوع .

وخلاصة القول كان صاحب اللزوميات مطبوعا على هذا الفن وقد يتكلف ويتمسف ولكن تكلفه ليس بكثير خلافا لما ادعاه هؤلاء الادباء .

لزوم ما لا يلزم بعد عصر المعري

دخل هذا الفن منذ عصر المعري في طور جديد من حيث طبيعته ومميزاته ففي هذا العصر انشئت اللزوميات وصار لزوم ما لا يلزم شعاراً لصاحبها وميزة

(١) المثل السائر ١٠٥ و ١٠٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤٤

(٣) أنوار الزمزم ٧٧٩

يمتاز بها اديبه حتى شاع هذا اللقب كأنما هو من الاوضاع اللغوية التي ابتكرها المعري وكأنه مدلول هذه العبارة مدلول قائم بنفسه ليس له صلة بالبديع أو بهذه المحسنات اللفظية وذلك لأن المعري استخدم فنون البديع للتعبير عن آرائه وهي آراء خاصة فاجأ بها الناس وتناول فيها تقديراتهم واخلقهم ونظم الحكيم والسياسة وشؤون الاجتماع وال عمران عندهم أي ان المعري استخدم هذه الصناعة اللفظية تحديه فكرة عامة أو غاية فلسفية بعيدة وبهذا فارق سواه ممن استخدموا انواع البديع ولا غاية لهم الا مجرد العبث بالانفاظ الفارغة فللزوميات فضل ظاهر لافي موضوع الادب واللغة فحسب بل في باب العلم والمعرفة .

فضل اللزوميات على اللغة

تركت اللزوميات اثرًا لا يستهان به في عصر المعري والعصر التي تليه وذلك من نواح شتى فمن الناس من تأثر بها من حيث لغتها واساليبها البيانية فبعثت من هذه الناحية نهضة لغوية كبرى شاع على اثرها التزام ما لا يلتزم في شعر الشعراء وفي انشاء المترسلين وخصوصاً في القرنين الخامس والسادس وهلم جرا وحاول كثير من الادباء محاكاة المعري في جزالة الفاظه أو مشايعته في طريقته أو معارضته في اسلوبه الا انهم قصر، ا عن شأوه غالباً فالمعري امام مجدد مجتهد في اديبه والقوم مقلدون على الاكثر وقصارى احدهم ان يلتزم ما لا يلتزم في ابيات او في قصيدة أو عدة مقطعات واين هذا من سفر كامل مفرغ الحلقات كاللزوميات ولدينا شواهد كثيرة على شيوع الادب الزومي في العصور المذكورة فهذه المقامات اللزومية للمشئها الوزير السرقطي الآتي ذكره وكذلك الرسائل اللزومية لكل من ابن اسيد الفرناطي (١) وعبد الرحمن المكناسي (٢) ومن شغف بمباراة المعري ثراً ونظماً شميم الحلي (٣) روى عنه ياقوت وحدثنا عن اطواره الغربية وله ترجمة مفصلة في معجم الادباء وهو من منشئي الرسائل اللزومية وله ايضاً كتاب الاشارات المعرية وكتاب اللزوم في مجلدين .

هذا في النثر واما في الشعر فقد سلك مسلك المعري في لزومياته كثيرون من

(١) السيوطي في البنية ٢٩٨

(٢) المصدر نفسه ٣٠٣

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ٥٠٠ : ١٣٨

اشهرهم العلامة الماكسيفي الآتي ذكره ومن الشعراء الذين اشتهروا بمحاكاة المعري في شعره أو في لزومياته ابن فورجة البروجردي وابو النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي احد افراد زمانه علماً وادباً وكان يلتزم ما لا يلزم في شعره وهو المقصود بقول الأبيوردي الشاعر المشهور (١) :

شعر المراغي وحوشيتم كعقله اسلمه اسقمه

يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه

وفي هذا المعنى لابن معصوم (٢) :

وشاعر قريضه من كل حسن معدم

لم يلتزم شيئاً سوى لزوم ما لا يلزم

فهذا ونحوه يدلنا على أن فريقاً ممن راق له مذهب المعري في لزوم ما لا يلزم قصر عن شأوه في اللزوميات وذلك لأن صاحبها كان مطبوعاً على هذا الفن بخلاف غيره .

فضل اللزوميات على العلم

ويوجد فريق آخر تأثر باللزوميات من حيث الفكرة التي دارت عليها أي من حيث معاني اللزوميات لا من حيث مبانيها فقد تار الجدل وكثر الخلاف بسبب اللزوميات وآراء المعري فيها وتضاربت أقوال المصنفين من العلماء والأدباء ما بين منتصف له أو قائلٍ باكفاره حتى أن بعض الأدباء من أنصار المعري يضع اللزوميات في الرتبة بعد الكتب الإلهية المنزلة وهو القائل (٣) .

إن كنت متخذاً لجرحك مرها فكتاب رب العالمين المرهم

أو كنت مصطحباً حكماً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم

فقد بعثت اللزوميات كما ترى حركة فكرية عامة تفلقت في أنحاء العالم القديم شرقاً وغرباً وظهر جماعة من البلغاء والمترسلين نهجوا بأدبهم نهج المعري في تذكير الناس وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل وحاموا حول مقاصده

(١) ابن خلكان في ترجمة الأبيوردي من وفيات الأعيان وقامها ابن معصوم في أنوار

الريعم ولا وجود لهذين البيتين في النسخة المطبوعة في بيروت من ديوان الأبيوردي .

(٢) أنوار الريعم ٨٤٠

(٣) تقياً من ظهر نسخة قديمة من لزوم ما لا يلزم .

في التوحيد والالهيات وأصول الدين والأخلاق لكن لم يبلغ أحدهم شأوه في ذلك لأن سيرة المعري وسلوكه كانا من مواظبه البليغة فالمعري وعظ الناس بأعماله قبل أقواله والمرجح أن الزمخشري والاصفهاني في مقاماتهما ونوابغ كلمهما قد تأثرا بأسلوب المعري في ملقى السبيل أو في الفصول والغايات .
والخلاصة للمعري في اللزوميات أسلوب أخاذ يشبه أساليب أساتذة التربية أحياناً فهو يترفق في صقل العقول لجملة المنقول كما يجتهد في تلقين لغة الأعراب وأصول الآداب لأصحاب التأمل والنظرات الفلسفية .

الرابطة المعرية

ونعني بهذه الرابطة تألب فئة من أئمة الأدب وفيهم جماعة من المكافيف أو العميان واتفق آرائهم على تقديم المعري والتعصب لأدبه وافتناء آثاره في منظومه ومنتشوره وقد نشأت هذه الرابطة بعد عصر المعري ولاحظنا وجودها ونحن نتصفح كتب التاريخ والطبقات ولأدب المعري على الأرجح أبلغ الأثر في وعي أتباعه من العميان فقد نبه فيهم شعور الاعتداد بأنفسهم والثقة بكفاءتهم والاعتزاز بزعامته وإمامته في الأدب فراحوا يكثرون من رواية شعره ويثنون الدعوة له ومنهم من سلك مسلكه في التزام ما لا يلزم وذلك للرابطة التي تربط بين المعري وبين هؤلاء المكافيف ودونك أشهر من عرفناه من هؤلاء :

١ - العلامة الماكسيني (١) : اسمه مكي بن ربان الماكسيني الموصلني إمام في النحو واللغة والأدب بالغ تلاميذه - وهم كثيرون - في الثناء عليه ومن أقوالهم « جامع فنون الأدب وحجة كلام العرب » وهذه الكلمة لتلميذه ابن المستوفي وأطلق عليه صاحب التبيان (٢) في شرح الديوان لقب « الشيخ الامام »

(١) أول من ترجم لها كسيني تلميذه أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ اربل وعنه نقل المتأخرون مثل ابن خلكان ٢ : ٥٨٣ والصفي في نكت الهميان ٢٩٦ والسيوطي في البنية ٣٣٥ وابن العماد في الشذرات ٥ : ١١ وما كسين التي نسب اليها بيده من أعمال الجزيرة على نهر الحابور يقول ابن خلكان وهي على صفرها تشابه المدن الكبيرة في حسن بنائها ومنازلها .
(٢) انظر مقدمة التبيان في شرح الديوان [ط] القاهرة سنة ١٢٨٧ ومنها يظهر أن المؤلف مرأ المنهبي على الماكسيني سنة ٥٥٩ في مدينة الموصل .

وهو في رأي الجزري (١) « إمام عالم بالقراءات والنحو ، وما لاحظناه ان الماكسيفي المجمع على تدينه وورعه كان أبداً يتعصب للمعري ويطرب اذا قريء عليه شعره فسلك مسلكه في النظم وذلك للجامع بينهما من العمي والادب على مايقول ابن المستوفي وهكذا نجد للمعري انصاراً من بين حفظة القرآن وأئمة القراءات . توفي الماكسيفي سنة ٦٠٣ ومن شعره .

سئمت من الحياة فلم أردھا تسألني وتشجيني برقي
عدوي لا يقصر عن أذايا ويفعل مثل ذلك بي صديقي
وقد أضحت لي الحدباء داراً وأهل مودتي بلوى العقيق

٢ - الداودي الضرير : داود بن احمد ابو سليمان الداودي الضرير - اديب بغدادي مولع بشعر أبي العلاء يحفظ منه جملة سالحة ولذلك كان الناس يرمونه بسوء العقيدة توفي الداودي سنة ٦١٥ ومن شعره أمثلة في معجم الادباء (٢) .

٣ - السنهوري المادح : اسمه احمد بن مسعود السنهوري الضرير ويعرف بالمادح عاصر الصفدي اجتمع به واخذ عنه سنة ٧٥٨ وفيه يقول « كان حفظه الله له قدرة على النظم ينظم القصيدة وفي كل بيت حروف المعجم وفي كل بيت ظاء وفي كل بيت ضاد وهكذا من هذا اللزوم ، وتجد امثلة مشهورة في نكت الهميان (٣) .

٤ - الصرصري الشاعر البغدادي الضرير : لغوي أديب من البلغاء يدخل شعره في ثمان مجلدات مدائحه النبوية سارت بها الركبان له قصائد التزم فيها ما لا يلزم وهكذا الحروف الصعبة واخرى في كل بيت حروف المعجم . قتل الصرصري في وقعة بغداد سنة ٦٥٦ وتجد في نكت الهميان (٤) امثلة بليغة من شعره تجمله بحق من خول الشعراء .

ومما يدخل في هذا الباب

الامير اسامه بن منقذ : من رواة شعر المعري في اللزوم وقد روى فيما روي

(١) طبقات القراء للجزري ٢ : ٣٠٩

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٩١

(٣) نكت الهميان ١١٥ و ١١٦

(٤) المصدر قس ٣٠٨ و ٣٠٩

له لزومية في الشيب بعبارة تدل على تقديم الميري وأكباره (١) ولا توجد هذه اللزومية في النسخ المتداولة من اللزوميات وهي :

واهاً لرأسك زال ادعمه عنه واشبهه وارقطه
وأعادهُ مثلَ اللجين مدىّ قد كان قبل به ينقطه
يألت شعري حين يرتحلُ الـ جونغُ المودّع ابن مسقطه

ابن فورجة : محمد بن حمد بن فورجة - زنة سكرجة - البروجردي نحوي لغوي من البرزين في النظم والنثر لقي الميري في بغداد على الاكثروقرأ عليه واكثر من الرواية عنه وبينهما مشاعرة ومكاتبة وقد ورد ذكره في سقط الزند بمناسبة قصيدة بعث بها الى الميري اولها :

الاقامت تجاذبي عناني وتسالني بمرصتها المقيلا
فاجابه الميري بقصيدة مشهورة اولها :
كفي بشحوب اوجهننا دليلا على ازماعنا عنك الرحلا
ومنها :

كفنا بالعراق ومحن شرح فلم نلعم به الا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا سيد الشجر النخيل
وشارفنا فراق أبي عليّ فكان أعزّ داهية نزولا
ولولم الق غيرك في اغترابي لكان لقاؤك الحظ الجزيل

وللمعري اثر كبير في تاريخته واسلوبه في الشعر ولذلك قال الباخري (٢) وشعره فرخ شعر الاعمي اعني شاعر معرة النعمان وان كان هذا الفاضل منزها من معرة العميان ، وفي دمية الباخري وتمة القيمة للثعالي امثلة من شعره (٣) ولابن فورجة حديث ممتع في النقد الادبي جرى بينه وبين الميري بشأن المتنبي وفي هذا الحديث اشارة إلى مقاييس الفصاحة عند القوم وقد حكاه صاحب التبيان في شرح

(١) باب الآداب [ط] الرحمانية ٣٧٥ وعبارة الامير أسامة (ولشيخ أبي العلاء بن سلمان التقدم في هذا المعنى بقوله) وانظر ٢٠١ و ٣٧٠ و ٤٦٢ من الكتاب المذكور
(٢) دمية النصر ٩١ من الطبعة الحلبية

(٣) تمة القيمة [ط] طهران ١ : ٢٢١ و ٢٢٥ ومن ترجم لابن فورجة ابن شاعر في فوات الوفيات ٢ : ٢٤٧ و ٢٤٨ والسيوطي في البنية ٣٩ والمجد الشيرازي في البلغة .

الديوان (١) وابن فورجة كما مر كثير التحدث والرواية عن أبي العلاء في الادب واللغة وفي اسمه وميلاده اقاويل مختلفة اصحها ما قدمناه .

لزوم ما لا يلزم في الادب الاندلسي

يروع المتأمل في تاريخ الاندلس نهضة منقطعة النظير في اللغة وآدابها وفي علوم النقل والرواية وكثرة غريبة في عدد اللغويين والنحاة لم يعهد مثلها قط إلا في العراق في بعض عصوره والاندلس تلي العراق في كثرة من تخرج فيها من أئمة النحو واللغة واهل الرأي والمذهب فيها ولا مجال في هذه المجالة لتفصيل ذلك هذا من ناحية ويدهش المتأمل من ناحية أخرى فتور ظاهر في الاندلسيين من حيث عنايتهم بالحكمة والمعارف العاقية في بعض المصور وقد عانى كثير من اعلام الفكر وأهل النظر ما عانوه من العنت والضيق على ايدي أمراء السوء يعانهم على ذلك أحياناً فريق من المتفهمة الجامدين وتاريخ اولئك الاعلام والنظار في الاندلس حتى أعيان الابداء مليء بالمحن والنكبات في كثير من الاحيان وقد اسرع الانحلال الى دول الاسلام في الاندلس والمغرب ومن جملة العوامل في ذلك — على ما أظن — هذا الافراط والتفريط افراطاً اقوم في جانب المقول وتفريطهم في ناحية المقول وذلك خلافاً للام المنية المجاورة للاندلسيين وهي ام كان جل اعتمادها في حياتها على المقولات وعلى الحقائق التي تميزها التجربة ويشهد بها الامتحان .

وقد دخل أدب العربي من شعر ونثر الى الاندلس على ايدي جماعة من تلامذته المغاربة أو الاندلسيين الذين رحلوا الى الشرق ولازموا أبا العلاء وقرأوا عليه او على من قرأ عليه من تلامذته كالخطيب التبريزي شارح الحماسة فشغف الاندلسيون بأدب ابي العلاء واءجبتهم طريقته واساليه وكثر فيهم مقلدوه واتباعه في فنونه الادبية كما يظهر لنا من تصفح كتب التاريخ والطبقات ولا نبالغ اذا قلنا ان مؤلفات العربي في الشعر واللغة خاصة بعثت من جهة نهضة أدبية لغوية كما اوجدت من جهة ثانية حركة فكرية عامة في الاندلس . فمن الاندلسيين فريق تصدى لمساجلة العربي ومعارضته وبينهم الاعيان والوزراء في كتب لم تزل باقية

إلى هذه الغاية في خزائن المغرب والاندلس (١) ومن الاندلسيين فريق آخر تأثر بالمعري من حيث بلاغته وجزالة لفته في شعره خصوصاً سقط الزند والدرعيات وغيرها وقد عني هؤلاء برواية شعره في السقط أو شرح ما فيه من الغريب فكان السقط من جملة محفوظات البلوي صاحب كتاب « ألف باء » ومن شراح السقط ولعله أشهر شراحه ابن السيد البطلوسي صاحب الاقتضاب الآتي ذكره ومن أدباء الاندلس من حاكى أبا العلاء في التزام ما لا يلزم ومن هؤلاء أصحاب المقامات والرسائل الزومية في النثر . وأصحاب الدواوين في النظم وقد ضاع أكثرها فلم يصل إلى أيدينا منه شيء فلا نرى جدوى في التعريف بأصحابها وإنما نكتفي بذكر من وصلت إلينا آثارهم ممن حذوا حذو المعري في لزوم ما لا يلزم ثراً ونظماً من الاندلسيين مبتدئين بالقسم الأول أي بالكتاب والمترسلين .

لزوم ما لا يلزم في نثر الاندلسيين

اشتهر بالترزام ما لا يلزم في النثر فريق من كتاب الاندلس وهاك أسماء أربعة من مشاهيرهم في استخدام الفن المذكور .

١ - السرقسطي صاحب الزوميات : اسمه محمد بن يوسف بن إبراهيم السرقسطي شاعر ناثر اديب رحالة في طلب العلم جاب الاندلس وزار أشهر مدنها ومنها غرناطة قرطبة مرسية بلنسية مألقة شاطبة للاخذ عن أعلامها وممن أجاز له القاضي ابو علي الصدفي وهو أكبر مشايخه (٢) ترجم للسرقسطي ابن الأبار (٣)

(١) من هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب [جمد النسيج] في مساجلة المعري في خطبة النصيح تأليف المحافظ سليمان بن موسى الكلاعي كتاب [المسمى الجليل والمرعى الويل] في مآرضة ملقى السيل للعافظ محمد بن الأبار البلنسي ولابن الحصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين كتاب في هذا الموضوع . احكام صبغة الكلام من تأليف الوزير الأندلسي التاسع محمد بن عبد الغفور الكلاعي ويذكر فيه بعض مؤلفات غير معروفة لأبي العلاء ومن هذه الكتب نسخ خطية محفوظة في الخزائن التونسية والاندلسية .

(٢) المعجم في اصحاب أبي علي الصدفي لابن الأبار [ط] مدريد سنة ١٨٨٥ م ص ١٤٠ و ١٤١ وراجع عن الصدفي طبقات القراء للجزري ١ : ٢٥٠ وطبقات الحفاظ للذهبي ٢ : ٢٨

وقفح الطيب ١ : ٣٦٤ و ٣٦٥

(٣) المعجم في اصحاب أبي علي الصدفي لابن الأبار

وابن بشكوال (١) والسيوطي (٢) وشهدوا بفضله وجزارة علمه وله شعر ورسائل ومن مؤلفاته « المسلسل » وموضوع هذا الكتاب لغوي ولكنه غريب لم يسبق اليه من حيث الوضع والترتيب فقد التزم السرقسطي فيه أن يفسر كل لفظة باخري لها معنيان قريب وبعيد أو معنى حقيقي وآخر مجازي ثم ينتقل إلى ذلك المعنى البعيد ويفسره وهلم جرا مثليفسر الذهب بالنضير ثم يقول النضير الناعم والناعم الخافض والخافض الواضع وهكذا على التسلسل فكأنه كتاب من كتب المجازات اللغوية أو من كتب البلاغة وما شاكل ذلك وهو مفيد في بابه . على أن أشهر ما وصل إلينا من آثاره مقاماته اللزومية .

المقامات اللزومية

هي خمسون مقامة انشأها السرقسطي بقرطبة لما وقف على مقامات الحريري التي أنشأها بالبصرة ولا شك أنه وقف على لزوميات المعري لجمع بين مباراة الاثنين وفي هذه المقامات يتحدث « المنذر بن حمام عن السائب بن تمام » اشتهرت هذه المقامات ورويت عن منشئها ولذلك يقول ابن الزبير « له المقامات اللزومية المشهورة » (٣) ويقول ابن بشكوال « له مقامات أخذت عنه واستحسنت » (٤) وممن رواها عنه الامام النحوي اللغوي المشهور بابن الباذش ورواها عن ابن الباذش ابن الابار ومن رواها محمد بن خير الاشبلي صاحب الفهرست المشهور الآتي ذكره جاء فيه « المقامات اللزومية خمسون لابن الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي من انشائه روايتي كذلك عنه » (٥) وقد ذكرها في كشف الظنون (٦) ومما قاله « المقامات اللزومية مشهورة جاءت على غاية من الجودة » وعدد هذه المقامات اللزومية خمسون كما مر توجد منها نسختان في مكتبة جامع لاله لي بالاستانة وقد

(١) الصلة لابن بشكوال [ط] مدريد ٢ : ٥٢٩ و ٥٣٠

(٢) بغية الوعاة ١٢٠

(٣) نقله السيوطي عنه في البغية ١٢٠

(٤) الصلة لابن بشكوال ٢ : ٢٢٩ و ٢٣٠

(٥) فهرس ابن خير [ط] اسبانية ٣٦٣

(٦) الكنتف ٢ : ٢٩٥ [ط] الاستانة

وصف النسخ المخطوطة من المقامات المذكورة أديب دمشق (١) ونشر نموذجاً منها وهو المقامة الأولى واسمها « القفرية » ومن جملة هذه المقامات مقامة اسمها « الخداعية » وأخرى اختلفت بالنظم والنثر وهي المقامة الخمسون وفي هذه المقامات دليل على بلاغة منشئها وجزارة مادته في الأدب واللغة ولكن انى له بلوغ شأو المعري أو الحريري في المنظوم والمنثور .

٢ - ابن خير الاشبلي ابو بكر محمد بن خير الاشبلي حافظ ثقة في النحو واللغة والادب له ترجمة مفصلة في طبقات الحفاظ (٢) ومثلها في طبقات القراء (٣) وثالثة في بنية الوجود (٤) وهو عثل لنا ولع الاندلسيين بالمعري وعنايتهم بكتبه في ذلك العصر وذلك ما حملنا على ذكره في هذا المكان توفي ابن خير سنة ٥٧٥ بقرطبة ولم يصل إلى أيدينا من آثاره الا الفهرست المسمى « فهرست ابن خير » وهذا الفهرست عبارة عن سفر جمع فيه اسانيد ما رواه من الكتب وبعضها اسانيد عالية فهو مثلاً يروي « الكامل » بسند عال يرفعه إلى المبرد وقد استطرده فيه إلى فوائده ادبية وتاريخية . ومن مرويات ابن خير على ما جاء في الفهرست المذكور (٥) جميع كتب المعري ورسائله وسائر شعره في « اللزوم » وكل ما له من منشور ومنظوم قال روايتي ذلك عن أبي بكر بن العربي (٦) عن أبي زكريا التبريزي عن المعري .

٣ - مترسلون لزوميون : وهذه اسماء فريق من المترسلين اللزوميين ورد ذكرهم في كتب الطبقات مثل عبد الرحمن بن اسيد الفرناطي قالوا هو كاتب بارع قدر من اللزوم على ما عجز غيره حتى صار طبعا له (٧) وعبد الرحمن السلمي الاندلسي يعرف بالمكتاسي كاتب حلوا الاغراض ينشئ الرسائل اللزومية

(١) السيد محمد علي ظبيان في مجلة المنتشر ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٨ وفي مجلة الزهراء ٢ : ٢٠٢ - ٢٠٤

(٢) طبقات الحفاظ للذهبي ٢ : ١٥٢ و ١٥٥

(٣) طبقات القراء للجزري ٢ : ١٢٩

(٤) البنية ٢١

(٥) فهرس ابن خير الاشبلي [ط] اسبانية ٢١٢ و ٢٥٠

(٦) انظر عن الحافظ أبي بكر العربي طبع الأتفسر لفتح بن خاقان ٢١ و ٧٣ وطبقات

الحفاظ للذهبي ٢ : ٨٦ و ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ - ٦٥ و ٨٦ و ٩٥ و فتح الطيب ١ : ٣٢٥ - ٣٢٣

(٧) البنية ٢٩٨ عن تاريخ غرناطة

وبلغ في اللزوم مبلغاً أعجز غيره وله رسائل جليلة . توفي بمراكش سنة ٥٩١هـ (١)
ومنها ابن غلندة ذكر ابن الأبار انه من اصحاب اللزوميات الى غير هؤلاء .

لزوم ما لا يلزم في شعر الاندلسيين

مذهب الجماعة . مذهب اندلسي في الادب

قال الشهاب المقرئ (٢) في ترجمة ابن جزى الفرناطي مانصه « ذهب في شعره مذهب الجماعة كابن الملايحي والمري والرئيس ابن المظفر وابي طاهر السلتي وابي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وابي علي بن أبي الاحوص وغيرهم » هذا ما قاله الشهاب المقرئ ومنه نعلم أن طريقة المري ومن حذا حذوه في نظمه كانت طريقة ماثورة شائعة يدرسونها في الأندلس والمغرب وان « مذهب الجماعة » هذا مذهب اندلسي في الادب ويقصدون به نظم الاشعار في المواضع والاهليات والتوحيد والاخلاق وما الى ذلك كما نجد في اشعار السلتي (٣) وابن جزى (٤) وابن ابي الاحوص (٥) وابن الشيخ وغيرهم ممن لم يذكرهم الشهاب المقرئ في كتابه وهي اشعار التزموا فيها ما لا يلزم في كثير من الاحيان وهناك اشهر شعراء الاندلس الذين نظموا شعرهم على الطريقة المذكورة وفي مقدمتهم ابن السيد البطليوسي والقرسطي وغير هؤلاء :

١ - ابن السيد البطليوسي : عبد الله بن محمد بن السيد زريل بلنسية شاعر نائر بليغ مؤلف موفق في التأليف من اعلام الاندلس في اللغة والادب وهو

(١) البنية ٣٠٣ نقلًا عن ابن الزبير

(٢) أزهار الرياض ٣ : ١٨٤

(٣) انظر عن الحافظ السامي وفيات الأعيان ١ : ٥٣ - ٥٥ وطبقات الحافظ الذهبي ٢ : ٩٠ -

٩٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٧ - ١٧١ ومواضع آخر من الكتاب المذكور

(٤) محمد بن جزى أديب قتيه . وُلّف جماعة للكتب له خزنة ملوكية استشهد سنة ٧٧١

تجد ترجمته وأمثلة من شعره في أزهار الرياض ٣ : ١٨٤ - ١٨٦

(٥) ابو علي بن ابي الاحوص القرشي الفرناطي اسمه الحسين بن عبد العزيز له ترجمة منفصلة

في بنية الوفاة ٣٣٢ وهو من حيث المزاج والميل الى العزلة والتسخط على الحياة واتزام ما لا يلزم

في شعره كثير الشبه بأبي الملايحي المري .

صاحب الاقتضاب (١) والانصاف (٢) افرد الفتح بن خاقان رسالة خاصة في ترجمته ضمنها جزءا من شعره (٣) وله ايضا ترجمة في قلائد العقبان (٤) ووفيات الاعيان (٥) وبغية الوعاة (٦) .

عنى البطلبوسي بشعر ابي العلاء المعري وشرح ما فيه من الغريب وله شرح مشترك على سقط الزند واللزوميات يقال انه احسن الشروح بيد انه نادر الوجود توجد منه اوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة (٧) وقد عثر اخيرا في تونس على نسخة قديمة منه في مجلدين فهو اقدم شرح يعثر عليه من شروح سقط الزند واللزوميات . وله شعر وترسل كثير وهو متفنن في شعره وثره نظم قطعة تنفك عنها ست قطع وأخرى تنفك عنها تسع (٨) والمعري تأثير ظاهر في طريقته واساليبه قال ابن خاقان وقد أكثر من القول في الزهد . توفي البطلبوسي سنة ٥٢١ ومن شعره وقد التزم ما لا يلزم :

امرت الهي بالمكارم كلها ولم ترضها الا وانت لها اهل
فقلت اصفحوا عن اناب اليكم وعودوا بجم منكم ان بدا جهل
فهل لجهول خاف صعب ذنوبه لديك امان منك او جانب سهل

ومن تفننه قوله في اولاد صاحب قرطبة وهم عزون ورحمون وحسون :

اخفيت سقمي حتى كاد يخفيني وهمت في حب عزون فعزوني
ثم ارحموني برحمون فان ظمئت نفسي الى ريق حسون فحسوني

٢ - - السرقسطي الشاعر : هو صاحبنا منشيء المقامات اللزومية المار ذكره في الفصل السابق شاعر مكثر يلتزم في شعره على الاكثر ما لا يلزم ومن شعره امثلة عثرنا عليها في كتب الادب جلها على ما نظن مقتبس من مقاماته اللزومية .
للسرقسطي في معاهد التنصيص (٩) اربعة ابيات لزومية مهد لها صاحب المعاهد بقوله ، ولابي طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي وهو مصنف المقامات اللزومية وهي خمسون مقامة بناها على لزوم ما لا يلزم واول الابيات :

(١) طبع في المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٩٠١

(٢) طبع مصر سنة ١٣١٩

(٣) نقل المقرئ صاحب فتح الطيب وأزهار الرياض هذه الرسالة برمتها في كتابه الأخير

(٤) ص ١٩٣

١٠٣ و ١٢٩

(٥) ص ٢٨٨

(٥) ٣ : ٢٧٢

(٦) ابو العلاء المعري لأحمد تيمور ٦٨ (٨) ازهار الرياض ٣ : ١٣٢

(٩) معاهد التنصيص ٢ : ١٠٦

ياهاثما بالدلال والخفر الصقت خد العزيز بالعفر
ومن شعره في المقامات الزومية وهو مما رواه ابن الأبار (١) والأبيات
خمس أولها:

هيات من ذنب الميء تأسف وله على هول الذنوب تمسف
وله قصيدة من هذا الباب أولها:

دعا بك الدهر لو تحيب يا حبذا السامع الحبيب

منها: المجد فوز الفتى بحظ فما تميم وما تحيب

٣ - ابن الشيخ البلوي (٢): اسمه يوسف بن محمد أبو الحجاج القضاعي
البلوي يعرف بان الشيخ عالم لغوي من محفوظاته سقط الزند عن اللزوميات في
شعره. أم ما وصل من مصنفاته (الف باء) (٣) في الأدب واللغة وهو كتاب
غريب الوضع والترتيب التزم في ترتيبه ما لا يلزم وفيه نقل عن شرح للبطلوسي
على لزوم ما لا يلزم والمعري والبلوي المذكور مولع بالنظم على هذه الطريقة
كأستاذ الفقيه أبي محمد الخطيب (٤). توفي ابن الشيخ البلوي سنة ٦٥٣ ومن
لزومياته في شيخ فقير خطب جارية غنية:

أتخطب من قدها غصن بان ومن كالسجنجل منها اللبان

تضاف إلى الشمس من حسنها وتنسب في العز لمرزبان

وأنت عديم أخو عيلة مشيك في عارضيك استبان

وليكن هذا آخر البحث في تاريخ لزوم ما لا يلزم وهو فيما نظن قليل
من كثير وربما فاتنا منه ما يعادل هذه الصفحات وقد حالت حوائل قاهرة
دون استيعاب البحث مضافاً إلى كلال الذهن وتشتت البال والله المستعان
على إتمامه في المستقبل إنه ولي التوفيق .

محمد رضا الشيبلي

(بغداد)

رئيس مجلس النواب

(١) المعجم في اصحاب القاضي الصدقي لابن الأبار ١٢١

(٢) انظر بنية الوطاة ٣٥٣

(٣) طبم هذا الكتاب في مصر سنة ١٢٧٧ بمجلدين

(٤) الف باء ٢٠١ : ٣٢١ و ٣٢٢ وانظر أيضاً ١٥٢ و ٢٧٢ و ٣٢٢

أبو العلاء المصري وعالم النحو

كتب لأبي العلاء صنوف من المجد العالمي .
كان شاعراً مكثرًا مفيضاً خلف ديوانين من أوسع الدواوين في العربية —
ومع ذلك وجد من العلماء من يقول — أبو العلاء حكيم وليس بشاعر — وكان
فيلسوفاً حكيمًا حدد لنفسه رأياً في الحياة وأملى عليه رأيه خطة من العيش
الترمها وصبر عليها ووفى بها — ومع ذلك جحدت عليه فلسفته وقيل مضطرب في
الرأي متقلب في الحكم وقيل برم بالحياة تملي عليه السوداء — ودع عنك من رماه
بالالحاد والزنيغ وسوء الايمان .

وكان عالماً لغوياً فكان هذا أين مجد له واشرقه . ومذ كان أبو العلاء بهر
الناس علمه باللغة وتصرفه فيها واحاطته بعلومها ولم يتعلق عليه في هذا متعلق .
ولكن البحث الجديد يبدو كأنه يمسك الطريق على السابقين في تقدير علم أبي
العلاء وتقويم مواهبه ودرس آثاره .

فاما فلسفته فقد وجدت من استنبطها واحاط بها وصورها وخدمة متائلة متكاملة
تستحق أن تجد منزلتها في تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر وتاريخ الحياة أيضا .
ومذ بدأ الدكتور طه حسين — وهو ناشيء — يكشف عن فلسفة المصري
ويؤانف بين اشتاتها ويظهر الناس على جملتها ، وفلسفة أبي العلاء حقيقة ماثلة لدى
الناس لا يجحدونها وان اختلفوا في تقويمها .

وأما شعر أبي العلاء فللادباء اليوم رأي حسن في تقديره وأنه الشعر علا عن
اللغو وسما بما فيه من رأي وبحت في أمور الحياة .
وانه الشعر العربي الذي يقدم للناس ثراً فيقبلون عليه راضين يتمتعون بمعانيه
قلوبهم وعقولهم .
وإن الغربيين اذا ترجموا من الشعر العربي لم يجدوا لديهم أقوم من شعر
المصري .

فقد كشفت فلسفة المرعي وقوم شعره — أما علومه اللغوية وهي المع آيات مجده فإذا دُرس منها؟ لقد زحزحت عن مكانها وكانت الأولى . وكانما نشر أبو العلاء فيلسوفاً وشاعراً وقد كان يحيا عالماً لغوياً .
 وأنا أحاول هنا أن أدرس طرفاً يسيراً من أطراف علوم أبي العلاء اللغوية — وهو العلم الذي سماه المتقدمون (بالعربية) وشمله كتاب سيويوه ونسماه الآن علم النحو والصرف أو « علم النحو » ونكتفي .
 وأريد أن أكتفي من البحث ببيان موقف أبي العلاء من هذا العلم ومن سبل بحثه في فقه العربية .

أرضي أبو العلاء هذا الاسلوب من البحث أم كرهه؟ فإن كان قد رضي فهل أحدث فيه بحثاً أو زاده فصلاً؟ وإن كان كرهه فهل بدل منه شيئاً أو حاول ان يبدله؟ .

تعلم أبي العلاء النحو بالشام

بكر أبو العلاء إلى درس النحو صبياً — كما كان الناشئون ييرون — وتلقى أول دروسه على والده الشيخ عبد الله بن سليمان ولم يكن نحوياً مذكوراً ولا عرف له رأي في النحو وإنما تعلم منه ما كان ينبغي أن يتعلم فقيه تهبياً للقضاء .
 وكان الشيخ عبد الله فقيهاً قاضياً عربي النجر يفتخر بنسبه من تنوخ .
 وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويمرضون عن نحو البصرة نحو الموالى وكان الفقهاء يحبون نحو الكوفة أيضاً لأن الكوفيين أكثر رواية وحما للآثار وحفظاً للحديث ولأن البصريين اقلوا الرواية وتورطوا في الفلسفة والجدل واطرحوا الحديث ان يحتاجوا به ولحنوا المحدثين .
 لذلك أخذ الشيخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلمه من قبل وهو « مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي » المتوفى سنة ٢٣١ هـ وكان هذا الكتاب مما يتدارسه الناشئون بالشام ويؤثره الفقهاء .
 وكان بمدراس الشام موجز آخر يسمى « الجمل » الفه عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي وكان الزجاجي من أئمة النحاة وقصد إلى الشام واقام بطبرية وتوفي بهاسنة ٢٣٩ هـ وترك له مدرسة وتلاميذ يدرسون كتابه « الجمل » فدرسه أبو العلاء .

وكذلك كان باشام كتاب في النحو مختصر يسمى «الكافي» ورد اليهم من مصر ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرادي المصري المتوفي بمصر سنة ٣٣٨ قالوا «كان شيخاً تقياً ورعاً انتفع به خلق كثير» وتقل تلاميذه كسأبه الى الشام فكان مما يدرس بها ولقيه أبو الملاء وقرأه ايضاً وقد بقيت هذه المختصرات تدرس بالشام الى أن جلس أبو الملاء بالمعرة استاذاً يعلم الناس فعلها لتلاميذه كما سنراه بعد .

انتقل هذا الفتي المستكبر من العلم الى «حلب» قالوا «دخل أبو الملاء حلب وهو صبي فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي» ولم يقولوا ما قرأ عليه ولكن ابن سعد لم يكن نحويّاً ولا ذكر في النحاة وان سمي نحويّاً وانما كانت رواية لديوان المتنبي .

وكان شعر المتنبي متغنى أهل الشام وهتاف عاطفتهم وذا كرايمهم فاجبه الشباب واحبه أبو الملاء ثم زاده فيه جبا ان معانيه لامت نفسه فأكب عليه جمعاً وحفظاً ثم قصد ابن سعد هذا الذي لقي المتنبي وسمع منه وحفظ عنه وعد رواية له ولكن الفتي كان أجمع لشعر المتنبي وأروى له من روايته .

قالوا «ان ابن سعد كان يروي من ديوان المتنبي قصيدته التي مطلعها» :

«أزائر يا خيال أم عائد»

فقال منها .

أو موضِعاً في فنان ناجية

فرد عليه ابو الملاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي — وقال بل هو

او موضِعاً في فنان ناجية

فلم يقبل ذلك ابن سعد ومضى الى نسخة عراقية صعدت مع ابي علي بن ادريس من العراق فوجد القول ما قال ابو الملاء ولم تكن القصيدة مما قرأه على المتنبي ولكن بما بث اليه .

فلم يجد أبو الملاء في حلب استاذاً له لا في الرواية ولا في النحو .
وانما كان في حلب آثار مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه سنة ٣٧٠ وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ ولهذه المدرسة اسلوب في البحث يتميز ببنائها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ماسمى منها

شاذا وعمل الامامين في هذا الباب هو مرجع الدارسين له وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وان لم يلق احدا من أئمتها وألف كتابا سماه « تظلم السور » يتكلم فيه عن لسان السور وتظلم كل سورة عن قرأها بالشواذ ويتعرض لوجه الشاذ .

لم يفلح المعري في أن يلقى استاذا بالشام فاجتهد الى بغداد على وعناء الطريق وعناء الرحلة ومشقة السفر عليه خاصة ولكن لقاء الشيوخ كان من تمام العلم ولربما كان الرجل عالما مليئا ثبثا ثم عيب بانه لالقاء له وبانه صحفي لم يأخذ عن كبار الشيوخ .

بغداد ونحاتها

كانت بغداد تصطبغ بأصوات العلماء وعلماء النحو خاصة كان فيها قبيل مقدم أبي العلاء الامام أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ كان الى امامته في النحو فقيها قاضيا ورعا وشرح كتاب سيديويه فناء اوسع شرح واسيره وابقاه الى الآن وهو يبلغ حجم « الكتاب » اضعافا ثلاثة أو أربعة والناس يحرصون عليه ويجاهدون في تحصيله ويتفاخرون باقتنائه .

وكان إلى جانبه ، الامام أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧ وكان يلقب سيديويه الثاني وقالوا « لم يشهد النحو بعد سيديويه اعلم به ولا أدق نظرا في قياسه من أبي علي » .

كان الشيخان يتنازعان رياسة النحو في الدنيا ولكل منهما فابو سعيد أكبر رواية وأوفر حظا من الشعر واللغة والسباع وإث كان نحوه نحو البصريين وجدلهم وقياسهم .

والفارسي أدق نظرا وأصح قياسا وأغوص على أسرار العربية وكان يقول « اخطي في خمسين مسألة مما تأتي به الرواية أحب إلي من ان أخطي في مسألة واحدة مما يأتي به القياس » .

وكان إلى جانب هذين الامامين الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ وهو تلميذ الفارسي وفي طريقته . ثم الرماني علي بن عيسى المتوفي سنة ٣٨٤ وهو ذو طريقة وحده كان اعتمق من الفارسي غوصا على القياس وعلته حتى كان الفارسي يقول .

« ان كان النحو بما بأيدينا فليس مع الرماني شيء منه وان كان النحو ما عنده فما بأيدينا منه شيء » .

كل هذا يبين عن كثرة المدارس النحوية وتفرع المذاهب ونشاط الجدل اللغوي ولكن ابا العلاء نزل بغداد وقد تخرمت المنية هؤلاء الائمة . السيرافي سنة ٣٦٨ ، والفارسي سنة ٣٧٧ ، والرماني سنة ٣٨٨ ، وابن جني سنة ٣٩٢ . فكانت ما كتب له الايتي مدارس النحو الا في أعقابها وكان الموت كان يساقه إلى لقاء الشيوخ .

كانت رياسة النحاة قد انتهت الى الشيخ علي بن عيسى الربي المتوفي سنة ٤٢٠ وكان شيخاً كبيراً وكان اماماً واسع العلم ولكنه كان ضيق الصدر غير محمود العشرة ولم يكن لأبي العلاء بد من ان يقصد اليه ويحكون ان ابا العلاء منذ استأذن على الشيخ اذن له في عبارة تسيء اليه فكر راجعاً ولم يعد ولم يتلق عن الربي شيئاً . ونحن نعلم خلق الربي وانه صرف عنه بعض التباهين من تلاميذه سئل ابن برهان « لم تأخذ النحو عن أصحاب الربي وتترك الشيخ وقد أدركته . فقال يمنني جنونه وما تعلمون مني » . (انظر يا قوت . ترجمة ابن برهان) . وكذلك نعلم طريقة الربي في الجدل النحوي واتباعه سبيل استاذه أبي علي الفارسي .

وكلا الامرين لا يلائم أبا العلاء فلم يكن من سبيل الى أن تطول الصحبة بينها . وعندني ان أبا العلاء قصد الى الربي وأخذ عنه قليلاً ثم انصرف وابن المديم ينص على أنه تلقى عن الربي . أما القصة فانها أبدعت في تصوير هذا النفور وسرعته وبت اللقاء كأن لم يكن لقاء .

لم يجد أبو العلاء اذن استاذاً له في بغداد كما لم يجد من قبل استاذاً في الشام واضطر ان يطلب النحو من المكتب وان يكون قارئاً لامتلياً .

وسنحاول ان نعلم ما اتصل به من كتب النحو وكيف اتصل بها وزى كيف قدرها وقدر أصحابها .

الكتاب وسببويه

نعلم من بعض رسائل المعري (ص ٢٦ مرجليوث) أن أبا العلاء كتب الى أحد أخواله — أبي طاهر بن سبيكة — يسأله أن يحصل له نسخة من « الكتاب »

ومن شرحه وان يخاله لقي عناء في تحصيله وكأنه كتب اليه بما لقي فأرسل اليه المرعي رساله منها « وفهمت ما ذكره الشيخ من أمر النسخة المحصلة وهو — ادام الله عزه — الكريم المتكرم وانا المثقل المتبرم جرى في التفضل على الرسم والححت الحاح الوشم فاما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر

وكنت قلت في بعض كتبي الى سيدي ان كانت الخطوط مختلفة والابواب مؤتلفة فلا بأس يعني عن السرق ثوب من خلق ما عدا خط علي بن عيسى فانه رجل اتكل على ما في صدره قتهاون في سطره .

وهو — ادام الله تأييده — من الملامة في احصن لامة فلا يبعثه تمذرا الحاجة على اللجاجة اهو الكتاب المكنون الذي لا يعسه الا المطهرون انما هو اباطيل إياه

وتعليق في ايام الحياة ، اه

اما تقديره سيويه رحمه الله فانه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة في مواضع

من رسائله منها :

« ان ابن القارح سأل ابا ليلى نابغة جمدة كيف تنشد قولك :

فليس بمعروف لنا ان زردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

أقول — « ولا مستنكرا » ام « ولا مستنكر » فيقول الجمدي بل « مستنكرا » فيقول الشيخ فان انشدكم منشد « مستنكر » فما تصنع قال « أزجره وازبره نطق

بامر لا يخبره » فيقول الشيخ انا لله وانا اليه راجعون ما أرى سيويه الا وهو في

هذا البيت لان ابا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما .

وامانا سيويه يذكر هذا البيت في كتابه (ج ا ص ٣٣)

ويجيز فيه « مستنكر » بالجر ويتكلم في توجيهه

ومثل هذا ما زراه في سؤاله عدي بن سعد عن بيته :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي امر تصير

وأن سيويه يزعم ان « أنت » يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر

فيقول عدي بن زيد دعني من هذه الاباطيل .

وقد ينبغي ان تثبت عند هذين التقدين قليلا ففيها أصلان يرجع اليها اكثر ما

تقدمه ابو العلاء من نحو البصرة الاول أن نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب مالا يقولون وأجروا على الستهم غير ما يرضون .
 والثاني انهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما اوقمه في الاباطيل .
 واذ كان هذا يبين عن رأي أبي العلاء في سيبويه وفي الكتاب فلنحاول أن نتعرف الى رأيه في أبي سعيد والشرح .

السيرافي وشرحه

طلب أبو العلاء شرح السيرافي من خاله أبي طاهر مع الكتاب كما قرأنا في الرسالة السابقة وقال في تقديره « أما الشرح فإن سمح القدر والا فهو هدر » .
 وطلبه ايضا من صديق له آخر هو أبو عمر الاسترآبادي وكأنه لقي في تحصيل الشرح عناء ايضا كما يفهم من رسالة أبي العلاء (ص ٣٨ مرجليوث) .
 « كان أيسر من عنائه في ذلك كذف الشرح في سيج . . . »

انما هو افانين كلام اصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع لا يخلد من رواه قد عاش الناس بسواه . . . ولا أقول لمن غاب ريش سهمه اللغاب ولا اقول لكتاب ابي سعيد — « اولئك ينادون من مكان بعيد » بل انا من التثقيل حذر ، مشفق من ذلك معتذر ، وانما سألت أن يستسمد برائه لقله نظرائه وهو عندي أجل والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ولو كن كديب القطوات » .
 وأبو العلاء لا يزهده في الشرح زهده في الكتاب ولا يجعله كما جعل الكتاب « اباطيل إياه » وانما اشفق من التثقيل وعاب من الشرح انه « أصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع » وأبو العلاء يضيق بالقياس صدرا ولا يعدل بالمسموع شيئا ولكن الشرح مع مافيه من القياس غزير الرواية والشيخ أبو سعيد فياض الاستشهاد وذلك اغرى أبا العلاء بتحصيله .

أما الرأي في أبي سعيد فانك قد تراه في ثنايا ما ناقص عليك قال ابو سعيد في الجزء الاول من الشرح عند ترجمة سيبويه « باب ما يكون في اللفظ من الاعراض » مانصه :

حضرتُ أبا بكر بن دريد وقد أنشد أبيتا تنحل آدم وهي :
 تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض منبر قبيحُ
 تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه الملمح .

فقال أبو بكر أول ما قال الشعر أقوى فقلت له انشاد البيهقي على وجه لا يكون فيه اقواء وانما هو :

..... وقلّ بشاشة ارجه المليح

على تقدير وقل بشاشة مفتحين وجمل يستشهد لحذف التنوين في هذا الموضع اذا تلاه ساكن بشواهد عدة من الشعر ومن القرآن الكريم ثم قال وحذف التنوين عند الالتقاء بساكن غير داخل في ضرورة الشعر وقد رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر أدخل فيه حذف التنوين وهو عندي ليس كذلك . ا هـ . من تفصيل المعري وفي روي .

وابو العلاء يعرض لهذه القصة حين يلتقي ابن القارح باينا آدم ثم يقول ما نصه : قلت انا هذا الوجه الذي ذكره ابو سعيد شر من اقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة هـ . (رسالة الغفران ص ١٠٩ و ١١٠) .

ابو علي الفارسي وكتبه

ونحن مضطرون ان نطيل عليك بنقل من نص رسـ لة الغفران ص ٥٧ لتعلم تقدير أبي العلاء للفارسي وكتبه .

« قال ابن القارح : وكننت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا فلما رأني أشار بيده فحسبته فاذا عنده طبقة منهم يزيد ابن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك أنشدت علي هذا البيت برفع « الماء » يعني قوله : فليت كفافاً كان شرك كله وحيرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

ولم أقل إلا « الماء » . وكذلك زعمت اني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلاً بي كشكلك شكله فاني — خليلاً صالحاً بك — مقتوي

ولانما قلت « مقتوي » بضم الميم . وإذا هناك راجز يقول تأولت علي أني قلت :

يا ابلبي ما ذنبه فتأبيبه ماء رواء ونصي حويليه (١)

(١) يروي هذا البيت أبو سعيد في الشرح :

يا ابلبي ما ذامه فتأبيبه ماء رواء ونصي حويليه

شاهداً على تثنية « حول »

فحركت الياء في « تأبيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب
 وإذا رجل آخر يقول أدعيت علي أن الماء راجمة على الدرس في قولي :
 هذا سراقة للقرآن بدرسه والمرء عند الرشى أن يلقها ذيب
 أفجنون أنا حتى أعتقد ذلك . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه
 على تأويله . فقلت يا قوم ان هذه أمور هينة فلا تفتنوا هذا الشيخ فانه يمت
 بكتابه في القرآن المعروف « بالحجة » وانه ما سفك لكم دماً ولا احتجن
 عنكم مالا فتفرقوا عنه وشغلت بخطابهم والنظر في حويرم فسقط مني الكتاب
 الذي فيه ذكر التوبة فرجعت اطلبه فما وجدته فأظهرت الوله والحزاع » اه .
 فهو يخطئه في روايته ويكره منه تأويله ويزعم أنه يقول العرب ما لم يقولوا
 ويحمل كلامهم ما لم يريدوا وانه انما يرضى من عمله (كتاب الحججة) وهو في
 اعراب القرآن وتوجيه قراءاته .

وكذلك انصرف المعري عن بغداد لم يتلق عن أحد من ائمة النحو بها وقرأ
 كتبهم فضاقت صدرها بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل والغلو في
 التعليل والمضي مع القياس مضياً يراه المعري منتهياً الى أن يميز في المرية ما ليس منها

تدريسه النحو بالمعرة

عاد أبو الملاء الى المعرة واستقر بها استازدا فإذا علمهم من النحو ؟
 جعل يعلم من شاء منهم كتب النحو الموجزة التي تعلمها من قبل في المعرة
 وفيما حولها من بلاد الشام وهي .

(١) الجمل — للزجاجي — (٢) الكافي — لاجاس (٣) المختصر —

لابن سمدان .

وجعل يؤلف الكتب شرحاً لها أو بياناً لشواهدها . فألف لكتاب الجمل :

(أ) — عون الجمل (ب) — اسعاف الصديق

وألف على « الكافي » كتاباً سماه « قاضي الحق » . وعلى مختصر ابن سمدان

كتاباً سماه « المختصر الفتحي » ألفه لأبي الفتح ابن كاتبه .

فان املى كتاباً مبتدئاً به فهو على مثال هذه الكتب من الايجاز — وعلى هذا

الف كتاب « الحقيير النافع » كتاب مختصر في خمس كراسات . ثم ألف كتاباً

يتصل به سباه « الطل الطاهري » كتبه لأبي طاهر المسلم بن علي من رجال الدولة وهو قريب في الحجم من الكتاب الأول وقد يخلط الكتابان كتاباً واحداً. لم يؤلف كتاباً موسماً ولا تعرض لهذه الكتب النحوية المطولة التي اتصل بها في بغداد إلا أن يكون كتاب سيبويه هم بشرحه فشرح قليلاً منه أو من شواهدة ثم انصرف عنه ولم يتممه .

وكان يميل هذه المختصرات ويهدبها إلى أصدقائه أو إلى أحد من رجال الدولة قضاء لحق أو جزاء على معروف أو برأ بصاحب كما ترى في تسمية كتبه « اسعاف الصديق » و « قاضي الحق » وكما نقرأ في اخباره ففي ترجمته في كثير من الكتب التي ترجمته — « قال الشيخ أبو العلاء لزم مسكني منذ سنة أو بعامة واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك فأملت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته فالزمني بذلك حقوقاً جمّة وأيادي بيضا لأنه افنى في زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمّنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » اه .

وقد كتب لولد هذا الشيخ كتابين في النحو « المختصر الفتحى » و « عون الجمل » قالوا وكان هذا الكتاب آخر ما أملاه الشيخ وما شغله من التأليف رحمه الله .

الخلاصة

طفنا مع أبي العلاء حينما اتصل بالنحو متمهماً أو معلماً قارئاً أو مملياً ورأينا أنه لم يلق عن أستاذ يحترمه ويقدره ويتأثر بتوجيهه إلا أن يكون أباه فقد وجهه إلى نحو الكوفيين وحببه في الرواية والسباع ثم أورثته المدرسة الشامية الميل إلى إعراب القرآن وإلى توجيه قراءاته .

أما في بغداد فقد نقر من المدارس النحوية البصرية وذاق بما فيها من قياس وتلميل وجدل .

ولما عاد إلى المرة اكتفى أن يعلم من النحو المختصرات أو يميل الجمل وأخذ يث في رسالته نقده لمذاهب البصريين وما فيها من تلميل وتكلف في التأويل. أما اجتراء أبي العلاء بالمختصرات والجمل فقد يكون مذهباً تعليمياً نافماً

وقد يصلح لمن شاء أن ينال من النحو حظاً ثم ينصرف إلى غيره مما قد يحتاج إلى النحو كالفقه والأدب . أما من شاء النحو على أنه فقه اللغة وكشف أسرارها وخصائصها وتعليل قوانينها ومجاريها فان ذلك لا يجديه شيئاً ولا يصله بشيء .

وأما نقد أبي العلاء للنحاة للمبالغة في التعليل والتكافؤ في التأويل فقد يكون له من ذلك ما يتقده على أنه نقد لم يكن دقيق المسلك ولا خفي المكان وكل ما ابتدعه المعري هو أسلوبه الشمري في هذا الانتقاد .

وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا العلاء كان عالماً بالنحو وأن أقرر كذلك — أنه لم يكن نحويًا ولا أراد أن يكون نحويًا وإنما كان ناقدًا لغويًا درس النحو فعابه وضاق به وانصرف عنه واكتفى من قواعده بما يمكنه من العمل الذي وافق هواه وسائر طبعه وهو — النقد — ونظرات في مثل (عبث الوليد) أو (ذكرى حبيب) تبين أنه انصرف إلى النقد ولم يعن بمسائل النحو ولا بتخريج النحاة .

من بعد أبي العلاء

لم يذهب مع الريح نقد أبي العلاء للنحاة وأسلوبه الشمري الذي اتبعه في النقد زاد من أثره فشاع وتندر الناس به .

ولو أنه كان نقداً أعنف من هذا وأعمق بحثاً ثم مضى في بطون الكتب النحوية لما بلغ هذا المدى من الذبوع ومن الأثر .

نرى عقب زمن أبي العلاء عرضاً ظاهراً في كتب النحو — وكتب الاثمة منهم — يبدؤون كتبهم بالدفاع عن النحو والذود دونه ذوداً عنيفاً يرى أنه درء لهجوم قوي مر .

فالامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ يبدأ دلائل الاعجاز — وهو كتاب يعده الجرجاني ونمده معه كتاباً في النحو — يبدأ هذا الكتاب بجدل قوي لمن زهد في النحو واحتقره واصغر أمره وتهاون فيه — وان صنيع هؤلاء أشبه بالصد عن كتاب الله وتعرف ممانيه ثم يفصل ما عابوه من النحو بما لا يعمد مما نهد به ابو العلاء — (وانظر تفصيل ذلك في اول الدلائل) .

والامام ابو القاسم محمد بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ يبدأ كتابه «المفصل» بمثل هذا الدفاع ويجعل الذين يغمصون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها لا يعدون عن الشوعية منابذة للحق الابليج وزينا عن سواء المنهج وذلك لأنهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية فقها وكلامها وتفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية لا يدفع ويرون الكلام في معظمها مبنيا على علم الاعراب

والزمخشري رحمه الله يتحكك بابي العلاء في مواضع اخرى في تفسيره للمرسلات عند آية « ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر » . جلب ذكر أبي العلاء لأدنى مناسبة — كما يقول النحاة — فذكر بيت المرعي :

حمراء ساطعة الذوائب بالضحي ترمي بكل شرارة كطراف

وجعل يعيب المرعي ويهزئه لسوء تشبيهه وهو ظاهر التجانف والميل . وتعودنا من الزمخشري رحمه الله ان يعرض لخصوم المعتزلة وليس ابو العلاء منهم ولكن الزمخشري كان رجلاً أديباً قرأ رسائل المرعي وفضن لوقفه من النحاة فحمله كرهه على التحرش به .

وهذه الخصومة النحوية قد جنت على ابي العلاء ايضا فان النحاة اهملوا شعره ونذر جداً ان تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر ابي تمام والمتنبي لما فيها من تصرف في اللغة وفي الاساليب النحوية وقد كان في شعر ابي العلاء من ذلك ما يفريهم بدرسه ولكنهم اعرضوا عنه .

وأظهر من هذا اعراضهم عن كتبه في النحو فلم يدرسوها ولا نقلوا عنها حتى لم يبق منها كتاب ولا أثر من نقل . وتلك خصومة جنت على المتخصصين ولم يجن العلم منها شيئاً .

ولقد أرى أن ابا العلاء فكر في النحو بالطبيعة التي فكر بها في كل امور الحياة يحس العيب — فيما يراه عيباً — فيعبر عنه ويندبه وربما التزم ان يتجنبه ويعصم نفسه منه ولكن رأيه في اليأس والقنوط يمنعه ان يثور الى شيء من الاصلاح .

واذا ما نهض النجو — واظنه ينهض — فانه سيشهد ان النجاح المتقدمين
والبصريه منهم خاصة قد ابلوا في كشف اسرار اللغة ووصلوا من فقهها الى قيم كثير
وان آثارهم قد طمت تحت ركام من الاعراض والفتور وان ابا العلاء كان شيئاً مما
فقر الناس عنها ...

* * *

وكتب بالاسكندرية في رمضان من سنة ١٣٦٣ و قدم الى المهرجان الأثني
المقام لأبي العلاء في سوربة وأملاه ابراهيم مصطفى
« مندوب جامعة فاروق الأول »



بعض ملاحظات

تعلق بجماعة أبي العلاء وآثاره

« تشرفت بدعوة المجمع العلمي العربي بدمشق اياي لحضور مهرجان الشاعر الحكيم العظيم أبي العلاء المرعي . وأنا أشكر لادمع العلمي الموقر دعوته باسمي وباسم أدياء فارس وعلماها ورجالها . وأعتذر لحضوري متأخراً فما كل ما يتعنى المرء يدركه .
لقد هيات بحثاً موحزاً كتبته بالفرنسية لألقيه إبان المهرجان فلم أتمكن من ذلك وقد طلبت إلى صديقي الدكتور أسد طلس أن يترجمه إلى العربية ففعل مشكوراً .
وسأرجع إلى طهران حاملاً ان بلادي أطيب التكريات لرجال سورية الأفاضل الذين غمروني بطفهم وبخاصة رجال المجمع العلمي العربي وأدياء دمشق » .

* * *

قال بعض شعراء فارس متذنباً بحظ الشعراء بعد موتهم :
« حينما يكون الشاعر حياً لا يقدر الناس شعره حق قدره، بل ان بعضهم ينقد لفظه كما ان آخرين يتهمون على آرائه .

ولكنه إذا مات أصبح قوله أغلى من الدر واثمن من الابرز .
فياحبذا تلك الحالة الحسنة التي يصبح فيها الموت افضل من الحياة » .
لاشك في ان هذا الشاعر يتألم من حال كثير من معاصريه الذين لا يقدرون قيمة شعره وعبقريته لما في نفوسهم من الحسد والفكر الضيق . كما لم يقدر كثير من الاقدمين عبقرية غيره من الشعراء والنوايع .

إن ابا العلاء هو واحد من هؤلاء الشعراء الذين لقوا من معاصريهم ما لقيه هذا الشاعر فانهم تهجموا على عبقريته وضيقوا عليه انفاسه في حياته ومنعوه أن يظهر بصورته الحقيقية . وذلك ان ابا العلاء ما كان يشبه قليلا او كثيراً من تقدمه من الشعراء إما باسلوبه الخاص او بافكاره الجريئة فكان طبيعياً ان ينظر الناس اليه نظرة قاسية ويتهموا عليه ويشتموه ويلعنوه ويكفروه لاشيء سوى انهم حاسدون او متعصبون رأى ذلك أبو العلاء من معاصريه فتعب منهم وتألم من مجتمعتهم

واحتقرهم فانزوي في « محبسه » يعيش عيشة نسك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة واسلوب مبهم كل ذلك بتعمد منه لئلا يطلع على مذهبه وافكاره من ليسوا لها اهلا .

اشتهر ابو العلاء شهرة واسعة في حياته على الرغم من ذلك الانزواء الشديد الشديد وهو بحق اهل لتلك الشهرة لان قدره لم يكن قط بحاجة الى مرور الازمان ليعرفه المسلمون في كافة نواحي الارض .

ان الذين قدروا ابا العلاء في حياته هم كثيرون كما ان العلماء الذين كانوا يفتخرون بالنسبة اليه والاستفادة منه كانوا لا يحصون ، اما الملوك والامراء الذين كانوا يحبون ان يتشرفوا به وزيارته فهم كثيرون أيضاً .

انا لا استطيع ان احدث طويلا عن ابي العلاء في هذا الجمع الحافل من علماء الشرق والمشرقيات لقلّة بضاعتي ولكني حثت التي بمض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء احد كبار مفكري الشرق واحد مفاخره . وانا آمل أن اكون في بحبي هذا قد امطت اللثام عن بعض الأمور المهمة في ادب ابي العلاء .

على الرغم من انزواء ابي العلاء في معرة النعمان فان صيته كان قد وصل الى اقصى حدود خراسان وما وراء النهر وذلك قبل نصف قرن من وفاته .

اذا استثنينا رحلة ابي العلاء القصيرة الى بغداد فانتالنا لنجده رحل الى بلد وراء بلاد الشرق الاسلامي ولكن هذا لم يمنع مواطني الفرس من ان يرحلوا الى بغداد من كل الجهات ليفيدوا من اقامته القصيرة في تلك المدينة . وكثير منهم من استسهل الصواب فقصده معرة النعمان ليقرا على الشيخ في داره .

وانه لمن الفخر ان يكون هؤلاء الفرس هم الذين نشروا آثاره وكتبه في بلاد الشرق الاسلامي في حياته وبعدها . وانه لمن الخير ان نلاحظ انهم كانوا اسبق من غيرهم في نشر ادب ابي العلاء .

ان من اول من تحدث عن المعري فيما اعرف من ادباء فارس هو ابو منصور الثعالبي في كتاب «تممة اليتيمة» الذي نشرته في طهران [انظر ج ٩/١] . والذي الفه بين عامي ٤٠٤ و ٤٠٧ للهجرة اي قبل موت ابي العلاء بربعين او خمس واربعين سنة . وقد خصص الثعالبي فصلا عن حياة الشيخ كما روى لنا بعض شعره واليك نص كلامه [كان حدثني ابو الحسن الداني المصيصي الشاعر وهو من ائقته

قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال لقيت بعمرة النعمان عجباً من العجب رأيت
اعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجدل والهزل
يكنى ابا العلاء سمته يقول انا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر فقد
صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثعلاء البغضاء قال وحضرته يوماً وهو يملي في
جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وإني الكتاب فأوجب الشكرا فضمته ولتمته عسرا
وفضضته وقرأته فاذا أجلى كتاب في الورى يقرا
فحاه دمعي من تحدره شوقاً اليك فلم يدع سطرأ
فتحفظها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الاخوان اهـ]

وقد أورد ياقوت نص الثعالي باختصار في معجم أدبائه [ج ١ / ١٧٢ - ١٧٣]
وقد أضاف على ذلك (قال أنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ما يريد القضاء بالانسان
غير أنني أقول قول محق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلته بحميل عواقب الاحسان .

وإذا قارنا عبارة ياقوت بعبارة تمة اليتيمة وجدنا أن هذه المقطوعة التي
أوردها ياقوت ليست لأبي العلاء وإنما هي للمحسن بن عمرو بن المعلى الذي
ترجمه الثعالي في التتمة بعد أبي العلاء مباشرة . والراوي لهذه المقطوعة على
قول الثعالي هو أبو يعلى البصري لا أبو الحسن الدلفي كما زعم ياقوت . وتفسير
هذا ان نسخة التتمة التي رآها ياقوت كانت مخرومة يتقصها بعض مقاطع
فاشبهه الأمر على ياقوت فخلط بين شعر أبي العلاء وشعر المحسن . فأنبه العلماء
على هذه الغلطة التي وقع فيها ياقوت وأرجوهم أن يصححوا ما قاله اثلاً يقعون
في الفخ الذي وقع فيه .

بعد الثعالي جاء ناصر خسرو الداعي الباطني والشاعر الفارسي المشهور الذي
زار معرة النعمان في ١٥ رجب سنة ٤٣٨ هـ أي قبل موت أبي العلاء بأحدى عشرة
سنة وقد حدثنا في رحلته « سفرنامه » بأخبار هامة عن شيخ المعرة وقد اعتمد
عليها كثير من المستشرقين والشرقيين في دراساتهم ولذا فاني لأحب أن أقف
طويلاً أمامها وأناقشها .

ونحن إذا رحنا نفقش عن العلماء الفرس الذين ترجوا لآبي العلاء وشرحوه ونشروا آثاره تقف أمام عالم كبير هو أبو زكريا بن الخطيب التبريزي (٤٢١ - ٥٠٢) الذي سار على قدميه من تبريز إلى المعرة ليلقي حكيهما ويفيد منه مع أنه لم يكن له من العمر أيامئذ إلا قريب من سبعة عشر عاماً ولكن القدر قد عاكسه فان مدة استفادته من الشيخ لم تطل أكثر من سنة أو سنتين على أقصى تقدير. وهذا يفسر حملة صاحب التنوير على كتاب ضوء السقط للتبريزي واليك نص كلامه عن هذا الكتاب [غير واف بالمقصود ولا دال على الغرض المطلوب لتقاصره عن بلوغ ما يجب من الإبانة والابضاح وقصوره على إشارات من مواضع معدودات لا تكشف الغطاء من مشكلة ولا تشفي ذاغلة، قد عني الشارح فيه بشرح الألفاظ وتفصيل ما غمض من اللغات غير أنه حرم توفيق الاتقان فيما نقله ولم يصب شاكلة الصواب فيما استتبتته وأصله، ولما لم يكن ضوءه كافلاً باضاءة المعنى ولا معترفاً على ما هو المقصود من إبانة الفحوى...] (طبع مصر سنة ١٣٢٤ ص ٥). وستتكم مفصلاً فيما صاحب التنوير.

وهناك مؤلف فارسي آخر تحدث عن أبي العلاء ونقل شيئاً كثيراً من مختار شعره وهو الباخري صاحب كتاب دمية القصر المؤلف في سنة ٤٦٤ أي بعد موت أبي العلاء بخمس عشرة سنة، فقد حدثنا الباخري بأخباره منقولة عن أبي عثمان الصابوني الذي زار شاعرنا في معرة النعمان.

بعد أن انتشر كتاب ضوء السقط في العالم الاسلامي أصبحنا نجد عدداً كثيراً من الشراح الفرس ولن أتحدث اليكم في هذه الفترة عن شروحيهم الكثيرة فان الوقت أضيق من ذلك ولكني أحب أن أقف وقفة طويلة أمام شارح واحد وهو صاحب التنوير الذي لا يزال إلى عهدنا هذا مجهولاً.

إن هذا الشرح القيم قد انتهى منه صاحبه في شهر محرم سنة ٥٤١ وقد نشر للمرة الأولى مطبوعاً على الحجر في تبريز سنة ١٢٧٦ ثم نشر في القاهرة مرات عديدة وقد ذكر صاحب معجم المطبوعات العربية ومفهرس دار الكتب المصرية أن صاحب هذا الشرح هو ابن طاهر النحوي أبو يعقوب يوسف

ولكنهم لا يرفوننا شيئاً عن أخبار أبي طاهر هذا ولا عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها في هذا القول .

إن قولهم انه [نحوي] هو تحريف ظاهر عن كلمة (خويي) لأن المؤلف كان من [خوي] وهي بلدة لا تزال موجودة الى ايامنا هذه في الشمال الغربي من بلاد آذربيجان في فارس وقد ذكر السمعاني في كتاب الانساب في نسبة [النحوي] ما يأتي : « من المنسويين الى خوي احدى بلاد آذربيجان صاحبنا ابو يعقوب يوسف ابن محمد - كذا وهو تحريف ظاهر لكلمة طاهر - ابن النحوي من اهل خوي سكن طوس وكان حسن السيرة فاضلا كتبت عنه اقطاعا من الشعر بنوقان وكان ينوب عن القاضي » [كتاب الانساب ورقة ٢١٢ ب] وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان [٢/٥٠١] في مادة خوي [مايأتي] : « يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن النحوي الاديب ابو يعقوب من اهل خوي اديب فاضل وفعيه بارع حسن السيرة رقيق الطبع مليح الشعر مستحسن النظم كتب لابي سعد الاجازة وقد كان سكن نوقان طوس ولي نيابة القضاء بها وحمدت سيرته في ذلك وله تصانيف من حملتها رسالة تنزيه القرآن الشريف عن وصمة الالحن والتحريف وقال ابو سعد وظني انه قتل في وقعة الغزوة بطوس سنة ٥٤٩ أو قبلها يسير » .

وإذا نحن قارنا عبارة ياقوت بعبارة السمعاني عن ابي يعقوب نجد ان ماورده ياقوت عن السمعاني إما ان يكون من نسخة كاملة من كتاب الانساب لم تصل الينا وإما ان يكون من كتاب آخر للسمعاني .

ومما يجدر قوله انه قد بقي لنا كتاب ثانٍ من آثار أبي يعقوب وهو مجموعة أمثال عربية عنوانها - فرائد الخرائد - ومن الكتاب نسخة في المكتبة الوطنية بباريس رقمها ٣٩٦٨ . وفي مقدمة هذا الكتاب نجد اسم المؤلف هكذا يوسف ابن طاهر النحوي . ويذكر الحاج خليفة هذا الكتاب فيقول : « فرائد الخرائد في الأمثال والحكم لابي يعقوب يوسف بن طاهر النحوي فرغ منه سنة ٥٣٢ ذكر في اوله ان ابا الفضل احمد بن محمد الميداني وانه استاذه ألف كتابا لكنه اطال فيه فذكر فيه ما اهل من الامثال وألفه على ترتيب الحروف وادرج فيه الايات السائرة والحكم » .

ويلاحظ المرء أن الحاج خليفة كان يعرف كتاب التنوير كما كان يعرف أبي يعقوب الخوي مؤلف الفرائد ولكنه لم ينسب كتاب التنوير إليه لأن اسم المؤلف لم يكن مذكوراً في صدر كتاب التنوير .

ولاشك في أن مؤلف كتاب التنوير هو نفس مؤلف كتاب الفرائد الذي ذكره الحاج خليفة. كما أنه لاشك في أن مؤلف التنوير هو نفس الرجل الذي ترجمه ياقوت والسهماني. قد لاحظنا أن ياقوتاً والسهماني لم يذكر كتاب التنوير في عداد مؤلفات أبي يعقوب الخوي ولكن نلاحظ في مقدمة التنوير أن مؤلف هذا الكتاب كان مضطرباً معلوماً بالدين والمقامد والطب فضلاً عن الآداب . وأنه كان يعيش في خراسان . وليس هناك ما يمنع أن يكون نائب القاضي في طوس وأنه ألف كتاباً دينياً اسمه تنزيه القرآن . [انظر: كلمان ٢٨٩/١ الذيل ٤٥٣/١ و ٥٠٧] .
وخلاصة ما سبق :

١ - أن مؤلف كتاب التنوير هو أبو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن حسن الخوي من خوي إحدى بلاد آذربيجان .

٢ - كان شاعراً ومحدثاً واديباً وفقهياً وكان مقيماً في طوس يشغل وظيفة نائب القاضي .

٣ - كان تلميذاً لأبي الفضل الميداني صاحب مجمع الأمثال وكان السهماني صاحب الانساب ممن أخذوا منه اجازة .

٤ - إنه ألف كتاب فرائد الخرائد ليرتب كتاب أستاذه ويتممه في سنة ٥٣٢ هـ ، وألف كتاب «تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف» .

٥ - إن كتاب تنوير سقط الزند قد تم تأليفه في خراسان في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ وإن المؤلف قتله الغز في أواخر سنة ٥٤٨ هـ أو أوائل سنة ٥٤٩ هـ بطوس وكان ذلك بعد استيلاء الغز على خراسان وأسرهم صاحبها السلطان سنجر . ومن أغرب الحوادث أن هناك شارحاً آخر لسقط الزند هو صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (٥٥٥-٦١٧) مؤلف ضرام السقط الذي أتم تأليفه سنة ٥٩٧ هـ أي بعد تأليف التنوير بست وأربعين سنة ، قتله التتار في سنة ٦١٧ في خوارزم .

وقد أشار صدر الأفاضل في ضرام السقط [المطبوع بتبريز سنة ١٢٧٦
على هامش كتاب التنوير] إلى شرح السقط قبله وهم ابن الخطيب التبريزي
صاحب التنوير . وهو قد حمل حملة على صاحب التنوير . كما حمل على صاحب
شرح آخر هو الايضاح لمؤلف لا نعرفه .

أيها السادة الأفاضل

أختم كلتي بالاعتذار اليكم لأنني لم اجتكم بشيء ذي قيمة في بحثي هذا .
فقد كنت أحب أن أتحدث اليكم عن الخيام وعلاقة أدبه بالمعري لأنها يشابهان
في مواضع كثيرة ولكن ضيق الوقت وقلة البضاعة مناني من ذلك فأعذر
اليكم ثانية والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس اقبال



مخطوطات أبي العلاء المهرى

في مكتبة جامعة برنستون

تمتاز مكتبة جامعة برنستون بمخزانه كتبها العربية التي شرع في تأسيسها عام ١٩٠٠ المستر غريت من تلامذة الجامعة سابقاً وأمنائها حالياً . فالخزانة تستوعب اليوم ما نيف على عشرة آلاف مخطوط عربي مما يخولها حقّ تبوء المقام الأول بين خزائن جامعات العالم . على أن مكاتها ليست بكثرة مخطوطاتها فحسب بل بمدد الأُمّات والنواتر منها .

فن هذه التفاس « كتاب الصناعة الطيبة لحنين بن اسحق العبّادي . نسخته عثمان بن علي بن محمد السمرقندي عام ٥٧٢/١١٧٦ - ٧٧ . وهو ترجمة كتب جالينوس النابية ويحوي موادّ لا وجود لها في مخطوطات جالينوس اليونانية واللاتينية . وفضلاً عن ذلك فالمخطوطة العربية أقدم من كل المخطوطات اليونانية واللاتينية الباقية اليوم . ومنها « الكتاب الملكي » لعلي بن العباس الهجوسي نقله ركّات بن ثابت عام ٥٨٦/١١٩٠ . وهو النسخة الوحيدة الكاملة في هذا الكتاب على ما نعلم باستثناء نسخة في حوزة الدكتور سامي حداد في بيروت . ومن طريف أمر هذا الكتاب أنه التّأليف العلمي الرّيادي الوحيد الذي حفل الصليبيون بنقله إلى اللاتينية وذلك في أنطاكية عام ١١٢٧ . ومنها « الموجز في الطب » لابن النفيس الدمشقي المتوفى عام ١٢٨٨ وهو بخط مسعود ابن محمد القزويني نسخته عام ٧٩٥/١٣٩٣ وابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس البرتغالي المنسوب هذا الاكتشاف له بمائتين وثلاثين سنة . ومنها « المدخل إلى صناعة الموسيقى » للفارابي نسخته أحمد بن محمد ... عام ٨٦٦/١٤٦١ وهو مزدان بالرسوم والرّموز الموسيقية التي لا يستطيع أحد اليوم قراءتها .

وبين مخطوطات هذه المجموعة تآليفات وتعليقات يد عدد من اعلام التاريخ

الاسلامي في التأليف والخط بينهم ياقوت الحموي الجغرافي وابن الاثير المؤرخ وابن النفيس المتطبب وابن عربي الفيلسوف المتصوف والفيرو زابادي اللغوي وابن حجر المسقلاني الفقيه .

ولما تكرم الاستاذ رئيس المجمع العلمي العربي وطلب اليّ إعداد كلة لمهرجان أبي الملاء راجعت الفهرس الذي كتنا نشرناه بالطبع عام ١٩٣٨ لمجموعة (غريت) العربية التي كانت يومئذٍ في حوزة مكتبة جامعة برنستون فوجدت فيه ذكر ثلاث مخطوطات تحمل اسم المرعي فرأيت أن اصفها واتحف المجمع بمصور بمض صفحاتها . ولا بد من ان نذكر في هذا المقام ان الجامعة اقتنت بمد طبع هذا الفهرس بمجموعة ثانية من المخطوطات العربية تبلغ نحواً من ستة آلاف لم يتيسر لنا الآن درسها ووضع فهارسها لذلك لا ندرى ما إذا كان فيها نسخ غير هذه من مؤلفات أبي الملاء .

إن أحدث مخطوطات المرعي في جامعة برنستون هي « الرسالة الاغريضية » (رقمها ٢١٩١ في فهرس مجموعة غريت المطبوع . والاغريض زهر النخل وكل أبيض طري) . نسخها عام ١٢٧٥/١٨٥٨ في المدينة محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي وضمها مع غيرها من الرسائل في مجلد واحد كلها منقولة من مجموعة وجدها في خزنة شيخ الاسلام بالمدينة . وهي رسالة في اللغة والشعر والمنطق نشرها (مرغليوث) مع رسائل غيرها لأبي الملاء في اوكسفورد عام ١٨٩٨ ولا نعرف لها أختاً سوى مخطوطة في خزنة الاسكوريال بمدريد (وصفها درينبورغ في فهرس هذه الخزانة تحت رقم ٤٧٠ - ٢) . ومخطوطتنا تقع في ٤ ورقات طول كل ورقة منها ٢٧٠٦ سنتيمتراً . وغرضها ١٨٠٥ سنتيمتراً . وطول المكتوب من الصفحة ٢٢ وعرضه ١١٨ . وعدد السطور في الصفحة يختلف بين ٢٩ و ٣١ . ورقها أوربي صقيل وحبرها أسود باستثناء العنوان وعلامات الوقف فانها بحد أحمر .

جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

رسالة أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المرعي وتسمى الاغريضية كتبها جواباً عن الرسالة التي كتبها الوزير ابو القاسم هبة الله المغربي . والمغربي هذا توفي سنة ٤١٨/١٠٢٧ على ما ترجم له ابن خلكان .

وفي نهايتها :

وكان تمامها في يوم الاثنين المبارك الموافق خمسة وعشرون [كذا] خلون من محرم الحرام من شهور افتتاح سنة الف ومائتين [و] خمسة وسبعون [كذا] على يد ناقلها لنفسه أضعف الوري محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي نزيل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأذكى السلام .

وعلى هامش المخطوطة بعض التصحيحات . وهي في حال حسنة . غلافها من الطراز الشرقي الأزرق له ردة وعليه طوابع حمراء . والمخطوطة مشتتة من بريل الكتبي المعروف في هولانده . عام ١٩٠٠ . وكان بريل اشتراها مع غيرها من السيد امين بن حسن الحلواني المدني الحنفي عام ١٨٨٣ لمناسبة افتتاح المرض الاستعماري في امستردام . وبريل استشار المستشرق الاسوجي لاندبرغ في امر مجموعة الحلواني لدى اقتنائها .

أما اقدم نسخة من مخطوطات المرعي في مجموعة برنستون فهي من « لزوم ما لا يلزم » ام مجموعة شعرية لأبي العلاء (رقمها ٢٨ في فهرس مجموعة غربيت المطبوع) نقلها حسين بن احمد بن حسين الجزري بتاريخ ١٠١٣/١٦٠٥ . عدد اوراقها ٢٠٠ الواحدة منها ٥ ، ٢٠ × ١٤ سنتيمتراً والمكتوب منها ٥ ، ١٧ × ٧ ، ٢ . وتشتمل كل صفحة على ٣١ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوروبي صقيل . جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله وعلى الأئمة الابرار من عترته قال ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المرعي رهن الحسين [البيت والعمى] تجاوز الله عنه .

وفي نهايتها :

وكان الفراغ منه يوم الجمعة المبارك في اواخر شهر شعبان من شهور سنة ثلث عشر بعد الالف على يد افقر الوري الى رحمة الله تعالى حسين بن احمد بن حسين الجزري غفر الله له ولوالده ولجميع المسلمين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله وحده .

وفي حواشيتها تمايلق وتقييدات من مقتنيها ومطالعيها . وهي في حالة حسنة

وجيدة التجليد . وعلى دفتي غلافها مطبوع مداليتان مذهبتان . ولغلافها ردة مطبوع عليها أيضاً مدالية مذهبة . والمخطوطة مشتاة من خزانة مراد البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

وهناك مخطوطة نالئة للمعري في برنستون وهي « سقط الزند » (رقمها ٢٩ في فهرس مجموعة (غريت) المطبوع . وهي أول مجموعة اشعار نظمها (المعري) نسخها عام ١٠٥٣/١٦٤٣ علي الراشدي سبط المعروفي . عدد اوراقها ٧٨ الواحدة منها ١٩٠٥ × ١٣٠٥ سنتيمتراً والمكتوب منها ١٢٠٥ × ٦٠٥ . وعلى كل صفحة ١٩ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوربي صقيل بمجر أسود فيما سوى العناوين وعلامات الوقف فبحر أحمر أو أزرق . والمخطوطة مخرومة من اولها والصفحة الاولي منقولة ثانية بخط ناسخ متأخر . جاء في مستهها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين اما بعد . . . وفي نهايتها: تم الديوان المعروف بسقط الزند من شعر أبي العلاء احمد بن عبد الله المعري على يد الفقير الحقير علي الراشدي سبط المعروفي وكان الفراغ من تليقه يوم الاثنين لخامس عشر شوال من شهر سنة ثلاثاً [كذا] وخمسين والالف احسن الله تعالى ختامها آمين يارب العالمين .

ويتلو ذلك حاشية مؤداها ان النسخة هذه منقولة من نسخة بخط القاضي عبد اللطيف بن القاضي محب الدين في معرة النيمان .

وعلى هامش المخطوطة عناوين ضمن دوائر حمراء وكثير من التعليقات والاضافات والشروح . ولقد عبث المثلث بمدد من صفحاتها . وغلافها من الطراز الشرقي مطبوع على دفتيه مداليتان والمخطوطة مشتاة من البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

جامعة برنستون ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ فيليب صبي

«الناس تخطب في عراك وتندس»

لمضي ألفٍ من سنينك أحمدُ
ذي (مهرجانات) تقام بجلاقٍ
الوفد ولو الوفد جاء مشاركاً
جاؤك من شرق البلاد وغيرها
يحيون ذكرك بعد موتك أعصراً
شيخ المرة والحوادث جمّة

* * *

يا صاحب العلم العزيز ومن رأى
والخلق لا يفنون بعد مماتهم
يا من عجمت من البرية عودها
ووصفت فلسفة الحياة بصورة
هل أنت تسمع منشديك قريضهم
أترى عرفت بأن شمرك لم يمت
في كل بيت من بيوتك حكمة
شعريه — السامعين نشيده
جلت معانيه وأفصح لفظه

* * *

مات الملوك ولم تمس أخبارهم
روي حديثك مؤمن ومنافق
شعراً وفلسفةً وزهداً صادقاً
لله من صيتٍ بعيدٍ نلته

وقديم ذكرك في الوجود مخلد
ومحايرون ومغرضون وحسد
في كلها عجب لمن يتفقد
أعلى مكاتته الحججي والسؤدد

— ٣٨٦ —

شيدت مجداً لم تشده أئمة
وبلغت من كرم الطباع مكانة
ودّ الملوك لو أنّ فضلك فضلهم
خطبوا اليك ودادهم ووصالهم
وغدوت عنهم راغباً مترفعاً
وسلكت في دنياك غير سلوكهم
ورغبت عن أكل الاحوم زهادة
وحبست نفسك لا ترود ديارهم
يأتون ناديك الندي ليأخذوا
فيارحونك قاصدين ديارهم

* * *

حسدتك أقوام وأب فتية
وسمي خلفك جاهل ومناوي
الناس فيك مؤالف ومخالف
وكذا العظيم بموته وحياته
شاهدت شر الناس في أفعالهم
تقدماً تنزه عن غلو أو هوى
وسخرت من فتك الطغاة وبطشهم
هذي لعمرك جراءة نبوية

* * *

أبا العلاء وما عليك غضاضة
لترى بعينك كيف يقتتل الورى
فيها النساء مع الرجال تجندت
ساروا إلى الهيجاء صفأ واحداً
يصلون نار الحرب لا يخشونها
لا درع داود تقيهم من ردى

ان عدت للدينا فمودك أحمد
وجيوشهم للموت كيف تمشّد
وعلى النضال تدربوا وتعودوا
ما منهم إلا الكمي الاصيد
والحرب تحترم الجسوم وتحصد
كلاً ولا درع كوصفك تسعد

ناهيك من حقدٍ لهم وتطاحنٍ
 في كل نانيةٍ وكل دقيقةٍ
 في الأرض حربهم وحرب في السما
 ركبوا القلاع الطائرات كأنها ال
 يرمون بمضهم لبعضٍ من علٍ
 دُكت بها للأبرياء منازل
 وُنُهاك (قنبلة) تطير بنفسها
 لا تستطيع الطائرات لحاقها
 تهوي فتفجر انفجاراً هائلاً
 قتل الرضيع بها ومات أمه
 كم نائمٍ في بيته مع أهله
 وجرت كصخر السيل دباباتهم
 أما بوارجهم فهن حوارس

* * *

قالوا نحارب حرب سلمٍ دائمٍ
 وعدالةٍ بين الشعوب جميعها
 كلُّ يبرر بالدعاية دينه
 أبا العلاء فذي حكاية حلهم
 نم في ثراك ورح فؤادك من عنى

طالظم الرميبي
 قنصل العراق في تبريز

تبريز ٢١ آب سنة ١٩٤٤



المعري والموسيقى

قد يستغرب هذا العنوان وحق للسامع ان يستغرب فابو العلاء شاعر وابو العلاء فيلسوف حكيم وابو العلاء زاهد وابو العلاء لغوي ونحوي وصرفي .
ولكن ما حيلتي وانا امروء ولع بالموسيقى وايقن ان الطبيعة البشرية لاغنى لها عنها الا اذا كانت شوهاء او بتراء وابو العلاء ذو طبيعة رقيقة في الطباع وذو قاب كريم بين القلوب فاذا كان قد اخذ نفسه بالامتناع عن طيبات الحياة فانه لم يفعل ذلك لنقص في شعوره بما امتنع عنه ولا لخلل في جسمه يباعده بينه وبين تفهم تلك الطيبات وانما امتنع عنها وهو بها شاعر واي شاعر ولها مدرك واي مدرك . وما اعتقد ان ابا نواس ذكر الحجر ووصفها باكثر من ذكر ووصف أبي العلاء لها وان اختلفت بينها الغاية واساليب العرض وما ارى صريح الغواني وعمربن ابي ربيعة ألما بغوامض غرائز النساء واخلاقهن كما ألم أبو العلاء بها وتحليلها وان اختلفت بينهم الاساليب والغايات . فابو العلاء كان عالما بما اتى من زهد وكان عالما جدا بما ترك من طيبات حتى نرى ان شعره ونثره قد فاضا بتحليل ما ترك ولم يلبأ الا قليلا بتحليل ما آثر لنفسه من طرائق العيش فلم يصف ولم يحلل اثر المطعم الجشب واللباس الحسن والعزلة القاسية في نفسه بمثل ما حلل اثر الحجر والمرأة والمال والمجد .
فهذا بعض ما جماني البحث عن الموسيقى في حياة هذا الانسان العظيم وشيء آخر هو ادعى لان البحث عن اثر الموسيقى في نفس المعري خاصة وهو انه رحمه الله كان بصيرا انقطعت بينه وبين الدنيا الاسباب الاسبب من اذنه ولمسه فكان بالحري ان تراعي هذه الاذن الموهبة كل نائمة من حوله وكل هيعة . وهو لم ينقطع عن خوض ما كان يخوض فيه جميع الناس من مجتمعات عامة وخاصة الا بعد ان شارف الاربعين من عمره فهو اذن قبل ذلك قد استمع الى الموسيقى ساعيا لسماعها او غير ساع سمعها في الافراح وسمعها في المآدب العامة وسمعها على افواه الحدادة في القوافل التي كانت تحمله بين الشام والعراق وسمعها من صديق يدمدم او جار يترنم على الاقل .

ولم يمهي المعري ان اسأل عن موسيقاه الرسوم والاطلال فهو قد أثبت تذوقه لها وتحليله لآثارها واطلاعه على ضروبها والحنانها في شتى اشعاره ومؤلفاته .

اما اطلاعه على ضروب والحنان موسيقى عصره فقد انبأنا به كتاب الفصول والتمايات بتفصيل لانجده عند مؤلفي ذلك العصر حتى المغنين منهم والملحنين فقد جاء في الصحيفة الثامنة بعد الثمانين من ذلك المؤلف بعد ذكر شيء عما ينطق به العود من طرائق الفناء مايلي :

« والطرائق الثماني . الثقيل الاول وابقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن (مف) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة وهي نقرات تقال وانت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف اوسطها الساكن والسبب حرفان فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب مثل قولك سخر بجردهر فعلى هذا يجري الثقيل الاول . وخفيف الثقيل الاول وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا كقولك مفعولن بلا فصل والثقل الثاني وقد اختلفوا في ابقاعه فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات نقرتان متساويتان ممسكتان وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاختلاف محووثات ولا تقال ممسكات على مثال مفعو مفعو ومنهم من يوقعه اربع نقرات ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال مفعولاتن .

وخفيف الثقيل الثاني وحقيقته اسرع حثامنه وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو الخفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان .

والرمل هو نقرة ثقيلة واثنتان محووثان (لان مفعو) ومثله في الكلام (مل)

وصلي صد عني

وخفيف الرمل . وخفيف الرمل جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع فالما الرمل فلم يجيء خفيفه على عدد نقراته وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال فعلان فعلان

والهزج . وهو على نقرة نقرة . واحدة ثقيلة وأخرى خفيفة على وزن (قال لي) .
وخفيف الهزج . وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثاً منه
ولسنا نعلم ما كانت تضم في هذا الباب المؤلفات الكثيرة التي فقدت لأبي العلاء
على أن فيما انتقل لا يدينا بمض الغنية عن افتقاد ماضع فشمعه وثره يؤكدان لنا
أن المعري لم يكتف بان يلم بطرق الالحان وضروبها بل هو يتذوقها ويحلل آثارها
في نفوس السامعين . استمع له في لزومياته وهو يعنى التكبر على الانسان فيقول:
ماكبره وتقبل اللحن ينعمه من سرعة الفهم ترسيل وتمديد
فالمعري لا يكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرمل
والهزج وغيرها بل أنه ليعرف طبائع هذه الضروب معرفة من تخطلت هذه الالحان
سعه الى قلبه وشعوره . فهو قد وعى طبيعة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا
اللحن أن لا يكون سريعاً الى الفهم اطول الترسل والتمديد فيه .
ولا ابالغ إذا قلت لكم إن واحداً من المئة من المغنين حتى الحذاق منهم لا
يعرفون تأثير صفات الغناء — التي منها الاسترسال . والتمديد . ولا باس من أن
بذكر الان بعض صفات الغناء لتروا من ذلك ان أبا العلاء كان في هذا الفن من
العلماء فنها الاجتهاد . والاستهلال . والاسترسال . والمناضلة . والحائلة . والتفريد
والتفخيم . والترخيم . والمراسلة . والمطاولة . والترجيع . والتفريع . والتقدير .
والتوطئة . والاتفاق . وتقدير الانفاس . والاضعاف والتذلل . والتدلل . والاتصال
والتحرش . ولا بداع الى غير ذلك مما لا يعرفه الا الراسخون في هذا الفن والمعري
لا يكتفي بذلك أيضاً بل انه يطالعك على خبرته بعلاقات الالحان بعضها ببعض وبانه
خبير بقواعد الانتقال من لحن الى لحن حتى يأتي على آخرها في رسالة الغفران
يقول على لسان ابن القارح لاحدى قبان الجنة (اعلمي قول ابي امامة) .
أمن آل مية رأنح او مقتد عجلان ذا زاد وغير مزود
تقيلاً أول (فتصنعه فتجنيء به مطرباً وفي اعضاء السامع متسرباً ولو نحت صنم
من اجـار ثم سمع ذلك الصوت — لرقص فيقول (هلم خفيف الثقيل الاول)
فتبعت فيه بنغم لوسمه الغريص لاقران ماترتم به مريض فاذا اجادته قال (عليك بالثقيل
الثاني) فتأتي به فاذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب

فصيري الى خفيف الثقيل الثاني فانك لمجيدة محسنة ثم يقترح عليها امل وخفيفه وأخاه المزج فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة هليل وكبر واطال حمدربه واعتبر ا. ه. فمن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً باصول الخروج من لحن الى لحن اذ ان بين الانغام توافقاً وتنافراً وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغات بل أن هناك نغات لا تأتلف مع غيرها البتة ونرى الجبلاء اليوم لفن الموسيقى يقترحون على مغن اغنية من مقام (السيكاه) بينما يكون المغني آخذاً بالنشاد اغنية من الحجاز كار مثلاً في مثل هذا الحال لا يعلم الا الله مقدار ما يصيب المغني من التأثير التنافري الواقع بين النغمتين وهذا ما لم يغفل عنه أبو العلاء كما ظهر لنا في الخبر السابق وقد جاء في رسائل اخوان الصفا ان الخروج من لحن الى لحن والانتقال منه ليس له طريق الا على احد الوجهين اما أن ينقطع ويسكت ويصلح اللساتين والاورار بالحذق والارخاء ويبدأ ويستأنف لحناً آخر ويترك الامر لحاله ويخرج من ذلك اللحن الى لحن قريب منه مشاكلاً له - وهو ان يتقل من الثقيل الى خفيفه او من الخفيف الى ثقيله او الى ما قارب منه .

اما تحليله لآثر الموسيقى في النفس فظاهر في شعره ونثره على صورة تدعونا الى ان نقف عند هذا التحليل متأينين غير مستعجلين فابو العلاء في لزومياته وفي فصوله وغاياته وفي غير ذلك من مؤلفاته يدعو الى اجتناب اللهو والتمتع بمفاتيح الحياة واجتناب كل ما يمين على ذلك وفي جملتها الموسيقى فهو اذن - يدعو الى اجتنابها لانها كالخمر والنساء من افتن مفاتيح الحياة ولان لها سحراً لا يتمتع منه اصعب القلوب ولا اشد الاعصاب ولأنها لاغلاء الحياة آمالاً واحلاماً وهو لا يرى بحكم زهده وتشاؤمه أن يسمح للحياة ان تلعب بنا بهذه الامال والاحلام التي تزينها لنا بالموسيقى أو بالخمير أو بالنساء او بها جميعاً .

ولكن الموسيقى لذة منزهة لا تخاب اللب كما تفعل الخمر ولا تلثم الشرف او تنقص العيش كما يحتمل أن تفعل النساء وانما هي لذة منزهة كما قلت تسمو بالروح ولا تهيج الجسد الا اذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر او بقرب الكواعب الغر .
فالمعري من ذلك بين نارين النار الاولى هي أنه ليؤثر الموسيقى لو كان يمكن ان تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي يلجأ اليها الناس وهو لا يتعمت في كبت اغنجابه بها بل يقول مثلاً :

وهواك عندي كالفناء فانه حسن لدي ثقيله وخفيفه
 ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الالخان فيقول :
 وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل مهال
 أتزهر أغضاً فهاجت بزهر مشانيه احشاء لطمن واوصال
 فهذا كلام من افسح لحسه ولشعوره المجال الى مداة في لحظة من تلك اللحظات
 التي كان يتناسى فيها أخذه بالزهد كل خشن من قول او عمل .
 والنار الثانية هي التي اکتوى بها المعري رضاه واراد ان يكوي بها جميع
 العالمين وهي الاحتشاد بكل قوى الارادة لخلق الفراز وكبت المشاعر واجتباب
 اللذائذ والابتعاد عن كل ما يغري بالاستسلام لمفاتيح الحياة :
 والموسيقى أجلّ خطراً من أن نهمل شأنها في هذا الباب فهي مفتاح لكثير من
 الاخيلة والذائذ — والشهوات

طربت لقمريتي مربع على غصني ضالة غنتا
 بدت لهما زهرات الربيع فاحسنتا القول واقتنتا
 وتمذر نفسك عن الحنين وتمذل عنك أن حنتا
 فهوذن على تذوقه لها وفهمه لرفعة شأنها مضطرا الى أن لا يجعها تكأة الى غيرها
 من اللذائذ الجسدية الدموية ولا مغربا يحرك الفراز ويدوق الاماني والاحلام .
 ولهذا فهو اذا ذكر لك الموسيقى في أي موضع من شعره ونثره فانه لا يهمل
 مطلقاً ان يذكر الى — جنب ذلك بانها ضرب من النذب والنواح أو باعث على
 النذب والنواح فهو ما يفتاء يردد :

وشبيه صوت النعمي اذا قيد — س بصوت البشير في كل ناد
 ابكت تلکم الحمامة أم غنة — ت على فرع غصنها المياد
 ويقول :

ردي كلامك ما امليت مستمعا وهل يمل من الانفاس ترديد
 هاجت بكاي اغاني القيان بها كأنها من ذوات الشكل تعديد
 ويقول :

تسمى رشيداً من لؤي بن غالب امير وهل في العالمين رشيد
 فان أغاني الليالي نياحة ومنها بسيط مقتضى ونشيد

وقوله :

تحالفت الغرائز والمعاني فكيف توافق المتجسّدات
 فما بين المقابر ناديات وما بين الشروب مفردات
 او هو على الاقل يذكرك في تلك اللحظة التي تنعم فيها بالموسيقى ان الاحداث
 والفواجع ملء برديك فلا تذهب مع تنعمك الى مداه
 هي النفس عذّأها من الدهر فاجع برزء وغذّأها لتطرب ساجع
 فنفسك يا بن آدم لا تزيد على انها العوبة بيد الحياة ماتفتنها السواجع الا لتنعيبها
 الفواجع رحمك الله أبا العلاء فلقد انشأك الله عقلاً جباراً لا ينع الا بان يحيط بجميع
 ما حوله وشعوراً عميقاً زاخراً يتقد كالكوكب الخالد ولا يسطع كالهشيم المحترق
 رحمة سابغة وسعت العالمين والسلام

فخرى البارودي

الفهرس

	الصفحة
المقدمة الأستاذ خليل مردم بك .	٥
الجزء الأول في دمشق	
كلمة نخامة رئيس الجمهورية	٩
كلمة وزير المعارف	١٢
كلمة رئيس المجمع العلمي العربي	١٤
الفصول والفتايات للدكتور طه حسين . .	١٧
الفياسوف الحر (قصيدة) للأستاذ محمد مهدي الجواهري	١٩
أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف ؟ = أحمد الشايب . .	٢٦
الجزء الثاني في دمشق	
سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ أحمد أمين . .	٤٦
التفاؤل والأثرية في كلام الشيخ محمد اسعاف النشاشيبي =	٤٨
أبو العلاء (قصيدة) محمد البزم	٦٥
المعري في نظر المستشرقين الفريد غليوم	١٠٥
المعري وآراؤه في الإصلاح الاجتماعي عارف النكدي	١١٧
الجزء الثالث في صرة النعمان على ضريح أبي العلاء	
شاعر البشر (قصيدة) للأستاذ معروف الرصافي	١٢٤
علي قبر أبي العلاء للدكتور مهدي البصير	١٣٥

الحفلة الرابعة في حلب		١٤٤
أبو العلاء شاعر انساني	للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني	١٤٦
سر الخلود في شعر أبي العلاء	طه الراوي	١٦٤
الفيلسوف (قصيدة)	عمر أبو ريشة	١٧٥
الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء	سامي الكيالي	١٧٩
الحفلة الخامسة في المازنية		١٩٠
ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء	للاستاذ عبد الحميد العبادي	١٩٣
فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء	للدكتور جميل صليبا	٢٠٢
الدهر ملك العبقرية (قصيدة)	للاستاذ بدوي الجبل	٢١٣
أسلوب المعري ومناهجه	محمد الشريقي	٢١٧
الروح الملائية وأثرها في أدبنا الحديث	أنيس المقدسي	٢٣١
الحفلة السادسة في دمشق		٢٠٧
نزوم مالا يوزم، تنظم وكيف نظم ورتب	للدكتور عبد الوهاب عزام	٢٥٢
شيخ المعرة والشيخ الذرا	للاستاذ عبد القادر المغربي	٢٧٠
دين أبي العلاء	محمد سليم الجندي	٢٨٠
اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء	هنري لاوست	٢٩٣
ذكرى أبي العلاء (قصيدة)	شفيق جبري	٣٠١

تتمية

(الكلمات التي وردت وتأسرت وألحقت بالحفلة السادسة)

من ضحايا العقل	للاستاذ فؤاد افرام البستاني	٣٠٦
من هو أبو العلاء المعري	أديب وهبة	٣٢٢
المعري والمرأة	للآنسة جهان الموصلي	٣٢٩
أبو العلاء وأقطاب الفكر المحدثون	للاستاذ عارف العارف	٣٣٣
كلمة الاذاعة الفلسطينية	عزمي النشاشيبي	٣٣٨

MILLENARY FESTIVAL
OF
ABŪ AL-‘ALĀ’ AL-MA‘ARRĪ

DAR SADER *PUBLISHERS*
P.O.Box 10
BEIRUT